

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE DES ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

القاهرة ١٩٦٧

المجلد الثالث عشر

المحتويات

صفحة

كلمة تأبين في ذكرى وفاة المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيبال ... ٣
للدكتور حسنى حبشى

بحوث :

- ١ — لقاء المحاضرات : ١٧
دكتور نور الدين حاطوم
- ٢ — غانة في المصور الوسطى : ٣٥
دكتور إبراهيم طرخان
- ٣ — بهو السباع بقصر الحمراء بقرنطة : ٩١
دكتور جمال محرز
- ٤ — المعالم الرئيسية في الهجرة العربية إلى السودان : ١٠٣
دكتور يوسف فضل حسن
- ٥ — دولة البرين والبحرين : ١٢٩
دكتور نظير حسان سعداوى
- ٦ — مشاهير مؤرخى سيرة رسول الله : ١٦٩
دكتور إبراهيم أحمد المدوى
- ٧ — الملابس في العراق خلال المصور المباسية : ١٨٥
دكتورة مليحة عبد الرحمن
- ٨ — دور العراق العثماني في حرب القرم : ٢٢٣
دكتور عبد العزيز سليمان نوار
- ٩ — أزمة العقبة المروقة بمحادثة طاباة ١٩٠٦ : ٢٤٧
دكتور يونان لبيب رزق

صفحة

٣٠٧

١٠ — موقف مصر في الحرب الطرابلسية ١٩١١ — ١٩١٤ :

دكتور جمال زكريا قاسم

ندوات ومؤتمرات :

٣٤٥

ندوة إعادة كتابة التاريخ القومي :

إعداد : دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

تقد الكتب :

٣٧٣

١ — مخطوطات البحر الميت : الأستاذ محمود العابدی

٣٧٨

٢ — إنجلترا وأوروبا وأعلى النيل ١٨٨٢ — ١٨٩٢ : لساندرسون

٣٨١

٣ — آخر سلاطين دارفور ١٨٩٨ — ١٩١٦ لتيوبالد

٣٨٥

٤ — إمبراطورية عن طريق المعاهدات : بريطانيا والشرق الأوسط في

٣٨٥

القرن العشرين : لميرموز والملاقات العربية الإسرائيلية :

لايرل بدر

٣٩١

٥ — السكتالوج الوصفي للمخطوطات العربية في نيجيريا . لمايدة عارف

وأحمد أبو حاكمة

٣٩٣

٦ — تاريخ شرق جزيرة العرب ١٧٥٠ — ١٨٠٠ ظهور وتطور

البحرين والكويت : لأحمد أبو حاكمة

الرسائل الجامعية :

٣٩٩

أولاً — رسائل الماجستير التي أجزت بالجامعات المصرية منذ نشأتها

حتى الآن

٤١٧

ثانياً — رسائل الدكتوراه التي أجزت بالجامعات المصرية منذ نشأتها

حتى الآن

البحوث

لقاء الحضارات

دكتور نور الدين هاطوم

ذات يوم في عتيق الزمان صحا الجو نفاق الإنسان جماعات قليلة حذاء تدب على أديم الأرض كالقطمان . منتقلة من مكان لمكان ، ساعة وراء رزقها مما يقع تحت يدها من طير أو حيوان أو ثمار أو أعشاب .

في هذه البيئة الطبيعية الأولى ، كان الإنسان ، كالحیوان المفترس ، يجذب الغابات معتمداً على قواه . وكان أملة الوحيد ، وبما أوتى من ذكاء ، أن يسود الأرض ، ويلتمس وسيلة تحقق له الظفر على سائر الحیوان . ولعل أول سلاح تزود به ، ليدافع عن نفسه ، أو ليهاجم به غيره . كان حجراً خشناً ، أو هراوة ، أو عصا . وما كان ليشغل فكره بهم من هموم الدنيا سوى أن يشبع غرائزه ، فيصطاد إذا جاع ، ويستجم إذا تعب ، ويقم حيث يطيب له المقام في كهف ، أو تحت شجرة ، أو أى مأوى يراه أمامه .

وكان عليه أن يتفاهم مع قرينته الطبيعية أو أقربائه من الرجال ، فلجأ إلى الإشارات والحركات والرموز وتقليد أصوات الطبيعة ، ونطق نخرج من حياة الحیوان إلى حياة الإنسان . ثم بدأ يظهر صفاته ومواهبه في البحث عن الأمن والاستقرار بعد الخوف والترحال .

وإنا لنجهل الزمن الذى استطاع فيه الإنسان زراعة الأرض واستنباطها . فقد ظلت هذه البداية سراً من أسرار التاريخ . ومن يدري أن المرأة أول من لجأ إلى الاستقرار من بنى الإنسان لما بها من رقة الطباع ، وضعف الجسم ، فألقت بمصا التیار ، تحت ضرورات الحمل ، بينما كان الرجل يشغل وقته بالصید وجمع القوت ؟ ! ومن يدري بعد أن الزراعة كانت أول اختراع حضارى حققته المرأة عندما تشبثت بالأرض لتخفيف آلام المخاطرة فنبشت بأناملها التراب ، ونبت البذر نباتاً حسناً . وأصبح الإنسان منتجاً للغذاء ، يفكر بمستقبله ، بعد أن كان هائماً على وجهه لا يفكر بغيره ! ؟ ومنذ تملكه هذا التفكير بدأت أول مرحلة حضارية ، وانتقل فيها من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار .

وإذا خرج الإنسان من حيوانيته بالطق . وبدأت الحضارة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار ، ولم يكن الإنسان في الغالب لها مخترعاً ، وربما كانت الطبيعة لها كاشفاً ، من حفيف الأوراق . أو تمايل الأفنان ، أو من شرارة انبعثت عن صاعقة خاطفة ، أو اختلاط بعض المواد الكيماوية مع بعض . فما كان منه إلا أن قلد الطبيعة وأنار طريقه فأمن شر الظلام والبرد ، ثم أفاد منها في الصناعة وصهر للمعادن ، وجعل منها إلهاً يعبد ، ووطأ يمن إليه إذا نأى عنه ، ودليلاً مرشداً إذا ضل به السبيل .

وهيأت الطبيعة المجاورة له وسائل عيشه من النبات والحيوان والتراب ، وتوصل إلى حياة التبادل ، فبدأ عتلا يحمل أشياءه من مكان لمكان على سطح اليابسة ، أو على شجرة عائمة على سطح الماء ، وشرعت حركة التجارة بالمقايضة إلى أن انتهت أخيراً بتبادل العروض والنقود في ظل الحضارات التاريخية .

وأدت الزراعة إلى الملكية الخاصة وتوسيع هذه الملكية ، وإلى تحصيل المرأة والاعتراف على الأولاد والإرث ، وتوزيع العمل ، وتفاوت الأفراد بعد المساواة النسبية ، وإلى انقسام المجتمع إلى طبقات .

وبدأ تنظم المجتمع البشرى فنشأت سلطة الدولة من وجود زعيم قوى دينياً كان أو علمانياً ، وترعرع العلم من محاولة التغلب على قوانين الطبيعة على أيدي الكهان ، ومزج الألوان بالألوان ، والسحر والطلاسم والكهانة والعرافة ، كما بدأ الأدب بالشعر في أوساط الرعاة ، والدين من الرهبة التي تملك البدائي من قوى الطبيعة المحيطة به ، فراح إلى رجل الدين يطلب العون والمواساة لتخفيف آلامه فنشأت العبادة والمعابد والأضاحي والمذابح والسدنة وما إلى ذلك من تسلسل كهنوتي لا يقع تحت حصر . وراحت الأباطيل والحرافات تشيع عن تأثير النجوم في طباع البشر ومصيرهم ، وما زالت هذه الأباطيل حية إلى اليوم عند متشائم منهم ومتفائل ممن يبحثون عن الطوالع في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية وشاشات التلفزيون . ومن يدرى بعد كل هذا أن ما نسميه أباطيل وحديث خرافة ليس إلا نوعاً من الخطأ نسميه العلم .

وما زال الناس يناقشون عن أصل الفن ، فهل نشأ من الغريزة أو إبداع

الإنسان ؟ وما هي صلته بالجمال ؟ ولم تعجب بهذا الجمال ونسرح الطرف في آياته ، بل لم نحاول أن ندعه من جديد ؟ ويبدو أن الرغبة في التزيين وتجميل الجسم البشري كانت في أصل الفن ؛ ولا يغرب أن يكون اللباس في البدء نوعاً من الزينة أريد به تحويل الرغبات الجنسية أكثر من حماية الجسم من البرد ، كما أريد منه أن يكون سلاحاً للحياء والحشمة والعفة . كما لا يغرب أن يكون أصل الحب من هذا الحجاب الحاجز الجديد الذي صنع خصيصاً ليذهب الحياء ويقرب القلوب . فكان حلم . وكان موعداً أو كان لقاء .

وما زال التفاهم بين بني البشر بالإشارات والحركات والأصوات والرموز يقدر زناده ويشمل ناره إلى أن اخترع الإنسان رموزاً صغيرة تعبر عن عواطفه وأفكاره وخلجاته ونوازعه ، فسماها الكتابة ونقلها إلى أجياله من بعده تنطق عن كل ما أنتجه الإنسان في الزمان والمكان ، وما يحيط به من عوالم ، فكان التاريخ ، وحقق الإنسان بهذا الاختراع العظيم العجيب مرحلة فاصلة حاسمة على درب الحياة الطويل بين ما قبل التاريخ والتاريخ .

وهكذا أبداع الإنسان البدائي أسس الحضارة وأشكلها ، ومظاهرها المختلفة ، وما كان ليتحقق له كل ذلك بسهولة ويسر . ففي وسط القوضى واللبس والعموض والظلام والإشكال شق طريقه لير من حياة الحيوان الأعجم إلى حياة الإنسان العاقل بين عديد السنوات ، وطول التجارب ، وتكرار التلمسات ، وكثرة الإخفاق ، إلى أن فاز بالصر المبين في إشادة صرح الحضارة التكاملي البناء على الدوام .

وخلافاً لما يزعم ، بدأ أن الإنسان البدائي ، إنسان الكهوف والناغور ، كان ذكياً عبقرياً أريباً ولا تقل مهارته عن مهارة الإنسان الحديث . والفارق الوحيد أن الحديث يمتاز عن البدائي بتراكم المعارف والأدوات والوسائل أكثر من تفوق الذكاء نفسه ، فلقد كان الإنسان البدائي يحل المشاكل التي تعرض عليه في حياته اليومية بقوة الفكر المبدع معتمداً على نفسه ، ويخلق من لاشيء أشياء كثيرة : لقد أطلق الإنسان البدائي جميع صفاته الإنسانية ودشن أنواع السلوك التي تعتبر أساساً للحضارات الكبرى ، وأبداع فزاد إبداعه في قوته وقوة بني الإنسان في الأجيال المتعاقبة عبر الزمان . وهكذا نجد الحاضر بصوره المختلفة مديناً للماضي البعيد .

ولا يعلم على وجه الصحة والدقة نشأة هذه الانتصارات الحضارية الكبرى .
ومن السهل لتفسيرها الاعتماد على الظواهر والاحتمال والتخمين والافتراض . وأن
ما أتينا به من تعليل أو تفسير غير قاطع أو نهائى . وما ذكرناه إلا لتقرب إلى
الأذهان أن هذه الانتصارات البشرية يمكن أن تفسر على هذا النحو أو ذلك .
وما من مانع يحول دون تفسير آخر مقبول ومعقول . وما زال عالم ما قبل التاريخ
مجهولاً ، وما نعرف عنه قليل جداً من كثير جداً جداً . وكثيراً ما يندفع الواقع
الفكر ، ويغيب الحس النظر ، ولكن المهم أن نبعد الإيضاحات الجانبية بالاعتماد
على المناخ والحاجات والاقتصاد ، فليست هذه إلا إمكانيات وضعت أمام الإنسان
الذكى الصادق النظرة ، المحب للاطلاع ، القوى الانتباه ، الذى التفت إلى ما يحيط
به فحاول الاستفادة منه وتسخيرها لصالحه .

ومنذ العصر الحجري الحديث لازم التطور فى الحياة والتقنية والفكر والفن تطور
اجتماعى . ولكن من الصعب التعرف به نظراً لفقدان الوثائق المكتوبة . ومهما
يكن فقد دشن هذا العصر حياة الرعى والزراعة ومجتمع البداة والاستقرار ، ثم
تلت ذلك تبدلات جديدة تسلسلت على فترات زمنية طويلة حولت الاقتصاد الريفي
والزراعى إلى اقتصاد عمرانى مدنى ، وحياة القبائل إلى ممالك وإمبراطوريات .

ظهر التحول الأقدم حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فى بلاد الشرق الأدنى القديم
وحوالى ٢٠٠٠ فى كريت ، وتكرر فى الألف الثانية فى الصين ، وهيا مجيء الهنود
الأوربيين فى منطقة الحضارات القديمة تبدلات مشابهة تحتمت فى الألف الثانية فى
آسيا الصغرى وفى سورية ، وفى الألف الأولى فى إيران والهند وأوروبا . ثم تحول
عالم البحر المتوسط بأغريقية وروما ، وولد تبدلات هامة جديدة يتكّن اعتبارها
أصلاً لمرحلة أخرى . وفى أمريكا كان التطور متأخراً وغير تام . ولم يظهر إلا فى
العصر المسيعى عند المايا والتولتيك والآزتيك وسكان ييرو . ومما يلفت النظر أن
هذا التطور قد تم بالقرب من الأنهار وفى ظل الانعزال . وإذا أردنا حصر
الحضارات على المصور الجغرافى لوجدناها ضمن شريط ضيق يطوق العالم القديم بين
درجتى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء ، كما يطوق العالم الجديد بين مدارى
السرطان والجدى . أى فى مناطق معتدلة نسبياً ، خلو من الجملديات والحفاف .
والحر القانظ .

وفي العالم القديم تشكلت النواة الأولى ، ونمت شجرة الحضارات على ضفاف الأنهار الكبرى : النيل ، دجلة الفرات ، السند والقانج والنهر الأصفر حيث أوجدت الفيضانات الدورية شروطاً مواتية للخصب وحركة الأرض . ولكن الأراضي التي تممرها المياه تطلبت تنظيماً وتنسيقاً وعمليات هامة في التجفيف وحفر الأودية والرى . وبلغت اتبائها خاصة ، من كل هذه المناطق ، بلاد الشرق الأدنى القديم . فقد كانت تمتاز بسبق حضارى ، وتعتبر أقدم مراكز الحضارات الكبرى ، وبإشعاعها المبكر نحو إيران والهند والتوسط ، وبماضيا البعيد وهو الوحيد الذي وجدت له آثار وأطلال يمكن بطريقها استشفاف الماضي وإعادة بناؤه .

لقد سلك إشعاع هذه الحضارات مجرى دجلة والفرات والعهصى والأردن ، ثم اجتاز هضاب آسيا الصغرى ، وانتشر في الوديان الكبرى حتى شواطئ المتوسط وبلاد بحر إيجه في الغرب ، وحضارة الهند قبل الآرية التي كانت معاصرة لحضارة السومريين وترتبط بها بروابط وشيجة .

وتضافرت في هذا الإشعاع الحضارى القديم عوامل متعددة كالمبادلات التجارية والجاليات الأجنبية والحملات العسكرية والمهجرات الداخلية والانصهار السياسى في بوتقة الوحدة . وأوجد الزحف الصناعى والمد التجارى حاجات جديدة ومراكز إنتاج جديدة ، واندفع بهجرات خارجية نجمت عن تدفق الساميين الذين ما فتئوا منذ الألف الرابع ينتشرون في سورية وفي بلاد ما بين النهرين ؛ وعن تدفق الهنود الأوربيين في هذه البلاد ، في الألف الثالثة ، وتكاثرتهم في الألف الثانية وتدميرهم الإمبراطوريات الشرقية في الألف الأولى .

وحول هذه المراكز الأولى في العالم القديم انتشرت الحضارة ، ولكنها ظلت محدودة الإشعاع ، متماثلة بالرغم من اختلافاتها الأصلية الموضوعية ، ويبدو ذلك في الحرف والتعدين والبناء والتقويم والتعداد والعقائد والطقوس والفنون ونمو الثروة وتشكل الطبقات الموجهة ومركبة السياسة .

وإذا سعدنا بالتاريخ المكتوب إلى ٦٠٠٠ عام على الأقل لوجدنا في منتصف هذا الدور ، أن الشرق الأدنى كان مركز الحضارة البشرية ، وعلى هذا المسرح العاج بالسكان قامت الزراعة والتجارة ، وظهر الحصان والعربة والتعد والتبادل والصناعة

والحق والإدارة وضريبة الدخل والرياضيات والطب وتنظيم الري وأعمال التجفيف والهندسة والفلك والتقويم والساعة والأبجدية والكتابة والورق والحبر والكتاب والمكتبات والأدب والموسيقى والنحت والبناء والحزف والأثاث الفاخر ووحدة الزواج والتجميل والجواهر والشطرنج والتزد وغيرها من الألعاب .

ولقد ورثت الحضارة الأوربية ، كل هذا بوساطة كريت أولاً ومن ثم إغريقية وروما . وفي الحقيقة أن الأقوام الأوربية لم تبعد الحضارة بل اقتبستها عن بابل ومصر ، كما لم تدشن إغريقية الحضارة بل أخذت منها أكثر مما أعطت ولم تكن إلا وارثاً ومستفيداً من الفنون والعلوم التي أوجدتها حضارة ثلاثة آلاف عام وأنت بها إلى مدن إغريقية بطريق السلم والحرب .

وإذا لم تكن إغريقية مبدعة للحضارة فقد نمت فيها جميع المظاهر الحضارية الاقتصادية والفكرية والفنية والاجتماعية نمواً أصيلاً حتى أصبحت رائدة ومربية لأوربا في آدابها وفنونها وتقنيها . ولعل أهم ما أنت به إغريقية من تجديدات كبرى ومكاسب عظيمة كان فكرياً . فقد علمت إغريقية الناس الوضوح والفكر العقلي والتجريبي ، وأدخلت الملاحظة والتجربة ، وقفزت بالفكر العقلي في هذا المضمار قفزات حقيقية موفقة .

وضع الإغريق أسس العلوم وأعطوها الأسماء التي مازلنا نحفظ بأسمائها بعد ، وما زالت الحياة الفكرية في أوربا في أشكالها السامية تحمل طابع إغريقية . لقد عرف العقل الإغريقي بالإعتدال والإنسجام والتوازن المرن المتحرك ، حتى أن الزهد الفلسفي والصوفية أخذتا في إغريقية أشكالاً معتدلة . فكل ما في إغريقية إعتدال وضبط وبعد عن التعصب ونفي الغير . وربما كان لاختلاط الأعراق والجو واختلاف المؤثرات والملاحة والتجارة شروط مناسبة للملاحظة والتفاهم المتبادل تجد فيها الدقة والضببط والمهارة مجالاً صالحاً أكثر من مجال القسر والقوة . كما عرفت إغريقية القديمة في الفن بالبساطة والقناعة وضبط النسب ؛ وفي التقنية بمهارة الإختراع ؛ وفي الفكر بحب الإطلاع والبحث البعيد عن المنفعة . وفي الحقيقة أن الإغريق لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه إلا بنتيجة هذه الظروف السعيدة التي أحاطت بهم وأعدتهم زمناً طويلاً وأوجدت عندهم هذا التوازن الذين عرفوا به بين قوة التجريد والفكر العيني للشخص

والحضارة الإغريقية بالرغم مما يكتنفها من ظلال ، حضارة شعب نشيط ، فصيح شاعر ، عاقل فنان مفعمة بالتنوع ، غنية بما يثير النفس ويترك فيها انطباعات عميقة وطيبة . ففي عملها الدائب ، النافذ ، المهجى ، الشعر ، ومثلها العليا في الحقيقة والعقل والحرية والجمال لم تكن مربية لأبنائها فحسب بل لأبناء البشرية . لقد نبئت حضارتها على البحر المتوسط وامتدت منه إلى الشرق ترد جميله ، إن صح التعبير . أو لتستولى عليه بجيش الأسكندر الأكبر الماكدونى وخلفائه السلوقيين وتوصلت إلى قلب آسيا وتركت فيها آثاراً لا تمحى .

وورثت روما إغريقية والشرق ولعبت دور الوسيط والناقل والناشر على مقياس واسع ، وامتازت بقوة توسعها ووحدتها . ودورها التربوى النشط الذى أخذته عن أئينة واعتبرت ما خيم عليه جناح النسر الرومانى متحضراً وما كان خارجاً عنهما بربياً . وفى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ساد سلام طويل دام أكثر من قرنين وتحققت فيه وحدة اللغة والحكم والحق ووسائل المبادلات ، كما انصلت مختلف المناطق الرومانية بشبكة طرق برية وبحرية وصلت إلى الهند والشرق الأقصى وتمثلت روما كل ما استطاع فكرها العملى أن يتلقى من نبات رقيقة من إغريقية ، واستخلصت من النماذج الهلنستية الأشكال اللاتينية التى أفادت أثر التربية فى الغرب . فمن أسبانيا وغاليا إلى الفرات نبئت المباني القومية العظيمة كالفطور ، وعجبت المدن المزدهرة بالسكان من كل جنس . وكان الإمبراطور على رأس هذه الإمبراطورية إلهاً .

ولكن هذا البناء العظيم الذى شادته روما كان يتألف من قطع مستعمارة ومقتبسة ، لأن روما بعد أن فتحت البلاد بجيوشها العسكرية ، أخذت تستغلها وتعتمد عليها وتتكيف معها ، حتى أنها جعلت من نفسها عاصمة طفيلية تعيش على حساب الغير : فهى مدينة إلى إغريقية والشرق بتقنياتها وأدواتها وطرق إنتاجها وتجاريتها وعيشتها . ولم تأت بأى إسهام للعلم ، حتى أن سلطنة أباطرتها وتأليبهم والإدارة المدنية والعسكرية فيها كانت تشبه الملكيات الكبرى الإيرانية والهلنستية .

أما ما امتازت به روما فكان فى اللغة والبناء والحقوق وهى من مآتها الشخصية فقد كانت اللاتينية متينة واضحة مرنة . وأداة للتعبير والثقافة . وكان المهندسون

الممارون الرومانيون متعمدين أكثر منهم فنانيين ، ولكن هذا لم يمنعهم من استخدام الطرق الإغريقية والشرقية وتجديدها حتى ظهرت هذه المباني الرومانية على جنبات للتوسط شاهدة على عظمة الرومان وحضارة الرومان . أما الحق الروماني فكان أقوى أبداً حقوقية عرفها التاريخ قبل العصور الحديثة . فقد صهر في بوتقته مذاهب الشعوب الخاضعة ومبادئ الفلسفة الإغريقية ، وأخرج منها فقهاً رومانياً ما زال يرجع إليه كمصدر قديم من مصادر التشريع . ولقد وسع هذا الحق الروماني سيادة القانون ، ونقل إلينا فكرة الدولة المجردة ، وسلطة هذه الدولة ، وفكرة الحق التي بناها الإغريق على العقل والعدل ، ونسقتها بتعاريف صحيحة وتصانيف واستنتاجات كانت لفكر أداة تربوية خالدة .

غير أن الدولة الرومانية لم تقاوم الزمن كإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين والصين ، لأنها كانت تعيش على الغير وتنقصها المرونة والاختراع فضلاً عن أن هذه الدولة عرفت بجمود الأطر وضعف الحركة وأخذ كل شيء على عاتقها . وأدى كل ذلك إلى انحطاط التماسك الروماني وخرابه فعانى في ظل الإمبراطورية الدنيا أزمة لازمتها طويلاً . وما كان من الغارات البربرية الكبرى إلا أن عجبت بالمصير المحتوم .

وفي العصر الوسيط سادت حضارات ثلاث كان لها الأثر الأكبر في تكوين الحضارة الحديثة في إشراقها الأولى وهي الحضارة البيزنطية والإسلامية والأوربية . لقد انتقل مركز الثقل بعد تداعى الإمبراطورية في الغرب الأوربي إلى القسطنطينية ولم تبق الحضارة بانسحابها سوى آثارها . بيد أنها تألقت تألقاً جديداً كسفت أمامه عظمة روما الغربية . وكان هذا التألق ثالث ازدهار عرفه العناق الودي بين الإغريق والشرق . فقد تشكل في إيونيا ، وفتتح في الممالك الهلنستية ، ولكنه كان في هذه المرة الثالثة أشد بريقاً وزهراً وبهراً للأبصار . فقد تجلجى فيه أبهة البلاط والثروة واللون والتزيين والعواطف الدينية والأسرار المسيحية التي عدلها الفكر اليوناني بقناعته وبساطته . ورأت الإمبراطورية البيزنطية تجديداً في الحياة السياسية في ظل جوستينيان شمل شواطئ المتوسط حتى إسبانيا ولكن هذه العودة الإمبراطورية إلى الغرب الأوربي كان دون عد أمام الفتح العربي . وظلت الإمبراطورية خلال ألف عام في دور الدفاع إلى أن هاجمها الأتراك العثمانيون وقضوا عليها .

وحصل تجديد في الحياة الاقتصادية فتح آفاقاً جديدة نمو الشرق الأقصى بواسطة البحر الأسود والبحر الأحمر . ودخلت إلى أوربا زراعة التوت والمنسوجات والحري والأقمشة والتقنية الشرقية والمطور والماج والتوابل والعماد والأحجار الكريمة والفسيفساء المختلفة الألوان على أرضية زرقاء أو ذهبية ، وتجدد الفن في بناء القباب البيزنطية ، وتمددت أشكال البناء ونماذج التصوير والتزيين والأناشيد الليتورجية والحفاصة الدينية . ولكن بيزنطة نامت على الحضارة القديمة والمجد التليد فضعف عندها زخم الاختراع كما نضب معين الفكر .

وفي الحقيقة أن بيزنطة جمعت ودعت ونشرت الأبجدية الإغريقية والثقافة في الأوساط السلافية بين البلغار والصرب والروس والعرب ، واقتنت أكبر قسط من التراث القديم غزت به أوربا فيما بعد ، وحملت مشعل الفكر عالياً ونقلته ، ولكنها لم تجد فيه إلا قليلا .

وفي بلاد العرب ظل التخمر الذهني الواعي يعمل عمله في العقول والقلوب إلى أن تفتحت الحضارة العربية — الإسلامية . والجدير بالذكر أن هذه الحضارة نمت في بلاد تعتبر من أعرق البلاد التاريخية حضارة ، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصيلة ، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة إلى بقية أجزاء العالم الأخرى ، وكانت هذه الحضارات بمثابة المجموعة الحضارية الأم ، وعم إشعاعها جميع أرجاء المنطقة ، وجعل كل جزء منها يأخذ عن غيره ويعطى ما عنده . وعلى هذا النحو تم الاتصال الحضارى بين الأجزاء . ولم تخرج الحضارة العربية — الإسلامية عن حدود هذا الأخذ والعطاء . فعندما انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وامتد في بلاد آسيا وإفريقية كان العرب يدعون إلى الإسلام وينشرون اللغة العربية ويتمثلون الحضارات المختلفة في البلاد التي حلوا بها . وكانوا مؤثرين ومتأثرين ، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية — الإسلامية التي استمدت روحها الطيب من أصالة الشعب العربي المريق النشيط ، هذا الشعب الذى استطاع أن ينشئ من تراثه الحضارى المريق حضارة جديدة اشتركت في تكوينها وتنميتها هذه الشعوب المتعاقبة التي سكنت المنطقة على مر العصور التاريخية . هذه الشعوب التي تكررت وتقطرت فأنتجت الشعب العربى المؤمن بالقيم الروحية والمثل الإنسانية العليا

التي نقلها ونشرها بين الشعوب الأخرى ، وجعل هذه الأخيرة تدين بها وتسهم في تعميمها ونشرها .

والتمتع للتاريخ العربي يرى أن العرب خدموا الحضارة الإنسانية بما قدموه من منجزات في عالم الأدب والعلم والفلسفة والدين والفن ، كما يرى أنهم لم يقصروا في أى ميدان من الميادين ، فضلا عن أنهم كانوا رسل حضارة وواسطة اتصال حضارى بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة .

وكان يقابل هذا التألق البيزنطى والتفتح العربى خيال غربى ران على أوروبا قرابة سبعة قرون ، وطوال غارات كانت تتعاقب عليها بين فترة وأخرى فعمل فيها الهدم والتخريب . وظلت هذه حال أوروبا إلى أن احتكت بالشرق والإسلام ونهلت من النبع الصافى فى مختلف الميادين ، وأخذت عنه الشيء الكثير ، فاخضر العود بعد الجناف ، وتفتح الزهر بعد طول الشتاء والبرد ، واستيقظت أوروبا بعد نوم قلق ، وجرى فى أوروبا ماجرى فى إفريقيا البدائية ، فتأثرت بعوامل متعددة ، ودفعات خارجية وعفوية داخلية ، ومبادهاة فردية وجماعية ، وعادت السير فى ركب الحضارة وتفجرت فى القرن السادس عشر عن نهضة ظلت تعمل بدأب وتقدم إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

والحضارة الحديثة التى نعيش بين ظهرانيها حضارة عامة لا تتعاقب ببلد من البلدان ، أو بشعب من الشعوب ، لقد أسهم فى بنائها أبناء الانسانية جميعاً فعدت لهم تراثاً ونتاجاً دائماً وخالداً ، ومن حقهم أن يفخروا بها لأنها نتيجة جهود مديدة وأعمال دائبة وأفكار نشيطة مجددة وعبقريات أصيلة ، وأطاح بعيدة وزمن عريق . بيد أن الحضارة فى عصرنا الحاضر آخذة بالتسارع والنماء بدرجة تفوق حد التصور . ولا شك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تحرر الإنسان من القيود التى كانت تكبل نشاطه وفاعليته عبر الزمان . وتحمت مؤثرات كثيرة ومتنوعة . وهذا التحرر جعله يتخلى ويطلق لنفسه العنان فى آفاق المعرفة والإبداع ، ويستخدم قوى الطبيعة والإمكانات التى تفسحها أمامه لبيدع منها الوسائل التى تؤمن رفاهه وبعيشه وتحقق آماله وأحلامه . ولقد حاول بعضهم تفسير الأسباب التى دعت لثمر فردية الإنسان البدع . صانع

الحضارة ، باعتبار عرقية ، أو بجزئية جغرافية مزعومة . ولكن الذى يجب أن يقال فى هذه المناسبة هو أن هنالك أسباباً أشد وأقوى . ويأتى فى مقدمتها أقول الإقطاعية وإعادة بناء الدولة على أسس جديدة . وتقدم العلاقات التجارية . وتكامل طرق الإنتاج . ونزاع الطبقات . والأزمات . وتحسين مستوى الحياة . وتنظيم العلاقات الدولية والمبادلات الثقافية . واتصال الشعوب ببعضها بين أخذ وعطاء . وإغناء بعضها بتجارب بعض . ولا شك فى أن أوربة أتت متأخرة فى آفاق المعرفة فأفادت من تجربة الإنسانية المديدة وشعت إلى ما يتجاوز ذاتها وحدودها القارية . واندفعت فيما وراء المحيطات لتكتشف العوالم الجديدة وتغنى خبرتها بمعارف تجرئها . ولقد كان من هذا الاتصال ثورة فى الاقتصاد الأوروبى ظهرت آثارها فى تغيير قيم المجتمع وهز كيانه من أساسه بنمو طبقات بورجوازية تجارية ومالية لم تكن فى الماضى شيئاً مذكوراً . وارتفعت بجهدا وعصاميته إلى مصاف الأمراء ؛ كما ظهرت هذه الآثار فى نقل تجربة أوربا الحضارية إلى أمريكا التى تفتحت من إمكانات ضخمة . حتى أن أوربا لم تعد إلا قرماً أمام هذا العملاق الكبير . وبعد أن كانت أوربا تفخر بحضارتها الأوربية إذا بها تخفف من غلوها وتسمى هذه الحضارة الناشئة عن اتصال الفاريتين « الحضارة الغربية » تارة ، و « الحضارة الأطلسية » تارة أخرى .

ولكن تجربة البلاد الشرقية ومنجزاتها الحضارية بلغت من التقدم درجة أصبح من غير المقبول معها أن تبقى هذه الحضارة كما يريد الأوربيون غربية أو أطلسية ، ونعتقد أن من الخير أن يطلق عليها اسم الحضارة الحديثة والمعاصرة تمشياً مع روح التاريخ والفهم الحضارى الواسع والقواصل البشرى الدائم والتسارع الذى يجب للمسافات ويجعل القارات قارة واحدة أو بلداً واحداً ، والبشر ، مهما تناءى بهم لزمان والمكان ، أبناء إنسانية واحدة .

وهذا الانفتاح العالمى ، المتسع باستمرار ، مدين ولا شك إلى تقدم العلم والتقنية وتطبيقاتهما فى سرعة النقل والمواصلات . كما وسع التقدم نتائجه فى حقل العلوم الاجتماعية والفسية . وإذا لم تستطع هذه العلوم أن تراكب العلوم المادية فما لا شك فيه أنها سائرة فى نفس الاتجاه من التقدم المستمر نحو وضع أفضل يشجع على إطراح المعارف القديمة والعلوم الثقيلة وما يلابسها من أوهام وتخمينات ؛ وعلى الإيمان بأن

الإنسان يركب الخطر ويتمتع المجهول وينطلق بالظلام ليكتشف لبس هذا العالم الكونى المحدث به ويحمله مفهوماً . وينقل اكتشافاته إلى بنى جنسه دون أن يجعل منها أسراراً وما زال يحاول أن يعمر هذا الكون ، ويخلق من ضعفه الظاهر قوة أمام الموت الظافر ، هذه القوة التى كانت فى إنشاء الحياة وبنائها ولم تكن مجرد أقوال . ومن يدرى أن يوماً سيأتى على البشرية يقدر فيه المؤرخون أن جميع التحولات التاريخية ليست سوى أزمت وظواهر لنمو العقل البشرى الكاسح الذى يتحدى الظلام والمجهول لينقذ الإنسان من حمأ الطين الوحل .

وقد اختلف الحوار فى هذه التحولات البشرية والتطورات التى يمر بها الإنسان من مرحلة منحطة إلى مرحلة أسمى . فرأى رجال الدين أن أسمى ما فى الإنسان من الله ؛ ورأى المفكرون العلمانيون أن أسمى ما فى الإنسان من الإنسان . ولكن المذهب الدينى لا ينفى عن الإنسان قيمة السعى والجهد والدأب . وهذا يعنى أن المذهبين يستقطبان الإنسان والسمو به إلى تحقيق إنسانيته ومكارم أخلاقه .

وذهب التفكير إلى أن التمييز بين الإنسان والعالم لا تنجم عنه حقيقة ، وأن العالم خبث معدنى ، وعلى الإنسان أن يندغم ويندمج فى هذا العالم ليعرف معناه الحقيقى ؛ وأن كل ما أتى به العقل البشرى من أفكار وعلوم وتقنية مع كل ما تضمنته من انعكاسات وردود فعل ونتائج فى المجتمع الإنسانى يجب أن يكون منها تفتح شخصية الإنسان ونموه فى سلوكه العقلى والروحي ، وأن العالم ليس عقلاً كله . وأن الإنسان ظل يمانى أزمة وجدان خلال ثلاثة قرون قضاها فى أزمة فكرة الحقيقة وهو يشعر ويفهم ضعف هذه الفكرة إلى أن أعاد النظر فى تقدير قيمة العلم وحدوده . وإعادة النظر هذه فى الموضوعية العلمية تعتبر بذاتها وبما تتضمنه من استعداد وقابلية كسباً ثقافياً وتقديراً للقيم الإنسانية البدعة القائمة على المغامرات الشخصية .

وفى الحقيقة أن تاريخ الحضارة ، بكل ما وصلت إليه فى عصرنا الحاضر ، إنما هو تاريخ ثورة إنسانية مستمرة قام بها الإنسان على مزاعم الرضوخ والرضى بالتقدير المحتوم ؛ أو على إنكار مزاعمه فى تطاعته إلى الكرامة ، إنه تاريخ إنكار الاستسلام باسم الإنسان ، وأن المعيار الوحيد الذى يجب الاعتماد عليه فى هذا السبيل ، هو الثورة ، فهى التى تنظم الحضارة وتحميها وتبدعها عبر التاريخ وعبر فوضاه واضطرابه .

بالتقدم الدائم . يضاف إلى ذلك أن هذا الاعتقاد وجد صهراً وفي الأخلاق البشرية نفسها . لأن المثل الأعلى لدى الإنسان تبدل أيضاً . وأصبح يقوم على النضال والجهد والتوسع والرقى والتحول وحب التطلع إلى الجديد وعدم البقاء على الرقابة . وعدم الإنصياع للعقبات مهما كانت . وإن كان هنالك شيء من ذلك فإلى أجل محدود ريثما يستكمل وسائله ويعد عدته .

ولقي هذا التقدم صداه في أفق العمل والعمال بعد نهوض الثورة الصناعية . وما فتئت الأطر البورجوازية والطبقة الكادحة في ازدياد . ولكن الاتجاه العام يسير إلى التخفيف من ثقل الأولى وسيطرتها وتحكمها من حجة . وإلى النهوض بالثانية من حيث تحسين شروط حياتها المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من حجة أخرى . والجهد مبذول للافادة من قوى الإطارين للاسهام معاً في الحياة القومية بشكل أو ثقل وأدعى إلى إزالة التناحر الطبقي الذى يمكن أن يهدد المجتمع بالخراب والدمار . ولكن البشرية لم تتوصل بعد إلى تقنية أو قانون يمكن أن يؤمن هذا السلام الاجتماعى المنشود .

والملاحظ في عصرنا الحالى أن الوعى العام يحتاج جميع الطبقات الاجتماعية . وأن نظام التسلسل الذى يسود هذه الطبقات لم يعد حقيقة مستقرة ومقبولة لا مبدل لها . بل هو غليان مطامح ثور ، نخبق حيناً وتنجح أحياناً ؛ وأن التطور بدل معنى القيم ومكاتبها . فقد أضعف النخبة القديمة . وهى المكان لنخبة جديدة حتى أن مفهوم الزمان قد تبدل معناه . فقد كشفت الشعوب عن تاريخها . ووعت فرديتها وأصالتها . ولم يعد هذا العصر بطلياً أو فلسفياً أو نقياً أو أخلاقياً . إنه عصر الحركة والميكانيك المؤسس على العلم الذى يطغى على الحياة الأخلاقية . فبعد أن شغلت مشكلة الزمان الأفكار . واتتهت بها فى الغالب إلى الصوفية أو إلى الخلاعة أو بتعبير آخر إلى الإيمان وعدم الإيمان . أخذ مفهوم الزمان طابعاً إنسانياً وتاريخياً .

ويبدو أن قيمة حضارة اليوم تعتمد على إرادة الوعى وإرادة الكشف . ومن هذه الناحية تنفذ الحضارة إلى الإيمان بالإنسان وقيمه . فلقد جابه الإنسان العالم الجهول وما زال يحاول النفوذ إلى العوالم الجهولة ليكشف كنهها وحقيقتها . وبالرغم من أن مصير الموت ما زال يهدد البشرية ويجعلها تخنى الرؤوس أمامه . فما زال

وهذا المعيار الناجم عن الثورة لا يمكن أن يمش إلا بالثورة ، فيها يستطيع أن يفجر كل ما يخبئونه من إمكانيات الإبداع ، وكل ما يمكن أن يكون . وستظل ثورة الحضارة مشتعلة ولن تنطفئ قبل أن يموت آخر إنسان .

* * *

إن هذه اللوحة التي رسمناها عن تاريخ الحضارة ، تبين لنا أن تاريخ الإنسان يحوم حول علاقته بالمجتمع وتفاعله معه ومع الحضارة التي أبداعها ، وأن الإنسان لم يصبح إنساناً ولم تتفتح مواهبه الإنسانية ، ولم تنم معارفه وخبراته إلا عن طريق المجتمع . ولولا هذا الوجود الاجتماعي الذي وجد فيه الإنسان لما استطاع أن يكون حضارة . لأن اجتماع البشر واتصالهم مع بعض وتفاعلهم مع البيئة أساس حقيقي في نشأة الحضارة ونموها وتطورها وازدهارها .

وعلى الرغم من أن الأفراد الذين يكونون مجتمعاً من المجتمعات ينشؤون حضارته وينقلونها ، فإن أي حضارة لا بد لها من أن تعتمد على إسهام عدد كبير من الأفراد من المجتمعات المختلفة . والمجتمعات البشرية ، منذ وجدت في نشأتها الأولى ، وجدت متصلة يأخذ بعضها عن بعض ، ويمطى بعضها بعضاً . وتفيد من تجارب بعضها . ومن هذا التفاعل الاجتماعي الذي تم بين هذه المجتمعات اتسع نشاط الجماعة البشرية ومجهودها الحضارى . والمشاهد أن الحضارات في نشأتها تعتمد على إمكانياتها ومكتسباتها الأولى في بيئتها أو مكتسباتها من البيئات الأخرى . فإذا نمت خرجت بشكل موجات تمتد في الزمان والمكان ، ثم لا تلبث أن تنقلص أمام موجات حضارات وافدة أخرى قتية . ولكن لا شيء يخلق من العدم ، فكل حضارة تنشأ وليدة أجيال ومكتسبات سابقة ، ومربية لحضارة جديدة . لقد كانت حضارات الشرق القديم بسبقها الحضارى أمماً مرصفاً لحضارة اليونان . وهذه مربية لحضارة الرومان . ثم دار الدهر دورته فعاد الشرق يحمل مشعل الحضارة لينير حللك العصور الوسطى في قارات العالم القديم . وليكون بمثابة المغذى والمخضر لحضارة الغرب وامتدادها عبر القارات في العصور الحديثة . وفي هذا المعنى يشترك بناء الإنسانية في البناء الحضارى للتجدد ، ويزول الادعاء بالتفوق العنصرى والشروط العرقية للحضارة . وفكرة الحضارات الكبرى التي صنعها العرق الآرى . والقول

بأن هنالك نوعاً من البشر من شأنه أن يصنع الحضارة ويفيد منها ويحافظ عليها من الضياع وهو الجنس الأبيض عامة .

والتأمل في تاريخ الحضارة يرى أنها لم تكن لتظهر في قارة دون قارة ، بل ظهرت في عصور مختلفة . وفي أماكن متعددة على سطح الكواكب . وأن الحضارة من حيث الأصل لا وطن لها ، وأن أرقى الشعوب المتقدمة حضارياً لمدينة إلى تلك الشعوب البدائية في اختراعاتها الأولى مهما كان شأنها وقيمتها وأن الاختلافات العرقية ليس لها أى تأثير على التاريخ البشرى العام ، لأن القول بنقاوة دم بعض العروق وتفوقها على غيرها زعم باطل لا نصيب له من الصحة فضلاً عن أن العلم يرفضه ولا يقره . فمنذ عصور ما قبل التاريخ التفاضلية في القدم والمجتمعات البشرية على اتصال دائم . مهما كان هذا الاتصال بطيئاً أو سريعاً متسارعاً . واختلاط مستمر ، وعلاقات متواشجة ، وما من عرق أصيل اليوم على سطح الأرض . فقد أسقطت الاعتبارات العرقية من حساب الحضارة وأخذت العلاقات البشرية الدائمة السلم والحرب مكان الصدارة في تفتح الحضارة وازدهارها .

ومن المسلم به أن أول ما توجه إليه الإنسان مذ وجد على سطح الأرض كان المأكل والملبس والسكن . وأن البحث عن هذه المطالب الأولية كان أقدم نشاط عرفه الإنسان . وبنيت عليه الحضارة وما زالت هذه الحقيقة قائمة مهما اختلفت صور النشاط . وغير أن هنالك عوامل أخرى لها أهميتها . وبخاصة عندما تتجاوز الإنسان مرحلة العيش وأخذ يتطلع إلى الحياة الأفضل . فهو لا يرغب في العيش وحده مجرداً من كل رفاة وزخرف . بل إنه يطمع في الحياة وفي كل ما يزينها ويجمها رخصة جميلة وجميلة دوماً في ناظره . وإنا لنشاهد في تاريخ البشرية أن كثيراً من أنواع النشاط الانساني الطموح يفترض البذل الثقافي والتضحية والماطمة . مما هو بعيد عن كل مؤثر اقتصادي . والرأى الذى نذهب إليه هو الأخذ بالأسباب المتعددة للتكامل التي يعتمد بعضها على بعض ويساند بعضها بعضاً دون الاكتفاء بسبب واحد .

ولا شك في أن الطبيعة تهيب إمكاناتها للإنسان بقدر ما تخلق أمامه من مصاعب والإنسان بما أوتى من نشاط وفكر يفيد من إمكانات الطبيعة ويطوعها حسب حاجاته ورغباته . ولكن يجب أن نقر بأن الحضارة بالرغم مما وصلت إليه من تقدم

ورقي. مازالت عفتة رقيقة هشة أمام بعض العوامل الطبيعية كالشروط المناخية القاسية والحركات الأرضية التي يمكن أن تؤخر نموها أو تقيد نشاطها أو تطيح بها. وبالمقابل إن بعض هذه الشروط يمكن أن يساعد على النشاط الحضارى .

على أن ثمة بعض الشروط البشرية التي يساعد توافرها على نمو الحضارة وازدهارها كوجود النظام السياسى واستقراره واستتباب الأمن ووجود النظم الأخلاقية والإجتماعية التي توجه الناس وتعطى الحياة قيمة ومعنى عن طريق التربية والتعليم والإرشاد . غير أن تدنى الأخلاق والطباع والقيم وتدهور النظام الاجتماعى والأخلاقى والتربوى والاقتصادى يمكن أن يؤدي إلى فساد المجتمع وانحطاط الحضارة واضمحلالها . وبخاصة أن فقدان القوى الخلافة ، أى سيادة العقل على الغريزة . فى نظر شبنغلر . وإخفاق الألفية المبدعة . فى رأى توينبى . التي تؤهلها مواهبها لقيادة المجتمع وتوجيهه فى تدبير الاستجابات للملأمة لبعض التحديات التي تعترض المجتمع . وإنا لترى أن آراء معظم الفلاسفة والمفكرين تتشابه كثيراً فى الطور الأخير للحضارة وهو طور التحلل النهائى الذى يقترن بالمقم الفكرى وعدم القدرة على الخلق والإبتكار . ومن هنا تبدو ضرورة : وهى أن الحضارة . باعتبارها إبداعاً بشرياً . بحاجة إلى كل ما يفيدها باستمرار ويحفظها من الانحطاط والضياع .

والحضارة فى حد ذاتها روح . ولكن عامل العصر الحاضر يضيف إليها الكم والعدد . وإذا نظر إليها بأنها مجموعة من السلوك والعقائد والنظم التي يحافظ عليها ، وتحول دون انقطاع ، أو بالتباين بين استهلاك السلع والقدرة على إنتاجها ، أو التفكير بالغد والاستعداد له ، أو بأنها جملة مكاسب ، أو قابلية للحصول على مكاسب جديدة ، أو بالاختلاف بين الكينونة والسيرورة . فيجب أن ينظر إليها من حيث أنها كينونة و سيرورة معاً ، ومكاسب وتمتع بهذه المكاسب وتطلع إلى مزيد من المكاسب الجديدة ، أو بتعبير آخر يجب أن ينظر إلى الحضارة من حيث أنها حاجة إلى بعض المعارف أكثر من تملك هذه المعارف ، وقابلية إلى العمل أكثر من الاعتياد على بعض أشكال العمل ، وبمحت عن مظاهر الجمال أكثر من تذوق التأمل . إنها استعداد عاطفى نشيط داخلى فى الكائن أكثر منه ركام ثروات خارجية فكرية أو مادية . إنها جو من التأثير الدقيق المعقد يحيط بالحياة كلها . وكما يشف الجمال عن

الفكر في الاشياء ، فكذلك تشف الحضارة عن الفكر في التاريخ ، ولذا كان نصيب الجهود المبذولة لتحقيق الجمال فيها عظيماً .

ومهما اختلفت وجهات النظر في الحضارة فهي تبدو كسلسلة متكاثرة ومتنوعة الحلقات لكل ما أتى به الفكر الإنساني عبر الزمان والمكان . ولذا فإن الحضارات الخاصة تتواكب وتنسجم مع بعضها لتؤلف تاريخ الإنسانية ونموها في مختلف ميادين الحياة وبما فيها من أنماط معيشة وأخلاق وعلوم وتقنية وعقائد ونظم وآداب وفنون وأديان وفلسفات . وهكذا يمد الإنسان نفسه بالفكر عبر الزمان والمكان .

ومن غير الممكن أن تصور الفكر دون حريته لأن أعظم ما في الفكر حريته . إنها شرط إبداعه وإنتاجه ، ولأنها تساعد على التحرر من قوانين الطبيعة ، هذا التحرر صانع الحضارة البشرية وإبداع الإنسان الحالم .

وبعد . ففي هذا العالم المتلاطم بالأفكار والعقائد . بل والوساوس والهواجس أيضاً وبال حرب والخوف من الحرب ، يملك إنسان العصر الحاضر الضياع والنزق ، بعد أن أصبحت الحضارة مهددة بالدمار ، وليس الفن التجريدي وأدب اللامعقول والقمصان السوداء الشيبية الشائخة إلا ظاهرة معبرة عن هذا الفلق النضائي الذي يخامر ذهن الإنسان فيجعله يتساءل عن مصيره ومصير الحضارة التي أبدعها وشادها على مر الزمان بالجهد المتواصل والعمل الدائب الخيبيث . ومن عجب أن الإنسان صانع الحضارة ، يقف موقفاً متناقضاً . فهو يخطى على الحضارة في الوقت نفسه يهددها بالخطر والفناء والقضاء عليها وعلى نفسه أيضاً ، إذا ماركب متن الطيش واستسلم لغرائزه الحيوانية . وأفلت زمام القيادة من يده .

ترى هل يبقى الإنسان أنيساً أم يعود وحشاً إلى حياة الغاب ؟!

غانة في العصور الوسطى

دكتور ابراهيم على طرفار

١٥٥

أقدم إمبراطورية قامت في السودان الغربي — تفسير إسمها — عناصر سكانها :
السونك — حكومة البيض الأولى — حكومة السونك — العاصمة غانة أو كومي
صالح — ما أسفرت عنه عمليات الحفر — ظهور الإسلام وقدم انتشاره في غربى
أفريقيا — قدم الإسلام في غانة — نمو المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامي في عاصمة
غانة — الهنبيون — أهمية المسلمين في غانة — إسلام بعض ملوك السونك — دور
المرابطين — قيام حكومة غانة الإسلامية وارتباطها بالخلافة العباسية — أحوالها
العامية : نظم الحكم وتقاليد — الحياة الاقتصادية : صادرات غانة و وارداتها —
تجارة الملح — نقاره وتجارة الذهب — التجارة الصامتة — تجارة الرقيق —
البناء الاجتماعى في إمبراطورية غانة — ترف الملوك — التريب والتصفيق في التحية
الملكية — بعض العادات الوثنية — الحياة الروحية والثقافية — العلاقات الخارجية —
نهاية غانة (١٢٠٣ م) — الجمهوريات الحديثة التي قامت في أراضي غانة — لم
استعارت جمهورية غانة الحديثة اسم الإمبراطورية التاريخية المريق ؟

تعتبر إمبراطورية غانا التاريخية أقدم الإمبراطوريات الأفريقية القومية التي قامت
بالسودان الغربي ؛ وقد بلغت هذه الإمبراطورية ذروة مجدها خلال القرن الحادى
عشر الميلادى (١) .

ونظراً لندرة الوثائق الخاصة ببناءه ، فإن المعلومات المتداولة عن فجر تاريخها
ليست من الدقة بحيث يمكن الاعتماد عليها ، وتبدأ المعلومات والمعارف المتعلقة بتاريخ
غانة تتضح منذ القرن الثامن الميلادى فصاعداً . يقول الفع محمود كمت ، عن ملوك
غانة الأوائل :

« وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم أن يتأتى بصحة
شئ من أمورهم يقطع بها ، ولم يتقدم لهم تاريخ فيصمد عليه » (٢) .

اشتهرت إمبراطورية غانا بهذا الاسم بالنسبة إلى عاصمتها مدينة غانة Ghana أو Ghanate^(٣)، ويقول جوبى Gouilly عن مدينة ولاتا Oualata — وهى الواردة فى رحلة ابن بطوطة باسم «أيوالآت» — أنها ليست سوى تحريف لكلمة «غاناتا»، كما ينطقها السود،^(٤) وذلك نقلا عما ذكره ما رمول Marmol فى القرن السابع عشر^(٥). والمعروف أن مدينة ولاتا، أنشأها أو عمرها المسلمون الجافلون من أهل غانة، على أثر هجوم الصوصو عليهم (١٢٠٣).

والراجع أن كلمة غانة، كانت أصلا، لقباً، يلقب به ملوك هذه الإمبراطورية^(٦) والملاحظ أن هذه التسمية ليست لها أصول عربية^(٧). يقول البكرى: «وغانة سمة لملوكهم واسم البلد أوكار». ^(٨) ويقول ياقوت: «غانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا من العربية، وهى مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب، متصلة ببلاد السودان»^(٩) وعن القلقشندى: أن بلاد غانة تقع «غربى صوصو، وتجاور البحر المحيط الغربى، وقاعدته — أى قاعدة هذا الإقليم — مدينة غانة، وهى محل سلطان بلاد غانة»^(١٠) وعند المقرئى: ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة^(١١).

وللمؤرخ الغينى جبريل نيان Djibril Nian، تفسير، يلتقى مع الدلالات السابقة لعاصمة «غانا»، قال جبريل فى كتابه عن غانا، تعنى كلمة غانة، بلغة السوننك «القيادة العسكرية»، ثم صارت تعنى العاصمة، مركز القيادة، ثم اتسع المدلول حتى صار يطلق على الإمبراطورية^(١٢).

* * *

أما عن أصول سكان إمبراطورية غانا التاريخية، فهناك أساطير مختلفة حول هذه الأصول، من ذلك ما وضع فى بعض وثائق قبائل الهوسا، أن أهل غانة القدماء، كانوا يسمون أنفسهم التورد أو التوروث Taurud or Towrooth وأهم جاءوا أصلا من وادى دجلة والفرات، أى أن لهم أصولا آشورية وبابلية قديمة، ومعنى هذا اتناؤهم إلى العنصر الذى يرجع أصل موطنه إلى منطقة جبال طوروس، ووصل ذروة مجده فى التاريخ فى وادى دجلة والفرات^(١٣).

والنسبة إلى الأصول الشرقية أمر مألوف عند كثير من شعوب السودان الأوسط والغربى، وهى الشعوب التى اشتهرت فى التاريخ وكونت لها إمبراطوريات واسعة.

مثل مالى ، وارثة غانة ، وصنغى وارثة مالى ، وكذلك عنداً باطرة برنو وغيرهم (١٤) .

والحقق أن أهم القبائل التى تكون أغلب سكان إمبراطورية غانة فى العصور الوسطى ، هى قبائل السونك Soninke وهى من فروع « الماند » الأساسية ، أى من مجموعة الشعوب أو القبائل المتكلمة بلغة « الماند » (١٥) . وتنفرد مجموعة السونك : عن بقية فروع الماند الأخرى ، بصفات جثمانية خاصة ، وتقاليدها الاجتماعية معينة .

كان السونك يقيمون فى الصحراء ، ثم تركزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية ، فيما اشتهر باسم « الساحل » حيث امتزجوا بالبربر والفولانيين ، وهم زراع مرتبطون بالأرض ، غير أن هذا لم يحل دون عملهم فى التجارة ، ولعل اختلاط السونك بغيرهم من العناصر ولا سيما البربر ، هو الذى غير بعض الشئ فى ألوانهم حتى أن الولوف يطلقون على السونك المقيمين فى حوض السنغال اسم : سيركول أو سراكول Sarakole أو Sere-Kule أو Ser-Koulé وتبنى هذه التسمية عند الولوف : الرجال الأحمر أو الناس الأحمر Red Men مما يدل على أنهم لم يكونوا صريحيين فى الصفات الزنجية النقية .

تضم مجموعة السونك فروعاً مختلفة : اشتهرت بأسماء متنوعة ، تبعاً للأماكن التى قامت بها ، أو تبعاً لأسماء العشائر التى برزت من بينها ، أو بحسب تسمية جيرانهم لهم . فقبائل البامبارا ، وهى فرع من الماندينجو ، تطلق على السونك المقيمين فى منطقة منحنى النيجر ، اسم ماركا Marka أو ماركنك Mark-nke ويعرف السونك المقيمون فى ديا Dya ، غربى ماسنة ، باسم ديا كانك Dyakanke نسبة إلى محل إقامتهم ، ويبدو أن منطقة ديا كانت مركز تجمع للسونك ، ومنه تفرقوا فى شتى الجهات بالسودان الغربى ، بل إن هذه التسمية ، ديا كانك ، أطلقت على المستعمرات التى استقروا فيها فى أعلى نهر غمبيا وفى فوتاجالون .

وكذلك يعرف السونك عند الغاربة باسم « أسوانك » Aswanik ، واشتهرت هذه التسمية على فريق من السونك يقيم جنوبى نهر النيجر ، ونسب المقيمون منهم فى مدينة طوبى Tuba إليها ، وهذه تسمية عربية إسلامية ، انتقلت إلى غربى أفريقية ولذلك فهم يعرفون باسم الطوباكى Tubaki . وفى مدينة جنى ، اشتهر السونك باسم « نونو » نسبة إلى اسم أول عشيرة سونكية هاجرت إلى

جنى . أما المجموعات القليلة التي بقيت في الصحراء ، فاشتهرت باسم «الأزير» Azer هذا ، وقد استعمل الفولانيون والهوسا والصنغى ، تسميات أخرى ، أطلقتها على السونتك وهي : أنجرا أو وتقاره (١٦) أو وعكرى (١٧) Wangara-Wangarabe وكانت هذه المجموعة قد هاجرت فيما بعد إلى بلاد الهوسا ، وتدعى أنها من أصل فارسي ، واشتهرت المنطقة التي أقامت فيها بهذه التسمية « وتقاره » ، والمعروف أن هذا المصطلح يطلق كذلك على الماندنغو ، كما عرفت به منطقة مناجم الذهب .

أما مجموعة الدياوارا Dyawara التي استقرت في منطقة كنجى Kingi ، وهي أصلا من منطقة ديا Dya ، فبالرغم من لغتها السوننكية ، إلا أنها تختلف من الناحية التاريخية ، عن بقية المجموعات السوننكية ، كما أن مستعمرات هذه المجموعة المتفرقة في جيدمابا Gidimaba وكيز Kayes وبافولاب Bafulabe وغيرها ، تكلم بلغة القبائل التي أقامت بينها واختلطت بها .

ومن أشهر أقسام السونتك الرئيسية ، كما يقول بنجر Binger تسعة ، هي :

١ — السسيون Sissé

٢ -- آل بكر Bakaré

٣ — السليون Sillé

٤ — الديابي Diabi

٥ — الساخو Sakho

٦ — الكابا Kaba

٧ — الدوكورى Doukouré

٨ — النياخاتى Niakhate

٩ — الدياتورا Diaoura وهؤلاء الآخرون ، ينقسمون بدورهم إلى فرعين

هما : الساجوى Sagoué والدابو Dabo .

والراجع أن هذه الأقسام : عبارة عن العشائر الكبرى أو الأسرة الكبيرة التي اشتهرت بين السونك ، بدليل أن الحكومة السونكية الوطنية ، كان ملوكها من آل سيبي (١٨) .

وهناك أقسام أخرى ثانوية أو فرعية ، منها : الجاساما Gassama والتابوري Tabouré والدياخابا Diakhaba والفسورو Fissourou والفاديجا Fadiga والدافي Dafé والبيريق Béréte (١٩) الخ .

* * *

وأول حكومة قامت في غانة ، حكومة من البيض ، يقال إنها رحع إلى حوالي القرن الأول الميلادي ، ثم صارت ذات بأس وسطوة خلال القرن الرابع الميلادي ، والمتواتر في بعض المصادر أن جماعة من المهاجرين البيض الساميين ، جاءت من الشرق ، أو من شمالي أفريقيا ، ومن برقة بصفة خاصة ، واستقرت هذه الجماعة في منطقة أوكار Awkar أو Aoukar (٢٠) وسط مجموعة من الزوج تتكلم لغة الماندي ، وأغلب هذه المجموعة من السونك . كان زوح هذه الجماعة أقرب إلى الهجرة السلمية منها إلى الغزو المسلح ، واختلطت هذه الجماعة بالوطنيين من السونك ، حتى تغير لونها بطول الزمن ، وأخذت لغة الوطنيين (٢١) .

وفي وقت ما خلال القرن الرابع الميلادي ، استطاع هؤلاء البيض أن يسيطروا نفوذهم على الوطنيين الذين عاشوا بينهم ، وظهر بين البيض زعيم قوى اسمه « كارا » استطاع أن يؤسس دولة نواتها منطقتا كارا Kara وحوض Hodh ويطلق المغاربة اسم أوكار ليشمل حوض كذلك وظلت سلالته تحكم هذه الدولة حتى قرب نهاية القرن الثامن الميلادي .

يقول دلافوس Delafosse وسبيتز Spitz أن هؤلاء البيض من اليهود السوريين الذين كانوا يقيمون في برقة ، وأنهم هم الذين أسسوا حكومة غانة الأولى (٢٣) وعن المسعودي أن حكام غانة الأول جاءوا إليها من الحبشة ، وهم من جنس به دماء عربية (٢٤) .

والمحقق أن حكام غانة الأول من البيض ، يقول المسعودي : « وهم ييضان

في الأصل» (٢٥) غير أن الشك حول أصولهم الغامضة ، هل هم من اليهود أم من البربر ؛ ويقول السعدى : « ولا نعلم أصلهم » ، والراجح أنهم من البربر ، الذين اختلطوا بالنوج . وصلة قبائل البربر ببلاد السودان قديمة ، ثم أن أهل غانة أنفسهم يقولون ، إن أسرة بربرية كان تحكيم في بلادهم منذ زمن بعيد ؛ ويقول بومان Baumann بأن مؤسس حكومة غانة الأول هم : البيض الأفريقيون من البول أو من البربر الليبيين (٢٦) ، ويقول محمود كمت : « واختلف أى قبيلة هم كانوا منها ، قيل من وعكرى (٢٧) ، وقيل من ونكر (٢٨) ، وهو ضعيف لا يصح ، وقيل من الصنهاجة ، وهو أقرب عندى ، لأنهم يقولون في نسبهم أسكح . وهو حم في اصطلاح سودان لقباً ، والأصح أنهم ليسوا من السودانين والله أعلم ، وقد بعد زمانهم (٢٩) . . » والخلاصة أن حكومة غانة الأولى من البيض ، وأنهم من البربر ولها أصول شرقية .

والتواتر عن عدد ملوك هذه الأسرة التي حكمت غانة : أنه بلغ نحو ٤٤ ملكاً ، يقول السعدى : « وأول سلطان في تلك الجهة هو قيمع ، ودار إمارته غانة ، وهى مدينة عظيمة في أرض باغن (٣٠) ، قيل إن سلطتهم كانت قبل البعثة ، وتملك ٣٣ ملكاً ، وبعد البعثة ملكها (٣٢) ملكاً ، وهم بيضان في الأصل ، ولا نعلم أصلهم ، وخدامهم عكريون » (٣١) .

على أن هذا الرقم ليس دقيقاً بدليل أن صاحب الفتاش ، ذكر ، أن من حكم من هؤلاء الملوك قبل البعثة النبوية ، بلغ عددهم نحو ٣٠ ملكاً (٣٢) . وقد أوضح صاحب الفتاش كذلك أن كيمع ، كما ضبطه بفتح الكاف والياء والميم والغين ليس اسماً ، وإنما هو لقب . يقول : « وكيمع فى لغة وعكرى ملك الذهب » (٣٣) .

وأورد صاحب الفتاش اسم ملك ، كان يعاصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى القرن الأول الهجرى والسابع الميلادى ، وهو كنسمى ، كما ضبطه . قال : « وحدثنى بعض السلف أن آخرهم كنسمى . . وهو الملك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣٤) .

الخلاصة : لم يعرف ، حتى الآن ، فيما أعلم ، من ملوك الحكومة الأولى ، التى

قامت في غانة سوى ثلاثة أسماء أو اسمين ولقب ، هي : كيمغ أو كيمع وكارا
وكنسمى (بفتح الكا وكسر النون وفتح السين والعين وسكون الياء) .

١ — (كيمع) كان يحكم في وقت ما قبل القرن الرابع الميلادى .

٢ — كارا حكم خلال القرن الرابع الميلادى .

٣ — كنسمى كان يحكم خلال القرن السابع الميلادى .

وقد ظل ملوك هذه الحكومة يحكمون إمبراطورية غانة حتى قرب نهاية القرن
الثامن الميلادى (٣٥) .

اتسع نفوذ هذه الحكومة ، حتى صار يشمل المساحات الممتدة بين أعلى نهر
السنغال وأعلى نهر النيجر ، وذكر سبيتز Spitz أن إمبراطورية غانة زمن هذه
الحكومة كانت زراعية إقطاعية (٣٦) ، غير أن هذا لم يحل دون اشتغالها بالتجارة
واستخراج الذهب ، إذ أن عظمة غانة التاريخية قامت على ثروتها من الذهب والتبادل
التجارى وأن ملوكها قد بلغوا من القوة والثراء ، بحيث صاروا يلقبون بملوك الذهب ،
كما صارت بلادهم تعرف بأرض الذهب (٣٧) .

ولقد أفاض صاحب الفتاش في وصف قوة غانة وسعة نفوذها وعظمة ملوكها
وأورد أخباراً عن الملك كنسمى ، المعاصر للرسول (صلمم) ، هي أقرب إلى الأساطير
منها إلى الحقيقة ، إلا أنها تصور ، على أية حال ، عظمة ملوك هذه الدولة ، ومدى
ما كانوا عليه من ثراء وقوة ، فهو يقول ، مثلاً :

« إن له ألف خيل مربوطين في داره ، عادة معروفة ، إن مات واحد منهم في صبح
جىء بآخر مكانه قبل المساء وفي الليل كذلك ، ولا ينام واحد منهم — أى من الخيل —
إلا على زربية ، ولا يربط إلا بحريز في عنقه وفي رجله ، ولكل منهم آنية من النحاس
يول فيها ؛ لا يقطر من بوله على الأرض قطرة ، إلا في الإناء ، لا في ليل ولا في نهار ؛
ولا ترى زبلا واحداً تحت واحد منهم ولكل واحد منهم من الخدم ثلاثة أنفس ،
يجلسون تحته ، واحد منهم يقوم بلفه ، وواحد منهم يسقيه ، وواحد منهم موكل على
رصد بوله وحمل زبله » (٣٨) .

وحوالى نهاية القرن الثامن الميلادى ، قامت أسرة من السونتك ، وهى أسرة سيسى Sissés أو Sosse ، ونجحت فى طرد أسرة البيض الحاكمة ، أو دولة كيجم ، وكانت هذه الأسرة الجديدة تتحكم فى منطقة وجادو Wagadou (٢٩) .

ويحتمل أن أول ملوك الحكومة السونتكية لم يكن من آل سيسى الذين اشتهر أمرهم ، وإنما كان من آل وكورى، وإن آل سيسى أزالوا حكم هذه الأسرة السونتكية المنافسة وحلوا مكانها ، فقد ورد أن الملك بنتجوى Bentigui Doukouré كان يحكم حوالى عام ٧٩٠ م .

وصور صاحب الفتاش نهاية الحكومة الأولى بقوله :

« ثم أفنى الله ملكهم ، وسلط أراذلهم على كبرأئهم من قومهم واستئصالمهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم ، حتى يبقروا بطون نساءهم ويخرجوا الجنين ويقتلونهم » (٤٠) .

ظلت الأسرة السونتكية الجديدة تحكم إمبراطورية غانة حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التى استولى خلالها المرابطون على عاصمة غانة من عام ١٠٨٦ — ١٠٨٧ م (٤١) وفى عهد هذه الأسرة بلغت إمبراطورية غانة ذروة مجدها وعظمتها واتساعها . كما اشتهرت بثرائها وقوتها . أما أعضاء الأسرة الهاربة . فقد اتجهوا مع أنصارهم إلى بلاد تسكروور . حيث اختلطوا بالتكرارة . ويقال إن هؤلاء البيض الهاربين لم يهودوا بيضاً . كما كانوا فى الأصل . إذ تغيرت ألوانهم حتى صاروا أشبه بالزنوج . نجحوا فى التحكم السياسى فى منطقة تكرو . وظلوا أصحاب النفوذ حتى القرن الحادى عشر . عندما هب التكرارة . وطردها هؤلاء المتعصبين . ويقول بعض الكتاب إن هؤلاء البيض هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم الفولانيين (٤٢) .

وليس من المعروف من ملوك الحكومة السونتكية سوى خمسة أسماء هى : بنتجوى وتكلان وبولوتان وبسى ومن بعده تنكامين Tenkamenin وهو ابن أخت بسى . وكان تنكامين يعاصر البكرى (١٠٩٤ م) وولى هذا الملك عرش غانة حوالى عام ١٠٦٣/هـ ١٠٥٥ م أى قبيل فتح المرابطين لغانة بقليل (٤٣) .

١ — بنتجوى دو كورى كان يحكم حوالى عام ٧٩٠ م .

٢ — تكلان Tiklan . كان يحكم حوالى مطلع القرن التاسع الميلادى .

٣ — تلوتان أو بولاتان Tloutan or Boulatan وهو ابن السابق كان يحكم حوالى عام ٨٣٧ م .

٤ — بى Beci توفى حوالى عام ١٠٦٣ م .

٥ — تنكامين وهو ابن أخت السابق ، ولى عرش غانة حوالى عام ١٠٦٣ م .

* * *

والظاهر أن لقب « كيمع » أى ملك الذهب ، ظل يطلق على جميع ملوك غانة ، سواء أ كانوا من الحكام البيض الأول ، أو من حكام السونك السود ، الذين حكموا منذ نهاية القرن الثانى الميلادى ، بدليل ما ذكره صاحب الفتاش ، من أن سلطنة مالى لم يستقم أمرها إلا بعد اقراض دولة كيمع ، والواضح تاريخياً أن زوال إمبراطورية غانة كان فى مطلع القرن الثالث عشر على يد الصوصو .

ولعل شمول هذا اللقب لجميع ملوك غانة ، هو الذى جعل بعض كتاب الغرب يخلطون ، أمثال ج. يفر G. Yver ودى بدرال De Pedrals ، فجعلوا كيمع أول ملوك حكومة السونك الزنوج من آل سيسى ، وهى التى ورثت السلطة فى غانة بعد حكومة البعيض الأولى ، مع أن الفع محمود كمت يقول إن « كيمع من الملوك الأوائل وقد قضى منهم عشرون ملكاً قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤٤) . ويقول السعدى : « وأول سلطان فى تلك الجهة هو كيمع ودار إماراته غانة » (٤٥) .

والخلاصة أن لقب ملك الذهب أو قيمع ، أطلق على جميع حكام غانة ، أرض الذهب منذ عهد الحكومة الأولى حتى اختفاء غانة من التاريخ فى القرن الثالث عشر الميلادى .

كان حكام غانة الجدد أقوى من أسلافهم البيض (٤٦) إذ عملوا على توسيع حدود ملكهم ، وفى عهد هذه الأسرة ، استولت غانة على أودغست (٤٧) ، وهى عاصمة إمبراطورية إسلامية سادتها من البربر من قبيلة لتونة ، وقد تم فتح أودغست حوالى عام ٩٩٠ م ، ووضع حكام غانة عليها حاكماً سونكياً أسوداً ، وربما اتخذها ملك غانة محل إقامة له فى بعض الأوقات ؛ ومنذ ذلك التاريخ ، أصبحت أودغست خاضعة

لغة وتُدفع لها الجزية ، حتى منتصف القرن الحادى عشر تقريباً ؛ وكان خضوعها لسادة غانة ، من بين الأسباب التى دفعت المرابطين فيما بعد إلى مداومتها وعقابها جزاء هذا الخضوع (٤٨) .

ومن البلاد الهامة التى خضعت لإمبراطورية غانة ، مدينة ولاته وأبناره وكوغه والوكن وسامة ؛ ويصف البكرى أهل سامة ، بقوله : « إنهم يسمون بالبكم ، ولهم حذق بالرماية يرمون بالسهم المسمومة ، ويورثون الإبن الأكبر مال الأب كله » (٤٩) .

بلغت إمبراطورية غانة ذروة قوتها واتساعها خلال الفترة من القرن العاشر الميلادى إلى قرب أواخر القرن الحادى عشر ، وشملت من الأقاليم الهامة ، بجانب أوكار وهوذ ، باسيكورو Bassikuru ووجادو فى الشرق وديارا Diara فى الغرب وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو ، فى الجنوب الشرقى (٥٠) والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ، ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً ، بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وصارت أعظم قوة سياسية فى السودان الغربى ، ويمكن القول بصفة عامة ، أنها امتدت من ناحية الشمال ، وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية ، وربما وصلت غزواتها إلى منطقة أدرار وامتدت من ناحية الغرب إلى أعلى السنغال وفرعه باول Bawle وحدود ملكة الشكاررة ، ومن الشرق إلى قرب تمبكتو ، وجنوباً بغرب إلى أعلى النيجر وأعلى السنغال ومنطقة الذهب فى ونقارة ، لكنها لم تتحكم فى ونقارة نفسها ؛ وهناك احتمال بأنها امتدت فى بعض الأحيان إلى المشارف الشمالية لجمهورية غانة الحديثة ، وهى التى كانت معروفة من قبل باسم مستعمرة ساحل الذهب وإلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية ، بحيث اقتربت من مواطن الوثنيين المعروفين فى الكتب العربية باسم «الكفار اللعمية» Iem Iem كما يقول الإدريسي (٥١) وعن السعوى : « وتحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك » (٥٢) .

وحسبنا ما يقوله الفخ محمود كمت عن قوة ونفوذ إمبراطورية غانة وسعة أملاكها ، فقد نذكر أن إمبراطورية مالى — وارثة غانة — لم يستقم أمرها « إلا

بعد انقراض دولة كيجم سلطان المغرب كله بلا استثناء مكان ما منه . وسلطان مل
من عبيده وخدمه ووزرائه « (٥٣) » .

* * *

أما عاصمة هذه الإمبراطورية فقد ازدهرت زمن حكومة السونك الوطنية
إلا أن تأسيسها يرجع إلى عهد حكومة البيض الأولى ، ويقال إنها بنيت حوالي
عام ٣٠٠ م (٥٤) ، وظلت تنمو بالتدرج ، ونظراً لتقدم الإسلام في بلاد غانة (٥٥) فإن
حياً إسلامياً قام بعاصمة غانة حتى صار مدينة كبرى قائمة بذاتها ، وحسبنا الأوصاف
الدقيقة التي أوردها الكتاب العرب المسلمون عن هذه المدينة وأقسامها ..

يقول البكري :

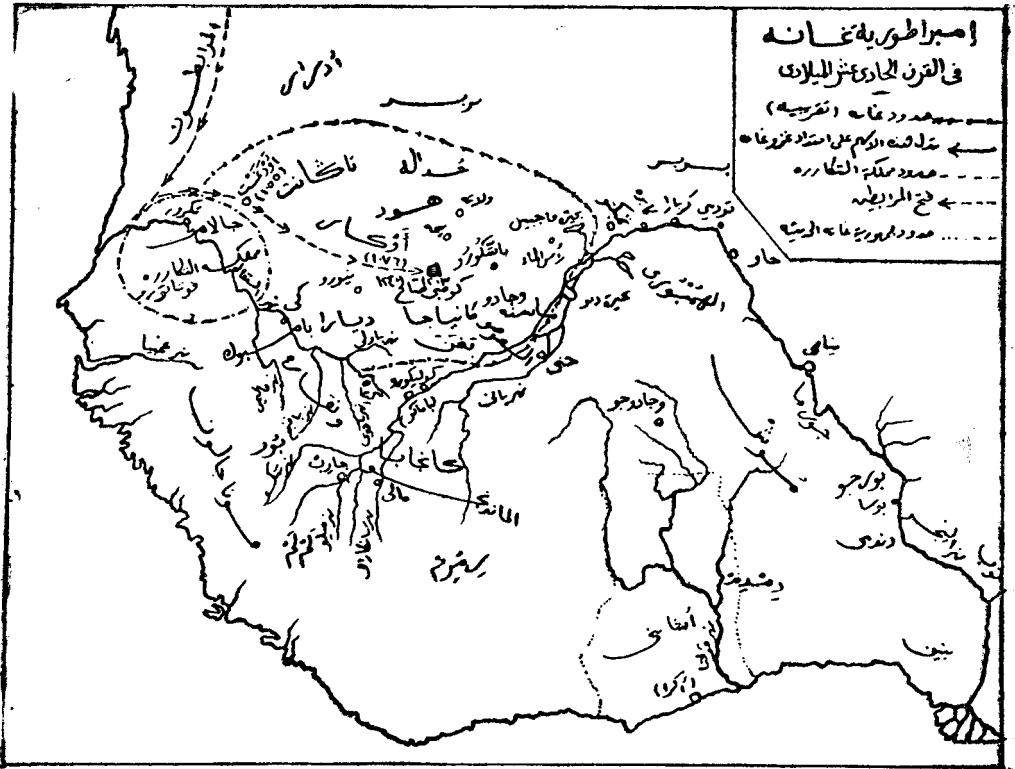
«ومدينة غانة مدينتان سهليتان ، إحداها المدينة التي يسكنها المسلمون ، ومدينة
الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة (٥٦) والمسكن بينهما متصل ، ومبانيهم
من الحجارة وخشب السنط ، وللملك قصر وقياب ، وقد أحاط بذلك كله حائط
كالسور . وحول مدينة الملك قباب وغابات .. يسكن فيها مسعرتهم ، وهم الذين
يقيمون دينهم ، وفيها دكا كيرهم — الدكور هو الضم — وقبور ملوكهم . وتلك
الغابات حرس ، ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها ، وهناك سجون الملك ،
فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبرة» (٥٧) .

وتشبه هذه الغابة ما عرف عند الجرمان الأولين باسم الغابة المقدسة (٥٨) وعن
الإدريسى : « غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو ، وهي أكبر بلاد السودان
قطراً ، وأكثرها خلقاً وأوسمها متجراً » (٥٩) ، ويقول في موضع آخر : « ولهم
— أي سكان العاصمة — زوارق يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها » (٦٠) .

وعن ابن الوردي :

« هي مدينتان على ضفتي النيل ، ويقصدها التجار من سائر البلاد » (٦١) ويقول
القلقشندي « إنهما مدينتان على ضفتي نيلها ، إحداها يسكنه المسلمون ، والثانية يسكنها
الكفار » (٦٢) . وعن القرزبي « وغانة مدينتان : إحداها يسكنه المسلمون
والأخرى الكفار » (٦٣) .

* * *



وموقع مدينة غانة القديمة ، موضع تقاش وجدل ، ولكن أطلالها ، تقع اليوم بالقرب من الحدود الجنوبية لجمهورية موريتانيا الحديثة ، وتقع ضمن أراضي جمهورية مالي الحديثة . لقد أخطأ ليو الافريقي حين قال ، إن غانة هي نفس مدينة «كانو» الواقعة في شمالي بلاد الهوساء بنحو ٢٠٠ ميل (٦٤) وظل هذا الخطأ شائماً عند الأوربيين حتى ظهر كتاب كولي Cooley عام ١٨٤١ ، وأوضح بدقة موضع غانة في مكان ما جهة الغرب (٦٥) وهي على طريق القوافل العربي القادم من مراکش ، والسكان الصحيح يبعد عن تمبكتو بمسيرة بضعة أيام إلى الجنوب الغربي من تمبكتو وعلى بعد نحو ألف ميل شمالي جمهورية غانة الحديثة ، ونحو ٢٠٠ ميل شمالي باماكو عاصمة جمهورية مالي الحديثة (٦٦) .

قامت حفارٌ للبحث عن آثار هذه المدينة ، التي كانت خلال القرن العاشر

والحادى عشر الميلاديين أعظم مدن السودان العربى كما كانت سوقاً عظيمة بين بلاد البيض وبلاد السودان ، فضلا عن أنها ملتقى طرق القوافل « (٦٧) .

بدأت هذه الحفائر عام ١٩٠٧ م على يد العالم الأثرى الفرنسى دبلاج فمثر على أطلال مدينة تدل على أنها كانت مزدهرة ، وقال : إن هذه هى أطلال غانة ، وأنها كانت تقع على جانبي بحيرة صغيرة ، وحدد مكانها على بعد نحو مائتى ميل غربى مدينة جنى ونحو ٤٠ ميلا شمال شرقى مدينة كولىكورو ، الواقعة شمالى باماكو (٦٨) .

وفى عام ١٩١٤ قام حاكم فرنسى لإحدى المقاطعات وإسمه بونل ميزير وحفر فى موقع فى المنطقة المشهورة باسم « الساحل » جنوبى الصحراء الكبرى ، واقتنع بأن هذا الموقع يحتمل أن يكون مكان عاصمة غانة ، التى وصفها البكرى . استمر الحفر فى هذا الموقع المعروف باسم « كومبى صالح » وحدد بعده عن باماكو بنحو ٢٠٥ ميلا (٦٩) وقد ساهم المهد الفرنسى لأفريقيا السوداء بذاكار IFAN فى هذه الحفريات (٧٠) .

تجدد الحفر عام ١٩٣٩ ، ولم يقف إلا عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، وبعد عشر سنوات ، قام توماس ومونى MAUNY (١٩٤٩ — ١٩٥٠) بأعام العمل ، وخلصا ما عثرا عليه من آثار ، على ضوء المعلومات التى تجمعت لهديهما (٧١) .

أوضح هذان الباحثان ، فى عام ١٩٥١ ، أن الآثار التى عثرا عليها ، ليست سوى بقايا المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامى من مدينة غانة ، ودلت هذه الآثار على أن هذه المدينة كانت زاهرة ، وتشغل نحو ميل مربع من الأرض ، وسكنها ما لا يقل عن ٣٠ ألف نسمة ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان مدن العالم المعروفة يومئذ (٧٢) .

والراجع أن هذه المدينة الإسلامية كانت مركز الحكومة الإسلامية التى قامت فى غانة فى عهدها الأخير ، أى عندما صار ملوك غانة على الإسلام (٧٣) وتشبه هذه المدينة الصنهاجية حالياً والمعروفة باسم سالونجارى الواقعة قرب مدينة كانو (٧٤) .

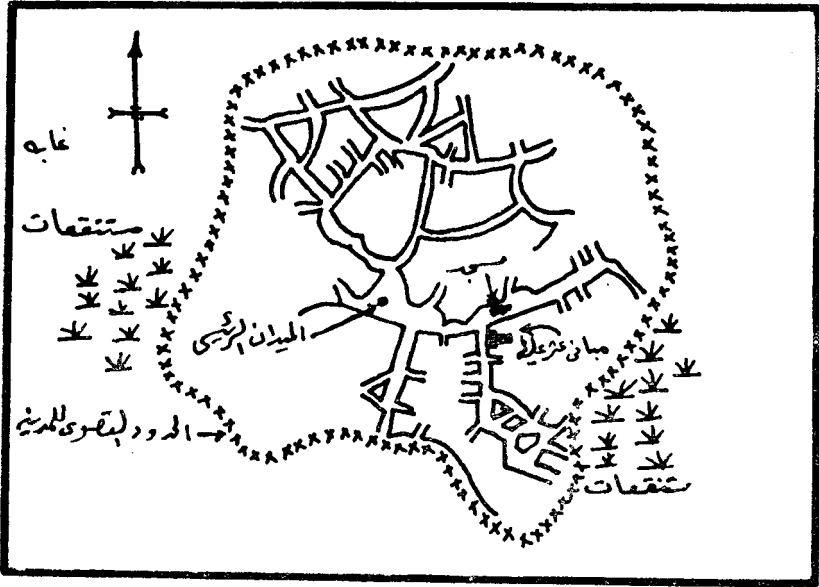
كشفت الحفريات عن عدد من المنازل والمساجد ، ومن بين ما كشفه توماس ، مؤسستان أو مبنيان كبيران ، يحتمل أن أحدهما كان يبلغ في الطول نحو ٦٦ قدماً وأن عرضه أو اتساعه بلغ نحو ٤٢ قدماً ، وبه سبع غرف مفتوحة داخل بعضها البعض ، وأن هذا المبنى كان يتكون من طابقين بينهما سلم . أما المبنى الآخر فهو أكبر من الأول ، وكان يضم تسع غرف ، ولا تزال على جدرانه الداخلية بقايا الطلاء الأصفر (٧٥) .

ولم يعثر على شيء من الذهب أو الفضة ، ولكن عثر على مخزن كبير به أدوات مصنوعة من الحديد ، وقد علق موني على هذه المكتشفات بأنها دليل ناصع على حضارة متقدمة ، مما يدعم مقالة الزهرى عن شدة بأس أهل غانة لأنهم استخدموا الأسلحة الحديدية ، وكان ذلك سبب انتصارهم على الجيران الذين كانوا يحاربون بقضبان من الأبوس (٧٦) .

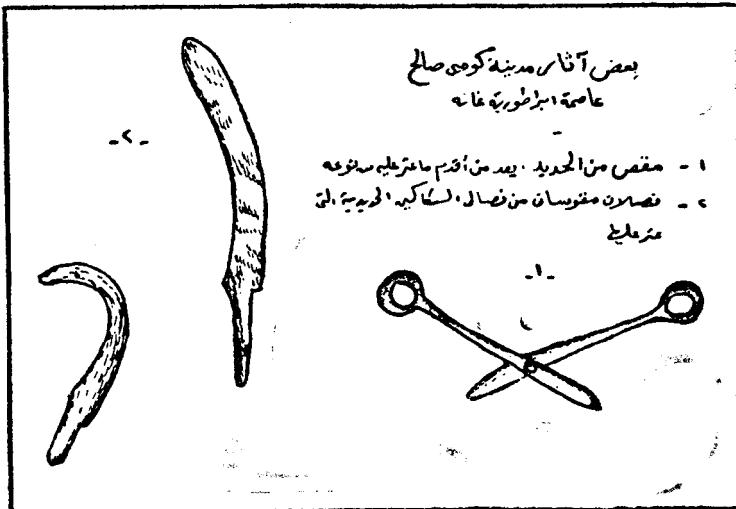
وماعثر عليه في أطلال كومي صالح ، حراب وسكاكين ورؤوس سهام ومسامير ، ومجموعة مختلفة من الآلات والأدوات الزراعية ، وتعلق مارجريت شيف بأن هذه لا بد وأنها صنعت محلياً (٧٧) كذلك عثر على مقص حديدى دقيق الصنع ، ربما كان من أقدم ما عثر عليه من هذا النوع في أية دولة (٧٨) ووجدنا فضلاً عن ذلك كمية كبيرة من الصنج الزجاجية ، من الواضح أنها كانت تستخدم في وزن الذهب وهناك بقايا كثيرة من الأواني الفخارية ، تحمل طابع البحر المتوسط و٧٧ قطعة من الحجر الملون ، منها ٥٣ قطعة أو لوحاً مكتوب عليها بعض آيات القرآن الكريم بالخط العربى ، بينما تضم الألواح الأخرى وعددها ٢٤ لوحاً زخارف ونقوشاً (٧٩) .

وكشف كذلك عن عدد كبير من المقابر ، من بينهما مقابر ملكية ، ومن بين هذه اللوحات شواهد قبور .

ولم يتم الحفر بعد في موقع كومي صالح ، ويمكن القول : إن هذا هو كل ما عثر عليه حتى عام ١٩٦٥ م ، ولم يعثر للآن على شيء من آثار مدينة الغابة الوثنية ، أو القسم الوثنى من مدينة هانة (٨٠) ويبدو أنها اندمجت في المدينة الإسلامية وعفت.



مدينة كوفى صالح عاصمة امبراطورية غانه
(عن توماسى و موفى)





شاهد قبر لسيدة عثر عليه في أطلال كومي صالح ، مكتوب باللغة العربية
والعبارة المكتوبة :

« اللهم ارحم
فاطمة الطاهرة (هرة)
... بنت سيد
نا محمد ابن
سيد موسى
.....
«

آثارها الوثنية ، عندما تحولت حكومة غانة الإسلامية منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

* * *

أما عن الإسلام وانتشاره فى السودان الغربى ، فالمعروف أنه بدأ ينتشر منذ حوالى منتصف القرن السابع الميلادى أى بعد فتح مصر وشمالى أفريقية ، ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، هم الذين أدخلوا الإسلام تلك البلاد لأول مرة ، بل إن حركتهم أدت إلى ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام .

فأصالة التجارية والثقافية قديعة منذ الأزمنة السحيقة ، بين بلاد السودان وبلاد البحر المتوسط ، وقد كثرت هجرات المسلمين بعد ظهور الإسلام ، من العرب والبربر إلى بلاد السودان ، وذلك منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر وشمالى أفريقية . واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم فى تلك البلاد .

وهناك جهود إمبراطورية أودغست الإسلامية وتفانى ملوكها فى نشر الإسلام بين الزنوج . بلغت هذه الإمبراطورية ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وقامت بدور كبير فى الدعوة إلى الإسلام قبل حركة المرابطين .

والمعروف أن أودغست مدينة سوننكية الأصل ، ولو أن حكماها من البربر من قبيلة لتونة ؛ جهدت هذه الإمبراطورية فى نشر الإسلام ، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمالى أفريقيا ، عبر الطرق الصحراوية ؛ والسلمة الهامة المطلوبة لبلاد السودان هى الملح . يقول ابن حوقل :

« وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام » (٨١) وفى موضع آخر يقول :

« وملك أودغست يحاط ملك غانة » (٨٢) .

ويذكر عن الملك الأودغستى تيبوتان أنه كان شديد التعمس لنشر

الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب (٨٣) . وأن الملك تين بروتان ابن ونسو بن نزار ، الأودغسقي كان قد بلغ من سعة النفوذ وقوة السلطان ما جعله سيداً على أكثر من عشرين من ملوك السودان ، كلهم يؤدون له الجزية (٨٤) وكان هذا الملك يحكم في الفترة ما بين ٩٦١ ، ٩٨١ م .

كل تلك جهود وصلات مباشرة بين المسلمين وبلاد السودان ، لها أثرها لا شك في دخول أعداد كبيرة في الإسلام قبل القرن الحادى عشر .

وفي مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، جاء إسلام ملك التكرور وأرجابى ابن رابيس (ت حوالى ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م) ، عنصراً هاماً في ازدياد انتشار الإسلام وهو صاحب الفضل في إسلام أهل « سلى » (٨٥) من أعمال تكرور ، ويقول البكرى ، أن المسافة بين سلى وبين غانة « عشرون يوماً في عمارة بلاد السودان » (٨٦) .

وليس من شك في أن هذه الصلات المتنوعة ، وهذه الجهود البارزة ، قد أدت إلى انتشار الإسلام في غربى أفريقية ، ولما كانت غانة جزءاً من غربى أفريقية ، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين بنينا ، بدرجات متفاوتة . لكن لا نستطيع أن نقول إن البلاد كلها . . . حكومة وشعباً ، أو حكماً ومحكومين ، قد اعتنقت الإسلام ، أو أن الإسلام صار الدين الرسمى لإمبراطورية غانة .

والراجح أن أعداداً كبيرة من سكان غانة قد اعتنق الإسلام ، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد غانة في زمن مبكر ، قبل المرابطين .

وهناك أكثر من دليل على قدم الإسلام في غانة ؛ فقد ذكر البكرى (ت ١٠٩٤ م) أن بنى أمية أرسلوا جيشاً إسلامياً لفتح بلاد السودان ، في صدر الإسلام ، واستقرت ذرية هذا الجيش في غانة وكما يتضح من مضمون عبارة البكرى أن سلالة هذا الجيش أهملت التمسك بالإسلام ، إلا أن وصول هذه الموجة الإسلامية إلى غانا كان اتصالاً مباشراً في وقت مبكر .

وعبارة البكرى :

« وبلاد غانة قوم يسمون بالهنيين ، من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنقذوه إلى غانة فى صدر الإسلام ، وهم على دين أهل غانة ، إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه » (٨٧) .

ويقول القلقشندى عن إسلام أهل غانة : « وكان أهلها أسلموا فى أول الفتح » (٨٨) ؛ ثم إن نحو الحى الإسلامى بعاصمة غانة ، أو المدينة الإسلامية ، ليس من المقول أن تكون قد ظهرت مرة واحدة أو خلال وقت قصير ، بحيث أصبحت تضم إثنى عشر مسجداً ، وأنها صارت موطناً لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم .

يقول البكرى :

« ومدينة غانة مدينتان سهيلتان إحداها المدينة الإسلامية التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجداً ، إحداها يجمعون فيه — أى يؤدون فيه صلاة الجمعة — ولها الأئمة والمؤذنون ، وفيها فقهاء وحملة علم ، وحواليها آبار عذبة ، منها يشربون وعليها يتعلمون الخضروات .. » (٨٩) .

ومن الظواهر البارزة فى تاريخ إمبراطورية غانة ، حتى فى عهد الحكومة الوثنية ، أن المسلمين لكثرتهم وأهميتهم وثقافتهم ونشاطهم ، سواء أكانوا من السوننك الوطنيين أو من المستوطنين العرب والبربر ، تمتعوا باحترام واضح من قبل الملوك الوثنيين ، ومجرد نحو القسم الإسلامى فى العاصمة ووجود إثنى عشر مسجداً به ، دليل كبير على هذا الاحترام وهذا التسامح ، وأكثر من هذا ، أقام الملك الوثنى مسجداً فى الحى الوثنى من العاصمة وهو « الغابة » لكى يؤدى فيه المسلمون الوافدون عليه ، شعائر دينهم ، يقول البكرى : « وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس الملك » (٩٠) . ويصف البكرى الملك الغانى تنكاسمين بقوله إنه كان « محمود السيرة محباً للعدل ، مؤثراً للمسلمين » (٩١) .

هذا ، وإسلام رعايا غانة قبل حكومتها ، لم يحل دون تولى المسلمين أسمى المناصب فى الحكومة ، وحسبنا ما ذكره البكرى عن كبار رجال حكومة الملك الوثنية .

« وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه » (٩٢) .

لكن هذا لا يعنى أن جميع ملوك غانة ، كانوا على الوثنية ، بل هناك رواية دو لارونسيير De La Roncière ومؤداها أن الملك تولتان أو بولاتان وهو ابن تكلان اعتنق الإسلام حوالى عام ٨٣٧ م ، وأنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين (٩٣) .

وإذا صححت هذه الرواية ، فإنها لا تدل على أن ملوك غانة صاروا مسلمين على التعاقب منذ القرن التاسع الميلادى فصاعداً ، بل المحتمل أن قلة منهم أسلمت وأن غالبيتهم ظلت على الوثنية إلى أن جاءت حركة المرابطين (٩٤) .

جاء المرابطون فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد بدأوا حركتهم فى المشارف الشمالية لبلاد السودان ، باخضاع أودغست عام ١٠٥٥ م ، عقاباً لها على خضوعها لحاكم سونكى ، واتجهوا بعد ذلك إلى مدينة غانة واستولوا عليها عام ١٠٧٦ م ، وعينوا عليها حاكماً من البربر (٩٥) .

ومنذ ذلك الوقت ، أى من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية غانة الإسلامية ، حتى اختفائها من التاريخ فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد أضحت حكومتها إسلامية ، ويقال إن الملك تشكامنين السونكى كان يحكم غانة عند فتح المرابطين لها ، وأنه قبل الدخول فى الإسلام ، والخضوع لسلطان المرابطين ودفع جزية ، وأنه باسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان العاصمة وغيرها من المدن فى الإسلام (٩٦) .

والمحقق ، أن الكثير من سكان إمبراطورية غانة ، قد اعتنق الإسلام قبل القرن الحادى عشر الميلادى ، وأنه منذ فتح المرابطين لعاصمة غانه ، ازداد عدد الداخلين فى الإسلام كما أسلم ملوكها أو أخفى ملوكها مسلمين ، وأصبحت الحكومة إسلامية منذ ذلك الوقت (٩٧) .

ومع أن حركة المرابطين أدت إلى إضعاف غانة سياسياً وأن سيادة المرابطين فى غانة أو تبعية غانة للمرابطين ، لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما تخلصت من هذه السيادة على أثر وفاة أبى بكر أمير المرابطين ١٠٨٧ م ، وتفرق كلتهم من بعده (٩٨) إلا أن هذه الحركة كانت بعيدة الأثر فى ازدياد انتشار الإسلام وثقوية العقيدة الإسلامية فى السودان الغربى عامة (٩٩) .

واشتهر أهل غانة ، وأغلبهم من السوننك ، بحبهم للإسلام ، وبالدور الكبير الذى نهضوا به فى الدعوة إلى الإسلام ، إذ كانت هذه العقيدة ذات أثر عميق فى حياتهم الاجتماعية ، حتى إن بعض العشائر السوننكية ، تكاد تخصص بالعمل فى الدعوة إلى الإسلام فقط ، بل إن كلمة « سوننك » فى أعلى نهر غمبيا ، استخدمها الماندنكا الوثنيون مرادفاً لكلمة « داعى » ، مما يدل على الدور الكبير الذى لعبه السوننك فى نشر الإسلام (١٠٠) . ووصف الغرناطى إسلام أهل غانة ومدى محافظتهم على أداء فروض الدين ، بقوله :

« وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ، سبط الشعور ، لهم عقول وفهم ، ويحبون إلى مكة » (١٠١) .

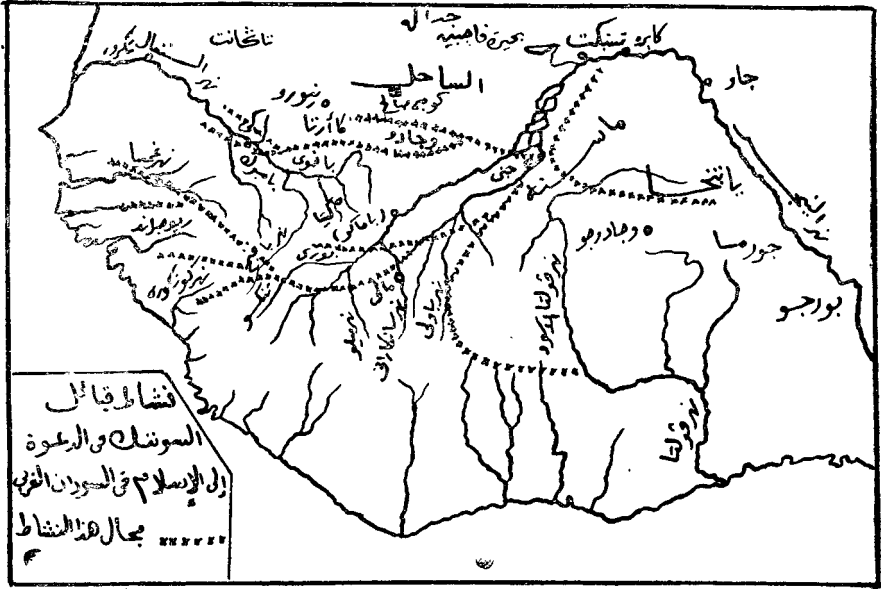
ازداد عدد الداخلين فى الإسلام ، واشتهر كثير من المدن الغانية ، غير العاصمة بكثرة من فيها من المسلمين ، من هذه المدن غيارو Ghiarou ، القريبة من نهر النيجر الأعلى ، يقول البكرى عنها . « وفيها كثير من المسلمين » (١٠٢) . كذلك مدينة رمنى الواقعة غربى غيارو ، يسكنها المسلمون ، « وما حولها مشركون » على قول صاحب المغرب (١٠٣) .

أما حكومة غانة الإسلامية ، فقد عملت على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية فى بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة (١٠٤) . كما أن ملوك غانة الإسلامية ادعوا أنهم ينتسبون إلى البيت العلوى .

يقول الإدريسي :

« وهلها — أى أهل غانة — مسلمون ، وملكها فيما يوصف ، من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى (١٠٥) . . وأشار ابن الوردى (١٠٦) إلى إسلام ملك غانة الذى عناه الإدريسي فى مقاله ، ويقول القرزى : « ومدينة غانة محل سلطان غانة ، ويدعى أنه من نسل الحسن بن على ، عليه السلام » (١٠٧) .

والنسبة إلى البيت العلوى أمر مألوف ومشهور عند كثير من ملوك السودان ، فقد ادعاها ملك مالى وارث غانة (١٠٨) كما ادعى ملوك برنو أنهم من سلالة سيف بن



في زين (١٠٩) وكل هذه أساطير إلا أنها تلقي ضوءاً من ناحية أخرى ، على أهمية علاقة الشرق الإسلامي بالإمبراطوريات الإسلامية التي قامت في غربي أفريقيا ، وحرص تلك الإمبراطوريات على ارتباطها بالحضارة الإسلامية ، فضلاً عن أهمية الالتئام إلى الأصول الشرقية في نظرها .

ونظام الحكم في إمبراطورية غانة ، ملكي استبدادي ، شأن جميع النظم القائمة في الإمبراطوريات والممالك التي ظهرت في السودان الغربي والأوسط ، سواء أكانت في عهد الوثن أم في عهد الإسلام .

والنظام السائد في وراثته العرش هو توريث ابن الأخت . يقول البكري عن هذا النظام في غانة :

« وستهم أن الملك لا يكون إلا في ابن اخت الملك ، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته ، وهو يشك في ابنه ، ولا يقطع على صحة اتصاله به » (١١٠) . ويقول في موضع آخر :

« ولا يلبس الخيط من أهل دين الملك غيره ، وغير ولي عهده ، وهو ابن أخته » (١١١) .

والمعروف أن الملك السوننكي تسكامنين الذى ولى عرش غانة حوالى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، كان قد ورث الملك عن خاله بسى Beci (١١٢) .

وعلى البكرى هذه الظاهرة ، بتوفريتين فى أن الوليد هو ابن أمه ، وهذا صحيح لكن من المعروف أيضاً ، أن لهذه الظاهرة أصولاً ترجع إلى التقاليد الوثنية القديمة ، وهى التى تولى من شأن المرأة عند أغلب القبائل الأفريقية الوثنية ، وبرزت عند السوننك ، وهؤلاء ، كما سبق ، فرع من الماندنجو ، والتقليد عام عند الأصول والفروع ؛ كذلك عرفت هذه الظاهرة عند قبائل البربر ولا سيما الطوارق ، وصلة هؤلاء ببلاد السودان ، ترجع إلى أزمنة موزلة فى القدم (١١٣) .

وقد أضعف الإسلام ظاهرة التوريث لابن الأخت ، وابن البنت ولكنه لم يقض عليها قضاءً تاماً فى جميع الإمبراطوريات والممالك الإسلامية التى قامت بالسودان العربى والأوسط ، بدليل بقائها فى بعض الممالك الإسلامية بالسودان الغربى وقد شهدها ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر فى مدينة تسكده ، فلم تعجبه وعلق عليها بقوله : « وذلك شئ ما رأيت فى الدنيا إلا عند كفار بلاد طليارالهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون » (١١٤) .

وحدث شبيه هذا فى إمبراطورية مالى عندما انتقل العرش إلى ابن البنت ، وعلق القلقشندى على ذلك بقوله ، بأن هذا العمل جاء « على قاعدة العجم فى تملك البنت وابن البنت » (١١٥) .

أما مكانة المرأة ، فلم تنحط بالإسلام ، وإنما نظمت ، وظلت منزلتها الرفيعة كما هى ، بدليل انتساب أعظم سلاطين مالى إلى أمهاتهم مش كنكن موسى (ت حوالى ١٣٣٧ م) الذى نسب إلى أمه نانا كانجو (١١٧) وكذلك الشأن فى إمبراطورية بورنو مثل المالى إدريس بن حفصة I. Hafeami ت ١٣٧٦ م والمالى داود بن فاطمة D. Fatimami (ت حوالى ١٣٨٦ م) (١١٨) وهكذا .

وكان ملك غانة ينظر فى جميع شئون الإمبراطورية ، مهما كانت صحته ومقدرته ولياقته ، وأورد البكرى خبراً عن الملك بسى الذى أورش عرشه لابن أخته ، مؤداه أنه ولى العرش وهو ابن ٨٥ سنة وأن بصره قد كف فى أواخر أيامه ، فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته « ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يديه أشياء فيقول هذا حسن

وهذا قبيح ، وكان وزراؤه يلبسون ذلك الناس » (١١٩) .

وأما الحكم المحلي ، فكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ولايات أو ممالك ، يقول ابن الوردي : كان لملك غانة « ممالك عديدة فيها ملوك من تحت يده » (١٢٠) وكما كان للعاصمة وال أو حاكم كان لكل من الولايات أو الممالك الخاضعة لغانا ، حاكم أو ملك ؛ ومن أشهر الولايات ، أوكار وهي نواة إمبراطورية غانة ، وكذلك هود ، في الوسط ، والممالك البربرية في الشمال ، وديارا وتا كانت (١٢١) في الغرب وباسيكورو في الشرق وواجاد وكايناغا وبغن (١٢٢) في الجنوب والجنوب الشرقي .

ومع أن نظام الحكم يقوم على أساس المركزية ، إلا أن بعض المقاطعات أو الولايات ، كان الحكم فيها وراثياً في أسر معينة ، حتى إذا أحست هذه الولايات بضعف في السلطة المركزية بالعاصمة ، ثارت واستقلت ، كما حدث عند دخول المرابطين ، غانة عام ١٠٧٦ م ، إذ استقلت كل من ديارا وكايناغا وجالام ، ولم يعد نفوذ السونك باقياً إلا في أوكار وباسيكورو (١٢٤) .

وكبار موظفي الملك ومستشاريه ووزرائه من المسلمين حتى في العهد الوثني ، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة سواء من الوطنيين السونك ، أو بمن هاجر من العرب والبربر واستقر في غانة (١٢٥) وشجع على ذلك نشاط التجارة وازدهارها وتوفر فرص العمل في حكومة غانا ، فضلاً عن توفر الأمن لمدة تقرب من قرنين ، فقد كان لإمبراطورية غانة فرق من الحرس تجوب الصحراء (١٢٦) ولهذا أكبر الأثر في نمو المدينة الإسلامية وازدهارها بالصفوة من العلماء والمتقنين ، وقيام المدارس العربية الإسلامية فيها (١٢٧) .

ومن تقاليد الحكم في إمبراطورية غانة ، تلك المجالس التي يعقدها الملك للنظر بنفسه في المظالم ، سواء أكان ذلك في العهد الوثني أم في العهد الإسلامي ، وواضح فيها الأثر الشرقي ، ويصف البكرى هيئة جلوس الملك للنظر في المظالم ، ويقول :

« وهو — أى ملك غانة الوثني — يجلس للناس والمظالم في قبة ، وحواله عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراءه عشرة من الغلمان ، يحملون الحجب (١٢٩) ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وعن يمينه أولاد ملوك بلده — أى ملوك الأقاليم والولايات الخاضعة له — قد ضفروا رؤوسهم على الذهب ، وعليهم الثياب الرفيعة ، ووالى المدينة — أى حاكم أو محافظ العاصمة — بين يدي الملك جالس على الأرض ، وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض ، وعلى باب القبة كلاب منسوبة — أى أصيلة — لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه ، في أعناقها سواجير (١٣٠) الذهب والفضة ، يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة ، وهم يندرون بجلوسه بطبل يقال له دبا (١٣١) ، وهو خشبة طويلة منقورة ، فيجتمع الناس » (١٣٢) .

ومن التقاليد في مواكب الملك أن بعض الحيوانات كانت تتقدم هذه المواكب مثل : « الفيلة والزرافة وضروب من الوحوش التي في بلاد السودان » كما يقول الإدريسي (١٣٣) .

ويصف الإدريسي هيئة ركوب الملك المسلم للنظر في المظالم . فيقول : « وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ، ومن سيرته ، قربه من الناس وعدله فيهم ، له جملة قواد يركبون إلى قصره كل يوم ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ، ركب وسار يقدمهم ويمشى في أزقة المدينة وداير البلد ، فمن كانت له مظلة أو نابه أمر ، تصدى له ، فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضى مظلمته ، ثم يرجع إلى قصره ، ويتفرق قواده ، فإذا كان بعد العصر ، وسكن حر الشمس ، ركب مرة ثانية ، وخرج وحواله أجناده فلا يقدر واحد على قربه ، ولا على الوصول إليه ، وركوبه في كل يوم مرتين سيرة معلومة » (١٣٤) .

وقد أشار الإدريسي بهذا الوصف ، إلى ملك كان يحكم خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو صاحب القصر الذي يؤرخ لبنائه بعام ٥١٠ هـ — ١١١٦ م (١٣٥) .

ومن ناحية القوة الحربية ، اشتهرت امبراطورية غانة بقوة جيشها وكثرة تعداده ، يقول ابن الوردي : « ولها ملك ضخم في جنود وعدد وعدد » (١٣٦) ويتكون أغلب الجيش الغانى من القبيلة أو العشيرة التي تنتمى إليها الأسرة المالكة (١٣٧) ومع أن خيول غانة ، كما يقول البكرى قصيرة ، إلا أن جيشها عرف بقوة فرسانه (١٣٨) .
يقول البكرى :

إذا احتفل ملك غانه ، ينتهى جيشه إلى مائتى ألف ، منهم رماة أزيد من أربعين ألف ، و خيل غانه قصار جداً (١٣٩) .

تسلح هذا الجيش بالأسلحة الحديدية ، مما مكّنه من الانتصار على جيران غانه الذين كانوا دونها في التسليح ، وقد لاحظ الزهرى قبل عام ١١٥٠ م أن سكان غانه قاموا بحملات حربية ضد جيرانهم ، وانتصروا عليهم بفضل أسلحتهم الحديدية من السيوف والحراب والرماح والخنجر فضلا عن القوس والنشاب ، وذلك على حين كان أولئك الجيران يحاربون بقضبان من الأبوس (١٤٠) .

* * *

وعن الحياة الاقتصادية في امبراطورية غانة ، الثابت أن عظمة غانة التاريخية وشهرتها و ثرائها ، إنما ترجع أساساً إلى أرباحها التجارية الطائلة ، يقول ابن الوردي عن غانه وتجارها :

« وهى أكبر بلاد السودان وأوسمها متجراً ، وهم في سعة من المال ، ويقصدها التجار من ساير البلاد » (١٤١) .

ثم إن موقع امبراطورية غانة ؛ وموقع عاصمتها كومي ، على حدود الصحراء الجنوبية ، وفي أقصى شمالي منطقة الزنوج ، قد جعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب ، كما أن تحكّمها في طرق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب الكبرى في جنوبها الغربى ، أفادها وأثرها (١٤٢) .

أضحت مدينة كومي صالح ، أكبر سوق في بلاد السودان ، زمن ازدهار امبراطورية غانه ، وقد استقر فيها عدد كبير من التجار البيض وتحكّموا في التجارة

السودانية ، وأهمها الذهب والرقيق ، وكان من بين التجار عدد كبير من التجار المصريين ، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذى اشترى كتلة الذهب الكبرى التى كان ملوك غانة يحتفظون بها فى تصورهم (١٢٣) .

تاجرت غانه مع جميع المدن الهامة فى شمالى أفريقيا مثل طرابلس وأوجيلا وورقلان وسجلماسة ، واعتبرت المدن الثلاث الأخيرة ثغوراً للصحراء الكبرى ، وهى التى أمدت بلاد البحر المتوسط بسلع غانه وفى مقدمتها الذهب (١٤٤)

كانت إمبراطورية غانة تصدر الذهب والرقيق والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل ، وكذلك القطن والقمح (١٤٥) ، وينسب إلى حكومة غانة الأولى إدخال زراعة القطن وصناعة النسيج فضلاً عن بعض الحيوانات الأليفة ، منها الثيران ذات الأنتاب ، بل إن إمبراطورية غانه فى فجر نموها ، وصفت بأنها إمبراطورية زراعية إقطاعية (١٤٦) . والدورة الزراعية فى غانه اثنتان ؛ يقول البكرى : وهم « بزراعون مرتين فى العام على ثرى النيل (١٤٧) ، كذلك عندهم الأبنوس الجيد ؛ ورواية صاحب المغرب « عندهم الأبنوس المجزع الجيد » (١٤٨) .

وتستورد غانه الملح والنحاس الأحمر والفواكه المجففة ، ومن بينها التمر ، وكذلك استوردت الودع والمساج وأدوات الزينة ، وكانت هذه السلع توزع فى جميع أرجاء بلاد السودان ، والمعروف أن صناعة المساج كانت من الصناعات الأساسية فى مدينة سوتا حيث نهضت ونشطت من أجل التجارة مع السودان ، وتوجد مصائد للمرجان عند شواطئها (١٤٩) .

على أن أهم ما صدرته غانه هو الذهب والرقيق ، وأهم ما استوردته هو الملح .

يقول دافيدسون Davidson

« تقع غانه بين مناجم الملح فى الشمال ومناجم الذهب فى الجنوب » (١٥٠) . واشتهرت أودغست بتصدير الملح إلى غانه ، يقول ابن حوقل : « وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة ، من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لا قوام لهم إلا به ، بلغ الحمل الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار » (١٥١) كان هذا الملح يستخرج من مناجم تعازة فى الشمال ، ويحمله التجار

التجارة في طريقهم إلى بلاد السودان (١٥٢) وأهم طوائف التجار التي عملت مع غانه تجار سجلماسة ، يقول ياقوت :

« وأهل هذه المدينة — أى سجلماسة — من أغنى الناس وأكثرهم مالا ، لأنها على طريق من يريد غانه التي هي معدن الذهب ، ولأهلها جراحة على دخولها » (١٥٣) .
وعن العرناطى :

« يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال ، من الملح المعدنى ، فيخرجون من بلد يقال لها سجلماسة ، آخر بلاد المغرب الأعلى ، فيمشون في رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء ، يهتدون بالنجوم وبالجمال في القفار ويحملون معهم الزاد ستة شهور ، فإذا وصلوا غانه ، باعوا الملح وزنا بوزن الذهب ، وربعا باعوه وزنا بوزنين أو أكثر ، على قدر كثرة التجار وقتهم » (١٥٤) .

حصلت غانه على ثروة طائلة من الضرائب التي فرضتها على السلع الداخلة إلى بلادها ، والخارجة منها ، وقد أقامت نظاماً دقيقاً للجهاك (١٥٥) ، وكان للمسلمين في غانه خبرة واسعة بالشؤون المالية ؛ ولذلك استعان بهم ملوك غانه منذ العهد الوثنى ، حتى كان منهم من أشرف على الشؤون المالية للحكومة (١٥٦) .

قرر ملك غانه ضريبة قدرها ديناران ذهب على كل حمولة حمار من الملح يدخل بلاده ، وديناران عن كل حمولة تخرج من دياره ، وعبارة البكرى :

والمكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجها ، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل (١٥٧) وعن حمل المتاع عشرة مثاقيل « (١٥٨) .

وكانت مدينة تكده الواقعة شرقي النيجر ، مشهورة بإنتاج النحاس من مناجمها ، وصدرته إلى جميع بلاد السودان العربي والأوسط ، وكذلك كانت تصدره إلى مصر (١٥٩) .

وأما تجارة الذهب ، فهي التي كانت مصدر الربح الكبير لامبراطورية غانه ، مع أن غانه لم تسيطر على المناجم الرئيسية للذهب في منطقة وتقاره ، إلا أنها تحكمت في الطريق المؤدية إليها ، فضلا عن أن بلادها ضمت بعض المناجم ولاسيما مناجم غيارو .

يقول الإدريسي : « وتصل مملكته — أى مملكة صاحب غانه — بأرض وتقاره ، وهى بلاد التبر المذكورة ، الموصوفة به كثرة وطيباً » (١٦٠) ، وفى موضع آخر يقول : « وشرقى غانه ، أرض وتقاره ، أرض التبر ، بينهما ثمانية أيام ، وهى جزيرة كبيرة يحيط بها النيل (١٦١) .

والواقع إن هذه المنطقة لا تقع شرق غانه كما يقول الإدريسي ، بل هى تقع فى جنوبها الغربى ، والمقصود بالنيل هنا السنغال ، وتقع هذه المنطقة بين فروعه العليا باخوى وبافنج وفاليمى (١٦٢) .

يقول ماجور دنهام D. Denham : « تطلق كلمة وتقاره Ouangara or Ouakoré على كل مناطق الذهب ، وعلى جميع القادمين منها » . والواقع أن هذا المصطلح أطلق كذلك على قبائل الماندينجو ولاسيا على قبيلتى أوفرعى الجولا Jula والسونك .

وتشمل منطقة وتقاره أربعة أقاليم هى : بامبوك Bambuk الواقعة بين روافد السنغال العليا باخوى وبافنج وفاليمى ، وبور Bure عند أعلى نهر تنكسو Tinkisso رافد النيجر ، ولوبى Lobi عند أعلى نهر فولتا واشانتي داخل جمهورية غانه الحديثة .

والراجع أن كلمة وتقاره كما عنها كتاب العرب ووصفوها بأنها أرض الذهب ، بعض هذه الأقاليم وليست كلها (١٦٣) .

ولكثرة ما حصلت عليه غانه من الذهب ، وصفت بأن أرضها كلها ذهب ، يقول ابن الوردى :

« وأرضها كلها ذهب ظاهر ، وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه كاللبن ، وتسافر إليها التجار من سجماسة فى مغارة نحو اثني عشر يوماً » (١٦٤) ، ويقول السعوى : « وتحت يد ملك غانه عدة ملوك وممالك فيها الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله ويعملونه مثل اللبن » وظفر ملوك غانه بأكثر نصيب من هذه الثروة حتى قال ابن حوقل « وغانه أيسر من على وجه الأرض من ماوكها ، بما لديه من الأموال . . (١٦٥) المدخرة من التبر المثار » (١٦٦) .

وأوضح البكري أن هناك أنواعاً من الذهب ، يستصفيها الملك لنفسه ، ويترك ما دونها لرعاياه ، حتى لا ينحط سعر الذهب أو تضعف قيمته ، وعبارته بصدد الذهب المستخرج من منطقة عيارو .

وأفضل الذهب في بلاده (١٦٢) ما كان بمدينة عيارو ، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوماً ، في بلاد معمورة بقبائل السودان ، مساكن متصلة ، وإذا وجد في جميع بلاده الدرّة (١٦٨) من الذهب استصفاها الملك لنفسه ، وترك منها للناس هذا التبر الدقيق ، ولولا ذلك ، لكثير الذهب بأيدي الناس حتى يهون ، والدرّة تكون من أوقية إلى رطل ؛ ويذكر أن عنده منه ندرّة كاللحجر الضخم « (١٦٩) .

قام ملوك غانه وتجارها ، بدور الوسيط بين منتجي الذهب في الجنوب وبين العرب في الشمال ، وهؤلاء بدورهم باعوه لأوربا ، وكانت الأسواق الأفريقية هي المنبع الرئيسي للذهب بالنسبة لأوربا قبل كشف أمريكا .

يقول موني :

« كان السودان أعظم مصدر للذهب إلى عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ، حتى تم كشف أمريكا » (١٧٠) ولقد اعتمدت الدول الأوربية على الذهب الوارد إليها عن طريق غانه اعتماداً كبيراً (١٧١) كما كان الذهب الواصل إلى مراکش ، عنصراً هاماً في اقتصاد تلك البلاد خلال تلك العصور (١٧٢) .

أما كيف حصلت غانه وتجار غانه وكذلك تجار المغاربة الذين صحبوا تجار غانه ، على الذهب من منتجه في أعلى السنغال ، فإن ذلك كان يتم عن طريق ما اصطلاح على تسميته بالتجارة الصامتة أو التبادل الصامت أو *Silent Trade or Dumb-Barter or Commerce Muet*

ويعني هذا المصطلح التعامل والمساومة أو المبايعه — على قول المسعودي — بين أقوام لا يعرف أحدهم لغة الآخر أو يحرص أحدهم على الاحتفاظ بسر منابع ثروته ، خوفاً من النهب والسطو ، أو لأن قوماً من السنج يتعاملون مع قوم أدت حوادث التعامل معهم إلى انعدام ثقتهم فيهم ..

ذهب تجار المغاربة بسلمهم من المساجح والودع والصنوعات والملح وغيرها إلى كومي صالح ، عاصمة غانه ، وفيها يجدون زملاءهم وعملاءهم الغانيين في انتظارهم .

يخرج الجميع ، ويسرون نحو عشرين يوماً إلى أعلى السنغال ، وفي أماكن معلومة ، يضرب التجار بطبولهم إعلاناً على وصولهم بالبضائع ، ثم يضمون سلمهم في أكوام أو مقادير معينة على شاطئ النهر ، ويحتفون ، وحينئذ يخرج الزوج العراة ويضعون بجوار كل كومة أو مقدار من السلع ما يروونه نظيراً لها من الذهب ، ثم يحتفون ، فيظهر التجار ، وإذا اقتنعوا بقيمة الذهب حملوه وانصرفوا بعد أن يضربوا بطبولهم إندياناً بانتهاء التبادل أو السوق ، وإذا لم يقتنعوا بالذهب الموجود ، لم يقربوه وتركوه واختفوا مرة أخرى ، فيخرج الزوج ويزيدون من كميات الذهب ، وتكرر عملية الاختفاء والظهور حتى يتم الرضا والاقتناع من الجانبين .

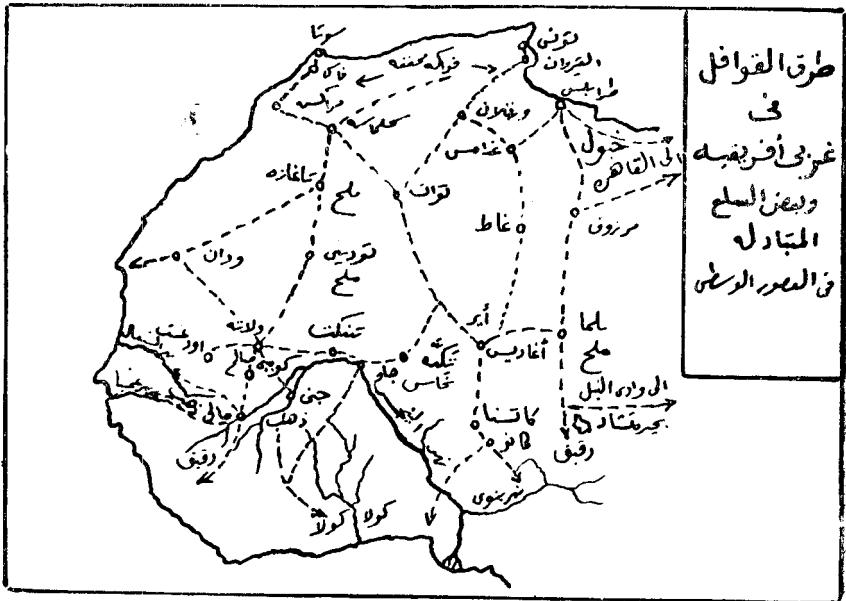
وقد حاول التجار مرة أن يعرفوا شيئاً عن منابع الذهب ، فقبضوا على أحد الزوج ، وعذبوه حتى مات ولكن دون أن يصرح بشيء ؛ ومن أجل هذا الحادث ظل الزوج الوطنيون يمتنعون من الظهور والتعامل مع أولئك التجار نحو ثلاث سنون حتى اضطروا لاستئناف التعامل بسبب شدة حاجتهم إلى الملح بصفة خاصة .

وقد أورد المسعودي وصفاً للتجارة الصامتة بصدده حديثه عن مملكة غانه قال : « وملكها — أى ملك غانة — عظيم الشأن ويتصل ببلاد معادن الذهب ، وبها منهم أمم عظيمة ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم ، فإذا وصلوا إلى ذلك الخط ، جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا ، فأتى أولئك السودان ومعهم الذهب ، فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون ويأتى أصحاب الأمتعة ، فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا . فيعود السودان فيزيدونهم حتى تم المبايعه ، كما يفعل التجار الذين يتبايعون القرنفل من أهله سواء ؛ وربما رجع التجار بعد زوالهم محتفين ، فوضعوا النيران في الأرض فيسبل الذهب ، فيسرقه التجار ثم يهربون لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر ، وربما فطنوا بهم فيخرجون في آثارهم وإن أدركوهم قتلوهم » (١٧٣).

لقد أورد هيرودوت (ت حوالي ٤٥٠ ق.م) وصف مثل هذا المنظر فيما كتب عن تجار القرطاجين قديماً في الذهب ، وفي نفس المنطقة من غرب أفريقية (١٧٤) ويبدو أن هذه الطريقة كانت مألوقة في كثير من أجزاء أفريقية ، وشرح التجار العرب وكذلك تجار البربر من ضناهجه للرحالة كاداموستو (في القرن الخامس عشر للميلادى) أن هذه التجارة لازالت هي السائدة ؛ وكذلك وصفها رحالة آخرون .

على أن التجارة الصامتة لم تكن من خصائص غربي أفريقيا وحده ، وإنما عرفت في تجارة الحرير كذلك في القرن الأول الميلادي ؛ مارسها الرومان والصينيون عند شاطئء أحد أنهار بلاد بارثيا Parthia ؛ كذلك شهدها الرحالة الصيني فاهين Fa-Hein — في القرن الخامس للميلادي في جزيرة سيلان ؛ ويقال إن هذه التجارة كانت أمراً مألوفاً في تجارة الذهب في الحبشة خلال القرن السادس الميلادي ؛ وفي المصور الحديثة ، لازالت صور من هذه التجارة تمارس بين أقزام الكونغو ... وبما إلى اليوم (١٧٥) .

وأما تجار الرقيق فقد راجت كذلك وجنت منها إمبراطورية غانة أرباحاً طائلة ، وكان في العاصمة كرومي صالح مسوق رائجة لهذه التجارة ، وعمون السوق بالعبيد عن طريق الاقتناص من الحدود الجنوبية ، حيث يوجد الزوج البدائيون ، وعمل أهل السودان الغربي والأوسط في تجارة الرقيق في جميع بلاد السودان بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر .



وحصلت غانة على رقيقها بصفة أساسية من القبائل المتوحشة التي عرفت في الكتب العربية باسم الدمام Dem Dem أو اللاميين Lem Lem فيقول البكري :

« مملكة الهمدم غربي غانة ، يأكلون ما وقع لهم ، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده ، وعنده قلعة عظيمة ، عليها صنم امرأة يعبدونها » .

ويقول الإدريسي :

« وجنوب بريسى أرض للمم ، ويغير عليها أهل بريسى وسلى وتكرور وعانة ويسون أهلها ، ويجلبونهم إلى بلادهم ، فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم ، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار ، وإذا بلغ أحدهم الحلم في أرض المم ، وشم وجهه وصدغه بالنار علامة لهم » وفي موضع آخر يقوم الإدريسي :

« وجنوب غانة أرض الكفار الللمية » .

ونظراً لحاجة بلاد السودان إلى الملح وأهمية ذلك ، كان العبد يباع أحياناً بكمية من الملح لا تعدو قدر حجم قدمه ، فقد أورد الشنقيطي بصدد تجارة بلاده شنقيط — من أعمال سوس الأقصى بالغرب — في الملح مع بلاد السودان ، أن تجارة أهل شنقيط كانت رائجة وأن « أعظم ما يتجرون به الملح إلى السودان ، يقال إن العبد كان يباع بمذائه ، أى نعله ، أى أن الملح يقطع على هيئة اللوح الكبير فيشد بالحبال ويوضع على ظهر الجمل فإذا صار إلى السودان ، يجعل تحت قدم العبد منه مقدار نعل ، فيكون قيمة له » . . .

وذكر كذلك ، أن هذا كان في الزمن القديم ، ثم حدث باتساع التجارة وكثرة وصول سلعة الملح إلى بلاد السودان ، أن صار الثمن المألوف للعبد أو الأمة هو حمل جمل من الملح قال :

وحمل الجمل يباع في عبد أو أمة — وكل ما عند السودان يباع في الملح كالحليل والياب — والزرع والعبيد ، ويقال إنهم كانوا يبيعون أولادهم فيه « (١٧٦) .

* * *

قام البناء الاجتماعى في إمبراطورية غانة على النظام القبلى ، شأن غيرها من الإمبراطوريات والممالك التي قامت بالسودان الغربى والأوسط ، غير أن قيام حكومة مركزية مسيطرة ، ساعد على اضعاف التناحر بين القبائل ، كما أن الإسلام وتعاليمه

كانت أكبر عامل في اضعاف العصبية القبلية وأن لم تمحها ، بفضيل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ، اتصل العانيول بأرق الحضارات الإنسانية المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية .

واشتهرت قبيلة السونك بمحاسنها للدعوة الإسلامية ونشر فضائلها ، حتى غدا اسمها في بعض جهات حوض السنغال مرادفاً لكلمة « داعية » (١٧٧) .

ولما كانت قبيلة السونك هي مؤسسة إمبراطورية غانة ، وأن الملكية في بعض عشائرها ، امتازت هذه العشيرة عن غيرها من عناصر سكان غانة ، فكان منها أغلب جيش الإمبراطورية وكثير من كبار أعوان الملك .

أما أعمال الناس في إمبراطورية غانه ، فتنوعت بين الزراعة والصناعة وممارسة بعض الحرف الأخرى ، فيما يشبه التخصص ، فمثلا اشتهرت عشيرة كروما Korma بالعمل في صناعة الحديد ، فاشتهرت هي وغيرها بمن عمل في هذه الصناعة باسم « قبيلة الحدادين » (١٧٨) والمعروف أن صناعة الحديد قديمة في غربى أفريقيا ولاسيا غانة (١٧٩) ، كذلك اشتهرت بعض القبائل بممارسة الزراعة ، عملاً أساسياً لها ، وغيرها بالحياكة وأخرى في الرعى ، والصيد وهكذا (١٨٠) .

وهناك طبقة التجار ، وهي طبقة ممتازة ، وتضم كثيراً من المسلمين الوطنيين فضلا عن العرب والبربر القدين استقروا في كومي صالح وغيرها من المدن التجارية الهامة مثل ولاته (١٨١) .

* * *

ونظراً لشهرة غانة بثرائها ، تمتع ملوكها بالنصيب الأوفى من هذا الثراء فضلا عن الترف والسعة ، وكانت مصالح الملوك وذويهم هي المفضلة دائماً ، وهذه ظاهرة عامة في جميع الإمبراطوريات التي قامت بفرى أفريقيا ، فالعامل المشترك بينها جميعاً ، هو استغلال الرعاية لصالح الحاكمين المستبدين .

كان ملك غانة يستصفي الجيد من الذهب لنفسه (١٨٢) ، بل كان لبعض ملوكها المسلمين قطعة ذهب ضخمة في قصورهم ، استخدموها مربوطاً لحيولهم ، واختلف في

وزنها ما بين ثلاثين رطلا وطن ، كما اقترن بها كثير من الأساطير ، واشتهرت . وعرفت في معظم أنحاء العالم (١٨٣) .

وعبارة ابن الوردي : « وفي قصره تبرة واحدة من الذهب كالصخرة العظيمة ، وفيها ثقب كالربط ، وهو مربوط فرس الملك » (١٨٤) .

ويقول الإدريسي . . « والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علماً يقيناً لا اختلاف فيه ، أن له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبرة واحدة ، خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة ، وقد نقر فيها ثقب وهي مربوط لفرس الملك ، وهي من الأشياء الغريبة التي ليست عند غيره ولا صحت لأحد إلا له ، وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان » (١٨٥) .

وقد تصرف بعض ملوك غانة المسرفين في هذه القطعة ، فيقال إن بعض التجار المصريين اشتروا هذه القطعة ، ويقال كذلك أن وزنها يبلغ نحو طن (١٨٦) .

وقد وصف الأديسي قصر ملك غانة ، الذي بناه عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وما به من زخارف فقال : « وله قصر على ضفة النيل (١٨٧) ، قد أوثق بنيانه ، وأحكم إتقانه ، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان شمسيات الزجاج » (١٨٨) وكان طراز هذا القصر وما به من زخارف ونقوش وألوان وتحف ، قد استوردت من مصر وسوتا وصقلية (١٨٩) .

ونظام تحية الملك ، هو المألوف عند غيره من ملوك السودان الغربي ، وهو نظام الترتيب وهي ظاهرة من العهد الوثني ، وتقضى بأن يضع القادم على الملك التراب على رأسه ، غير أن المسلمين في غانه لم يارسوها ، فكانت تحيتهم للملوك غانه الوثنيين بالتصفيق بالدين .

يقول البكري : « فإذا دنا أهل دينه — أي دين الملك الغاني الوثني — منه جثوا على ركبهم وشرخوا التراب على رؤوسهم ، فتلك تحيتهم له . . وأما المسلمون ، فلإنما سلامهم عليه بكون بالدين » (١٩٠) .

وعرفت هذه الظاهرة عند ملوك مالي المسلمين ، وشهد بها ابن بطوطة ولم

تمجيده (١٩١). وانقرد ملوك غانة وولاية عهدهم بزى خاص يعزهم عن سائر الرعايا، فضلا عن أنواع الخلى التي يزينون بها .

يقول بها البكرى : « ولا يلبس الخيط من أهل دين الملك غيره وعير ولى عهده » (١٩٢) وفي موضع آخر، يذكر البكرى : « وملكهم يتحلى بحلى النساء فى المنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراير المذهبة ، عليها عمائم القطن الرفيعة » (١٩٣) ، وعن الإدريسي فيما يلبسه ملوك غانا « أزار حرير يتوشح به أو بردة يلف بها وسراويل فى وسطه ونمل شركسى فى قدمه ، وله حلية حسنة وزى كامل يقدمه أمامه فى أعياده (١٩٤) ...

أما زى سائر أهل غانة ، فهو كما يقول البكرى : « ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم (١٩٥) ويقول الإدريسي : « ولباس أهل غانة الأزرق والنوط والأكسية » (١٩٦) .

إلا أن الملك يتفق مع رعاياه ، فى مظهر واحد وهو حلق الشعر ، يقول البكرى : « وهم أجمع يحلقون لحاهم ، وأساقم يحلقن رؤوسهن » (١٩٧) .

* * *

ومن التقاليد التى سادت فى غانة الوثنية وأن شابتها الأخبار الأسطورية : اختلاط الملك برعاياه وسمره معهم ، يذكر الفتاش عن ملك غانة الوثنى ، وأسند هذا إلى كيمع ، أى ملك الذهب ، أنه كان « يخرج بعد عشاء كل ليلة يسمر مع قومه ، ولا يخرج حتى يجتمع عليه ألف حزمة — أى حزمة حطب — ويجمعوها فى باب دار مملكته ، ويوقد تحته نار ، ويشعل مرة واحدة ، ويضئ له ما بين السماء والأرض ، ويشرق البلد كله ، ثم يأتى ويجلس على منصة الذهب الأحمر . . . ويأمر بعشرة آلاف من الموائد ويأكلون ، وهو لا يأكل ، فتى تم الأكل ، يقوم ويدخل ولا يقومون حتى تصير الحزومات رماداً ، ثم يقومون ، وهذا على الدوام » (١٩٨) .

وهناك ما عرف باسم « حكم الماء » ، وهو نوع من نظم القضاء أو التحكيم فى العهد الوثنى ، شرح البكرى هذا التقليد بقوله :

« ويبلاد غانة حكم الماء ، إذا اتهم أحد بسرقة أو قتل أو غير ذلك ، عمد أمينهم

إلى عود فيه حرافة ومرارة ورقة ، وصب عليه من الماء قدراً ما ، وسقاه المئهم ، فإن رماه من جوفه ، علم أنه برىء وهنىء بذلك ، وإن لم يرمه وبقي في جوفه ، صحت الدعوى عليه » (١٩٩) .

ومن عادات الدفن في العهد الوثني ، دفن الملك ومعه المقربون إليه من خدمه ، فضلاً عن طعامه وشرابه وحليه ، ولهذا شبيهه في بلاد الشرق القديم . وقد أفاض البكري في وصف هذا التقليد ، يقول :

« ودياناتهم الجوسية وعبادة الدكا كير — أى الأصنام — إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة ، من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره ، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطأ ، فأدخلوه في تلك القبة ، ووضعوا معه حليه وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب ، فأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة ، وأدخلوا معه رجالاتهم من كان يخدم طعامه وشرابه ، وأغلقوا عليه باب القبة ، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ، ثم اجتمع الناس ، فرددوا فوقها بالتراب حتى تأنى كالجيل الضخم ، ثم يخذقون حولها ، حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد ، وهم يجذبون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمر » (٢٠٠) .

ويبدو وضوح الأثر الشرقي القديم في هذا التقليد ، فقد وجد عند ملوك السومريين القدماء (٢٠١) ، كما وجدت صور منه عند الفراعنة ، كذلك وجد هذا التقليد عند ملوك كاتسنا Kirina من دون الهوسا وذلك قبل اعتناقهم الإسلام (٢٠٢) .

غير أنه عندما صارت الحكومة الغانية إسلامية منذ نهاية القرن الحادى عشر ، اختفى هذا التقليد وحلت التقاليد الإسلامية ، وعثر على شواهد القبور عليها بعض آيات القرآن الكريم ، فضلاً عن دعوات لصاحب القبر ، وذلك باللغة العربية (٢٠٣) .

* * *

ومن ناحية الأحوال الصحية في إمبراطوية غانة ، فهذه لم تكن ملائمة لسكنى الأجانب الذين لم يتعودوا عليها ، وهذا أمر واضح ، لسبب عدم ملائمة المناخ في تلك البلاد لغير أهلها ، ولعدم وضوح واجب الحكومة في العناية بالصحة العامة ، وكان البكري صادقاً حين قال :

وغانه بلد مستوية — أى موبوءة — غير أهلة ، لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض ، عند امتلاء زروعهم ، ويقع الموتان في غرباتها عند استحصاد الزرع» (٢٠٤).

* * *

وفي الحياة الروحية والثقافية ، برزت الآثار العربية الإسلامية ، وأوضح ما كانت في العاصمة كومي صالح والمدن الزاهرة الكبرى أمثال ولاته ونيمه وأودغست .

وقد ضمت غانه منذ فجر تاريخها ، وحق قبل أن تتحول حكومتها إلى الإسلام ، نحو اثني عشر مسجداً ، ألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية ، كما أن القسم الإسلامي من العاصمة كان مليئاً بالعلماء والفقهاء والأئمة (٢٠٥) وكذلك كانت ولاته ونيمه ، وأودغست التي كانت مراكز ثقافية عربية إسلامية كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية .

كانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد ، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكائبات ، واحتلت هذه اللغة في غانه وفي غيرها من بلاد السودان العربي والأوسط المكانة التي احتلتها اللغة اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطى ، بل زادت عليها إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة للدين والثقافة حتى في العهد الاستعماري ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا في تلك العصور ، أكثر من هذا ، شهد بعض المكتشفين والمستعمرين في مطلع العصور الحديثة بأن إمام سكان غربي أفريقيا باللغة العربية ، يفوق إمام أوروبا باللغة اللاتينية في العصر الوسيط (٢٠٦) .

أقبل الأفريقيون المسلمون على مناهل العلم العربية في حماس تلقائي ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام وبعته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما امتاز به المسلمون من العرب والبربر الذين استقروا في غانه وغيرها من بلاد السودان ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة في شتى الميادين الاقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافي ، إذ كان المسلمون يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية بدليل استعانة ملوك غانة الوثنيين بهم في أجل أعمالهم (٢٠٧) .

ومن ناحية العلاقات الخارجية ، أبرزها العلاقات التجارية والثقافية ، وهي العلاقات التي ربطت غانه ببلاد البحر المتوسط ، فقد كان ذهب غانه ووارثتها مالى ، عنصراً أساسياً فى اقتصاديات شمالي أفريقيا بصفة خاصة ، وكذلك بالنسبة لأوروبا وعلى الأقل قبل كشف أمريكا (٢٠١٨) .

ومن البيوت التجارية التي ساهمت فى تنشيط هذه العلاقة ، على نحو منظم ، شركة المقرى جداً الكاتب المعروف أحمد بن محمد المقرى المتوفى عام ١٦٣٣ م ، وهو صاحب كتاب نفع الطيب ، ويحتمل أن هذه الأسرة بدأت أعمالها التجارية منذ القرن الثانى عشر الميلادى أى قبل نهاية إمبراطورية غانه بما يقرب من قرن ، وكان لها ممثلون فى مدينة ولانا الخاضعة لغانا وقد شهد هؤلاء القيمون فى ولانا نهاية إمبراطورية غانه على يد الصوصو عام ١٢٠٣ ، وهجرة العلماء والتجار المسلمين من كومبي صالح إلى ولاته بعد دخول الصوصو (٢٠٩) .

وظهرت غانه فى الخرائط التي صدرت بأوروبا فى العصور الوسطى عن مدرسة ميورقه ، فى الخريطة القطلونية أو الأطلس القطلونى لابراهيم كرسك A. Cresques (١٣٧٥) — ظهرت مدينة نيمة Nayma باعتبارها المركز الرئيسى لإمبراطورية غانه Guynoa كذلك ظهر اسم غانه Gheneoa على خريطة فلادست Vill adestes (١٤١٣) ، وأشارت هذه الخريطة أيضاً إلى أمير المرابطين باسم Rev Buberder والمقصود به الأمير أبو بكر الذى فتح غانه ١٠٧٦ ومد ملك المرابطين إلى جنوبى الصحراء (٢١٠) .

وازدادت علاقات غانه مع بلاد العالم الإسلامى الشرقى فى عهد الحكومة الإسلامية التي قامت فى غانه منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ولاسيما بعد أن اتصل ملوك غانه المسلمون بالخلافة العباسية وربطوا أنفسهم بها ، وقاموا فى بلادهم كممثلين للخليفة العباسى ، بل ادعوا النسب العلوى (٢١١) فانتشرت التقاليد الشرقية فى غانه ، ومنها لبس العمامة ، كما أن صلة مصر لم تنقطع بغانه وغيرها من بلاد السودان الغربى والأوسط ، فإن مصر تقع على طريق الحاج ، وظلت أهمية مصر قائمة بالنسبة لبلاد غربى أفريقية ، رغم اضطراب أحوال الشرق الأوسط منذ أواخر القرن الحادى عشر بسبب الصراع الداخلى فى مصر أواخر العصر الفاطمى ثم حلول الخطر

الصليبي الاستعماري ببلاد الشرق الأوسط منذ عام ١٠٩٩م ومحاوله قادة المسلمين توحيد الجبهة الإسلامية للجهاد ضد العدو المشترك، وهى المحاولة التى بلغت ذروة النجاح فى عصر صلاح الدين التوفى عام ١١٩٣م، أى قرب نهاية إمبراطوية غانة الإسلامية .

وحتى بعد سقوط غانة ، ظل حجاجها يمرون بالقاهرة ، وقد شاهد ابن خلدون بعض حجاج كومي صالح فى القاهرة عام ١٣٩٠ م ، وهم فى طريقهم إلى الحج .

* * *

أما الجيران الأفريقيون الأقربون إلى غانة ، فكانت علاقتهم بها أقرب إلى الصراع المستمر منها إلى الهدوء والاستقرار ، ولا سيما تلك الممالك التى خضعت لغانة وكانت تدفع لها الجزية ، لكنها تتحين الفرصة للخروج عليها ، فمن جيران غانة الغربيين ، مملكة التكرور ، وهذه استطاعت أن تحتفظ باستقلالها وقوتها ضد توسع جارتها الشرقية القوية ، وكانت مملكة تكرور أسبق من غانة فى اعتناق الإسلام ، وازدهرت فى القرن الحادى عشر إلى أن طوتها إمبراطورية مالى ومن بعدها صنغى (٢١٢) . وهناك مملكة سلى الإسلامية التى استطاعت أن تحتفظ باستقلالها أيضاً ، كما أن مملكة ماسنة فى الجنوب الشرقى من غانة ، وملوكها من الفولانيين ، وأغلب سكانها من البربر والفولانيين ، لم تخضع لغانة .

وفى جنوبى غانة تقع مملكة الصوصو فى كانياجا ، وهذه خضعت لغانه ودفعت لها الجزية لكنها لم تخلص لها إذ كان الصوصو حينئذ على الوثنية ، بينهما كانت غانة حافلة بعدد كبير من المسلمين ، ولذلك عند ما داهم المرابطون غانة عام ١٠٧٦ م ، استقلت كانياجا ، وأضعت هى الخطر الأكبر على غانة فيما بعد ؛ وأما مملكة مالى فى ذلك الوقت ، فكانت بعيدة عن غانة ولم يكن خطرهما قد وضع بعد .

ومن أقوى ممالك البربر المجاورة لغانة من ناحية الشمال ، مملكة أودغست حيث تسود قبائل لتونة القوية ، ومع أن غانة استولت على أودغست حوالى عام ٩٩٠ م ، إلا أنها استعادت استقلالها بعد صراع طويل (٢١٣) .

* * *

جاءت نهاية إمبراطورية غانة واختفاؤها عن مسرح التاريخ السياسى فى غربى

أفريقيا في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي ، غير أن عوامل الإهيبار بدأت قبل ذلك بأمد طول ، وأولها عامل طبيعي ، بدأ قبل القرن الحادي عشر ، وهو الجفاف التدريجي الذي حل بالمناطق الواقعة شمالي حوض السنغال ، مما حمل الناس على الهجرة والنزق (٢١٤) وجاء العامل الآخر وكان حاسماً ، وهو الغزو الحربي لبلاد غانه ، وما يعقبه عادة من انقلات زمام السلطة واختلال الأمن في الداخل وخروج الإمارات أو الممالك الخاضعة لغانة ، وتطلعها إلى السلطة والسيادة .

ويكمن تقسيم الغزو الحربي إلى ثلاثة فصول ، أولها استيلاء المرابطين على غانة قرب نهاية القرن الحادي عشر ، إلا أن غزو المرابطين لم يؤد إلى اختفاء غانة ، وإنما أدى إلى تحول حكومة غانة إلى الإسلام كما أن سيادة المرابطين على غانه أو نفوذهم فيها لم يستمر طويلاً ، فقد استطاع السونك أن يستعيدوا استقلالهم عقب وفاة ابن بكر أمير المرابطين عام ١٠٨٧ م .

والذي اقترن بفتح المرابطين لغانة ، هو اضطراب الأمن وتزعزع الولاء نحو السونك من قبل الممالك الخاضعة لهم ، وثانيها غزو الصوصو في مطلع القرن الثالث عشر ، وهو الذي أنهى إمبراطورية غانة ، ثم جاء الفصل الأخير قبيل منتصف النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك على يد إمبراطورية مالي النامية في كانباجا وكان متمماً لحركة الصوصو .

تعرضت غانة لزعف المرابطين ، إذ كانت وثنية ملوكها المعاصرين قد جعلتها هدفاً من أهدافهم للقضاء عليها وتعميم العقيدة الإسلامية في جميع أنحاء بلاد السودان ، بالإضافة إلى مطامع المرابطين في ذهب السودان وثوراته الأخرى .

بدأ غزو بلاد السودان جنوبي الصحراء الكبرى في حياة ابن ياسين (ت ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) القطب الروحي لحركة المرابطين وإمبراطوريتهم ، واشتد الضغط والإلحاح على غانة زمن إمارة أبي بكر بن عمر اللتوني (ت ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) (٢١٥) .

فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥ م وعاقبوها على خضوعها لامبراطورية غانة واستسلامها لها بدفع الجزية وقبول سيادة السونك ، فترة من الزمن (٢١٦) ؛ وبعد أن فرغ المرابطون من أودغست ، اتجهوا إلى كومبي صالح عاصمة غانة نفسها

واقتمصوها عام ١٠٧٦ م وأقاموا عليها حاكماً مسلماً (٢٢٧) . ومنذ ذلك الوقت صار ملوك غانة مسلمين ، سواء كانوا تابعين للمرابطين حتى عام ١٠٨٧ م أم انفصلوا عنهم بعد ذلك العام ، وهو سنة وفاة أبي بكر زعيم المرابطين ، وأعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة (٢١٨) .

أدى هذا الغزو إلى خروج بعض للمالك الحاضمة للإمبراطورية ، وإعلان استقلالها بحيث لم تعد سلطة ملوك غانة المسلمين نافذة إلا في مناطق أوكار وماسيكور ، وديارا (٢١٩) .

كانت الصدمة الثانية هي القاضية على الوجود التاريخي لإمبراطورية غانة ، أما فتح المرابطين السابق ، فلم يترتب عليه زوال غانة ؛ جاءت هذه الصدمة القاضية على يد قبائل الصوصو الوثنية في ذلك الوقت Sosu أو Sosu أو Su Su ، والصوصو فرع من الفولانيين ، هاجر من بلاد تکروروكون طبقة حاکمة في إقليم كانيجا Kamiaga التابع للإمبراطورية غانة ، وظل حكام الصوصو يذفون الجزية للحكومة غانة فترة طويلة ، حتى إذا كان فتح المرابطين لغانة عام ١٠٧٦ م خرج الصوصو وأعلنوا استقلالهم وانفصلهم عن غانة وأخذوا يتوسعون فيما حولهم حتى إنهم انتزعوا إقليم ديارا من غانة الإسلامية أواخر القرن الثاني عشر (٢٢٠) .

وفي مطلع القرن الثالث عشر ، استولى أعظم أباطرة الصوصو وهوسومانجورو Sumanguru على العاصمة كومبي صالح عام ١٢٠٣ م (٢٢١) وبذلك أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين ، ففرقوا في البلاد ، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين من سكان العاصمة الغانية ، هاجر بزعامة رجل اسمه الشيخ إسماعيل ، وأنجموا إلى مدينة ولاتا ، حيث أقاموا مركزاً تجارياً لهم ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة حتى صارت من أعظم المراكز التجارية في السودان الغربي (٢٢٢) .

وسع سومانجورو إمبراطورية الصوصو وتوجه نحو الجنوب حيث توجد دولة الماندنجو النامية في كانيجا وهي التي اشتهرت باسم إمبراطورية مالي ، ويقال إن سومانجورو قتل أولاد الملك الماندجي « ناري فامغان » N. Famagham (حكم من حوالي ١٢١٨ — إلى حوالي ١٢٣٠ م) من أسرة كيتا ؛ وكانوا اثني عشر ولداً ، إلا أن أصغرهم قد أفلت من القتل ، وهو الذي اشتهر باسم « ماري جاطه » أي ولد الأسد .

على أن نهاية إمبراطورية الصوصو وسومانجورو نفسه جاءت على يد ماري جاطه الذى ضم جميع أملاك الصوصو بما فيها أراضي إمبراطورية غانه إلى إمبراطورية الماننجو وذلك بعد واقعة حرية فاصلة عام ١٢٣٥ م كيرينا عند Kirina ؛ ويحتمل أنها تقع شمالي كوليكورو في أعلى نهر النيجر .

وفي عام ١٢٤٠ م نجح ماري جاطه في تدمير ما بقى من كومبي صالح عاصمة غانه وهى التى أقل نجمها منذ هجرها المسلمون على إثر غزو الصوصو ؛ وتدمير العاصمة فى عام ١٢٤٠ م هو الفصل الثالث أو الحلقة الأخيرة فى اختفاء إمبراطورية غانه (٢٢٣) .

* * *

تلك كانت نهاية إمبراطورية غانه الإسلامية ؛ أما الجمهوريات الحديثة التى قامت على أنقاضها ، أو ضمت أجزاء منها ، فهى جمهورية مالى (استقلت ١٩٦٠) وجمهورية موريتانيا (استقلت ١٩٦٠) .

بقى أن نتساءل :

لم اتخذت جمهورية غانه الحديثة اسم « غانه » وهو اسم إمبراطورية غانه التاريخية ؟

الراجع أن جمهورية غانه الحديثة استعارت هذا الاسم التاريخى العريق من باب التيمن باسم عريق لأول إمبراطورية قومية أفريقية قامت بالسودان الغربى ، أقامها شعب أفريقي وطنى ، هو شعب السونك أو قبائل السونك . لقد اتخذت جمهورية غانه هذا الاسم من أجل الفأل بعودة المجد القومى الأفريقى السابق .

ثم إن أراضي إمبراطورية غانه القديمة ، تبعد عن حدود جمهورية غانه الحديثة بنحو ألف ميل ، إلا أن هناك احتمالا ، بأن حدود إمبراطورية غانه السابقة قد وصلت إلى المشارف الشمالية لحدود جمهورية غانه الحديثة ، مما يفسر حرص جمهورية غانه على هذا الاسم ، وربما رأت جمهورية غانه الحديثة أنها أول مستعمرة إنجليزية ظفرت بالاستقلال فى غربى أفريقيا فى ٦ مارس ١٩٥٧ م ، فهى من أجل ذلك أجدر بأن تحمل اسم أول إمبراطورية أفريقية قامت فى غربى أفريقيا .

ومن الاحتمالات كذلك ، في تمثيل اتحاد جمهورية غانه اسمها ؛ ما تواتر من أن أسلاف قبائل الآكان Akan أغلب سكانها جمهورية غانه الحالية ، كانوا يقيمون عند الحدود الجنوبية لإمبراطورية غانه القديمة ؛ وأنهم هاجروا من تلك المناطق إلى أراضي جمهورية غانه (ساحل الذهب سابقاً) (٢٢٤) في الفترة ما بين القرن الثالث عشر الميلادي والسابع عشر ، أى منذ تدهور امبراطورية غانه السابقة على يد المصو في مطلع القرن الثالث عشر ، بل يقال إن أوائل المهاجرين من الآكان تحركوا من غانه على أثر دخول المرابطين العاصمة عام ١٠٧٦ م ومن فروع الآكان قبائل أطلقت على نفسها اسم الأشتانتي Ashanti عندما انفصلت عن أشقائها واخترقت الغابات الاستوائية ، منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، لهذه الصلة القديمة جانب في تفسير اسم جمهورية غانه الحديثة (٢٢٥) .

الحواشى والمراجع

Church, R.G., West Africa, A Study of the Environment (١)
and Man's Use of It, p. 237; L. Lugard, A Tropical Dependency,
p. 95; Hogben, S.J., The Muhammadan Emirates of Nigeria, p. 28;
lCooley, W.D., The Negroland of the Arabs, pp. 33-47; Wiedner,
D.L., A Hist. of Africa South of the Sahara, p. 28; Talbot, P.A.,
The Peoples of Southern Nigeria, p. 62; Bernard, H., Afrique Sep-
tentrionale et Occidentale (Géogr. Univ.) T. XI, p. 428; Baumann
H. and Westermann, D., Les Peuples et les Civilisations de l'Afri-
que, p. 392.

(٢) تاريخ الفتناء ص ٤٢ .

(٣) استعمال ترمينجهاام كلمة جانا Ghana للدلالة على الإمبراطورية ، وكلمة غانه للاشارة

الى جمهورية غانه الحديثة (راجع كتابه : Islam in West Africa, p. 3.

(٤) فى كتابه : L'Islam dans l'Afrique Occidentale Française,
p. 50, No. 1.

انظر كذلك : Dudly Stamp, Africa, A Study in Tropical Deve-
lopment, p. 271; Okafor (In the New West Africa), p. 27.

(٥) وعبارة مارمول : "Gua'ata quo Otros Ilaman Ganata"

راجع كتابه : L'Afrique, Paris, 1661 ، وانظر كذلك :

Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors, p 85

Fage, J.D., Introduction to the Hist. of West Africa, p. 20 (٦)

De La Roncière, Ch., La Découverte de l'Afrique au Mo- (٧)
yen-Age, I, p. 103

(٨) المغرب ص ١٧٥ . انظر كذلك : الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدياء شنقيط

ص ٤٣٧ — ٤٤٤ .

(٩) معجم البلدان ج ٣ ص ٧٧٠ .

(١٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤ .

(١١) الإلام ص ٢٢ ، انظر كذلك : ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٦٨ ، ٨٧ .

(١٢) نعيم قدهاح : أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام ص ٢٨ .

(١٣) L. Lugard, loc. cit., p. 54;

(١٤) هذه الإمبراطوريات للمؤلف تحت الطبع .

(١٥) إمبراطورية مالى للمؤلف فى المطبعة راجع :

Mc Cullock, M., The Peoples of Sierra Leone Protectorate (Ethno-
graphy Survey of Africa, edited by D. Forde), pp. 1-4; Hollis,
A.C., The Mandi, their language and folklore, pp 1-5.

(١٦) الصيغة العربية عن البكرى والإدريسى .

(١٧) الصيغة العربية عن الفتاش والمدى .

(١٨) انظر ما يلي :

(١٩) راجع : L. Lug., loc. cit., p. 59 ; Baumann, loc. cit., p. 453 ; Wiedner, loc. cit., p. 28 ; Bovill, loc. cit., pp. 69, 81, 194 ; Bernard, loc. cit., p. 423 ; Le Chatelier, A., L'Islam dans l'Afrique Occidentale, pp. 95, 101-102 ; Urvoy, Y., Petit Atlas Ethno-Démographique du Soudan, p. 29 ; Spitz, G., L'Ouest Africain Français, p. 61 ; De La Roncière, loc. cit., p. 84 ; Trimmingham, loc. cit., pp. 13-14 ; Palmer, R. The Bornu Sahara and Sudan, The Map (Pocket at End) ;

سلجان : السلالات البشرية في أفريقيا (الترجمة العربية) ص ٥٤ ؛ امبراطورية البرنو الإسلامية المؤلف في المطبعة .

Binger, Du Niger au Golfe de Guinée, (Paris, 1892). انظر كذلك :

(٢٠) انظر خريطة امبراطورية فانة .

Fage, p. 18 ; Gouilly, p. 50 ; Wiedner, p. 28 ; Spitz, p. 61. (٢١)

De Pedrals, Manuel Scientifique de l'Afrique Noire. (٢٢)
pp. 131-132 ; Spitz, p. 61.

(٢٣) De La Roncière, I, pp. 86, 102-108. انظر كذلك :

Nahoum Slousch, Etude sur l'Hist des Juifs au Maroc (Paris, 1905)

Hogben, p. 27. (٢٤)

(٢٥) تاريخ السودان ٩ .

Bovill, p. 69 ; Hogben, p. 27 ; Baumann, p. 392 ; Fage, (٢٦)
p. 18 ; Yver, p. 139 ; Davidson, Old Africa Rediscovered, p. 63.

(٢٧) نقلها المراجع الأجنبية Wakore

(٢٨) نقلها المراجع الأجنبية Wangara

(٢٩) الفتاش ص ٤٢

(٣٠) نقلها المراجع الأجنبية Baghana

(٣١) تاريخ السودان ص ٩ ، انظر كذلك :

Fage, p. 18 ; Okafor, p. 27 ; L. Lug., p. 90 ; De La Roncière, I, p. 103 ; De Pedrals, p. 132.

(٣٢) الفتاش ص ٤١

(٣٣) الفتاش ص ٤١ ، انظر كذلك : De La Roncière, I, p. 103.

(٣٤) الفتاش ص ٤١

(٣٥) اختلفت المصادر في تحديد نهاية حكم الأسرة الأولى هذه ، فذكر بعضها أنها انتهت عام ٧٧٠ م ، بينما ذكر البعض الآخر أن نهايتها كانت في عام ٧٩٠ م .

(٣٦) Spitz, p. 61.

(٣٧) راجع Bovill, pp. 67-68.

- (٣٨) الفتاش ص ٤١
- De La Roncière, I, p 88 ; Fage, p. 18 ; De Pedrals, pp. (٣٩)
132, 392.
- (٤٠) الفتاش ص ٤٢
- Fage, p. 18 ; De Pedrals, pp. 59-62, 132, 151-152 : أنظر ما يلي : (٤١)
- Baumann, p. 390 ; Davidson, p. 64. (٤٢)
- (٤٣) المغرب ص ١٧٤ ؛ أنظر كذلك :
- L. Lug., p. 95 ; Hogben, p. 28 ; Wiedner, p. 28 ; Bovill, p. 69 ; Pedrals, p. 132 ; De La Roncière, I, pp. 86, 103
- (٤٤) الفتاش ص ٤١
- (٤٥) تاريخ السودان ص ٩
- Yver, p. 139 (٤٦)
- (٤٧) أودغست لا وجود لها اليوم ، وكانت تقع بحسب رواية البكري على بعد مسيرة نحو شهرين من سجلماسة وخمسة عشر يوماً من عاصمة غانة ، ومكانها الآن تجداوست Tegdaoust شرقى منطقة تاجانت Tagant وتقع ضمن جمهورية موريتانيا الحديثة .
- راجم : الشنقطي : الوسيط ص ٤٣٧ ، وعنه أخذت الصيغة العربية الأصلية لمنطقة تاجانت كما كان ينطقها العرب ؛ المغرب ص ١١٩ . Baumann, p. 392 ; Bovill, p. 69.
- (٤٨) البكري ص ١٧٩ ؛ تقويم البلدان ص ٧٢ - ٧٣
- Fage, p. 21 ; Davidson, p. 85 ; Le Chatelier, pp. 12-128 ; L. Lug., pp. 91-93 ; De Pedrals, p. 132 ; Yver, p. 139 ; De La Roncière, I, pp. 83-84, 129, II, p. 143
- (٤٩) المغرب ص ١٧٩ ؛ أنظر كذلك : الشنقطي : الوسيط ص ٤٤٢ ؛ نزهة المشتاق ص ١٠ . Okafar, p. 27. Delafosse, Traditions..., pp. 6-18.
- (٥٠) أنظر خريطة لإمبراطورية غانة .
- (٥١) نزهة المشتاق ص ١٤ ؛ قدامح ص ٢٧ - ٢٩
- Bovill, pp. 69, 84 ; Okafar, p. 27 ; Fage, pp. 18-19, 22 ; Davidson, pp. 84-85 ; Hogben, p. 28 ; Gouilly, p. 50 ; Yver, p. 139
- (٥٢) أخبار الزيجان (مخطوط) ورقة ٣٩ أ
- (٥٣) الفتاش ص ٤١
- Yver, p. 139 ; Davidson, p. 63 ; De Pedrals, p. 132 ; Spitz, (٥٤)
p. 61 ; Baumann, p. 391 ; Gravier, Recherches sur les Navigations
Européennes faites au Moyen-Age, p. 17.
- (٥٦) أخذت الغابة اسمها من الأحرش التي كانت تحيط بها .
- (٥٧) المغرب ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ أنظر كذلك :
- Davidson, p. 89 ; Hogben, p. 28 ; Bovill, p. 81

- (٥٨) راجع تا كيتوس والشعوب الجرمانية للمؤلف ص ٥٥
- (٥٩) نزهة المشتاق ص ٦
- (٦٠) نزهة المشتاق ص ١١
- (٦١) تاريخ ابن الوردي ص ١٥٨
- (٦٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤
- (٦٣) الإلام ص ٢٣
- (٦٤) ليو الأفريقي: الكتاب السابع ص ٢٨٥—٢٨٦ ، ٢٩١
- (٦٥) Cooley, p. 45-47
- (٦٦) Fage, p. 20 ; L. Lug., p. 93
Shinnie, Ancient African Kingdoms, pp. 47-48
- (٦٧) Bovill, pp. 80-81 ; Gouilly, pp. 50-51
- (٦٨) Hogben, p. 28
- (٦٩) De La Roncière, I, pp. 86-87, 108
- (٧٠) قداح ص ١٥٤
- (٧١) Church, p. 238 ; Shinnie, loc. cit., p. 49 ; Davidson, p. 86
- (٧٢) Davidson, p. 86 : أنظر : خريطة مدينة كومبي صالح .
- (٧٣) Davidson, p. 86 ; Bovill, p. 68
- (٧٤) Davidson, p. 85
- (٧٥) قداح ص ٣٤ ; De Pedrals, :
Shinnie, p. 48 ; Davidson, p. 87 ; De Pedrals, :
pp, 131-132.
- (٧٦) Shinnie, p. 45
- (٧٧) أنظر اللوحات Shinnie, p. 48
- (٧٨) أنظر اللوحات Ibid., p. 49
- (٧٩) أنظر اللوحات Shinnie, p. 49 ; Davidson, p. 87
- (٨٠) Bovill, pp. 68-69 ; De La Roncière, I, pp. 85-86 ; De Ped-
rals, p. 133
- راجع كذلك :
Mauny, R., Gravures, Peintures et Inscriptions
Rupestres de l'Ouest African (Dakar, 1954).
- به مجموعة من الصور والحرائط والبيانات عن المواقع التي تمت فيها عمليات الحفر في كاوار
وتاجانت وولانه وغيرها ، فضلا عن مجموعة قيمة من المراجع العلمية . وقد صدر هذا الكتاب
أو هذا التقرير عن المعهد الفرنسي لأفريقية السوداء (I.F.A.N.)
- (٨١) صورة الأرض ص ١٠١
- (٨٢) صورة الأرض ص ١٠١

L. Lugard, p. 107 (٨٣).

(٨٤) البكرى ص ١٥٩

(٨٥) كتيبها المراجع الأجنبية Silla

(٨٦) المغرب ص ١٧٢-١٨٣؛ أنظر كذلك نزهة المشتاق ص ٣؛ ديشان : البيانات

في أفريقية السوداء (الترجمة العربية) ص ١٢٥

(٨٧) المغرب ص ١٧٩

(٨٨) صبيح الأعشى ج ٤ ص ٢٨٤

(٨٩) المغرب ص ١٧٤ — ١٧٥؛ راجع ما سبق عن العاصمة .

(٩٠) المغرب ص ١٧٥

(٩١) المغرب ص ١٧٥

(٩٢) المغرب ص ١٧٥؛ أنظر كذلك :

L. Lugard, p. 95 ; Bovill, pp. 81, 84 ; Hogben, p. 28 ; Davidson, p. 29 ; Fage, p. 21

De La Roncière, I, p. 103 (٩٣)

Bovill, p. 84 (٩٤)

(٩٥) الاستقصاء ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ ، ابن الخطيب : الحلل الموسوية في ذكر الأخبار

المراكشية ص ٦ — ١١ ، الديانات في أفريقيا السوداء ص ١٢٢ — ١٢٣ أوليفر ، فيج :

موجز تاريخ إفريقيا (الترجمة العربية) ص ٩١ — ٩٣

Davidson, p. 85 ; Fage, p. 22 ; Bovill, pp. 84-85 ; De La Roncière, I, pp. 84, 86, 134 ; De Pedrals, p. 147 ; Shinnie, p. 50 ; Marty, Etudes sur l'Islam et les Tribus Maures p. 2 ; Rinn, Marabouts, p. 14 ; Largeau, Le Sahara Algérienne, pp. 109-123 ; Hodgkin, T., Islam and National Movement in West Africa (Conference on Afr. Hist. and Arch., London, 1961).

أنظر كذلك : René-Basset, Mission au Sénégal, Recherches Historiques sur les Maures (Paris, 1910), p. 463 ; Brevié, Islamisme contre Naturisme au Soudan Français, p. 143.

(٩٦) قداح ص ٣٠

(٩٧) أنظر ما يلي وراجع : الديانات في أفريقيا السوداء ص ١٢٣

(٩٨) الاستقصاء ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ Hogben, p. 27

Davidson, p. 88 (٩٩)

(١٠٠) Trimingham, pp. 13-14 أنظر خريطة نشاط قبائل السونوك في الدعوة

إلى الإسلام في السودان الغربي .

(١٠١) الفرناطي : كتاب تحفة الألباب ص ٤٢

(١٠٢) المغرب ص ١٧٧

- (١٠٣) المغرب ص ١٧٧ ؛ أنظر كذلك Bovill, p. 84 ; Davidson, p. 88
(١٠٤) نزهة المشتاق ص ٦ ، أنظر كذلك :
De La Roncière, I, p. 85 ; L. Lugard, pp. 98-99
(١٠٥) تاريخ ابن الوردي ص ١٦٠
(١٠٦) الإلام ص ٢٢
(١٠٧) إمبراطورية مالي للمؤلف ، وراجع التعريف ص ٢٧
(١٠٨) إمبراطورية مالي للمؤلف ، وراجع التعريف ص ٢٧
(١٠٩) إمبراطورية بنو المؤلف وراجع :
Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, pp. 7-8
(١١٠) المغرب ص ١٧٥
(١١١) المغرب ص ١٧٥
(١١٢) راجع ما سبق وأنظر البكري ص ١٧٤ ؛
Hogben, p. 28 Davidson, pp. 88, 90 ; L. Lüg., pp. 95, 119
(١١٣) راجع السعدي ص ٤٠ — ٢٢ ؛
L. Lugard, pp. 113-114
Baumann, pp. 31, 409-410 ; Palmer, op. cit., pp. 7, 55, 81-82 ; Four-
nel, op. cit., p. 198.
(١١٤) تحفة النظار ج ٤ ص ٤٤٣
(١١٥) صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩٤ ، إمبراطورية مالي للمؤلف .
(١١٦) قباح ص ١٠٤
(١١٧) إمبراطورية مالي للمؤلف وراجع Montell, pp. 59-60
(١١٨) إمبراطورية بورنو للمؤلف ؛ Palmer, pp. 6, 92, 209-210
(١١٩) المغرب ص ١٧٥
(١٢٠) تاريخ ابن الوردي ص ١٦٠
(١٢١) البكري ص ١٧٥
(١٢٢) Tagant الصيغة العربية عن الشنتيطي . ويقول : إن معنى هذه الكلمة
(تا كانت) الغابة (ص ٤٢٨)
(١٢٣) Baghan — الصيغة العربية عن السعدي
(١٢٤) قباح ص ٢٩ ، ١٠٩ ؛ Bovill, pp. 84-85 ; Fage, p. 22 ؛
Davidson, p. 85 ، أنظر ما يلي وراجع الخريطة رقم ١
(١٢٥) Bovill, p. 84
(١٢٦) قباح ص ٥١ ، ١١١
(١٢٧) Okafor, p. 27
(١٢٨) المغرب ص ١٧٥ ؛ راجع ما سبق وأنظر :
Bovill, p. 81
Fage, p. 21

- (١٢٩) الحنف يفتح الجيم والماء جمع حنفة ، وهو الترس المأخوذ من جلود وليس فيه خشب ولا عقب (المختار ، القاموس المحيط) .
- (١٣٠) الساجور خشية تجعل في عنق الكلب ، ويقال كلب مسوجر (المختار ، القاموس المحيط) .
- (١٣١) دبا Daba أو دابا Daba بلغة السوننك طول ملكية ، ولا زالت تعرف إلى Bovill, p. 81
- اليوم بهذا الاسم عندهم — راجع Davidson, p. 85 ; L. Lug, p. 99
- (١٣٢) المغرب ص ١٧٥ - ١٧٦
- (١٣٣) نزهة المشتاق ص ٧
- (١٣٤) نزهة المشتاق ص ٧ ؛ أنظر كذلك De Pedrals, p. 133
- (١٣٥) المصدر السابق
- (١٣٦) تاريخ ابن الوردي ص ١٦٠
- (١٣٧) قدام ص ٣٧
- (١٣٨) Bovill, p. 82 ; Davidson, p. 85 ; Spitz, p. 61
- (١٣٩) البكري ص ١٧٧
- (١٤٠) Davidson, pp. 84-85 ; Shinnie, p. 47 ; Bovill, p. 82
- (١٤١) تاريخ ابن الوردي ص ١٥٨
- (١٤٢) أنظر خريطة القوافل وراجع : Fournel, pp. 115-133
- 168-190 ; Okafar, p. 27 ; Bovill, p. 82
- (١٤٣) أنظر ما يلي وراجع : Bovill, p. 81
- (١٤٤) Fage, p. 20 ; L. Lug., p. 100 ; Hogben, p. 29
- (١٤٥) L. Lug., p. 100 ; Hogben, p. 29
- (١٤٦) Spitz, p. 61
- (١٤٧) المغرب ١٧٧
- (١٤٨) المغرب ص ١٧٧
- (١٤٩) Bovill, p. 82
- (١٥٠) Davidson, p. 48
- (١٥١) صورة الأرض ص ٩٨
- (١٥٢) إمبراطورية مال الدوائف ؛ ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٤ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ؛ De La Roncière, I, pp. 83, 88, 129, 138 ; II, p. 143 ; III, p. 44
- Bovill, pp. 141-142 ; Fage, p. 20
- (١٥٣) معجم البلدان ج ٣ ص ٥٣ ؛ راجع كذلك نقش الأزهار ص ٨ ؛ Bovill, p. 81

- (١٥٤) تحفة الألباب ص ٤١ - ٤٢
- Hogben, p. 29; Shinnie, p. 47 (١٥٥)
- Davidson, p. 89 ؛ راجع ما سبق وانظر المغرب ص ١٧٥ ؛ (١٥٦)
- (Davidson, p. 88) المثقال يساوى حوالى ثمن أوقية ذهب (١٥٧)
- Davidson, p. 88 ؛ أنظر كذلك (١٥٨)
- (١٥٩) لإمبراطورية مالي المؤلف ؛ ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٣٩ - ٤٤١ ؛ مسالك الأبحار ج ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٧ ؛ Bovill, p. 94 ; L. Lug., p. 117 ؛ (١٦٠) نزهة المشتاق ص ٦ - ٧
- (١٦١) نزهة المشتاق ص ١٤
- (١٦٢) أنظر خريطة إمبراطورية غانة .
- (١٦٣) Bovill, pp. 83, 191-192, 194-202 ; Davidson, pp. 78, 81 ; Fage, p. 21 ; Shinnie, p. 45 ; Spitz, p. 61 ; De La Roncière, I, p. 98 ; De Pedrals, p. 132
- (١٦٤) تاريخ ابن الوردي ص ١٥٨
- (١٦٥) أخبار الزمان (مخطوط) ورقه ١١٣٩
- (١٦٦) صورة الأرض ص ٩٨
- (١٦٧) الضمير عائد على ملك غانة .
- (١٦٨) الندره (Nugget) هى القطعة الكبيرة .
- (١٦٩) المغرب ص ١٧٧ ؛ أنظر كذلك Davidson, p. 88 ; Bovill, p. 82
- Davidson, p. 83 (١٧٠)
- Shinnie, p. 45 (١٧١)
- Fage, p. 21 (١٧٢)
- (١٧٣) أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ٣٨ ب ، ١٣٩ .
- (١٧٥) من مراجع التجارة الصامتة :
- Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 48-58
- De La Roncière, I, pp. 94-99 ; Shinnie, pp. 44-46 ; Bovill, pp. 82-83 ; Johnston, pp. 296-300 ; Kupe, p. 28 ; Wiedner, pp. 29-30 ; Ward, p. 30 ; Reindore, p. 2 ; Gsell, I, pp. 468-469 ; Fage, pp. 20-21 ; Hobbey, Early Explores, p. 7 ; Opening Afr., p. 4 ; Ivir Willks (Univ. Coll. of Ghana). A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea (Paper Read before the third Conference on African Hist. and Arch., London, 1961).
- (١٧٦) من مراجع هذه الصحيفة :
- البكرى ص ١٨٣ ؛ نزهة المشتاق ص ٣ - ٤ ، ٨ - ٩ ؛ الشنقيطى : الوسيط ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ؛
- Cooley, pp. 111-115
- Pruen, p. 208 ; Johnston pp. 151-154 ; Hobbey, Opening Afr., pp. 17-18 ; Bovill, p. 83 ; Ryder The Portuguese in West Africa, (Conference on Afr. Hist. and Archeol., London, 1961).

- (١٧٧) راجع ما سبق وانظر Trimingham, pp. 13-14
- (١٧٨) قدامح من ٣٦ ، ٤٢
- (١٧٩) Davidson, pp. 70-74 ; Shinnie, p. 45
- (١٨٠) راجع ما سبق وانظر المغرب من ١٧٧ ؛ Spitz, p. 61
- (١٨١) Bovill, p. 90
- (١٨٢) راجع ما سبق وانظر المغرب من ١٧٧ ؛ Davidson, p. 88
- (١٨٣) Bovill, p. 81,
- (١٨٤) ناربخ ابن الوردى من ١٦٠
- (١٨٥) نزهة المشتاق ؛ وانظر كذلك Shinnie, p. 47
- (١٨٦) عثر حوالى عام ١٩٠٠ م على قطعة ذهب تشبه هذه القطعة فى بامبوك ، إحدى مناطق الإقليم المشهور باسم (وتقارة) أو أرض الذهب ، كما وصفه الكتاب العرب ، وهذه المنطقة تابعة حالياً لجمهورية مالى ، وتقع بين رافدى السنغال : باننج وفالىي .
- راجع Bovill, p. 81 .
- (١٨٧) المقصود بالنيل نهر « النيجر »
- راجع De La Roncière, I, pp. 89, 90
- (١٨٨) نزهة المشتاق من ٦
- (١٨٩) De La Roncière, I, p. 85
- (١٩٠) المغرب من ١٧٦
- (١٩١) إمبراطورية مالى المؤلف ؛ ابن بطوطة ج ٤ من ٣٠٩ : Davidson, p. 85
L. Lug., p. 99 ; Bovill, p. 81
- (١٩٢) (١٩٣) المغرب من ١٧٥
- (١٩٤) نزهة المشتاق من ١٤
- (١٩٥) المغرب من ١٧٥
- (١٩٦) نزهة المشتاق من ١٤
- (١٩٧) المغرب من ١٧٥
- (١٩٨) الفتاش من ٤٢
- (١٩٩) المغرب من ١٧٩
- (٢٠٠) المغرب من ١٧٦ ؛ أنظر كذلك Bovill, p. 82
Hogben, pp. 28-29
- (٢٠١) أنظر برستد : انتصار الحضارة — ترجمة أحمد نفري من ١٦٨
- (٢٠٢) دول الهوسا للمؤلف ، راجع : Hogben, p. 29
- (٢٠٣) راجع ما سبق وانظر آثار كومي صالح .

- (٢٠٤) راجع ما سبق وانظر البكرى ص ١٧٤ - ١٧٥ .
(٢٠٥) المغرب ١٧٧
- (٢٠٦) الإسلام واللغة العربية في نيجر شنيا للمؤلف ، راجع : قداح ص ٤١٦ ، ١٣٩ ،
Blyden, pp. 14-15 ؛ ١٤٩ ، ١٤٤ - ١٤١
- (٢٠٧) راجع ما سبق وانظر البكرى ص ١٧٥
(٢٠٨) راجع ما سبق
- (٢٠٩) لإمبراطورية مالي المؤلف ؛ راجع
De La Roncière, I, p. 88
Bovill, pp. 98-99 ; L. Lug., pp 101-103
- (٢١٠) راجع (٢١٠)
De La Roncière, I, pp. 129-136 ; Palmer, pp. 205-206
(٢١١) نزهة المشتاق ص ٦ ؛ L. Lug., pp. 98-99
- (٢١٢) ظهر التكرارة مرة أخرى في تاريخ غربي أفريقيا ، وقاموا بدور كبير في حركة
الجهاد الإسلامي والكفاح الوطني زمن الحاج عمر وابنه أحمد وفي القرن التاسع عشر الميلادي ،
وكان لهم إمبراطورية كبرى أزالها الاستعمار الفرنسي (إمبراطورية التكرارة للمؤلف) وراجع :
تاريخ ابن الوردي ص ١٥٢ ، ١٧٢ ؛
- Delafosse, Takruer (Encycl. of Islam), Vol. IV, p. 633 ; L. Lug., p.
115 ; Urvoy, p. 31 ; Trimmingham, p. 13 ; Cooley, pp. 97-98 ; Le Cha-
teller, p. 80 ; Fage, pp. 146-147
- (٢١٣) Shinnie, pp. 49-50
(٢١٤) Spitz, p. 61
- (٢١٥) راجع ما سبق وانظر Thompson and Adloff, p. 521
- (٢١٦) ، (٢١٧) راجع ما سبق وانظر :
Hogben, p. 27 ; Davidson, p. 85 ; L. Lug., p. 93,
- (٢١٨) راجع ما سبق وانظر : Bovill, pp. 74, 84-5 ; Gouilly. pp. 50-51
- (٢١٩) راجع ما سبق وانظر : الاستقصا ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ ؛
Bovill, pp. 74, 84-85 ; Hogben, pp. 50-51 ; L. Lug., pp. 99, 110 ; Oli-
ver and Fage. pp. 11-15 ; Spitz, p. 61 ; Davidson, p. 85 ; Fage, p. 22
- (٢٢٠) L. Lug., p. 115 ; Fage, p. 22 ; Le Chateller, p. 80
- (٢٢١) ورد لاسم سومانجورو بصور مختلفة منها : سومانهورو وسومانجور ؛
Sumanhoro, Sumanguruer (Delafosse, Soso, Encycl. of Islam, Vol.
IV), pp. 489-490 ; Traditions, pp. 21-30 ; Le Chateller, p. 80 ; L.
Lug., p. 115 ; Fage, p. 22 ; De Pedrals, p. 152 ; Talbot, p. 63)
- (٢٢٢) Bovill, p. 90 ; Yver, p. 140 ; Baumann, p. 392 ; L. Lug.,
pp. 165-166
- (٢٢٣) إمبراطورية مالي المؤلف ؛ صبيح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ ؛ ليو الأفريقي :
الكتاب السابع ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، قداح ص ٣١ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٩٣ ، ج ٦

Delafosse, Traditions, pp. 20, 30 ; Monteil, pp. 65-66, ص ٢٠٠ ؛
69-70 ; Labouret, pp. 203, 241 ; Bovill, p 86 ; Baumann, p. 392 ;
Fage, pp. 24-28 ; Cooley, p. 69 ; Urvoy, pp. 23-24 ; Shinnie, p. 51 ;
Hogben, p. 30 ; Oliver and Fage, pp. 85-86 ; Okafar, p. 28 ; De La
Roncière, I, p. 86 ; Spitz, p. 61 ; L. Lug., p. 119

راجع خريطة إمبراطورية غانة .

(٢٢٤) كان الهولنديون هم الذين أطلقوا اسم ساحل الذهب على هذه المنطقة في القرن
السابع عشر الميلادي.

(٢٢٥) من مراجع هذه الصفحة الأخيرة :

سلجمان (الترجمة العربية ، ص ٥٧) ؛ شيل ، دراسات في اقتصاديات القارة الأفريقية ،

ص ١٠١ ؛ قداح ص ٢٨ ؛ د. حسنين : الاستعمار الفرنسي ص ٨٣ - ٨٧ ، ١٠٠

Johnston, pp. 301-315 ; Apter, D.E., The Gold Coast in Transition,
pp. 21-27 ; Church, pp. 227-229, 237-245, 360-363 ; Wiedner, p. 42 ;
Bourret, Ghana, pp. 1, 11, 14 ; Ward, pp. 46-47 ; Fage, pp. 70-71,
75 ; Talbot, p. 62 ; Thompson and Adolff p. 238 ; Kitchen, (Edit.)
pp. 326-346 ; Hance, The Geography of Modern Africa (New York,
1965) ; Fage, Ghana, A Historical Interpretation (Maddison 1959).
Meyerowitz, The Akan of Ghana Their Ancient Belief (London,
1958).

هو السباع

بقصر الحمراء بقرنناطة

وكتور جمال محرز

هو السباع أحد أهباء قصر الحمراء القائم فوق جبل السيكة مشرفاً على مدينة قرناطة ، اكتسب اسمه من تلك النافورة بوسط فناء هذا البهو ، وذاع صيته بسببها وطبقت شهرته الآفاق .

وهو آية من آيات العمارة الإسلامية ، والواقع أن قصر الحمراء جميعه من أجمل الآثار الإسلامية ليس في الأندلس فحسب بل وفي العالم الإسلامي أجمع ولقد شاءت الظروف أن يظل هذا القصر سليماً لم يلحقه التدمير الذي أصاب العمار الإسلامية بالأندلس عقب استرداد المدن الأندلسية ، ويرجع الفضل في ذلك إلى اتخاذ مسكناً للملكين الكاثولائيكيين فرناندو وإيزابلا عقب سقوط قرناطة عام ١٤٩٢ في يدهما .
والحق أن الزائر لهذا البهو ليأخذ العجب ويحار في أمره فبأى شيء يعجب ، أفبعسن التخطيط وتنسيقه أم برشاقة الأعمدة والعقود المقربصة كأنها خلايا النحل أم بفن الزخارف ووفرتها وتنوعها وكأنها الدتلا فالواقع أن المشاهد لهذا كله تكاد روعة المنظر تملك عليه أنفاسه .

ويحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا البهو أن نذكر كلمة عن تاريخه وما أصابه به الزمن وما حدث له من إصلاحات وترميمات .

ولعل أقدم إشارة وصلت إلينا عن هذا البهو هو ذلك الوصف الذي يرجع إلى عام ١٥٠٢م أى بعد أربع سنوات من سقوط قرناطة في أيدي الأسبان وقد ورد في هذه الإشارة أن أرضية الفناء كانت مغطاة برخام وأنه كان به أشجار من أشجار البرتقال وأن الأروقة كانت مكسوة بالرخام أيضاً ، كما تذكر أن عدد الأعمدة ٢٥٠ عاموداً .

وتدل وثيقة موجودة في أرشيف قصر الحمراء ترجع إلى عام ١٥٥٢م على أن القباب الخارجية التي كانت تغطي الكشكين قد هدمتا وقاية للقباب الداخلية من التلف وحماية لها من الدمار كما تذكر الوثيقة أيضاً أن السقف قد أصلح ونزع الحائر القديم (الررف) وذلك عند إصلاح الجص .

هذا وقد أصاب قصر الحمراء تآلف كبير عام ١٩٥١م وبخاصة القاعة الملاصقة لبهو الريحين أو البركة كما يسمى أحياناً وكذلك قاعة بنى سراج نتيجة حريق من انفجار ذخيرة .

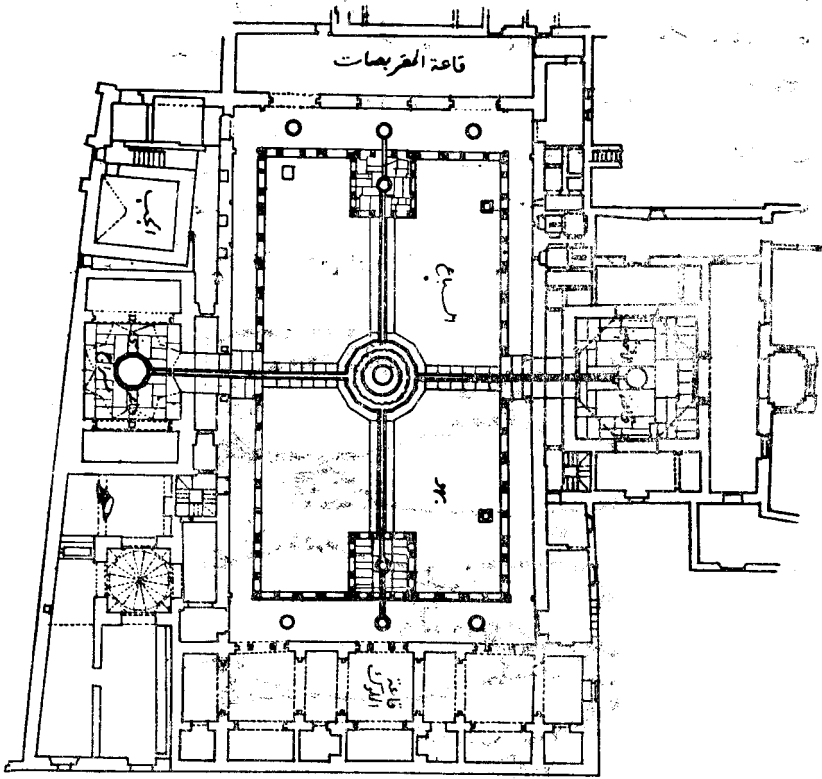
وقد تناولت يد الإصلاح هذا البهو عام ١٥٩٥م واستمرت حتى عام ١٦٦١م فغطيت قباب كثيرة وأصلح القرميد الأبيض اللون والأخضر الذي كان لا يزال يغطيها . كما نزع أرضية قديمة بداخل وخارج المر مكونة من قطع صغيرة من الحجر والزليج . وكذلك أصلح الجص .

والظاهر أن الرخام الذي كان يكسو الأرضية قد نزع في القرن السابع عشر الميلادي ويستدل على ذلك من إشارة ترجع إلى عام ١٦٤٠م . إذ تقول إن فسيفساء البهو كماها قد نزعت وأجريت إصلاحات متعددة بهذا البهو خلال عام ١٧٠٨م ، ١٨٣٨م ، ١٨٧٨م ، غير أن إصلاحات العام الأخير بالرغم من كثرتها جاءت ثقيلة الظل بغضه إلى النفس رديئة الصنع الأمر الذي أدى إلى تشويه الأصل تشويهاً كبيراً .

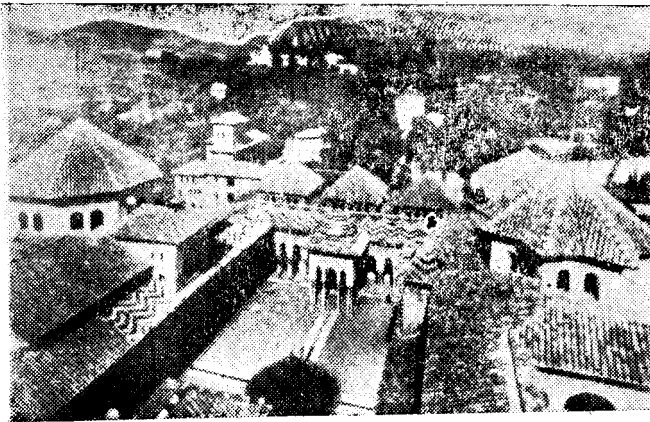
وفي عام ١٩٢٩م نزع الملاط الذي يغطي جدران الممرات فظهرت الرسوم المتهمة البعيدة عن الأصل التي قام بعملها مرمرهو القرن الماضي كما ظهرت أيضاً أجزاء من الشريط الجصي القديم المكون من دوائر ومربعات بها كتابات نسخية كان في مكان السفلى المصنوع من الزليج . كما فتحت النوافذ التي تضيء الممرات وكانت قد سدت خلال الأعمال التي تمت عام ١٧٠٨م ، وأعيد تغطية أرضية الممرات بالرخام على النحو الذي كانت عليه في عام ١٥٠٢م . وفي عام ١٩٣٤م نزع القبة ذات القرميد المزجج التي بنيت عام ١٨٥٩م وحل محلها غطاء هرمي الشكل .

وزائر هذا البهو يصل إليه من باب صغير مفتوح في الجدار الفاصل بينه وبين بهو الريحين أو البركة الذي كان المقر الرسمي لسلطين بنى الأحمر حيث كانت تقام حفلات الاستقبال في قاعة السفراء ببرج قمارش المطل على الفناء المحتوى على بركة مستطيلة محاطة بشجر الريحان .

وبعبور هذا الباب نجد أمامنا بهو السباع وهو القصر الخاص بسكنى السلطين شيهه السلطان محمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٥٨م ، ١٣٦١ - ١٣٩١م) كما تدل على



شكل ٦ — تخطيط بهو السباع



شكل ٧ — بهو السباع [منظر مأخوذ من فوق قصر شارل الخامس]

ذلك النقوش الكتابية التي تزين الجدران . وهو عبارة عن فناء يحيط به عمر ومن خلف القاعات والحجرات . شكل ١ ، شكل ٢ . أما الفناء فمستطيل الشكل تبلغ أبعاده ١٢٦ × ٧٣ × ٢٢,٥ قدماً وتتوسطه تلك النافورة التي طبقت شهرتها الآفاق ألا وهي نافورة السباع ، وهذه النافورة (شكل ٣) عبارة عن قصعة كبيرة من الرخام قطرها ١٠,٥ قدماً وعمقها قدمان ويدور حول حاقها العليا من الخارج نقش عربي عبارة عن أبيات من الشعر من قول ابن زمرك الشاعر الوزير فيقول :



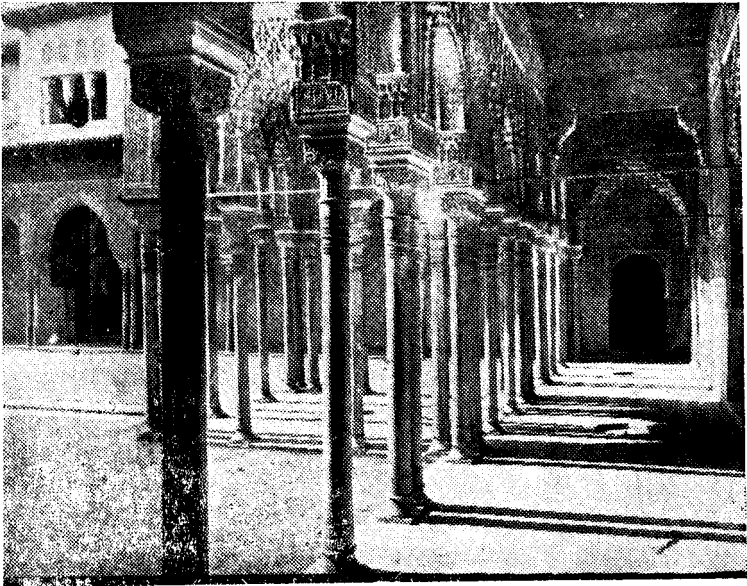
شكل ٣ — جزء من نافورة بهو السباع

تبارك من أعطى الإمام محمداً
وإلا فهذا الروض فيه بدائع
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها
يدوب لجين سال من جواهر
تشابه جار للعيون بمحامد
ألم تر أن الماء يجري بصفحها
معاني زانت بالجمال المغانيا
أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
تحلى بمرفض الجمان النواعيا
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ولكنها مدت عليه الهجريا

كئيل محب فاض بالدمع جفنه
وهل هي في التحقيق غير غمامة
وقد أشبهت كف الخليفة إذ عدت
فيا من رأى الآساد وهى روابض
ويا وارث الأنصار لا عن كلاله
عليك سلام الله فأسلم مخلصاً
وغض ذاك الدمع إذخاف وأشيا
تفيض إلى الآساد منها السواقيا
تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
عداها الحيا عن أن تكون عواديا
تراث جلال يستخف الرواسيا
تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ويحمل هذه القصعة إثنا عشر أسداً ارتفاع كل واحد منها ٣,٥ قدماً تخرج الماء من أفواهاها حيث تنساب في قنوات تصل إلى نافورتين إحداها بغرفة ابن سراج والأخرى بغرفة الأختين كما تصل أيضاً إلى نافورتين أسفل الكشكين بكل كشك نافورة وهى من الرخام أيضاً .

ويصل الماء إلى قصر الحمراء من نهر حدرة وهو عمل هندسى رائع يدل على براعة المهندسين المسلمين إذ استطاعوا أن يرفعوا الماء من أسفل الجبل إلى قمته فأحالوا تلك المنطقة إلى جنة خضراء وارفة الظلال .



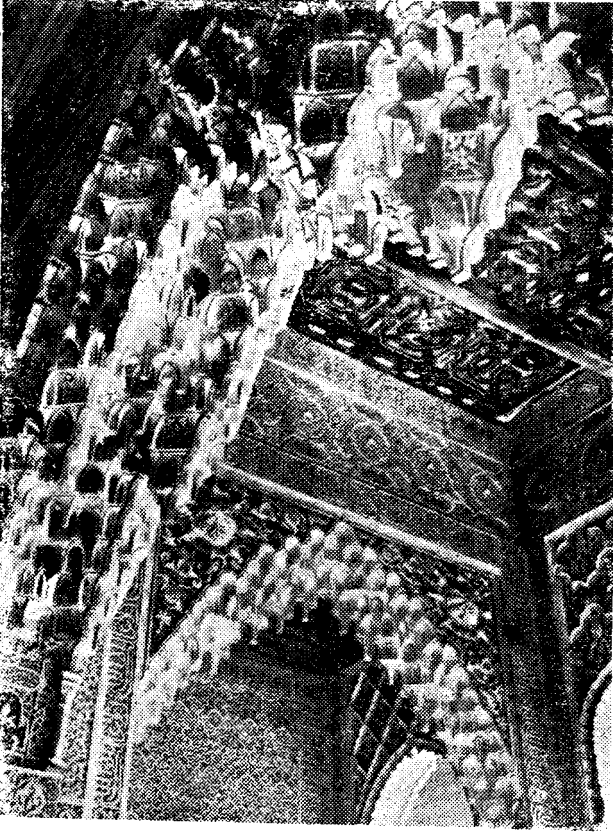
شكل ٤ --- هو السباع وواجهة حجرة مبنى سراج ومن فوقها غرف السكن

ويحيط بالبناء أعمدة تبلغ ١٢٤ عموداً موزعة حوله فرادى أو مشى أو ثلاث أو رباع (شكل ٤) وهى من الرخام الأبيض الوارد من إقليم المرية ويبلغ طول العمود الواحد ١٠ أقدام وتماز برشاقتها وأن لها حلقات بالقرب من تيجانها المخروطية الشكل من أسفل والمكعبة من أعلا، وزخارفها جامدة بالقياس إلى باقى أجزاء الحمراء وتقرأ أحياناً فوق تيجانها عبارة « ولا غالب إلا الله » شعار بنى الأحمر الذى تجده فى مختلف أنحاء القصر ويحتمل أن أصل هذا التاج من شمال أفريقيا حيث نجد ما يماثل صفاته الأساسية فى عمائر عصر الموحدين . ويعلو التيجان طبلية من رخام أبيض تقوم بمثابة قاعدة للدعامة من الطوب تستخدم مسنداً للأربطة الخشبية الأفقية التى تربط الأعمدة بعضها إلى بعض . وتغطى هذه الأربطة بالجص والإسكايولا بحيث تكتسب شكل العقد المفصص إلا فى طرفى الضلعين الطويلين والكشكين حيث تحل المقربصات محل العقد المفصص ، ومما أكسب هذا البهو أصالة استخدام الأعمدة محل الأكتاف فى حمل العقود وهى هنا غير متساوية فيما بينها مما يضيف صفة التنوع لأشكالها فمثلاً نجد بمنتصف كل من الضلعين الكبيرين عقداً كبيراً مستديراً أما باقى العقود فهى دائرية مفصصة غنية بزخارفها الجصية (شكل ٥) .

ومن صفات الأصالة أيضاً بهذا الفناء بروز كشكين بالضلعين إلى الفناء كشك بكل ضلع . ارتفاع الواحد منهما ٢٩ قدماً ويتكون من ١٢ عقداً من المقربصات يحملها ٢٠ عموداً ذوات تيجان مزينة بقوش كتنايبية ومزخرفة بالجص المحرم كأنه الدتلا . وقبة الكشك نصف كروية ومزخرفة بتشابكات من مجوم وأشكال متعددة الأضلاع بشكل يدل على بلوغ النجارين الغرناطين القمة فى الإتقان ويذكر أحد الأساتذة الأسباب أن ثمة شرفات كانت لهذين الكشكين تشابه شرفات جامع السلطان حسن بالقاهرة .

ومن خلف هذين الكشكين والأعمدة القائمة حول الفناء ممر عرضه ٧,٥ قدماً ويدور حول الفناء وعن ارتفاع واحد كورنيش من الخشب للزخرف الذى يحمل الحائر (الزوف) الطائر المحمول على كوابيل مزخرفة .

وقد جاء فى وصف الرحالة الذين زاروا قصر الحمراء ما يفيد بأن ثمة أشجار برتقال كانت مزروعة بالفناء وأن الأشجار النباتية المتسلقة التى تغطى الواجهة على



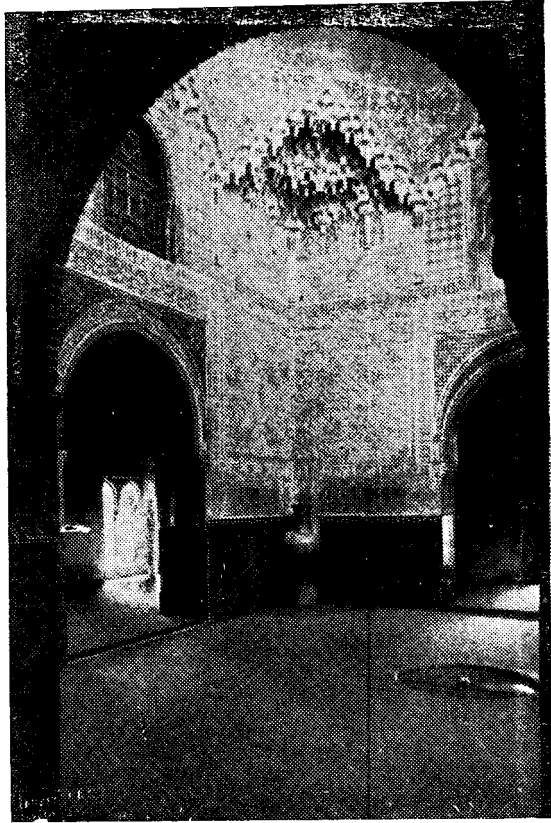
شكل ٥ — تفاصيل من العقود بهو السباع

النمو الذي نجمه في الشرق كانت مزروعة في بعض الزهريات. ولم يكن بالفناء حديقة وهناك من يذهب إلى أن ثمة بركة كانت موجودة بالفناء فضلاً عن نافورات أخرى غير التي ذكرناها .

وتجد بعد هذا المعر المزخرفة جدرانها بالعناصر المختلفة بالجص حجرة بكل من الضلعين الكبيرين وقاعة كبيرة مفتوحة على الفناء بالضلعين القصيرين ، تسمى إحداها حجرة بنى سراج نسبة إلى بنى سراج تلك الأسرة الغرناطية التي لعبت دوراً كبيراً في حوادث غرناطة ونكبت كما نكبت أسرة البرامكة في عهد هارون الرشيد . وهذه الحجرة رائعة في زخارفها وبجدرانها بعض أبيات من نظم ابن زمرك ففي دائرتين بالجهة اليمنى واليسرى نقرأ :

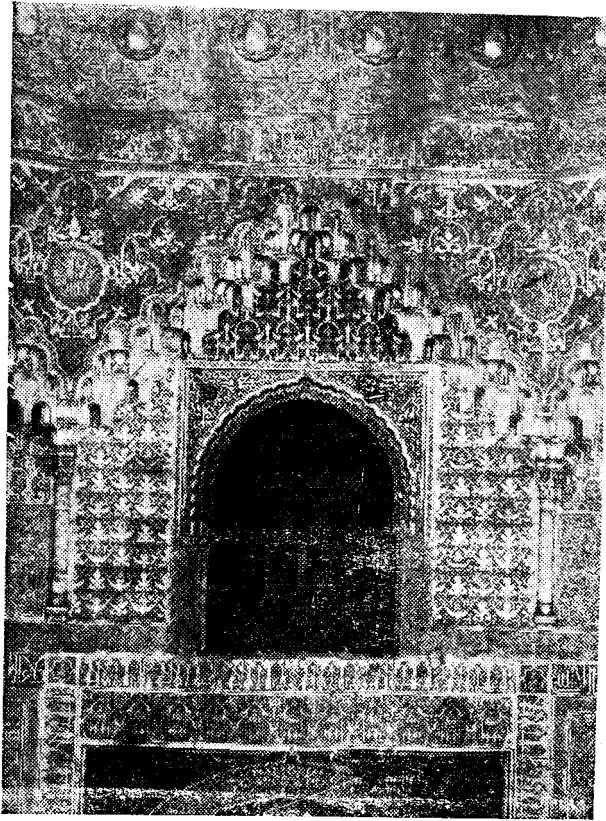
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تغل عمود الصبح إذ لاح باديا
وفي الصدر :

تبيت له خنس الثريا معيذة ويصبح مثل النواسيم رواقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك في أفق السماء جواريا



شكل ٦ — حجرة الأختين

أما حجرة الأختين (شكل ٦، ٧) فقد سميت بهذا الاسم لوجود لوحين من الرخام متشابهين وهي لا تقل حسناً وبهاء عن قاعة بني سراج ويزين جدرانها بعض أبيات من قصيدة ابن زمرك بخلاف العناصر الزخرفية الأخرى فستطيع أن تقرأ :



شكل ٧ - حجرة الأختين

تبيت له خنس الثريا معبزة ويصبح مثل النواسيم رواقيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمته ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
وكم من قسى في ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت مواليا
به المرمر المجلد قد شف نوره فيجبلو من الظلاء ما كان راجيا

أما القاعتان بالضلعين القصيرين المفتوحتين على الفناء فتختلف كل واحدة منهما
عن الأخرى من حيث التصميم وتسمى أحدهما قاعدة المفربصات والأخرى قاعة
الملوك أو المدل وهي في غاية الفخامة والأبهة وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب وجود
رسم يمثل سلاطين بني نصر حول مائدة الجزء الأوسط من السقف وهم في هيئتهم

يشبهون بعض رسوم المدرسة السلجوقية في التصوير التي ازدهرت في القرن ١٣ م بلباسهم العربية وعمائمهم وسمتهم السامية غير أن رسوم الحمراء تختلف من حيث طريقة رسمها عن أسلوب المدرسة السلجوقية إذ رسمت فوق جلد بعد تغطيته بطبقة رقيقة من الجص وهي هنا أقرب إلى صناعة جلود الكتب من اللاكهي منها إلى التصوير الإسلامي وكذلك تماثلها في ألوانها . ولذا يظن أنها من عمل بعض الفنانين الأوربيين الذين كانوا موجودين في غرناطة حينئذ والذين أتيت لهم الفرصة للاطلاع على صور بعض المخطوطات العربية . ومما لا يتصل إلى التصوير الإسلامي الرسوم الموجودة على جانبي رسوم الملوك ، تلك التي تمثل صور فرسان وصيد وهي ذات أسلوب أوربي واضح .

أما العناصر الزخرفية التي نشاهدها في مختلف أنحاء هذا البهو فلا تختلف عن العناصر الزخرفية التي تزين باقي أنحاء قصر الحمراء وهي عناصر نباتية وهندسية وخطية ، فمن العناصر النباتية نشاهد الورقة اللساء والمثلثة الشكل ذات الفص الواحد ولها كأس أو بدون الكأس والورقة المتماثلة ذات الفصين وكتلتها مأخوذتان عن زخارف عصر الموحدين وكذلك نجد الورقة المشرفة الأندلسية والمفصصة ويكثر استخدامها أكثر من السابقتين اللتين كانتا مستخدمتان في عصر المرابطين ومما يلاحظ على الزخارف النباتية بصفة عامة أنها أقل غنى من زخارف القرن ١٢ الميلادي وأقل تنوعاً ، وتتكون العناصر الهندسية أساساً من اتصالات الأشكال المتعددة الأضلاع البسيطة ونجدها في الحزف والزليج وأرض العرف وبعض أجزاء من الجص وتبلغ العناصر الهندسية درجة غير عادية من التعقيد والإبداع الهندسي في التكوينات المتشابهة ونلاحظ فيها التماثل التام والخضوع للقوانين الحسابية وهي سهلة التنفيذ معقدة المظهر . وتعد الحمراء بمثابة متحف للرسوم الهندسية المتشابهة غير أنها مملّة ؛ أما النقوش الخطية فهي إما من الخط النسخي المغربي أو الكوفي وتشتمل على أدعية وتعميات لسلطين بن نصر وأبيات من أشعار ابن زمرك في وصف القصر وأجزائه وكذلك عبارة شعار بن نصر .

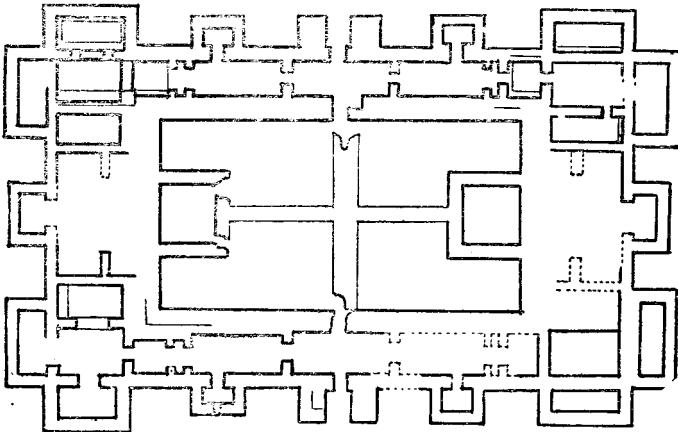
هذا وتغطي الزخارف الجصية المختلفة الأنواع ما بين نباتية وهندسية وخطية وكذلك الزليج سطوح الجدران جميعها فكأنها قد اسدل عليها ستار مزخرف بمختلف أنواع الزخارف .

وقد بلغت العناصر الزخرفية في الحمراء وفي الفن الغرناطي عموماً درجة عالية .

من الإبداع والإتيان بالرغم من عدم تنوعها قياساً على القرون السابقة ولا غرو فإن الفن الغرناطي يمثل أقصى ما وصل إليه الفنانون المسلمون بالأندلس من درجات الإبداع وليس ذلك بغريب فإن غرناطة كانت المعقل الأخير أمام حركة الاسترداد الأسبانية وإليها التجأ الفارون من وجه الأسباب فتجمع بها فنانون من مختلف العواصم الإسلامية الأندلسية يلوذون بها من اضطهاد الأسباب فكان ذلك سبباً لازدهار الفنون بها إلى درجة كبيرة ، وفي وقت قصير ولذا هناك من يدعو إلى البحث عن مصدر هذه الزخارف في قشتاله وشمال إفريقية .

وتمت ظاهرة فريدة نلاحظها ضمن هذه العناصر الزخرفية وهي عبارة عن بعض عناصر طبيعية المظهر لا تمت بصلة إلى التقاليد الإسلامية إذ تمت إلى الأسلوب الأوربي القوطي ، وكان هذا بتأثير الجوار أو وجود بعض الفنانين الأوربيين بين المسلمين ، ولا يقتصر هذا على قصر الحمراء فقط بل غيره ممثلاً في بعض إنتاج الفن الغرناطي كالحرف ذي البريق المعدني .

والملاحظ في التخطيط العام لهذا البهو التماثل في الأوضاع بالرغم مما يوجد من اختلاف بين كل وحدة وأخرى وتند ظهر تخطيط قريب الشبه من تخطيط بهو السباع في إقليم مرثية بمصن الكاستيخو (شكل ٨) ، وقد قيل إن هذا البهو من تصميم



شكل ٨ -- تصميم الكاستيخو بفحص ممرتين

مهندس مصري يدعى ABENCENEID وواضح شدة التحريف في الاسم الأسباني الأمر الذي يجعل التعرف على الاسم العربي من الصعوبة بمكان ، وهذه هي المرة الثانية التي يذكر فيها اشتراك مهندس مصري في عمل معماري أندلسي ، إذ سبق أن ذكر لنا المقرى اسم مهندس من أهالي الإسكندرية يسمى على بن جعفر عمل في إنشاء مدينة الزهراء . وهناك من يرى أن مصدر هذا التصميم القاهرة ، ولكن لما كانت أعمال الحفائر التي أجريت في الفسطاط والمنازل التي لا تزال باقية إلى اليوم ، لم تعدنا بمثل واحد يتشابه مع بهو السباع فإننا نميل إلى القول بأن مصدر هذا البهو قد يكون بهو حصن متقودة وليس هناك ما يمنع في هذه الحالة من أن يكون مصممه هو المهندس المصري المشار إليه وأنه اشتق تصميمه من أمثلة موجودة بالأندلس .

المعالم الرئيسية في الهجرة العربية إلى السودان

كان لظهور الإسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة في تاريخ العرب . فقد أمدت الرسالة المحمدية الأمة العربية بسياج ديني وفكري ساعدهم على خلق وحدة وقتية عبرت عن نفسها بإنشاء امبراطورية عظيمة الشأن . وتحت راية الإسلام إندفعت الجيوش العربية صوب الشرق والغرب والشمال حتى بلغت أماكن لم تصلها الهجرات العربية التي كانت تنساب عبر الحدود من وقت لآخر . وقد ثبت أن الجزيرة العربية ذات الإمكانيات الغذائية والرغوية المحدودة ، كثيراً ما عانت من ازدياد في عدد سكانها دفعهم في دورات متباعدة للهجرة عبر حدودها طلباً للغذاء والسكّال^(١) . ومن نافلة القول أن أضيف أن بعض القرائن ترجح أن عدداً من هؤلاء المهاجرين قد شقوا طريقهم إلى السودان، إما عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق الديار المصرية قبل ظهور الإسلام وهما الطريقان اللذان سلكهما العرب مؤخراً^(٢) .

وقبل أن نعضي في مناقشة العوامل التي ساعدت على هجرة العرب إلى السودان يحسن أن لا نتعرض في شيء من الإيجاز إلى وصف الحالة في البلاد التي تقع جنوب أسوان والتي نسميها تجاوزاً في حديثنا هذا « السودان » .

ففي الوقت الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك الديار تتكون أولاً من أرض البجة وهي تشمل تقريباً موطنهم الحالي . وثانياً — ثلاث ممالك تركز نفوذها في وادي النيل بين أسوان وسنار : أما المملكة الأولى نوباتياً أو المريس فسرعان ما اتحدت مع المملكة الثانية المقررة وكونتا مملكة النوبة وعاصمتها دقلا وتعد هذه المملكة حتى كبوشيه جنوباً ، والمملكة الثالثة هي علوه وعاصمتها سوبا^(٣) . أما السكان وخاصة الشماليين والشرقيين منهم فكانوا يمثلون في الأصل ، جنساً أقرب إلى المصريين الأوائل دون سواهم ولكنهم تأثروا في درجات متفاوتة بالقبائل شبه

B. Lewis : *The Arabs in History*, London, 1958, pp. 23-4, 28. (١)

Yusuf Fadl Hasan : *The Arabs and the Eastern Sudan from the seventh to the early sixteenth century*, Ph.D. thesis, London, 1964, pp. 77-80.

Ibid., pp. 63-67.

الزنجية التي تزحت من الجنوب^(١) . وكانت الوثنية الدين الغالب في معتقدات هؤلاء القوم ، ولكن ما أن اكتمل عقد القرن السادس الميلادي حتى توغلت المسيحية بين سكان مملكتي النوبة وعلوه وبين قليل من البجة بمن يسكنون الأطراف . فلما بدأت الفتوحات الإسلامية كانت المسيحية قد ضربت بجذور عميقة وصارت من مقومات النوبة الأساسية^(٢) . ولعل هذه النقطة تفسر لنا شيئاً من الأسباب التي أدت إلى الصدام بين النوبة والمسلمين فانحى مصر بقيادة عمرو بن العاص ؛ فقد إغتاظ النوبة على ما لحق باخوانهم في الدين من هزعة على يد المسلمين وأخذوا يتحرشون بالحدود المصرية . صحيح أن النوبة اعتادوا على غزو مصر كلما سنحت لهم الفرصة أو أحسوا ضعفاً في الإدارة القائمة هناك . أما الآن فيبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلاً مزعجاً مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب أن يأمر واليه على مصر بغزو النوبة^(٣) .

تضطرب المصادر العربية في تحديد عدد الغزوات التي أرسلت لصد هجمات النوبة وطبيعتها . ولكن المرجح أن المسلمين بعثوا حملتين رئيسيتين عدا الغزوات ، الأولى منها في ولاية عمرو بن العاص عام ٦٤١ م ، والثانية في أيام عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٦٥١^(٤) . وقد وجدت الحملة الأولى مقاومة عنيفة من النوبة الذين اشتهروا باجادة رمي السهام حتى سماهم العرب « رماة الحدق » . وقد حكى شيخ حميرى ممن حاربوا النوبة فقال : « لقد شهدت النوبة مرتين في ولاية عمرو بن العاص ، فلم أر قوماً أجد في حرب منهم . لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمي منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال في مكان كذ وكذا فلا يخطئه . . . وخرجوا إلينا

(١) انظر C.G. Seligman : "Some aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan", *Journal of Royal Anthropological Institute (J.R.A.I.)*, XLIII, 1913, pp. 593-610 ; A.M. Batrawi. "The racial history of Egypt and Nubia", *J.R.A.I.*, LXXVI, (1946), p. 155 ; U. Monneret de Villard, *Storia della Nubia Cristiana*, Roma, 1938, pp. 53-70.

(٢) J.W. Crowfoot, "Christian Nubia", *Journal of Egyptian Archaeology*, XIII, (1927), p. 142.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، باريس ، ١٨٦١ ، ج ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

ذات يوم فصافونا . نحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم رمونا حتى ذهبت الأعين . فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوءة . فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح ، أن سلبهم لقليل وأن نكابتهم لشديدة . ولكن عمرو بن العاص رفض أن ينهى الحرب (١) . وظل العرب يجاهدون النوبة حتى عام ٦٥١ حين توغلت جيوش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، في حملتهم الثانية ، حتى دنقلا . وهناك أشتبك الجيشان في ملحمة رائعة لم تنته إلى نتيجة قاطعة . فقد أبدى النوبيون على عاداتهم بسالة فائقة . ولكن ما أن ضربت كنيستهم بالمنجنيق ، الذى لم يعرفوه من قبل ، حتى دخل الرعب في نفوسهم مما اضطر ملكهم قليدروت إلى طلب الصلح (٢) . وفى رأى أن المسلمين مالوا إلى قبول ذلك الاقتراح بعد أن لاقوا قتالا شديداً وهم بعيدون عن ديارهم . ويشير هذا الاستنتاج نقطة هامة وهى أن المسلمين لم يقصدوا فتح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حداً لهجماتهم .. وكانت النتيجة أن غزوه دون أن يقضوا على سلطانهم قضاء تاماً . وتؤكد هذه النتيجة الدراسات التفصيلية للروايات المختلفة لمهد النوبة .

وكان هذا العهد عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم إعتداء بتعبير حديث ، يلتزم بها الطرفان ، ويقوم على تبادل المنافع التجارية بين المسلمين والنوبيين . ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية بالقط (٣) يؤكد هذه الحقيقة . فكلمة بقط — وهو تعبير لاتينى (Pactum) — اشتهر فى الأمبراطورية البيزنطية ، التى كانت مصر جزءاً منها ، تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات (٤) . وهذا ما حدث . فبعد أن جعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح أماناً وهدنة جارية بين المسلمين والنوبة عام ٣١ هـ / ٦٥١/٢ ميلادية ، اتفق الطرفان على أن يدفع النوبة أربعائة من أوسط رقيقهم كل عام على أن يتسلموا قية ذلك مواداً غذائية وثمانياً كما نص العهد على أن يصرح للتجار المسلمين بدخول بلاد النوبة ، محتازين غير

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ؛ المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط) ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) F. Lokkegaard, "Bakt", *Encyclopaedia of Islam* 2, I, p. 966.

مقيمين ، ويسمح للنوبة بالتجول في مصر لنفس الغرض . هذا أهم ماورد في معاهدة البقط^(١) . وتؤكد اللواد مذهبنا إليه من قبل في أن المسلمين كانوا يسمعون في ذلك الحين لتأمين حدودهم الجنوبية ، وقد وقفوا عرضاً في فتح بلاد النوبة للتجار المسلمين دون أن يعترض طريقهم نوبى^(٢) .

وكما يتوقع فإن النوبة حاولوا التخلص من هذه الالتزامات الجديدة وعبروا عن ذلك أول الأمر بغزو صعيد مصر في أواخر الدولة الأموية ، ولكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل^(٣) . وفي عهد الخليفة المهدي العباسي احتج النوبة بأنهم يلاقون صعوبة كبرى في العدد المطلوب من الرقيق عاماً بعد عام . واستجاب المهدي لمطلبهم هذا ففرض عليهم تسليم الرقيق مرة كل ثلاثة أعوام^(٤) . وتفيد بعض المصادر أن هذا التعديل قد تم في عهد الخليفة المعتصم ، فقد ذكرت تلك المصادر أن النوبة قد تكاسلوا في تسليم ما عليهم من بقط ، ويبدو أن الاضطراب الذي ساد مصر في عهد الخليفة المأمون قد شجعهم على عدم الإيفاء بالتزاماتهم ، فأوقف المسلمون ما عليهم من مؤن ، وأخذوا يتعرشون ببلاد النوبة . وناقش ملك النوبة زكريا بن يحنس وابنه جورج الأمر واتفقا على أن يزور الأخير الخليفة المعتصم في بغداد طالباً تخفيف ما على النوبة من التزام^(٥) . وكانت النتيجة شبيهة بالاتفاق الذي تم في عهد المهدي . والمهم في الأمر أن معاهدة البقط الأولى صارت ركناً أساسياً في تكييف العلاقات بين المسلمين والنوبة لمدة ستة قرون دون تغيير جوهرى في مضمونها .

وبالرغم من أن الاتفاق بين المسلمين والنوبة كان يحول دون توغل العرب واستقرارهم في بلاد النوبة إلا أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدي إزاء هذا المنع . فبعد مقتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد في بوسير بمصر أتجه أبناء عبد الله

(١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٦ : المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٠

— ٢٩٢ .

(٢) لتوضيح معاهدة البقط أنظر : Yusuf Fadi Hasan, op. cit., pp. 82-97.

(٣) Ibid., 98.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩ .

(٥) ساويروس « ابن المقفع الأشمونى » : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير

البيعة المقدسة ج ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٢ : المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ .

وعبيد الله ومعهما ألفان وربعاً أربعة آلاف من أتباعهما إلى بلاد النوبة بقصد الإقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبي . ويبدو أن ملك النوبة الذي استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية إلى بنى العباس ، فلم يتردد في أن يطلب منهم الخروج من دياره . وهددهم قائلاً « إن السودان كثير عددهم قليل سلبهم » فلما تبين لعبد الله بن مروان وأتباعه عدااء الملك قرروا الذهاب إلى الجزيرة العربية وبعد عناء كثير في بلاد البجة واستطاع عبد الله أن يعبر البحر الأحمر من ميناء باضع ومعه حوالي أربعين أو خمسين من أتباعه (١) وبالرغم من أن هؤلاء الهاربيين السياسيين لم يستطيعوا البقاء في بلاد النوبة إلا أن الطريق الذي سلكوه شهد هجرات كثيرة في القرون اللاحقة . ومنذ عهد مبكر أخذ العرب يتدفقون نحو السودان . ففي الوقت الذي تدمر فيه النوبة مما يدفعون من رقيق لبيت المال ، اشتكى ملكهم للخليفة المأمون ، من بعض الأعراب لشراهم أراضي رعاياه في المنطقة الواقعة بين أسوان وبجراس — فرص (٢) . وهى منطقة لا يجوز للعرب الاستقرار فيها حسب منطوق معاهدة البقط . ولم تغد شكوى الملك شيئاً وظل للملاك العرب في مكانهم . فلما زار الرحالة الفاطمى ابن سليم الأسوانى تلك المنطقة سنة ٩٦٩ وجد أن كثيراً منهم قد اختلطوا بالنوبة إلى درجة أن عدداً منهم قد نسوا اللسان العربى (٣) .

لم تكن مصر هى الطريق الوحيد الذى دخل منه العرب إلى السودان . فقد توغلت جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للامبراطورية الإسلامية عن طريق البحر الأحمر . فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى قد غرب إلى ميناء باضع (بالقرب من عقيق) سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م (٤) . وذكر أن الخليفة أبابكر

(١) اليعقوبي : تاريخ ابن واضح ، لندن ، ١٨٨٣ ج ٢ ، ٤١٥ — ٤١٦ ؛ البلاذرى : أنساب الأشراف : مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ ٧٨٥٦ ، القاهرة ، ج ٨ ، ورقات ٥٠٠ — ٥٠٣ ؛ ابن هبدره : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٤ ؛ ساويرس : نفس المصدر ، ج ١ مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، لندن ، ١٨٧٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٧٩ — ٢٤٨٠ .

الصديق قد نفى جماعة من الأعراب إلى منطقة عيذاب^(١) . وفي ذلك العهد المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش والمسلمين . فقد هاجم الأولون ميناء جده ، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب حملة مكونة من خمس سفن لتأديبهم^(٢) . وكرر الأحباش هجماتهم في خلافة سايان بن عبد الملك الذي أمر باحتلال مركزهم وهو يتكون من مجموعة جزر دهلك ، ليضع حداً لنشاطهم^(٣) . وبذلك يكون هذا الاحتلال بمثابة رأس الجسر للنفوذ العربي في الساحل العربي . وقد اتخذ الأمويون ومن بعدهم العباسيون دهلك هذه منفى للمناصر العربية غير المرغوب فيها ، وكان من بين هؤلاء بعض الشعراء^(٤) . ولا أريد أن أبالغ في أهمية هذا الاتصال ، فدهلك هذه (أو مصوع) ، ميناء الجزء الشمالي من الحبشة ، وباضع وعيذاب مدخلان رئيسيان لأرض البجة والممالك المسيحية . وفوق هذا كان التجار العرب يمارسون نشاطهم الذي ورثوه عن أجدادهم دون توقف .

وفي الربع الأول من القرن الثامن الميلادي أخذ البجة يكثرزون أذية سكان صعيد مصر . فأرسل عبيد الله بن الحبحاج ، عامل الخراج على مصر ، حملة انتصرت عليهم . وعلى أثرها فرض المسلمون على البجة أن يدفعوا سنوياً ثلاثمائة من الأبل ، وألا يمتدوا على المسلمين أو رعايهم ، ولكن أعطوهم حق التجول في مصر^(٥) . هذه المعاهدة شأنها في ذلك كماهدة البقط ، ساعدت على وضع حد لهجمات البجة ، كما فتحت بلادهم للنفوذ العربي ، وأدت إلى خلق نوع من الاطمئنان هياً سفر كثير من الحبيج إلى الحجاز عن طريق بلاد البجة . وفي سنة ٨١٤ سافر إبراهيم القفطى

(١) البكري (عبد الله بن عبد العزيز) : الممالك والمسالك (مخطوط ، المتحف البريطاني ، لندن) ، ص ١٠ ب .

(٢) الطبري : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٩٥ ؟

A. Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, Le Caire 1929, I, Part III, p 322.

(٣) الفاكهي (محمد بن اسحاق) : كتاب المتقي في أخبار أم القرى ، نشر وستنفلد لايزنيك ، ١٨٥٩ ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ القنأى (أحمد بن محمد) : كتاب الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، بولاق ١٣١٥ ، ص ١٥ .

(٤) الطبري : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٥٥ ، ج ٢ ص ١٧٧٧ ؛ أبو الفرج الأصبهاني

كتاب الأغاني ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ٢٣٩ ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

حاكم قفط في جماعة من أهله على نفس الطريق . وكان ابراهيم هذا خبيراً بتلك الديار علياً بمسالكها ، فتطير البجة منه وخافوا على سلامة وطنهم ، فأغروا زعيمهم محاً ليسمح لهم بقتله^(١) . وانتهت القصة بقتل ابراهيم هذا وجماعته في ظروف غامضة ولم يسلم منهم إلا صبي استطاع أن يحمل الخبر لأهله في قفط . فحكمتم أولئك الأمر حتى قدم محاً واتباعه من البجة على عادتهم للتجارة ، فاعمل أهل قفط السيف فيهم . ورد البجة الصاع صاعين فهاجموا قفط وقتلوا عدداً من بنينا وسبوا سبعمائة من سكانها . وظل أهل قفط يطلبون العون من الوالي ثمانية سنوات حسوما ولكن دون مجيب . وجاء العون من حكم النابغى من قيس عيلان التي تسكن الحوف في مصر ، وكان رجلاً ثرياً فاضلاً محباً للجهاد في سبيل الله . فخرج حكم في ألف من رجاله ودام على حرب البجة ثلاث سنوات حتى يسترد ما أسروه وزاد عليه^(٢) . وتطوع هذا العدد من العرب وزوجه من الحوف ، وهى من أكثر الأماكن رخاءاً في مصر ، يدل على أن هناك دوافع عميقة حدث بهم ليقوموا لنصرة أهل قفط ، ويحاربوا البجة . وحقيقة الأمر أن الصلة بين العالم الإسلامى والسودان لم تبلغ درجة من الأهمية ، ولم يكثر ذكر تلك الصلات في المصادر العربية إلا بعد أن ساء حال العرب في الإمبراطورية الإسلامية عامة ، وفي مصر خاصة . وشرح هذه النقطة يتطلب شيئاً من الاستطراد .

ظل العرب طوال عهد الراشدين والعصر الأموى والحقب الأولى من الدولة العباسية يكونون أقلية مصطفاة في مصر . فهم يمثلون طبقة المقاتلة والأرستقراطية الحاكمة . وكانوا يتسلمون رواتب سخية ويدفعون ضرائب بسيطة ، وحتى يحافظوا على مقدراتهم الحربية حرم عليهم اقتناء الأرضى والاشتغال بالفلاحة ، ومن ثم ظلوا يسكنون المدن . ولكن في أواخر الدولة الأموية بدأت جماعات منهم تحترف الزراعة وتحفظ بالمصريين ، وكان ذلك بداية للاستعراب وانتشار الإسلام في مصر^(٣) .

يصعب حصر العرب الذين دخلوا مصر ولكن الأرقام التي توردها المصادر

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ٥١ - ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ - ٥٢ .

Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 103-4.

(٣)

العربية قد تفيدنا في رسم صورة تقديرية . إذ تذكر المصادر أن عمرو بن العاص غزا مصر في ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمدّه الزبير بن العوام بخمسة آلاف وفي رواية أخرى بإثني عشر ألفاً . وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزا النوبة في عشرين ألف مقاتل ! وقد بلغ عدد العرب المقيمين في الفسطاط في خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً ، وفي اسكندرية عشرين ألفاً آخر^(١) .

واستمر العرب يفتدون لمصر لأسباب مختلفة منها كثرة تغيير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم ليشدوا من أزرهم في وظائفهم الجديدة . وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ ست آلاف أو عشرة أو عشرين ألفاً^(٢) . فإذا تذكرنا أن ثلاثة وعشرين والياً تعاقبوا على مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسة بن إسحاق الضبي آخر وال عربي تكونت لدينا فكرة عن عدد من هاجر في مثل تلك الأحوال : كما شجع الأمويون هجرة القبائل القيسية ليقبلوا من نفوذ القبائل اليمنية . وقد استقرت جماعات من هؤلاء في مصر حيث مارست الزراعة^(٣) .

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأييد الموالي وبعض العرب ، ومن ثم حاول العباسيون استرضاء تلك العناصر ، وحاولوا في نفس الوقت أن يبرهنوا على عروبتهم في كثير من أعمالهم . غير أن عوامل جديدة حالت دون ذلك ، فقد اعتمدت الدولة على الجند الخرساني وهم مزيج من الفرس والعرب فقل اعتمادها على المقاتلة العرب ، وبذلك حرم العرب من كثير من امتيازاتهم . فأصبحت الرواتب مثلاً تدفع للمقاتلة من العرب فقط ، لا للعرب جميعهم كما كان الحال في أول الأمر ، وحتى هؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجياً واحتلتها الجنود الأتراك^(٤) . فلما أحس العرب بهذا التغيير أخذوا يحترفون الفلاحة ، وظل

(١) المقرئ : المخطط ، ج ٣ ، ص ١٦١ ، ٢٦٠ ؛ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب (البيان) ، تحقيق عبد الحميد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٥ .

S. Lane-Poole : *A History of Egypt in the Middle Ages*, (٢) London, 1901, p. 29.

(٣) المقرئ : البيان ، ص ٩٨ - ٩٩ ، ٦٦ - ٦٨ .

B. Lewis, *op. cit.*, pp. 80, 84, 92-3.

(٤)

البدو على بداوتهم . ولكن جزءاً آخر ممن لم يعجبه الوضع آثر الهجرة لأطراف الإمبراطورية الواسعة . ومنذ ذلك الحين صارت كلمة عرب أو أعراب تطلق في الغالب على البدو منهم .

أبدى العرب في مصر استياءهم الشديد لهذا التحول في سياسة الدولة . وكثرت ثوراتهم في أول قرن للدولة العباسية . ففي سنة ٧٨٢ ثار دحيه وأعلن نفسه خليفة أمويّاً على صعيد مصر وأيده كثير من العرب . ولم تفلح الحكومة المركزية في إخماد ثورته إلا بعد مجهود جبار عام ٧٨٦^(١) . وفي عام ٨٠٢ أعلنت قبائل قيس العيصان ورفضت دفع الخراج^(٢) . وقد تبع هذه الاضطرابات حروب كثيرة بين هؤلاء العرب الذين أرادوا التمتع بخصبات الأرض التي يفلحونها دون دفع خراج عنها . ولم تهدأ الأحوال في مصر إلا بقدوم الجيش الحراساني بقيادة عبد الله بن طاهر سنة ٨٢٦ . فما أن بارح مصر إلا رفع العرب راية العيصان مرة ثانية . وفي سنة ٨٣١ أرسل الخليفة المأمون أخاه المعتصم بأربعة آلاف من الجند الأتراك ليفرقوا العرب الذين حاصروا القسطنطينية . ولم يمض عام حتى اضطرت الخليفة المباشرة الأمر بنفسه وكبح جماح العصاة . وغاية ما هناك أن هذه الحروب قد بعدت الشقة بين العرب وحكام مصر^(٣) .

فلما آل الأمر إلى الخليفة المعتصم كتب إلى واليه بمصر يأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففعل ذلك^(٤) . ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة في تاريخ العرب في مصر . إذ يعنى أن الدولة قد زهدت في خدمة المقاتلة من الأعراب واستبدلتهم بالجند التركي .

عرف العالم الإسلامي الترك منذ العهد الأموي ، ولكن المعتصم أكثر من

(١) ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ - ٦١ ؛ المقرئى : الخطط (ط. القاهرة) ج ١ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ليدن ، ١٩١٢ ، ص ٤٣ ؛ المقرئى ، الخطط ج ١ ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) المقرئى : الخطط : ج ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

استعمالهم ، إذ اتخذهم حرساً له ، وعهد لهم بإخماد ثورة قيس في مصر قبل أن يصبح خليفة . فلما آل الأمر إليه اعتمد عليهم كلياً لأسباب لا محل لذكرها هنا ؛ ولكن من المؤكد أن مهارتهم الحربية كانت تفوق مقدرة المقاتلة من العرب والجنود الحرساني في ذلك الحين^(١) . ومنذ ذلك التاريخ كثر استعمال الجنود الأتراك ، والجنود النوبيون بدرجة أقل .

ولم يرض قرار المعتم م دون احتجاج صارخ من العرب في مصر ، فقد ثار يحيى بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام وأعلنوا العصيان حتى ترد لهم حقوقهم المنتصبة على حد تعبيرهم^(٢) ، ولكن ثورتهم هذه لم تقم شيئاً : فقد اكتشفوا أنهم قدودا مصدر رزق هام وبقي أمامهم أحد أمرين ، إما أن يستقروا ويختلطوا بالمصريين أو ينزحوا نحو صعيد مصر بعيداً عن سلطة الوالي ، حيث تسهل الثورة ضد الحكومة أياً كانت . ولعل مما زاد من حقن العرب أن الولاية بعد سنة ٨٥٢ صاروا زكاً .

وباختصار فإن السياسة التي اختطها المعتم في تجنيد الترك تعتبر في نظري العامل الأساسي الذي شجع العرب على الهجرة إلى السودان . فكلما زادت قبضة الأتراك على الحكومة والجيش في مصر ، اضطرت العرب إلى الهجرة نحو السودان . وقد بلغت قبضة الأتراك القمة في العهد المملوكي .

والرأى عندي أن العرب منذ أوائل القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلوا السودان في مجموعات صغيرة دون أن تسترعى انتباه أحد ، أو يسجل تفاصيلها التاريخ . وقد دفعتهم لذلك الأخبار التي سمعوها من التجار عن المراعي الشاسعة التي تقع جنوب بلاد النوبة . قد يقال إن الحدود بين مصر وبلاد النوبة يحرسها صاحب الجبل أو حاكم الريس الذي يقطن بجراش ، والذي يحول دون دخول أى شخص غير مصرح له بذلك^(٣) . ولكن لنذكر أن هذه النقطة من الحدود يسهل تفاديها .

١ انظر Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 109.

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن تغرى بردى . نفس المصدر ، ج ١ ،

ص ٢٢٣ .

(٣) أبو صالح الأرمي : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمي ، أكسفورد ، ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ،

المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ .

ولقد استغل البجة اشغال حكام مصر في أوائل القرن الثالث الهجري بالفتن الداخلية وبدأوا يغزون الصعيد مرة أخرى . فبعث الخليفة المعتمد ، عبد الله ابن الجهم الذي هزم رئيسهم كنون بن عبد العزيز وفرض عليهم صلحاً لا يختلف في مضمونه عن عهد عبد الله بن الحجاج معهم ، بل يؤكد امتداد نفوذ المسلمين في تلك الجهة . تنص المعاهدة باختصار على أن تكون بلاد البجة ومن فيها من أسوان إلى تخوم باضع ومصوع ملكاً للخليفة . وأن يكون كنون بن عبد العزيز نائباً عنه ، وأن تدفع البجة مائة جمل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال وألا يعترض البجة المسلمين الذين يسافرون أو يستقرون في بلادهم بأذى . وألا يهدموا المساجد التي بناها المسلمون وأن يسمحوا بمال بيت المال بجمع الصدقات من أسلم . وأكدت المعاهدة السماح للتجار البجة بالدخول في مصر^(١) . لا أريد أن أطيل في مناقشة هذه المعاهدة ، لكن من الواضح أنها وضعت الأساس لتجول المسلمين واستقرارهم في حرية تامة (أكثر من ذي قبل) . والإشارة إلى وجود مساجد والحديث عن جمع الصدقة يدلان على أن العرب قد دخلوا في أعداد كبيرة ساعدت على نشر الإسلام . ثم أن اسم رئيسهم كنون بن عبد العزيز يدل على أثر عربي . والجدير بالذكر أن تلك المعاهدة قد ترجمها إلى البجاوية عريان أحدهما من جدة والآخر من قبيلة قريش ، ولا بد أنهما عاشا في تلك الديار حتى تعلمتا تلك اللغة^(٢) .

وفي أثناء حملة عبد الله بن الجهم تسمع الناس بوجود الزمرد والذهب في أرض البجة^(٣) ، فتدفق الناس في أعداد كبيرة زهداً في الحياة في مصر ورغبة في الثراء السريع .

ولا بد من وقفة هنا لنبين معالم هذه الهجرة ، فبالرغم من أن سياسة الدولة لم تعد تغري كثيراً من العرب بالبقاء في مصر ، إلا أن أسباباً اقتصادية بحثة دفعت بكثير من العرب ورعاياهم للتوغل في السودان وهي باختصار تجارة الرقيق ، والعمل بالتعدين في الصحراء الشرقية ، والاشتغال بالتجارة الهندية ونقل الحجيج وما صاحب الأخيران من تطوير للموانئ .

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٢) المقرئزي : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣ .

ربما كان العامل التجاري هو السبب الرئيسي في توغل العرب في المقرة وعلوه خلال القرون الإسلامية الأولى ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والعامج والماشية والرقيق^(١) . وكانت تجارة الرقيق تمثل جزءاً مهماً من ذلك النشاط ، وقد تزايد الطلب للرقيق في العالم الإسلامي بعد أن قل الوارد من السبي . وكان جزء من هذا الرقيق يملأ جوارى أو حاضنات وبعضهم يعمل خدماً وعمالاً^(٢) . غير أن الأغلبية كانت تتخذ جنداً ، خاصة في مصر بعد عهد أحمد ابن طولون الذي عين أربعين ألفاً منهم في جيشه^(٣) ، وازداد هذا العدد أيام الأخشيديين والفاطميين^(٤) . ولم يكن هذا الطلب وفقاً على مصر وحدها ، بل كانت الحجاز سوقاً هاماً^(٥) . وذكر الرحالة ابن بطوطة أنه رأى جارية نوبية في بلاط خان التتر في بلاد القرم في أوائل القرن الرابع عشر^(٦) .

أين موطن هؤلاء الرقيق ؟ من المرجح عندي أن الجزء الأكبر كان يجلب من البلاد التي تقع جنوب المقرة وعلوه ، أي الجزء الغربي من بلاد السودان بعناها العام . وكان التجار العرب يعتمدون على التجار المحليين في اعتناء الرقيق^(٧) .

ويهمنا أن نذكر في هذا المقام أن تجارة الرقيق سهلت الهجرة العربية لسبيين : أولاً : بالرغم من أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بعناها العام إلا أن الجزء الذي اشتري من المقرة وعلوه قد حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيها (وهو النوع المرغوب فيه) ومن ثم قلل بمرور الزمن من فرصتها لتعول دون توغل العرب مستقبلاً . ثانياً : ساعد توغل التجار المسلمين في زيادة معرفة

(١) ناصري خسرو : سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤١ ، ابن الفقيه : مختصر

كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ص ٧٦ . Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 116.

(٢) ابن بطان : رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٧١ - ٣٧٨ .

(٣) المقرئزي : المخطوط (ط القاهرة ، ١٨٥٣) ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) المقرئزي : المخطوط : ج ٢ ، ص ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩ ،

ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ ، Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 119-126.

(٥) *Ibid.*, pp. 126-7.

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، باريس ١٨٩٣ ، ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٧) أنظر Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 121-123.

العرب بتلك البلاد : مسالكها ومراعيها . ولا شك أن هذه المعرفة أفادت المهاجرين كثيراً وفتحت أمامهم عوالم جديدة . وعلى ضوء ماحدث مؤخراً يبدو جلياً أن التجار قد عملوا بعد أن وسعوا نطاق التجارة ، كدعاة ومبشرين للإسلام ، وأنهم في توغلهم وترحلم الكثير من منطقة لأخرى داخل السودان قد حملوا الدعوة الإسلامية إلى تلك المناطق .

كان لاكتشاف الزمرد والذهب في الصحراء الشرقية أمر أخاذ على نفوس العرب في مصر . فاندفعت جماعات منهم نحو تلك المنطقة التي أسوها « أرض المعدن » في أوائل القرن التاسع الميلادي وكان مركزهم الرئيسي وادى العلاقي . ولكن البجة الذين لم يشتهروا بالعمل بالتعدين طردوا العرب وقتلوا جماعة منهم ، وامتنعوا عن دفع الجزية وهاجموا الصعيد . وبعد تردد من حكومة بغداد ، خوفاً من البجة ومخبرائهم الموحشة ، عهد الخليفة المتوكل لمحمد بن عبد الله القمي بحاربهم (١) . واستعد القمي إستعداداً كاملاً ويزعم الطبري أن القمي سار في عشرين ألف مقاتل من العرب الذين طردتهم البجة من أرض المعدن . ولا شك أن هذا عدداً كبيراً لا تحتمله حملة صحراوية (٢) : ومن المرجح أن عددهم ثلاثة ألف مقاتل من قبائل ربيعة ، ومضر وعين بالتساوي كما ذكر ابن حوقل (٣) . وقد أرسل القمي الأطمعة في سبع سفن أبحرت حتى مكان بالقرب من عيذاب . أما الجيش فبعد أن اخترق أرض المعدن ، قابله على بابا زعيم البجة الذي جعل يناوش المسلمين حتى ينفذ زادهم ويأخذهم دون مجهود . فلما علم البجة بوصول المراكب يتسوا من هلاك جيش القمي وبدأوا القتال . ولجأ المسلمون إلى خدعة ساعدتهم على النصر ، فقد ربطوا عدداً من الأجراس على رقاب الخيل فلما سمعتها إبل البجة وكانت ذعرة ألفت من تحمل وولت لا تلوى على شيء ، قتم النصر للمسلمين . والتزم البجة بدفع الجزية والسماح للعرب بالتعدين . وتأكيذاً لهذا الإتفاق اصطحب القمي على بابا لزيارة الخليفة ببغداد وتقديم فروض الطاعة (٤) .

(١) الطبري : نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ١٤٢١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

(٤) الطبري : نفس المصدر ج ٣ ص ١٤٢ والبلاذري : نفس المصدر : ص ٢٣٩ ؛

ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

وما أن استتب الأمن حتى تقاطر العرب نحو أرض المعدن زرافات ووحداناً .
جاءت قبائل من مضر وربيعة بن حنيفة من نجد ، على سبيل المثال لالحصر ، وسكنت
وادي العالقي (١) . ولعل خير مثال للهجرة العربية في تلك الظروف نشاط عبد الله
ابن الحميد العمري (٢) ، الذي قدم مصر سنة ٨٥٥ ومنها أتجه نحو أرض المعدن بعد
أن اشترى رقيقاً وحط رحاله بالقرب من معدن لمصر ، ثم فارقه ثم أثر خلاف لمعدن
الشككة ، الذي يظن أنه بالقرب من أم نباردي أو وادي هدقليب (٣) ، ولكن
العمري لم يجد ماء كافياً لعمليات التعدين في ذلك المعدن ، فورد النيل ، ومنعه
أهله منه شكاً في نواياه . فهاجم العمري سكان شنقير ، وهي المنطقة التي تقع بين
أبي حمد وبربر . وسبي منهم كثيراً وباعهم في أسواق مصر . فكثرت ماله ، وزاد
سلطانه وأخذت القوافل ترد إلى معسكره محملة بالغنماء . ولكن زعامته لم تدم
طويلاً إذ دخل في حروب طويلة مع النوبة انتهت بانهازمه . فأثرت هذه الهزيمة على
موقفه من حلفائه العرب ، فقد اتهمته سعد العشيرة بملائة قيس هيلان . وأخيراً
اضطر العمري ليتجه شمالاً وأن يعسكر بالقرب من أسوان .

فلما بلغ خبره أحمد بن طولون وكان جيشه يتكون من الترك والنوبة ، خافه ،
وخشى أن يتعاون مع البدو الذين تكثرت ثوراتهم في الصعيد . وقرر أن يباغته ،
فاتنصر العمري على جيش ابن طولون ، وقفل راجعاً إلى أرض المعدن . وهناك
بسط نفوذه على قبائل جبهينه وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه واتسعت سلطته
حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تتمم في حمل المؤن من أسوان لحلفائه ، عدا
العير التي تجيء من عيذاب . وفي ذلك الحين فكر ابن طولون في الإتيان ، ولكنه
آثر السلامة إزاء تهديدات العمري . ومن حسن حظ الطولونيين أن الحلف العربي
الذي أنشأه العمري في أرض المعدن لم يدم طويلاً ، نتيجة اختلاف بين الحلفاء .

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٥٣ ؛ اليعقوبي : كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ،
ص ٣٣٤ .

(٢) المقرئ : المقتفى (مخطوط ، المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم 2144 Arabe .
ج ٤ ، أوراق ١٦٤ - ١٦٧ .

U. Monneret de Villard, *op. cit.*, p. 111. (٣)

والسبب المباشر لذلك ، أن إبراهيم الخزومي ، أخو العمري من أمه ، قتلته جماعة من البجة ، فطلب من حلفائهم ربيعة أن تنصفه فرفضت . وآثرت مضر الحيات بينما عاداه بنو هلال وبنو تميم . وأخيراً تمكن العمري في جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنه لم يمش طويلاً إذ اغتاله غلامان مضرين^(١) .

لا نبالغ إذا قلنا إن العمري قد قارب النجاح عندما أنشأ أول إمارة عربية في شمال السودان . وضرب بنجاحه هذا مثلاً لكثير من المغامرين والراغبين في الهجرة ليعذبوا حذوه . وتعكس الأخبار المفصلة التي سجلها اليعقوبي^(٢) بعد عشرين سنة من موت العمري ازدياد النشاط العربي في أرض المعدن . وقد شمل هذا النشاط التعدين ، والتجارة ، ونقل المؤن .

وقد لعبت قبيلة ربيعة وحلفاؤها دوراً هاماً في انتشار الإسلام والنفوذ العربي في أرض المعدن . فبعد أن حاربت ربيعة العمري ، تحالفوا مع البجة وتزوجوا منهم . واستطاعوا بفضل عادة أهل السودان في ذلك الوقت ، وهو أن يرث ابن بنت السلطان الملك ، أن يسيطروا على زعامة القبائل ومن ثم قوى نفوذهم حتى عم أرض المعدن^(٣) . يؤكد المسعودي أن صاحب المعدن في عام ٩٤٣ م كان بشر بن مروان بن اسحاق ، وكان يركب في ثلاثة آلاف رجل من ربيعة وأحلافها وثلاثين ألفاً من الحداربة وهم مسلمون من سائر البجة^(٤) . واستطاع أحد أحفاد بشر هذا ويدعى أبوالمكارم هبة الله أن يساعد الفاطميين في إلقاء القبض على ثائر أموى يسمى أبو ركوة ، نخلع عليه الخليفة الحاكم بالله لقب كنز الدولة^(٥) . ومن ذلك الحين صار لقباً تتوارثه الأسرة فاشتهرت ببني الكنز . وكان هذا اللقب تأكيداً وتأييداً لخدمات الأسرة التي امتد نفوذها على أرض المعدن وشمالي المريس : ومنذ ذلك الحين أصبح بنو الكنز قوة عربية محلية لها وزنها .

(١) المقرئى : الملقى ج ٤ ، ص ١٦٤ - ١٦٧ .

(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٣) Yusuf Fadi Hasan, *op. cit.*, p. 141.

(٤) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٣ - ٣٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ج ٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ؛

المقرئى : البيان ، ص ٤٦ .

وبمرور الزمن بدأ إنتاج المناجم يقل شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ، بعد أن غطتها الرمال . ولعل السبب في تدهورها يرجع أولاً لخوف أصحابها من هجمات البجة والإعراب ، ثانياً كان الإنتاج لا يغطي النفقات ومن ثم أخذ العاملون في أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر ، متجهين إلى الداخل (١) .

وتقف المهجرة العربية في بلاد البجة على أرض المعدن ، بل توغلت جنوباً . فقد وجدت آثار مستعمرة عربية عاشت لأكثر من قرن (بين ٨٢٥ - ٩٤١ م) ، في خور بنت على بعد سبعين ميلاً شمال شرق محطة هيا . ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الإبل والإتجار فيها (٢) : ولقد لعبت هذه الإبل دوراً هاماً في نقل الحجاج . والبضائع بين الصعيد وموانئ البحر الأحمر وفي أرض المعدن .

* * *

منذ فجر التاريخ ظل البحر الأحمر أحد طريقين تجاريين هامين يربطان الشرق بحوض البحر الأبيض المتوسط . وفي العصر الإسلامي نشأت على ساحله السوداني ثلاثة موانئ ، وهي باضع ، عيذاب وسواكن ، ساهمت كل منها بدرجة متفاوتة في اتساع نطاق التجارة والمهجرة العربية . أما باضع التي ورد ذكرها عام ٦٣٧ واندثرت في القرن الحادي عشر ، فقد كانت مركزاً تجارياً هاماً لمنطقة البحر الأحمر ولكنها لم تلعب دوراً كبيراً في التجارة العالمية وسرعان ما طغى عليها نشاط عيذاب الذي عززه الفاطميون (٣) .

كانت الرغبة في السيطرة على التجارة الشرقية التي تسير على الطريق الثاني ، أي طريق الخليج الفارسي ، بغداد ، ثم البحر الأبيض المتوسط جزءاً من معركة الفاطميون ضد أعدائهم العباسيين . ومما شجعهم في نقل هذه التجارة صلاتهم الحسنة

Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 143.

(١)

G.E.R. Sanders and T.R.H. Owen : "Notes on ancient villages in Khor Nubt and Khor Omek", *Sudan Notes and Records*, XXXII, (1951) pp, 326-31 ; H. Glidden, *Khor Nubt tombstones, Kush*, II, (1954), pp. 63-5.

(٢)

Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 149-152.

(٣)

مع اليمن . فلما جاء الفاطميون إلى الحكم كانت ميناء القانم مستولثة عن إرساله الحبوب إلى الحجاز ، وبعد سيطرة الفاطميين على التجارة الشرقية وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض . والسبب في ذلك أن كثرة الشعاب المرجانية ، والرياح الموسمية تعوق سير الملاحه التي تتوقف تماماً في الليل . فوجد الفاطميون في ميناء عيذاب العميقة ضآلتهم ، فهي أقرب إلى اليمن من القانم ، ومن ثم قصر طول الرحلة بمرأ^(١) وفوق ذلك لا تبعد كثيراً عن جدة ، ميناء الحجاز .

حتى ذلك التاريخ كانت معظم قوافل الحجاج من مصر والمغرب تسافر عن طريق صحراء سيناء ولكن نسبة للجماعات وسنوات الشدة التي بدأت في سنة ١٠٦٧ أيام الخليفة المستنصر والتي أدت إلى خراب ذلك الطريق انتقل الحجاج إلى طريق عيذاب ، وتأكد بقاء ذلك الطريق بعددوم الصليبيين وازدياد نشاطهم بالقرب من سيناء . وظل طريق عيذاب طريق الحجاج الرئيسي لفترة قرنين انتهت سنة ١٢٦٨^(٢) . وفي نهاية القرن الثاني عشر أصبحت عيذاب من أهم الموانئ في العالم الإسلامي ، فكانت ملتقى للسفن التجارية من الهند ، اليمن ، وشرق أفريقيا ، وجدة ومنها تخرج القوافل تحت إشراف الضمان والحمالين من القبائل العربية وقد ورد ذكر أسماء بعضها مثل تميم وبلي^(٣) .

وبعد أن تخلص الممالك من بقايا الممالك الصليبية انتقلت معظم قوافل الحجاج إلى سيناء وظلت القوافل التجارية تواصل نشاطها دون توقف ، ولكن بمرور الزمن قل الأمن في تلك الجهة . ففي سنة ١٢٧٢ م هاجم الملك داؤد ملك النوبة عيذاب^(٤) . ثم كثرت الاختلافات بين القبائل العربية : ففي سنة ١٢٨١ تحاربت رفاعة مع جهينة مما اضطر السلطان للتدخل^(٥) . وفي عام ١٣١٥ هاجم الأعراب قافلة يمانية تحمل هدايا للسلطان محمد قلاوون ، فأمر السلطان بمعاينة المعتدين .

Ibid., pp. 152-156.

(١)

(٢) المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٦٥ - ٧٣ .

(٤) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد ،

باريس ، ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ (١ و ٣٧٥) .

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

وخرجت حملة مملوكية مكونة من خمسمائة جندي؛ فسارت إلى عيذاب، فسواكن، فجل كسلا ثم تابعت نهر عطبرة حتى التقت بنهر النيل وعادت إلى القاهرة بعد أن أمضت ستة أشهر دون أن تحقق شيئاً^(١). قد تتساءل عن الأسباب التي دفعت هؤلاء العربان بهجامة القوافل التجارية. كان هذا الهجوم موجهاً أساساً ضد الممالك وقد تركزت هذه الهجمات في الصعيد كما سنرى. ولا شك أن كثرة الثورات، والاضطرابات أثرت على سلامة القوافل. وفي آخر الأمر ولأسباب لا محل لذكرها (ولكن بموافقة السلطات الحاكمة) انتقلت التجارة الشرقية إلى جدة. فقلت أهمية عيذاب^(٢). وانتهت عظمة الميناء السوداني العربي سنة ١٤٢٦ على المرجح، حين خربها السلطان برسباي انتقاماً من سكانها الذين هاجموا قافلة مصرية في طريقها لمكة^(٣).

ويتوقف التعدين، وانتقال طريق قوافل الحجاج، وتدهور عيذاب واضطراب قوافل التجارة الشرقية، توقف النشاط الاقتصادي الذي اعتمد عليه كثير من العرب فاضطرت أغليتهم للسير إلى داخل السودان، إلا جزءاً بسيطاً ذهب إلى سواكن.

ورد أول ذكر لسواكن سنة ٩٤٥^(٤) وقد استفادت سواكن كثيراً من تدهور باضع أولاً وعيذاب ثانياً: إلا أنها لم ترق لمكانة الثانية، وفأندتها الكبرى أنها كانت ذات صلة وثيقة بالحجاز كما كانت تربطها طرق كثيرة بالداخل^(٥). وكان سلطانها عند زيارة ابن بطوطة لها سنة ١٣٣٢ الشريف زيد بن أبي نمي الذي ورث السلطنة عن أخواله البجة، وكان جيشه مكوناً من البجة، وجهينة وبني كاهل^(٥). وقد أورد السخاوي أسماء بعض التجار العرب الذين عملوا في جزيرة سواكن في القرن الخامس عشر^(٦).

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط مصور، دار الكتب المصرية.

معارف عامة رقم ٥٤٩، القاهرة، ج ٣٠، ص ٩٧-٩٨.

Yusuf Fadi Hasan, *op. cit.*, pp. 172-175.

(٢)

(٣) Ibid., pp. 175-6; Les Africanus, (al-Hasan b. Leo Muhammad) *The history and the description of Africa*, Hakluyt Society, London, 1958, III, p. 226.

(٤) الهمداني (محمد بن أحمد): صفة جزيرة العرب، ليدن، ١٨٨٤، ج ١ ص ٤٠،

١٣٣.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ١٦٠-١٦٣.

(٦) ابن بطوطة نفس المصدر، ج ٢، ص ١٦٠-١٦٣.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، القاهرة، ١٩٣٤، ج ٤،

ص ١٤٠، ٢٣٤، ج ٥، ص ٢٤٠، ج ٦، ص ١٤٩، ج ١٠، ص ١٥٠.

كل هذه المظاهر لنشاط العرب الاقتصادي كانت بمثابة المراحل الإعدادية التي مهدت للطرق لهجرة العرب وانتشار ثقافتهم . فكل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة ساعد بطريقة الخاصة في فتح البلاد للنفوذ العربي وشجع على الهجرة : هذه الهجرة أصبحت حقيقة ملموسة بعد تدخل المالك الإيجابي في سياسة بلاد النوبة المسيحية ، ونتيجة ضغطهم على الإعراب في مصر .

بالرغم من أن التعديين ، وقوافل الحج ، والتجارة الشرقية قد فتحت أبواب رزق كثيرة للعرب المستائين من الحياة في مصر إلا أن الصلة بين حكام مصر والعرب كانت في تدهور مستمر فلما آل الأمر إلى الفاطميين حاولوا امتراض العرب ، خاصة قريش ، حتى يكسبوا تأييدهم ، فرحبوا ببني غمر ، وبني الزبير ، وبني طلحة وبني جعفر الصادق وأسكنوهم في الأشموني في بلاد الصعيد ، فاشتهرت تلك الدار باسم بلاد قريش وكان يسكن تلك الديار في بادئ الأمر قوم من جهينة وبلى اضطرتهم العساكر الفاطمية للزوح نحو أعلى الصعيد^(١) . وشجع الفاطميون هجرة بني سليم وحلفائهم لمصر لأسباب أخرى فما أن حظ هؤلاء البدو الرحال حتى بدأوا في مضايقة الفلاحين ومهاجمة القوافل فاستحسن الفاطميون نقلهم لشمال أفريقية . فهاجرت أعداد كبيرة من بني سليم وبني هلال إلى برقة ولكن البقية آثرت البقاء وانتشرت حتى صحراء عيذاب^(٢) . وبالرغم من هذه المعاملة العادلة ظل العرب يشورون بغير سبب واضح . فتبع الوزير بدر الجمالي قبائل قيس ، فزارة ، سليم ، ثعلبة ، جهينة ، والجمافرة وعمل السيف فيها ، وطرد منها جماعة لبرقة وهرب الآخرون^(٣) . ولم يكتف بذلك بل هاجم بني الكنز الذين كفأهم الحاكم من قبله ، وقتل زعيمهم . ويبدو أنه قصد أن يضع حداً لمحاولاتهم لإنشاء إمارة عربية على حدود مصر الجنوبية^(٤) .

فلما تسلم الأيوبيون مقاليد الحكم ظلت الصلة فآرة بين الطرفين . والملاحظ أن العرب لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار في إبعادهم عن السلطة والجيش . فقد

(١) المقرئى : البيان ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ١٤٢ ؛ ابن الأثير : نفس

المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٠ ؛ المقرئى : البيان ، ص ٢٨ .

(٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) ساويروس : نفس المصدر ، ج ٤ ، مجلد ٣ ، ص ٢٠١ - ٢٠٥ .

اعتمد الأيوبيون على الكرد والديلم والترك ولم يستفيدوا من العرب إلا نادراً . ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخياً وضعفاً في الدولة ، وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها في الصعيد . فلما تدهورت الدولة الأيوبية وأصابها التفكك تمكن الجندي التركي أو المماليك ، من السيطرة على مصر وسوريا . وكان هذا التغيير بداية لصراع عنيف بين أغلبية العرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البداوة والحضر : فقد اعتاد هؤلاء كلها واتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة دون اعتبار لقانون أو رادع . وزاد حنقهم لما رأوا هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على دست الحكم ويضيقون الخناق عليهم . وقد صدق حدس الإعراب : فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة التي لم تتعاطف مع المواطنين كثيراً ، بل ظل كثير منهم يجهلون العربية : ولم تكن نظرة المماليك قاصرة على اعتراض عنصرى بل تشابه استياء سكان المدن والمجموعات المستقرة من البدو^(١) .

عند بداية العهد المملوكى وفي سنة ١٢٥٣ بالتحديد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج . وأعلن قائدها الشريف حصن الدين ثعلب ابن نجم الدين الجعفرى : « نحن أصحاب البلاد . . . ونحن أحق بالملك من المماليك وتوافق مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثني عشر ألف فارس وتجاوز عدة الآخرين الإحصاء » . واستطاع السلطان آيبك أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثوار وأسر حصن الدين^(٢) .

واستمر الصراع بين المماليك والأعراب أو العربان كما يسميهم مؤرخو تلك الفترة دون أن يهدأ . فكما فشلت الدولة في قمع تلك الثورات تشجع العربان في عصيانها ، فإذا أصابتهم الهزيمة سلكوا طريق من سبقوهم نحو البلاد ذات المراعى الخضراء بعيدين عن سيطرة الحكومة . وظل هذا النسق من الصراع يقل شيئاً فشيئاً حتى نهاية القرن الخامس عشر ؛ ولأستدل لكم على ما أقول اكتبنى بأمثلة ثلاث :

ففي سنة ١٢٩٠ م قتل المماليك جماعة من العربان في طوخ وخرقوا آخرين

Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 200-202.

(١)

(٢) المقرئى : كتاب السلوك في معرفة دول الملوك . القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص

٣٨٦ ، البيان ، ص ٩ - ١٠ ، ٣٨٦ .

وأخذوا رهائن كثيرة ممن تبقى بعد أن سبوا منهم ألف رجل ، ومائتي حصان وعدداً كبيراً من الأغنام وكميات من الأسلحة^(١) . ولما زاد الضغط القوي على سوريا فرض المالك ضرائب كثيرة قبلها الأعراب بالتحدي سنة ١٣٠١ وعاشوا فساداً . قتل المالك عدداً من القادة وجبوا ما يساوي مليون ونصف مليون درهم عدا ألف بعير وألف شاة . وصادروا كل الأسلحة وكل الخيل . وقابل العربان هذه الجباية بعدم الانصياع للقوانين والتجأوا لقطع الطرق وفرضوا الضرائب على السكان الآخرين . فحاصر المالك العربان وحاول هؤلاء الإفلات من قبضة الجند المحاصر ولكن دون جدوى ، وأسر المالك من بينهم ستة آلاف ممن يفلحون أرضهم . وأخيراً عاد إلى البلاد شىء من الهدوء والاستقرار^(٢) .

ثم اشتبكت قبائل عرك مع الدولة سنة ١٣٤٨ واستطاع المالك هزيمتهم سنة ١٣٥١ بمساعدة بنى هلال . ولكن محمد بن واصل الأحدب شيخ عرك واصل النضال حتى عظم أمره في الصعيد . وفي سنة ١٣٥٣ سافر الأمير سيف الدين شيخو في جيش كبير لمحاربه فطار الخبر وانتشر الملع بين الأعراب ، فقرر البعض الهجرة لبلاد النوبة ، ونوى آخرون الحج بينما آثرت البقية الاختفاء . . . وانضمت إلى الأحدب عرب منفلوط ، والمراغة ، وبنى كلب وجهينة حتى تجاوزت فرسانه عشرة آلاف فارس تحمل السلاح سوى الرحالة المشاة فإنها لا تعد ولا تحصى لكثرتها . وما أن اشتبك الجيشان حتى انهزم الأحدب إلى أسوان . وهنالك انتصر الأحدب في أوائل الأمر فلما تكامل الجيش المملوكي كانت الغلبة لشيخو^(٣) . وتتبع المالك العربان الذين هربوا ، مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج — أي السودان^(٤) . ولما انتهت هذه الحملة لم يبق بدوى واحد بصعيد مصر على حد تعبير المقرئ^(٥) .

-
- (١) بيريوس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، سنوات ٦٥٦ - ٧٠٩ هـ ، مخطوط ، المتحف البريطاني رقم Add 23325 لندن ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ أ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ أ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٤ ، ٩٢٠ - ٩٢١ ، ٩٢٢ .
(٣) المقرئ : السلوك (مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ رقم ٤٥٥ ، القاهرة) ج ٦ ، ص ٦١٩ ب ، ج ٧ ، ص ١٠ - ١٢ ب .
(٤) ابن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور بم بولاق ، ١٨٩٨ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
(٥) المقرئ : السلوك ، ج ٧ ، ص ١٢ ب .

وفي عام ١٣٩٥ غزا بنو الكنز والأحامدة أسوان بعد أن قتلوا واليها . وأمر السلطان بمعاينة الجناة وطلب من شيخ هواره ، القبيلة البربرية ، أن تساعد العسكر المملوكي ولكن الجيش لم يهتد لهم على أثر^(١) . ومن الملاحظ أن السلطان الظاهر بقوق أمر في سنة ١٣٨٠ بنقل جماعة من هواره من الوجه البحرى وإسكانها في الصعيد وبعد سنوات قليلة أصبحوا رؤساء على كل الصعيد ومن فيه من العرب^(٢) .

يتبين لنا مما مضى أن سياسة المماليك لم تترك للعرب فرصة غير الهروب لبلاد النوبة . وفوق ذلك فإن المجاعات المتكررة وموجات الطاعون التي لازمت العهد المملوكي الأول شجعت كثيراً من العرب بالهروب إلى بلاد النوبة خوف الموت . وقد حدثت أول هجرة لهذا السبب سنة ١٣٣٤^(٣) . وقد كان لهذه الوباء والمجاعات أثر سيء على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة في الضرائب لمواجهة زحف المغول . ثم إن كثيراً من الأراضى الزراعية أقطعت للمماليك فأصبح من يفلحها أسوأ حالاً مما كانوا عليه من قبل^(٤) . كل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة للسودان ، كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التي غزت بلاد النوبة .

ذكرت في مطلع حديثي أن معاهدة البقط ظلت تنظم العلاقات بين مصر وبلاد النوبة زمناً طويلاً وقد تدهورت هذه الصلات في حالات قليلة أدت إلى مناوشات على الحدود أو حرب محدودة . تمت أول محاولة جادة لغزو بلاد النوبة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث توغل الأيوبيون حتى أبريم وكانوا يؤملون اتخاذ بلاد النوبة مملكة لهم إذا ساءت الحال في مصر (على رواية ابن الأثير . لكنهم زهدوا

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) المقرئى : البيان ، ص ٥٨ .

(٣) العيني : تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر ، مخطوط ، المتحف البريطاني ، رقم Add 22360 لندن ، ص ١٥ ب .

(٤) Ibn Hajjar al 'Asqalani : 'Inba' al-ghumr bi-anba' al-Umr' ed. with an introduction by Hasan Habashi, Ph. D. The-sis, London, 1954, I, 151.

في تلك الغامرة لما تأكد لهم فقر بلاد النوبة^(١). أما المحاولة الثانية فقد تمت في عهد المماليك .

ذكرت كيف أدت ثورات العربان في صعيد مصر والصحراء الشرقية إلى اضطراب سير القوافل التجارية فاضطر السلطان بيبرس لتأمين تلك الطرق ومد نفوذه حتى ميناء سواكن^(٢) وأحس داود ملك النوبة أن المماليك قد قصدوا فرض حصار على الممالك المسيحية وحرمانها من الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر . وعبر عن استيائه هذا بغزو الصعيد وتخريب عيذاب سنة ١٢٧٢^(٣) . وبينما كان السلطان بيبرس يعد العدة لتأديب ملك النوبة وصله أمير نوبى يسمى شكندة وادعى أن الملك داود قد اغتصب العرش منه^(٤) . فتبنى السلطان قضيته وبعثه مع الجيش الغازى سنة ١٢٧٦ .

كانت مهمة الجيش المملوكى ومن تبعه من عربان الوجه القبلى غزو بلاد النوبة ووضع شكندة على عرشه . فلما سارت الحملة واجهتها مقاومة عنيفة طوال رحلتها حتى التقت بالملك داود بالقرب من دنقلا وهزمته . وبعد أن تابع المماليك فلول جيش داود لثلاثة أيام عادوا إلى دنقلا وتوجوا شكندة ملكا على النوبة . وقبل شكندة الشروط التى أملاها الجيش الفاتح . وأشهما أن يصبح شكندة تابعا للسلطان ونائبا عنه فى حكم بلاد النوبة ، وأن يسلم نصف دخل بلاده للسلطان وأن يدفع كل بالغ دينارين جزية إذا ما بقى على النصرانية ، وتعهد سكان النوبة بطاعة ملكهم ما طاع سلطان مصر . وتنص المعاهدة على أن يمنع العربان من البقاء فى بلاد النوبة وأن يرسل الملك من يجده منهم لسلطان مصر . هذه المادة تصور مدى الهلع الذى أصاب

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٨٧٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر رسالة خطية ، جامعة لندن ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ؛ شافم بن على بن عباس كتاب المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية (مخطوط دار الكتب الوطنية ، باريس رقم ١٦٥٦ Arabe) ، ص ١٨٣ — ٨٣ ب .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

للمالِك من العربان . ومن الجدير بالذكر أن الجيش عاد إلى مصر يحمل عدداً من الأمراء كرهاً ثم استغلوا في الوقت المناسب للتدخل في شئون النوبة^(١) .

وبإيجاز فإن هذه الحملة حققت فتح بلاد النوبة « فتحاً حقيقياً » .

أولاً — لم تعد بلاد النوبة مستقلة ، منذ ذلك التاريخ . ثانياً — أعطت هذه الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة الفرص للتدخل في شئون النوبة من وقت لآخر ومن ثم كانت سياسة المالِك ترمي إلى جعل بلاد النوبة دولة تابعة . وقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الإسلام والإسراع بالاستعراب الذي بدأ منذ زمن طويل في بلاد الريس كما ساعدت على دخول كثير من العربان مع الجيوش الفاتحة فاستقروا في بلاد النوبة على غير ما أراد بييرس ، وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر في أوائل القرن الرابع عشر .

فلما مات شكفة سنة ١٢٧٧ اختلف الأمراء النوبيون فيمن يخلفه ، وأخيراً أقر المالِك شمامون . ولكنه سرعان ما استبد بالأمر ورفض دفع الجزية ، فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة سنة ١٢٨٧ لحلمه^(٢) ، وقد اشترك فيها عدا الجند الرسمي ، كثير من العربان مثل أولاد أبي بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف وأولاد شيبان ، وأولاد الكنز وبنو هلال . فلما هزم شمامون عند دنقلة تهمقر نحو الجنوب . وعاد الجيش المملوكي لمصر بعد أن توج ملكاً جديداً ، فما أن غاب الجيش المملوكي وراء الأفق حتى ظهر شمامون واسترد ملكه . وتدخل السلطان مرة ثانية وأرسل جيشاً كبيراً اشترك فيه أربعون ألفاً من عربان الوجه القبلي والبحري . وقد نشك في صحة هذا العدد ولكنه مهما كان ، فهو دليل على أن من اشترك من الأعراب كان كبيراً جداً . وانتصر المالِك وتكررت مراوغة شمامون مرة ثانية وثالثة وأخيراً نجح في البقاء على العرش برضاء سلاطين مصر إلى نهاية القرن الثالث عشر

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ج ٧ ص ٤٦ — ٤٧ ؛ مفضل بن أبي الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ النويري : نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٢٥٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والمعصوم في سيرة الملك المنصور « تشریف » القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٤ ، ١٤٣ — ١٤٤ .

تقريباً (١) . وفي سنة ١٣٠٤ أرسل المماليك ملكاً آخر على بلاد النوبة وخلفه أخاه كرنبس عام ٣١١ (٢) ؛ فما أن توطد مركزه حتى استقل بالأمر وأرسل المماليك جيشاً آخر يتبعه حفيد الملك داود الأمير سيف الدين عبد الله برشبو الذي اعتنق الإسلام أثناء وجوده في القاهرة . فلما سمع للملك كرنبس بذلك أسرع بإرسال ابن أخته كنز الدولة نصر ، حفيد بني الكنز ، للأبواب السلطانية قائلاً : « إن كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن اختي والملك ينقل إليه من بعدى » . فرفض السلطان ذلك الطلب خوفاً من ازدياد نفوذ بني الكنز وأنصارهم . وتوج سيف الدين عبد الله برشبو أول ملك مسلم على بلاد النوبة المسيحية عام ١٣١٧ (٣) ، وأرخ لهذا الحدث العظيم بأتحاذ كنيسة دنقلا مسجداً . ولكن عهده لم يطل ، إذ ثار عليه النوبيون غالباً بإيعاز من كنز الدولة . وبعد حروب طويلة بين المماليك والقوى المحلية تم الأمر لسكنز الدولة سنة ١٣٢٣ . وقد لخص النويرى وهو ممن عاصروا تلك الأحداث تلك الظروف قائلاً « فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم فملك البلاد حينئذ ، ولبس تاج الملك ، واشتغل بالملكه وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه » (٤) .

منذ ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة في المصادر العربية إلا من إشارات عابرة . ففي سنة ١٣٦٥ ذكر أن ابن أخت الملك هاجم خاله بمساعدة بني جمعد وأخيراً انتقل الملك إلى الدو شمال دنقلا . وحاول المماليك عبثاً استرداد نفوذهم جنوب الدو . فقد سقطت تلك المنطقة في يد بني عكرمة وظلت في حالة من الفوضى لانعدام حكومة مركزية قوية (٥) . وصفوة القول فإنه بسقوط مملكة النوبة المسيحية في القرن الرابع عشر قد أنهار السد المنيع الذي كان يحول دون دخول العرب السودان من طريق وادى النيل — وقد صادف هذا الحدث قمة الصراع بين العربان والمماليك في مصر .

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٥٢ - ٥٣ ، ج ٦٩ ص ٨٣ - ٨٤ ،
٩١ ، ٩٢ ؛ ابن عبد الظاهر : تشریف ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧ .

(٣) النويرى : نفس المصدر ج ٣ ورقات ٩٥ - ٩٦ .

(٤) النويرى : نفس المصدر ج ٣ ورقة ٩٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٧ ورقة ٤٨ .

فندفق العرب نحو الجنوب دون رقيب واندفعت أعداد أخرى عن طريق الصحراء الشرقية وقد وجدوا أن كثيراً من إخوانهم قد سبقوهم منذ قرون خلت إلى تلك الديار (إما من مصر أو عبر البحر الأحمر) حيث استقروا وتزوجوا في البجة ونشروا الإسلام ، واستمر من لحقوا بهم في ترحالهم حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، وعبر بعضهم النيل إلى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربي فوادي المقدم أو وادي الملك حتى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربي فوادي المقدم أو وادي الملك حتى كردفان ودارفور . فلما كثر عدد من المهاجرين قضوا على مملكة علوة في ظروف لا نعرف عنها الكثير بعد . وظلت الأغلبية من هؤلاء العرب على بداوتهم ولكن جزءاً منهم اختلط بالمجموعات المستقرة فتزوجوا منها واعطوا القوم لغتهم ودينهم وجزءاً من تقاليدهم وبدأوا بذلك سفراً جديداً في تاريخ هذه البلاد لم تكتب نهايته بعد .

دكتور يوسف فضل حسن

دولة البرين والبحرين

دكتور نظير مسان سعداوى

- ١ — التعريف بدولة البرين والبحرين سياسياً وقانونياً ودولياً .
- ٢ — العوامل المساعدة في بناء الدولة .
- ٣ — التغييرات الجديدة التي أحدثتها هذه الدولة .
- ٤ — العوامل التي قوضت بناء هذه الدولة .
- ٥ — محاولات إحياء دولة البرين والبحرين .

— ١ —

من غير المعقول أن يخضع مواطنون أحرار في بلد ما لسيطرة وحكم أرقاء وأغراب ، يستعبدونهم ، ويستذلونهم ، ويقررون مصيرهم قرابة خمسة قرون !! لكن هذا وقع فعلاً في مصر يوم أن تبوأ عرشها مماليك فرقتى البحرية والبرجية متكئين على عمدة مُسنَّدة من الشجاعة والنظام^(١) مكنتهم من إقامة ملك عريض ودولة كبرى في زاوية الشرق والجنوب من مثلث البحر المتوسط ، وهي الزاوية الأساسية في هذا المثلث الحيوى ، ذات الموقع الفريد ، وذات القيم الحضارية والروحية والاقتصادية والاستراتيجية الضخمة المتراكمة ، وذات المواقع التاريخية العالمية الحاسمة . ويقع على ضلعي تلك الزاوية البلاد الشامية والديار المصرية . لذا يشاء المؤرخون المصريون في العصور الوسطى أن ينعنوا تلك الدولة بنعت يدل على طبيعة موقعها فيطلقون عليها « دولة البرين والبحرين » البر المصرى والبر الشامى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر^(٢) ، كما يستفاد من نقش أمرى على البهارستان القلاوونى مؤرخ فى عام ٦٨٤ هـ ويحمل عدة ألقاب للسلطان سيف الدين قلاوون منها « ملك البرين والبحرين ، وصاحب القبليتين ،

(١) Gibbon E. : *The Decline and Fall of the Roman Empire*, V. 3, p. 501.

(٢) محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية طبعة ١٩٦١ ص ٧٤ .

وخادم الحرمين الشريفين» (١). وكما يرد من نعوت تزبوعلى المائة في رسالة للسلطان عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ببلاد الأندلس بعثها للملك الأشرف شعبان بن حسين سلطان مصر والشام في عام ٧٦٧ هـ . (٢) منها « ملك البرين والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين » (٣) . وقد يكتفى بلقب « سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية » (٤) .

ومهما كانت نعوت سلاطين دولة البرين والبحرين ، فان المتتبع لحدودها السياسية مبتدئاً بالإقليم المصرى حسبما تصفها كتب المعاصرين يلحظ أن حده الشمالى يبدأ من رفح إلى العريش ، ممتداً على الجفار (٤) إلى الفرما . ثم بساحل بحر الروم ماراً بالطينة ودمياط ورشيد والإسكندرية وبرقه ، آخذاً على الليونة إلى العميدى إلى العقبة ، وهى آخر حدود مصر ، ثم يعطف الحد جنوباً إلى ظهر الواحات مقتبلاً على الصعيد إلى حدود النوبة ، مشرقاً إلى أسوان ، وينتهى حد مصر القبلى من ضفة القلزم حيث عيذاب على بلاد الحدارية إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادل التى على مصب النيل إلى جبال المعدن إلى صحراء الحبشة ويبدأ الحد الشرقى من بحر القلزم قبالة أسوان إلى عيذاب إلى القصير إلى القلزم ، ثم يتسع مشرقاً إلى تبة بنى إسرائيل . ثم يعطف شمالاً إلى بحر الروم عند رفح . وغالب ما بين بحر القلزم وبين مجرى النيل منقطع رمال ومحاجر وجبال ، ويسمى ما ساحل البحر فى هذا الحد بالبر العجم (٥) وقسمت ديار مصر إدارياً إلى قسمين كبيرين . الوجه القبلى والوجه البحرى ، ويحتوى أولهما على ستة عشر إقليمياً إدارياً ، وثانيهما على إثني عشر إقليمياً ، وعلى عهد السلطان

Wiet G. : *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, (١)
t. 13, p. 36.

(٢) القلقشندى : صحيح الأعشى : ج ٧ ص ١٠٨ و ١١٣ .

(٣) ابن أبي الفضايل : النهج السديد ج ٣ ص ١٠١ .

(٤) سمي الجفاران الدواب تجغرافية أى تهلك من السير لبعده مراحلهم ومشقة السير فيه فتهلك ، فاشتق الجفار كما قيل العقال والحطام والحجاز . وكانت الجفار فى أيام فرعون معمورة بالقرى والمياه وفيها قال الله تعالى : ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . ولذلك سمي العريش عريشاً . راجع أبى الفدا . كتاب تقويم البلدان طبعة ١٨١٥ ، ص ١٥٩ .

(٥) أبو الفدا : شرحه ص ١٠٣ — شهاب الدين بن العمري : التعريف بالمصطلح

الشريف طبعة ١٣١٢ هـ ، ص ١٧٣ .

الأشرف شعبان أنسلخ إقليم الإسكندرية من البحيرة ٧٦٧ هـ ، وتحولت الإسكندرية إلى نيابة إدارياً ، لها نائبا ودواوينها وذلك لأهميتها الاستراتيجية والتجارية^(١).

أما حدود بلاد الشام السياسية ، فتبدأ الغربية منها طرسوس التي ببلاد الأرمن مساحلة بحر الروم إلى رفح التي في أول الجفار بين مصر والشام ، وتمتد الحدود الجنوبية من رفح إلى حدود تبة بنى إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيله من البلقاء . ويحيط بالشام من الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلميه ، إلى مشاريق حلب إلى بالس ، ويبدأ الحد الشمالي من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهسنى إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس إلى بحر الروم^(٢) . وقسمت بلاد الشام إدارياً إلى ست أقاليم كبرى تعرف باسم النيابات هي : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والسكر ، ثم أضيفت إليها مؤخرآ نيابتا غزة ومطية وكانت نيابة حلب حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون أكبر النيابات الشامية ، فاستبدلها بنيابة دمشق ، وجعل نائب دمشق أوسع النواب نفوذاً ، ولقبه بنائب السلطنة في البلاد الشامية ، وسواه في الرتبة بنائب السلطنة في الديار المصرية . فإذا قال السلطان « بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها » على قول صاحب التعريف^(٣).

ومما يستوجب الالتفات في حدود دولة البرين والبحرين السياسية أن يثير العالم الأثرى فيت الشكوك فيما ادعاه السلطان سيف الدين قلاوون في «ماهدة له مع أمير صور الصليبي من أن الحجاز واليمن تقعان داخل نطاق دولته . غير أن هذه الشكوك يبددها نص تاريخي أثري عثر عليه العالم المذكور في القاهرة ، يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٧ هـ . ويلقب فيه قلاوون بعدة ألقاب منها « سلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القبلتين ، ملك الديار المصرية والجهات

(١) القلقشندي : ج ١١ ص ٤٠٥ — على ابراهيم : دراسات في تاريخ المماليك البحرية

ص ٣٤ .

(٢) تعرف بلاد سيس ببلاد الروم أو الأرمن . وقد أدخلها أبو الفدا في تقويمه (ص ٢٢٦) في حدود الشام ، بينما أخرجها العمري في تعريفه (ص ١٧٦) وهو التحقيق على قول القلقشندي (ج ١٤ ص ٦٥) .

(٣) العمري ص ١٧٦ .

الحجازية ، والبلاد الشامية ، والأعمال الفراتية ، والديار بكرية» (١).

والمعروف تاريخياً أن الظاهر بيبرس أحيا الخلافة العباسية بمصر ليجعل سلطته شرعية ، ويكسب بلاطه تفوقاً في نظر بقية الأقطار الإسلامية ، ويقمع فتن العلويين بمصر (٢). وكان طبيعياً أن يكافئه الخليفة العباسي فيقلده «الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ...» (٣) وترتب على هذا التفويض الخليفة أن قاد السلطان بيبرس حملة مصرية مملوكية إلى الحجاز ، قاتلت التتار وطردهم ، وحاربت حليفهم صاحب مكة وقتذاك وهو أبو نعي بن أبي سعيد وعمه إدريس بن علي شريكه . ودخل بيبرس أم القرى ، وكسا البيت الحرام . وأعاد الحج إليه بعد انقطاعه إنثى عشرة سنة بسبب فتن التتار (٤) ورتب بيبرس أمور الحمل على أسس منظمة دأمة ، وفرض الرسوم على أميرى مكة والمدنية (٥). ومن ثم غدا صاحب مملكة البرين والبحرين « يتنازع على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم بالكعبة المعظمة ، داخلة في نطاق مملكته ، واختصاصه بكسوتها ودوران الحمل في كل سنة » . بعد أن كان خلفاء بني العباس يجهزونها من بغداد ، واستقرت القاعدة على ذلك إلى عصر القلقشندى (٦). على أن هذا لا يفيد استقرار الأحوال في الحجاز لسلطين المالك بصفة دأمة بدليل قول المقرئى تحت أحداث عام ٦٧١ هـ . « وفي شعبان حلف الشريف أبو نعي أمير مكة للسلطان وولده بالطاعة لهم ، وأنه التزم تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة في كل موسم ، وأنه لا يعاق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم في كل موسم ، وألا يتقدمه علم غيره » إلى أن يقول « وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالإسم الشريف المنصورى . وأن يفعل في الخدمة فعل الخالص الولى للسلطان ، ويلتزم مراسمه امتثالاً للنائب المستنيب » .

Wlet : *op cit.*, t. 13, p. 65.

(١)

(٢) فليب حتى : تاريخ العرب المطول : ج ٣ ص ٧٩٩ .

(٣) المقرئى : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٥٤ . أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١١٣

(٤) الجبرئى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) الملوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٥٧ .

ويتفق هذا القول مع ما جاء في التعريف للعمري « وبهذا تم ذكر النطاق بعصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب ، وليس أمره بمضبوط ، ولا بحفظ التمسة منوط » (١). ولكن يبدو من المكاتبات الصادرة من الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى أرباب الوظائف القضائية والإدارية بالملكة الحجازية أن الأمن استتب هناك والأمر استقر لمصر منذ عصر الناصر محمد وما بعده (٢).

أما بلاد اليمن التي يدعى السلطان قلاوون أنها جزء من الولايات الإسلامية الداخلة في نظام دولته ، فكان يحكمها بنورسول حكماً مستقلاً ، ويلقب صاحبها « سلطان الإسلام والمسلمين وقاهر الخوارج المتعدين ... سيد الملوك والسلطين إلخ » (٣).

ورفض الإذعان والخضوع لسلطين مصر ، بل سولت له نفسه أن يتزعزع مكة من السيطرة المصرية ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ). لكن حملة مصرية أدبته وصدته ، فصار بعدها « يدارى صاحب مصر ويهاديه لكان إمكان تسلطه عليه في البر والبحر الحجازي ، ولذلك اكتب الملك المؤيد داود وصية ، أوصى فيها الملك الناصر محمد صاحب الديار المصرية على ابنه المجاهد » فسير الناصر محمد سنة ٥٧٢٥ هـ حملة مصرية برية إلى اليمن لتمكين الملك المجاهد هذا من الجلوس على عرشه. ودخلت الحملة المصرية زيد وتعزة وفرح اليمنيون بقدوم العسكر المصري فرحاً شديداً ، وبايعوا ملكهم المجاهد . وعادت الحملة إلى مصر مارة بمكة . لكن قائدها زج به في السجن مقيداً ، لأنه قصر في أخذ تملكه اليمن ، على القول المراجع (٤).

ومن ثم ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء والخضوع لسلطين دولة البرين والبحرين ، ويرسلون سفاراتهم تحمل الهدايا النادرة من طرائف بلادهم من العود

(١) العمري : التعريف ص ١٨٠

(٢) راجع القلقشندي : ج ١٢ ص ٢٣٢

(٣) Wiet G. : Répertoire..., t. 13, p. 134.

(٤) القلقشندي : ج ٥ ص ٣٧ — المقرئزي : السلوك : ج ٢ قسم ١ ص ٢٥٩-٢٦٨

والعبر والصيني ورماح القنا ، فضلا عن التحف والفيلة والحيوانات والطيور^(١) .
وتدل صيغ المكاتبات الصادرة من سلاطين القاهرة إلى ملوك بني رسول باليمن على
أن الأخيرين كانوا غالباً في المرتبة الثالثة من ملوك الدول الإسلامية^(٢) .

وكيفما تكن إدعاءات قلاوون ، فإنها — بلا جدال — تفصح عن الأطماع
التوسعية الكبيرة لسلاطين البيت القلاووني ، وعن آمالهم السياسية التي تهدف إلى
خلق وحدة عربية إسلامية قاعدتها القاهرة حسبما تدل وثائق عصرهم ، ومنها ما يشيد
إلى إسرافهم في الألقاب العديدة التي يتصف بها الواحد منهم « سلطان العرب والمعجم
سيد الملوك والسلاطين .. سلطان الأرض ذات الطول والعرض .. ملك البسيطة ..
سلطان المراقين والمصرين ... ملك البرين والبحرين ... سيد ملوك العرب والمعجم
والترك والديلم »^(٣) . ومن تلك الوثائق كتاب الأشرف خليل بن قلاوون إلى نكتو
ملك مغول فارس سنة ١٢٩٣ م يطلب مفاوضته في أمر تسليم بغداد لتسكون مقرأ له
كما كانت للعباسيين من قبل ، ولو طال عمر خليل « لكان يفتح غالباً بلاد العراق »
على قول ابن عباس^(٤) . ومنها أخيراً كتاب الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك غازان
محمود يطلب منه الجلاء عن العراق في لهجة شديدة نصها « وإن سولت لك نفسك
خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك . وعن قريب يخلو منك العراق والمعجم ويبدل
وجودك بالعدم ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن
الروم والعراق جميعاً »^(٥) ألم يفسر ذلك كله سعة أحلام وأطماع بيت قلاوون ،
وما بلغت دولة البرين والبحرين في عهد هذا البيت من سعة الإنتشار وقوة التأثير .
وحسبك أن تعرف أنه وصل إلى بلاط الناصر محمد ثمانية رسل في عام واحد (١٣١٦م)
تقدم له فروض الولاء والطاعة وتودد إليه ، وأنه أجرى لأحد سلاطين شمال إفريقية
المخلوعين مائة درهم في كل يوم قضاء في ضيافة القاهرة . ثم جهز له حملة حربية مصرية
سارت به إلى بلاده ، ومكنته من العودة إلى عرشه . وحسبك أن تعرف أيضاً أن

(١) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٢ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٦٤ حاشية ١ — القلقشندی : ج ٧ ص ٣٣٢ .

(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 11, pp. 9, 15, 36.

(٤) بدائع الزهور : ج ١ ص ١٢٧ .

(٥) النهج السيد : ج ٣ ص ٧٤ — جمال سرور : دولة بني قلاوون ص ٢٠١ .

السلطان برقوق عظم أمره ، حتى خطب باسمه في أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله ، فخطب باسمه في توريث من بلاد المعجم ، وفي الموصل وفي ماردين وفي سنجار وضربت السكة باسمه في جميع هذه البقاع^(١).

واتخذ سلاطين القاهرة من ولاء وإخلاص عرب البحرين لهم درعاً لحماية تجارة الشرق الأقصى والهند المارة بالخليج العربي من تهديد مغول فارس لها وتسلمهم عبر الخليج إلى الوطن العربي . ويصف مؤرخ معاصر عرب البحرين بأنهم « قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجارة ، يجلبون جباد الخيل وكرام المهاري واللؤلؤ وأمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الجباء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك . وواصلهم إلى الهند لا ينقطع » واعترضوا مرة حاج العراق — نكاية في أبي سعيد ملك فارس — فأخطرهم الحاج أنهم جاءوا بأوامر الناصر محمد صاحب مصر ، فقال عرب البحرين « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء ، وسمح لهم بمواصلة السير إلى الحجاز »^(٢) . وعلم الناصر بأمرهم فأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، وشكرهم على إخلاصهم ووفائهم لوطنهم وقوميتهم . هكذا اعتمدت دولة البرين والبحرين في تأكيد هيمنتها على الشاطئ الآسيوي من البحر الأحمر على الأسلوب الحربي والسياسي . أما الشاطئ الأفريقي منه فكان يوجد في أقصى الجنوب ملوك الحبشة الحريصين على توطيد صلاتهم بسلاطين القاهرة لمدة اعتبارات منها ، وجود سبعة ممالك إسلامية في بلادهم ، ومنها اعتمادهم على الكنيسة المصرية في تعيين مطران قبطي لكنيسة الحبشة فضلاً عن التماسهم تيسير سبل الأمن والراحة لحاج الأقباش القاصدين بيت القدس . لذا جرت عادة متملك الحبشة أن يخاطب سلطان القاهرة بعبارة « أقل الممالك يقبل الأرض وينهى » . كما جرت عادة سلاطين القاهرة على تحصيل الزكاة من جهات سواكن وجزائرها ، ومكاتبة صاحبها بأن « يوفق بين عرب جهينه ورفاعه ، ولا يمين طائفة على أخرى خوفاً على فساد الطريق »^(٣) .

(١) سعداوى : نظير حسان : صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٥ .

(٢) العمري : التعريف ص ٨٠ - القلقشندى ج ٧ ص ٣٧٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٢١١ — سرور ص ٢٠٨ .

(٤) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٥٨ وج ١ قسم ٣ ص ٧٠٠ .

وانتزع سلاطين دولة البرين والبحرين اعتراف معاصريهم من ملوك أوروبا المسيحية بحدودها السياسية ، وكل ما هو داخل فيها من سائر الأقاليم الرومية والعراقية والشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمينية والحجازية والديار المصرية والغرب ؛ وآية ذلك نصوص المعاهدات السياسية والاقتصادية ، ومنها تلك التي عقدها سيف الدين قلاوون مع ملك أسبانيا ألفونس وأخوه جيمس ملك صقلية والتابمين لهما من الأمراء المسيحيين عام ١٢٨٩ م (٦٨٩ هـ) . وجددها معهم ولده الأشرف خليل ، وجاء فيها حد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهي : من طرابلس الغرب ، وسواحل برقة والاسكندرية دمياط والطينة وقطيا وغزة وعسقلان وإفا وأرسوف وقيسارية وعثليت وحيفا وعكا وصور وصيدا ويروت وجبيل والبيرون وأنفة طرابلس الشام وأنطرسوس ومرقية والمرقب وساحل المرقب : باناس وغيرها . وجبلة واللاذقية والسويدبة ، وجميع الموانئ والبرور إلى نهر دمياط وبحيرة تنيس . وحدها من البر الغربي : من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانئها إلى نهر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانئها^(١) .

- ٢ -

بعد ذلك التعريف السياسي والإداري والشرعي والدولي بدولة البرين والبحرين يتساءل المرء عن العوامل الأساسية التي أسهمت في بناء تلك الدولة على هذا النحو من الاتساع والمهابة ؟ . . . وتفرض معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) نفسها على رأس تلك العوامل ، لا لأنها أتقذت الحضارة الإسلامية ، فقد تحضر التتار بها بعد استقرارهم في فارس ، بل لأنها أتقذت الشام ومصر من الخراب الذي حل بالعراق وأهله ، وحفظت لهما موضعهما من العروبة ، وأدت إلى تصفية أمر التفرقة السائدة في الشام والجزيرة ، فاتهى بها ما كان من أيام الأيوبيين ، وما كان باقياً من ملك الصليبيين . وقامت بتلك المعركة الوحدة المصرية السورية ، وابتدأ فصل رائع من فصول ازدهار الحضارة العربية^(٢) .

(١) القلقشندي ، ج ١٤ ص ٤٦ . سعداوي : الحرب والسلام ص ١٤٧ .

(٢) غربال : من زاوية القاهرة ص ٨٢ و ٨٥ .

على أن بطولة الممالك التي تجلت في عين جالوت مرت في ثلاثة أدوار : الدور الأول كانت بطولة جمع الحكمة مع تقليد الحكم والزعامة للرجل الذي يستطيع مواجهة الشر والخطر ، ذلك قطز حفيداً أخذ شأهات خوارزم ، قبض عليه التتر ، وبعوه في دمشق حيث اشتراه أيبك^(١). ينكر قطز على الملك المنصور على بن أيبك لهوه ولعبه ، ويقول لزملائه الأمراء « في مثل هذا الوقت الصعب لا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد ، وينتصب للجهاد في التتار » فأجابه الجميع « ليس لها غيرك »^(٢). وفي الدور الثاني كانت بطولة قرار الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين وعدم انتظارهم في أرض الوطن ، وكان قطز كذلك هو صاحب الفضل في اتخاذ هذا القرار ، إذ قال للأمراء « ينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن^(٣). وفي الدور الثالث كانت بطولة القتال وإدارة المعركة ، وأن الفخر للجميع ولكن الفخر الأكبر لقطز نفسه ، فهو الذي يشجعهم ، ويحسن إليهم الموت ، وهو يكرهم بعد كرة حتى قتل جواده في المعركة فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب حتى جاءت الوشاقية بالخيول فركب ومال على العدو بكل ثقله حتى نصر الله الإسلام وأعزه على قول أبي المحاسن^(٤) ، الخبير العالم بالأمور العجيبة التي اتفقت عامئذ (٦٥٨ هـ) بسبب تغير الدول ومتولى الحكم بالشام . فكان أول السنة إلى نصف صفر في مملكة الناصر يوسف بن أيوب ، ثم صار في مملكة هولاء كوملك التتار إلى الخامس والعشرين من رمضان ، ثم صار في مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل في ذى القعدة ثم صار في سلطنة الملك الظاهر بيبرس ، وقد شرکه في دمشق الملك المجاهد سنجر^(٥). ولئن قطف الظاهر بيبرس البندقاري ثمار معركة عين جالوت ، وتسلطن على عرش المملكة ، إلا أنه تشبه — في جهاده — بصلاح الدين الأيوبي . وصعد فلول التتار إلى ما وراء الفرات ، وأعلن قيام

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ حتى ج ٣ ص ٧٩٧ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ — النجوم ص ٥٥ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ج ١ قسم ٢ ص ٣١٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٥ — النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

(٥) ابن كثير : ج ٣ ص ٢٢٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٣١١ .

الوحدة المصرية السورية ، وعزم على ضم العراق إليها بأن جهز الخليفة العباسي
أبا القاسم أحمد الملقب بالزرائقي بمسكوه إلى جهة بغداد طمعاً في أن يستولى عليها
ويجتمع عليه الناس^(١). وسرعان ما علا شأن بيبرس ، وأرسل في استخراج الزكاة
من سائر الجهات ، وأسلم على يديه « عالم كبير من التتار الواصلين ، ومن الفرنج
المستأمنين والأسرى ، ومن النوبة القادمين من عند ملكها »^(٢).

وكيفما كانت أهمية عين جالوت في بناء دولة البرين والبحرين فان اختيار
حاضرتها يأتي في المرتبة الثانية . أتكون العاصمة في البر الشامي تمشياً مع الواقع
والمنطق على ضوء غارات المشاركة ومؤامرات الغزاه ودسائس الانصاليين ، أم تكون
العاصمة بالبر المصري حيث تربى المالك وشبوا على الإفقتان بمصر ، وكما جرت
السوابق التاريخية المشتبهة في الأحوال والمناسبات وأقربها إلى علم أمراء البحرية
ما قضت به المارك على عهد أسيادهم الأيوبيين . لذا قرروا العودة إلى مصر « أطيب
الأرضين وعجمها أكرم المعجم أنساباً » . على قول الحديث النبوي الشريف . ومصر
في تقدير المقرئ تمثل صدر الطائر ورأسه ، على حين يمثل أحد جناحيه المشرق
الإسلامي ، ويمثل الآخر المغرب^(٣) . تمتاز مصر بموقع جغرافي فريد ، وأرض خصبة ،
غنية في مواردها ، وغلتها ، وشعبها يستجيب للنظام والطاعة ، ويستكين — فطرياً
— للعرف والقانون ، لا يستقيم أمره إلا بالوحدة والنظام ، يقول الشاعر في مصر
وأهلها : سقياً لمصر وماحوت من أنسها وأناسها^(٤).

ومهما يكن شيوع الخلاف قديماً وحديثاً في المفاضلة بين دمشق والقاهرة ،
فسرعان ما غدت القاهرة على زمن صاحب التعريف « أم المالك وحاضرة البلاد ،
ودار الخلافة ، وكرسى الملك ، ومنبع العلماء ، ومحط الرحال ، وتبعها كل شرق
وغرب وبعد وقرب ، خلا الهند »^(٥) . . . ويصدق عليها قول أحد مشايخ العلم في

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٩٩ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١ و ٤٩ .

(٥) العمري : التعريف ص ١٧٢ .

المغرب العربي آنذاك : «من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»^(١) . ويصفها أبو القاسم البرجى بعد أن أسفره إليها سلطان المغرب في مهمة سياسية بقوله « إن الذى يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فانها أوسع فى كل ما يتخيل فيها » . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك الوصف^(٢) . ولم لا يكون الإعجاب وفى القاهرة الجامع الأزهر ، ينفد إليه طلبة العلم والفقراء ، يلازمون الإقامة فيها ، ويشغلون بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيته ، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو . وتعقد به مجالس الوعظ وحلقات الذكر ، فيجد الأثر له « من الألسن بالله والارتياح ونزوح النفس ما لا يجده فى غيره » على قول المقرئى^(٣) .

وما أبلغ قول ابن خلدون فى القاهرة يوم الفاتح من ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ حين انتقل من الإسكندرية إليها « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الدرر من البشر وإيوان الإسلام . وكرسى الملك . تلوح القصور والدواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفأقه ، وتضوء البدر والكواكب من علمائه . . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه .. »^(٤) .

ويصف الزعيم المغولى هولوكو القاهرة فى إحدى رسائله أنها « كروان سراى » أى محط الرجال والتاجر والمال وفندق المسافرين ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها فى سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى^(٥) . ويبرز هذا الوصف على أية حال أهمية القاهرة كسوق عالمى ، يزخر

(١) ابن خلدون : المتبدا والخبر ج ٧ ص ٤٥٢ .

(٢) المقرئى : نفتح الطيب ج ٣ ص ١٣٤ .

(٣) الخطاط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المقرئى : نفتح الطيب ج ٣ ص ١٣٣ .

(٥) السلوك : ج ١ قسم ١ ص ٤١٦ وج ١ قسم ٢ ص ٤٢٦ حاشية ٣ للدكتور زيادة ..

بمتاجر الشرق وبخاصة بعد أن امتد نفوذ المغول إلى الخليج العربي وتحويل التجارة الهندية منه إلى الطريق البرى عبر أفغانستان وفارس^(١). ويحتوى سوق القاهرة على القيساريات والفنادق والوكالات والحانات والبنوك وكل ما يثير إعجاب الزائر من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . يصف المقرزى فندق بلال بقوله « ما برح يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه ، فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفصل عنها فى الفندق غير مساحة صغيرة بوسطه . وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجلب وصفه ... وعلى باب سوق السلاح فى الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار » . ويعضى المقرزى فى وصف بضات الحياه وحركة السوق فى القاهرة فىقول : وسمعت الكافة بمن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون رعى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها اللبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو اللبن من الحيط والحصر التى تعمل تحت اللبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ، فان هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل^(٢) .

أما حجم سوق القاهرة فيفوق العد والحصر ، وحسب القارىء أن سوقاً واحدة من أسواق القاهرة وهى القصبه يقول عنها المقرزى « سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول إنها تحتوى على إثني عشر ألفاً حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة إلى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تهبج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع ، فضلاً عن إحصاء ما فيها من

Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 360.

(١)

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ .

الأشخاص»^(١) . ويشمل سوق القصبه المسافة الحالية الممتدة من جامع الحاكم شمالاً إلى جامع ابن طولون ومسجد السيدة نفيسة جنوباً . ويشبهه في هذا الوصف شارع الموسكى في وضعه خلال الربع الأول من القرن العشرين على قول قيث^(٢) .

كذا ، اختار سلاطين المماليك القاهرة بدلاً من دمشق عاصمة لدولتهم ، فأصبحت — في رأى السائح المعاصر — أم البلاد ومحط رحل الحاج والراجل ، ومحشر الأسير الغادر ، ومنزل القصاد والوافدين ، ومجمع الصادر والوارد ، تزخر بالعالم والجاهل ، تروج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وكثرة عمائرها . ينقل إثنا عشر ألف سقاء الماء إليهم على الجمال ، ويقوم ثلاثون ألف مسكار بنقلهم على حميرها ، وتصعد بهم ست وثلاثون ألف مركب إلى الصعيد وتنحدر بهم إلى الإسكندرية ودمياط^(٣) .

ويشكل نظام الحكم المملوكى — بحيره وشره — الدعامة الثالثة من دعائم بناء دولة البرين والبحرين . والمعروف أن المماليك هبطوا مصر مختارين أو أسارى أو متخطفين في جماعات يرتفع عددهم حيناً ويهبط حيناً آخر . وتضاعف عددهم من ثمانمائة إلى خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان . عدا قوات إقليمية بلغت مائة وسبعة آلاف من المشاة وقوات احتياطية من العرب وصلت إلى ستة وستين ألف رجل^(٤) . والمماليك خليط من جنسيات شتى ومن أوطان متباينة ، ومن آباء مجهولين . هبطوا غرباء في بيئة جديدة حيث تربوا تحت ظروف واحدة وفرص واحدة كشفت عن مواهبهم ثم شكوا بعدها تشكيلاً صيرهم «سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ، ويردعون من جراً وتقوى» على قول المقرئى^(٥) . يعطون أسيادهم عملهم وقت السلم وسيفهم وقت الحرب . ويرجع فضل استخدامهم على هذا النحو إلى الملك الصالح أيوب حين انقض عنه عشيره وخذله أنصاره ، فأتخذ عامة عسكره من المماليك وارتبطوا

(١) الخطط ج ٢ ص ٩٥ و ١٢٤ وصور ومظالم للمؤلف ص ٩١ .

(٢) Wiet G. : *Histoire de la Nation Egyptienne*, V. 3, p 493.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٢٦ .

(٤) Gibbon : *op. cit.*, V. 3 p. 502.

(٥) الخطط : ج ١ ص ٢١٤ .

بالوفاء له والتلمذ عليه^(١) . وبذا حلت رابطة الأستاذية هذه محل العصية الأيوبية المفقودة ، واتخذت شكلاً عائلياً ، عبر عنه ممالك السيد الواحد بالحشداشية . ولما ورث المالك الأيوبيين في حكم مصر والشام غدت رابطة التبعية والولاء للأستاذ ، ورابطة الزمالة « الحشداشية » تكونان نظام الحكم عندهم . وكان قطز أول مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه : ولم يقع ذلك قبله من أحد من المملوك^(٢) .

ويذكر المقرئ أن الأمراء اختلفوا حول المناذرة بالطفل الناصر محمد سلطاناً عليهم بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ، فطلعت أم الناصر على السور وسألت عن غرضهم فقالوا « ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخضاع الفتنة ، ولو بقي من بيت أستاذنا (قلاوون) بنت عمياء كنا ممالكها ، ولا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية »^(٣) . غير أن المعارضين لسلطنة الناصر محمد نجحوا في إبعاده ونفيه إلى الكرك ، فجمع ممالكه الذين اشتراهم لنفسه بسوق الخيل ومعهم راياتهم الصفراء وهم يتصايحون بوالى القاهرة « زودنا لروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجىء صحبته » . ولسان حال كل منهم يقول « عدو أستاذى عدوى »^(٤) . وصعد بعد الناصر محمد إلى عرش السلطنة اثنا عشر نفر من أولاده وأحفاده بفضل تمسك المالك برابطة الأستاذية .

على أن رابطة الزمالة كانت فى واقع الأمر أقوى الروابط بين السلاطين والأمراء جميعاً . وكانت الطائفة الأوفى من طوائفهم الحزبية تنتخب للسلطنة غالباً أقدم زملائها وأكبرهم سناً وأسماهم وعداً وعطاء ، وتخلع من أجله ابن السلطان المتوفى على الرغم من الإيمان المغلظة والمواثيق السابقة^(٥) . حسبما تشهد عبارة الظاهر بيبرس لزملائه : « وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولبن يجاهد فى سبيل الله »^(٦) . ويؤكد لاجين هذا

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٧٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٦ .

(٣) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٨٠١ -- النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٤٥ .

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٥ — صفحات لم تنشر فى ابن اياس ص ١٩١ .

(٥) زيادة : ملاحظات جديدة ص ٨١ وحاشية ص ٣٣٥ من ج ١ قسم ١ .

(٦) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥١٥ .

المعنى لزملائه بعد خلعهم للعادل كتيبنا الذى قبض على خشداشة ، عز الدين أيبك الخزندار^(١) ، ونص قوله « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ، ولست مولياً عليكم من ممالىكى أحداً ، ولا أسمع فيكم كلاً ما بدأ ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ممالك العادل ، وأتم خشداشيتى (أى أتم وأنا من تاجر واحد) ومحل إخوتى»^(٢) وحلف لهم لا حين على هذا القول فاتفقوا معه ، وحلفوا له ونصبوه سلطاناً عليهم .

ومهما يكن أثر رابطتى الأستاذية والزمالة فى تدعيم سلطة الدولة ، فإن محاولة بعض السلاطين الفحول أمثال بيرس البندقدارى وقلاوون الألفى إفترار مبدأ الوراثة فى العرش لم تؤت أكلها تماماً لرفض الأمراء أن يكون ابن أحدهم الذى لم تحنكه التجارب ولم يشاركهم المحن سلطاناً عليهم ، بل يجب أن تؤل السلطنة إلى أكبرهم سناً وأكثرهم نفراً وأعزهم مهابة وجاهاً وأسجاهم عطاءً كى لا يبدو أن يكون سوى واحداً بين قرنائهم *primus inter parés* على قول لنبول^(٣) وإذا كانوا قد أقسموا على الولاء لأبناء السلطان المتوفى ، فإنهم يوفون بقسمهم ، وينصبونهم لمدة شهر أو سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، حتى يحوكون مؤامراتهم وينسجوا دسائسهم فيمزلوهم ، ويسجنوهم وينفوهم أو يقتلوهم فى جو مليء بالظلمة والعموض . وترتب على ذلك أمران : الأول أن بلغ عدد الأطفال الذين تسلطوا على عرش دولة البرين والبحرين سبعة عشر طفلاً ، منهم ستة أطفال تقل أعمارهم عن العاشرة ، وإحدى عشر طفلاً عن السادسة عشرة . وامتدت سنوات حكمهم جميعاً إلى ما يقرب من نصف قرن ، توقفت خلالها نبضات الحياة فى البلاد ، وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للارهاق والضياع والسلب ، وصارت قاعدة قتل السلاطين أو عزلهم وانتشار القتال فى الشوارع والطرق الطريفة المفضلة للوصول إلى الحكم^(٤) .

وجاء الأمر الثانى مترتباً على الأول ، وهو إشاعة العموض والذعر وفقدان الأمن والنظام إلى درجة أن يتشبه العبيد والخدم بأسيادهم المالك ، فينشئوا دولة

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ابن أبى الفضائل : ج ٢ ص ٥٩٧ .

(٣) Lane-Pool : *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 325.

(٤) صور وظالم المؤلف ص ٦ و ٧ .

لهم كدولة السادة . ويكون لها منهم السلطان والأمير والوزير والحاجب والسكران وغيرها من الرتب السلطانية . وتفسير ذلك أن المادة جرت بمخروج العبيد يومياً في أعداد غفيرة ، لا شاغل يشغلهم سوى خيول سادتهم ، يرعونها في المرعى نهاراً وفي الاصطبلات ليلاً . وفي ربيع ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) أقاموا بنحوهم مدة يسيرة في إمبابة ، يلهون ويعيشون ، والأمراء عنهم لاهون ، حتى كان شهر ذى القعدة فأظهروا العصيان ، ونصبوا عبداً من بينهم سلطاناً عليهم ، ورتبوا له أرباب دولة وأرباب وظائف ، وولوا نائب الشام ونائب حلب ، وصار هذا السلطان يحكم فيهم بما شاء ، ونصبوا له تختاً يجلس عليه ، وحوله الوزير والأمير الكبير والدوادار ، ويركب وعلى رأسه صنجق أصفر ، وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة فصاروا يفسدون هنا وهناك ، وينهبون ما يمر عليهم من غلال وحمير وإبل وماشية وغير ذلك . فحصل للناس منهم غاية الأذى وعظيم البلاء . وبقي سلطان العبيد يفعل ما أحب وأشتهى ، يصدر الأوامر بالقبض أو الحبس أو القتل أو الغرامة على من يشاء ، والضرب على من يشاء ، ولا يقدر أحد على رده حتى علم سلطان البلاد وقتذاك وهو الظاهر جقمق بقيام سلطنة العبيد في إمبابة واستفحال خطرها ، فعين جريدة من مماليكه السلطانية تمكنت بعد معركة عنيفة من القضاء على دولة العبيد المزعومة ، وأخذ فتنهم التي لم يسمع بثلتها في سالف الأعصار على قول شاهد عيان (١) .

وأخيراً ، يأتي دور التشريع والقانون في تدعيم دولة البرين والبحرين التي صحت قيامها حدوث بعض التغيرات الجذرية اجتماعياً واقتصادياً ، فبعد أن كان الحاكم والمحكوم يكونون وحدة جنسية ودينية ولغوية وثقافية وسياسية قبل تبوء المالك عرش مصر ، صار الحاكم يكون طبقة الجاركية متعالية ذات سمات معينة ، ويغذيها بين الفينة والأخرى موجات وهجرات بشرية ، وافدة من الخارج لها نفس السمات والخصائص ، منها على سبيل المثال موجة مغولية تعرف بالاوراتية أو العويرانية تعادها نحو عشرة آلاف نسمة ، قدمت بلاد الشام خوفاً من الملك غازان وذلك على عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا — وكان من جنسها — فأنزلهم بالساحل

(١) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور : ج ١ ص ١٩ . وراجع التفاصيل في

صور ومظالم المؤلف ص ١٣ وما بعدها .

الشامى قريب قاقون^(١) . وأحضر كبراءهم إلى الديار المصرية ، ورحب بهم ، وأنعم على مقدمهم طرغاي أو طرغية بإمرة طبليخاناه وطلئ ثلثة من أكابرهم ، بل من الصوص — طلى حد تعبیر المقرزى — بإمرة عشرة ، وأجرى على البقية الرواتب والإقطاعات وأنزلهم بحى الحسينية حيث تقاعلوا مع اللواتين ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ونشروا بينهم من مظاهر الملاعة والاستخفاف بالآداب العامة ما لم يكن معهوداً من قبل ، سيما وأن بعضهم ظل على وثنيته ولم يكرههم السلطان على اعتناق الإسلام . ولم يمترض على عدم صيامهم شهر رمضان . ويصف المقرزى أثر ذلك السلوك الأجنبي وانطباعاته على اللواتين فيقول « وكانوا على غير الملة الإسلامية ، وتظاهر بعضهم بدين الإسلام ولم يصم البعض الآخر شهر رمضان عند حلوله ، فشكا الناس للسلطان كتبغا ، فأبى أن يكرههم على الإسلام ، ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، فشق ذلك على الناس »^(٢) .

لا بد إذن من وضع تشريع جديد للدولة يتعشى مع هذا التركيب الاجتماعى بشقيه العربى والمملوكى ، يحفظ لأصحاب البلاد قيمهم الاجتماعية ومقدساتهم الدينية وتقاليدهم الورثة جيلاً بعد جيل ، ويقر للعالمين الأجانب امتيازاتهم ، ويشبع شهواتهم وغرائزهم البدائية الحشنة ، فضلاً عن تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الحاكم والمحكوم . يقول المؤرخون فى هذا الصدد أن الزعيم النغولى جنكزخان قرر لدولته — بعد أن استقرت فى بلاد المشرق — قواعد وعقوبات دونها فى كتاب على هيئة دستور أسماه ياسة Yassa على قول المقرزى أو اليسق على قول أبو المحاسن ، وجعله شريعة لقومه . اتخذ مواد أحكامه من شريعة أهل الاستبس وعرفهم ومن تجاربه الشخصية . وأعطت الياسة جنكزخان وأولاده من بعده السلطة المطلقة والكاملة القاطعة النافذة ، وحددت الياسة أصول القوانين المالية والجنائية والمدنية والتجارية للدولة النغولية^(٣) .

وسار أهل جنكزخان بعده على هدى من الياسة ، والتزموا بعبادها حتى

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ . وصور ومظالم ص ٣٧ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨٢ . Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 241.

قطع الله دابرهه ، وتفرقوا بين رقيق يباع أو وافدية ، فامتلات بلاد مصر والشام بطوائف الغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، وامتزج بلحم ملوك مصر ودمهم مهابتهم وتنظيمهم ، كما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن^(١) ، وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من سار على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكزخان من أمر الترتيب والمذهب ، فهو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد ، وإن كان بعضها قبله ، فلم تكن على هذه الصيغة أبداً ، ويمثل أبو المحاسن لذلك مثلاً يقاس عليه ، وهو أن الدوادار ومعناه ماسك الدواة كان قديماً لا يباشره إلا متمم . كذلك كان بيبرس أول سلطان بمصر يمين أربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الأربعة^(١) .

ومن ثم غدت السياسة التشريعية فى دولة البرين والبحرين نوعين : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهمى من أحكام الشريعة وصنفت فيها كتب ، ويشرف على تطبيقها وتنفيذها طبقة رجال الدين على المذاهب الأربعة . وسياسة ظالمة تحرمها الشريعة وهى من الياساه — أو الياساق — وهى قوانين ضمنها جنكزخان من عقابه ، وقررها من ذهنه ، وجعل الناس يتعاكمون إليها وأكثرها مخالف لشريعة الله وكتبه^(٢) ويشرف على تطبيق الياساه متولى الحجوية الكبرى والحجاب عامة ، ويفصلون فى قضايا المالك ، أمراء وعساكر ، وفق ما ورد فى قوانين الياساه . ولكن سرعان ما حدث تطور خطير فى النظام القضائى ، وطفعت السياسة الظالمة على السياسة العادلة ، حسبما يشير المقرئى إلى ذلك الطغيان تحت أحداث ٧٥٣ هـ . حيث يقول « وفيها رسم للأمبر جرجى الحاجب أن يتحدث فى أمر أرباب الديوان ويفصلهم عن غرائمهم بأحكام السياسة . ولم يكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية ، فاستمر ذلك فيما بعد . وكان سبب ذلك وقوف تجار المعجم بدار العدل . وذكروا أنهم لم يخرجوا فى بلادهم إلا لما نزل بهم من جور التتار . وأنهم باعوا بضائعهم لعدة من تجار القاهرة ، فأكلوها عليهم ، وأرادوا إثبات إعسارهم على القاضى الحنفى وهم فى سجنه ، وقد فاس بعضهم فرسم لجرجى بإخراج غرماء التجار

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨١ — حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .

(٣) الخطط : ج ٢ ص ٢٢٠ — القلقشندى : ج ٣ ص ٣١٠ .

من السجن وخلصهم مما في قلوبهم . وأنكر على القاضى الخنى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والديونيين . فأخرج جرجى التجار من السجن ، وأحضر لهم أعوان الوالى وضربهم ، وخلص منهم المال شيئاً بمدشء .

ومن حينئذ صارت الحجابة بالقاهرة وبلاد الشام تتصدى للحكم بين الناس فيما كان من شأن القضاة الحكم فيه ^(١) . الأمر الذى أطمع قضاة السوء فى المناصب ، وصار الناحيس يطلعون إلى مصر ، ويتولون القضاء فى النواحي بالبدل ، وحصل بذلك وهن فى الأحكام الشرعية ^(٢) .

وكيفما انصف قضاة المعاملات وقتذاك بالظلم والانحراف ، فان الضرائب ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالأموال الديوانية كانت على نوعين كذلك . ضرائب عادلة تقرها الشريعة الإسلامية ، وسبق أن مارسها البلاد فى عصر ما قبل المماليك ، وتحصل من سبع موارد أساسية وهى : المال الخراجى ، ورسم المعادن ، والزكاة ، والجزية والجمارك ، ودار سك النقود . وضرائب غير شرعية تقرها الشريعة المغولية الظالمة أى الياسه ^(٣) . ويقل عددها ويكثر حسبها يعوز السلطان المال أو يضيق به الحال ، ويعبر عنها بالمكوس أو « الحقوق السلطانية والمعاملات المالية » ^(٤) أبطل منها الناصر محمد عام تولية السلطنة خمسة عشر نوعاً ، كما أبطل معها عقوبة الضرب بالمقارع ^(٥) .

وما أبدع ما حواه كتاب صبح الأعشى عن التراتيب الإدارية والديوانية لدولة البرين والبحرين ، وهى معقدة فى مجموعها ، لكنها مرتبة ترتيباً دقيقاً من أصغرها بالقاعدة فى الأطراف والنيابات إلى أكبرها بالقمة فى العاصمة . وتدل قوائمها على طول باع المماليك فى الضبط والربط ، وسرعة الحزم والبت فى أمور السياسة والحرب ، مبيناً فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ومنهم أرباب الوظائف الديوانية وأصحاب الوظائف الدينية . ويحكم نظام البريد بأنواعه البرية والجوية

(١) السلوك : ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٢ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ١٥٤ .

(٣) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٥٢ .

(٤) المخطط : ج ٣ ص ١٠٥ .

(٥) المخطط : ج ١ ص ١٠٢ و ١٢٨ وابن لى ج ١ ص ١٢٤ .

والصوتية والصوتية الصلة الوثيقة بين عاصمة الدولة وبين نياحتها وأطرافها . إذ المعروف أن سلاطين المماليك أنشأوا طرق البريد ، وأقاموا عليها الخانات ، وزودوها بالخيول والهجين والعمال والماء والزاد^(١) . كما أقاموا مطارات الحمام الرسائلي لحمل مكاتبات الدولة ، ويمبر عنها في المصطلح المملوكي بالهدى ، وأخذوا من قم الجبال ومن الأبنية العالية في أقصى الثغور كالبيرة والرحبة مناور لرفع النار ليلا والدخان نهاراً ، وأرصد في كل واحد منها الديارب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم^(٢) . وقد ترقى المناور في سرعة وصول الأخبار إلى الدرجة القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتي من الجبر ما هو أسرع في البريد ، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك بوصول خبر في الفرات إلى مصر في مسافة يوم وليلة على الأكثر^(٣) .

ويرجع فضل تدعيم وتطوير أجهزة الأعلام المملوكية على هذا النحو إلى السلطان الظاهر بيبرس ، الذي أراد ترتيب دولته في دمشق ، حين أزمع العودة إلى القاهرة ، فعين لها شرف الدين محمد بن عبد الوهاب عم ابن فضل الله العمري كاتباً للانشاء هناك ، وقال له « إن قدرت أن لا تبتني كل ليلة إلا على خير ، ولا تصبحني إلا على خير فافعل »^(٤) . وتمكن بيبرس — بفضل نظام البريد — من لعب البولو في كلتا العاصمتين (القاهرة ودمشق) خلال أسبوع واحد^(٥) ، فضلاً عن كثرة تردده وأسفاره إلى الشام المحروس ليراقب عماله وليطمئن بنفسه على الأمن وسلامته ، وكان يعمل له موكب عصر وموكب بالشام حتى قال القائل في المعنى : يوماً عصر ويوماً بالشام ويوماً بالفرات ويوماً في قرى حلب^(٦) . ويضيف ميور « ويوماً في الحجاز »^(٧) .

(١) راجع التفاصيل في نظام البريد في الدولة الإسلامية المؤلف من ١١٧ وما بعدها .

(٢) التعريف من ١٩٩ .

(٣) القلقشندي : ج ١٤ ص ٤٠٠ — نظام البريد من ١٥٢ .

(٤) نظام البريد : من ١٢٣ .

(٥) حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .

(٦) ابن ايباس : ج ١ ص ١٠٨ .

وما أروع وصف المقرئى لمشاعر الدماشقة وفرحتهم حين سماعهم بعزم أحد السلاطين على زيارة البلاد الشامية ؛ فيتسابقون فى إقامة الزينات ويتزاحمون على مشاهدة مواكبهم مثال ذلك تصويره لتقدم الناصر محمد بن قلاوون من الحجاز إلى دمشق يوم ١١ محرم ٧١٣ هـ . وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً بلغت فيه أجر البيت مبلغاً زائداً ، حتى أن بيتاً أخذت أجرته للنظر إلى السلطان فى مدة من بكرة النهار إلى الظهر ستائة درهم . وعبر السلطان جموع الدماشقة وزينتهم وهو على ناقه وعليه بشت (العباءة من الصوف بلونه الطبيعى) من ملابس العرب بثام ويده حربه (١) . ويعنى ذلك كله أن مراكز البريد بدلت الخوف أمناً والوحشه أنساً فى سائر جهات الدولة ، « حتى صارت المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية ، لا تحمل زاداً ولا ماء » على قول المقرئى (٢) .

- ٣ -

هذه عمدة أربعة (الحركة والعاصمة والنظام والتشريع) أسهمت — فيما يرى الباحث — فى بناء دولة البرين والبحرين ويتبعها سؤال عن نوعية التغييرات الجزرية التى صحبت قيام تلك الدولة ؟ . وأولها فى نظر الباحث زوال سيادة الجنس العربى وخضوعه لسيادة الجنس المملوكى التركى لعدة قرون (١٢٥٠ — ١٩٥٢ م) فقد خلاها العرب تقمهم فى أن يحكوا أنفسهم بأنفسهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . ومن ثم لم يكن بين العرب والماليك منذ قيام دولتهم حتى سقوطها سوى حب مفقود بسبب الكراهية الجنسية لمن مسهم الرق ، وصاروا حكماً على من هم أرفع مكانة وأولى بالحكم والولاية منهم وهم العرب الذين أعلنوا رأيهم بصراحة ، وعارضوا بزعامة أميرهم الكبير نجم الدين على الجمعدى سلطنة المعز أيبك ، وامتنعوا عن دفع الخراج لأؤلئك العميد الخوارج « نحن أصحاب البلاد أحق بالملك من الماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد » (٣) . وتحايل سلاطين الماليك بمختلف الوسائل على إخماد ثورات العرب وبخاصة عربان الشام « فهم جل

(١) السلوك : ج ٢ قسم ١ ص ١٢٢ .

(٢) شرحه : ج ١ قسم ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٣) شرحه : ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

القوم وعين الناس ، ولا عناية للولك إلا بهم ، ولا مبالاة بغيرهم ، ورأس الكل آل فضل وآل مرء وآل علي ، وهم من آل فضل الذين كانوا في نحر العدو . ولهم العديد الأكثر ، ولهم المال الأوفر . وآل علي منهم ، نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقي عيسى بن مهنا جار الفرات في تلايب التار . ولذا يضاعف إكرامهم ، وتوفر لهم الإقطاعات ، وتسنى العطايا . وصاروا الآن أهل بيتين : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى (١) . وتوطرت الصداقة بين هذين البيتين وبين الناصر محمد بن قلاوون بخاصة — بعد نفرة عظيمة عدة سنين — حتى عظم العرب في أيامه لجلبهم الخيل له وبذله في أثمانها ما لم يسمع بمثله ، فشمّل الغنى عامتهم ، وأقطع الناصر محمد أمراء البيتين هدة إقطاعات جليلة ، وخلع عليهم مائة وستين خلعة ، وأحضر أمراءهم إلى مصر لمشاركته في سباق الخيل (٢) . ويروى عن الناصر محمد أنه كان يقول « رأيت في بعض الملاحم أن الغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك في سوقة مازن » . فأوجس الممالك خيفة من ذلك القول في عام ٧٤٨ هـ حين شاع انتقال أبي الحسن المريني صاحب المغرب من فاس إلى تونس وهي أقرب إلى مصر من فاس بثلاثة أشهر ، ولذا تودد ، السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر لعرب الكرك واتخذ منهم كاتب سره ومستشاريه ، ولبس زى المرغان مجاملة للعرب (٣) .

أما عرب مصر فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل ، لكنهم على سعة أموالهم واتساع نطاق جماعاتهم ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من ينجد ولايتهم ، ولا يمرق ولا يشام ، لا يخرجون عن جدر الجدران (٤) . تفرقوا في الوجهين القبلي والبحري ، خلّت قبائل بني سعد وبني وائل وبني جذام وبني بقروبي عطية وبني النعام بريف ومدن الشرقية . ونزل بنو هوارة وهم بطن من بني عمر ببلاد الصعيد . أما عرب غزاه فسكنوا الجزيرة ، على حين هبط عرب لجويلى ومرعى بالبحيرة ، وهم أشبه القوم بالتخلق بأخلاق العرب في الحل

(١) التعريف : ص ٧٩ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ١٦٨ — المختصر : ج ٤ ص ١١٣ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٦٨ .

(٤) التعريف : ص ٧٦ .

والترحال . يهربون إلى القيروان وقابس ويفدون على الحضرة وفود أمثالهم من أمراء العرب معلنين ولاءهم ، طالبين الإقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلي المحدود ووراثة المشيخات .

ومهما يكن من أوجه الخلاف بين عرب البرين الشامي والمصرى ، فإن ثوراتهم لم تتخذ ضد المماليك ، ولا سيما إذا ما اقترنت بفتن المماليك بعضهم بعضاً . من ذلك على سبيل المثال ما وقع عام ٨١٤ هـ . حين دبر الأميران شيخو ونوروز خلع للملك الناصر فرج من السلطنة المملوكية ، واتفقا على سلطنة الخليفة العباسي المستعين بالله مع احتفاظه بمنصب الخلافة ، على شريطة أن يحكم نوروز البلاد الشامية من غزة إلى الفرات ، ويحكم شيخو الديار المصرية من قطيا بالشرقية إلى أقصى بلاد الصعيد ، وأن لا يكتب الخليفة منشوراً أو مرسوماً قبل عرضه عليهما والحصول على موافقتهما . ولبس الخليفة العباسي شارة الملك ، وبأس الأمراء له الأرض على عادتهم . ويعني هذا الخبر أن الفرصة واثت العرب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم كما لو كانوا قبل سقوط بغداد ، وأن يستردوا مجدهم السالف وسيادتهم القومية . غير أن تفرق كلمتهم ، وفقدانهم صفات القيادة من ناحية ، وتفوق المماليك حريياً عليهم من ناحية أخرى أضاع عليهم تلك الفرصة الذهبية . إذ اتضح لشيخو — بعد ستة أشهر إلا أياماً — أن يخلع الخليفة من السلطنة ويجلس مكانه بحجة أن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة ، وكثر الفساد في البر والبحر ، وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي ، له سطوة بقمع أهل الفساد ، وتنصلح الأحوال على يده . وأحضر شيخو القضاء وسائر الأمراء ، وكتب محضراً بذلك ، وخلعوا الخليفة ، وسلطنوا شيخو ، فثبت دعائم الدولة ، وقطع دابر وجدد العصاة من العرب والمماليك على قول ابن إياس (١) . وجرى على الخليفة المستعين بالله ما جرى على أسلافه وأخلافه من حيث الأنزواء والاكتفاء باللقب الخلفي « وليس له من أمر ولا نهى ولا نفوذ ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور » على قول المقرئ (٢) .

واستفعل خطر العرب على المماليك منذ عام ٨٧٢ هـ حينما انشغل السلاطين

(١) بدائع الزهور : ج ١ ص ٣٥٧ و ٣٥٨ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٢ تحت أحداث سنة ٦٥٩ هـ Lewis : The Arabs in History, p. 105.

بتقلب دولهم ، وتغير في تلك السنة أربعة سلاطين ، استنجد الترك فيها بالعرب على بعضهم ، فكان من أمر ما يكون على قول مؤرخ معاصر (١) . وكاد الأمر يفلت من يد الترك إلى العرب لولا أن ولي السلطنة رجل خفي قوى الشكيمة هو قايتباي ، القى نجاح في إخماد ثورات العرب بالصعيد ، وقتل منهم مالا يحصى ، ونوع بهم العذاب تنويماً ، فقبض على نحو ثلثمائة من عرب غزاة الثائرين ، ووضع الرجال في زناجير والنساء والصغار في حبال ، وعلق رؤوس من قتل من الرجال في رقاب النساء ، وسمروهم على جمال ، وشقوا بهم من القاهرة يوم خروج الحمل ، ثم علقوهم على أبواب المدينة (٢) . الأمر الذي عمق الكراهية في نفوس العرب ضد الترك والماليك ، وعبر عنها السلطان طومان باي الثاني أثناء مقاومته لسليم الفاتح العثماني بقوله : إن العربان صارت كلها أعداء لنا وعوناً لعدونا ، لأنه ما منهم أحد إلا من قتلنا إما أباه وإما أخاه وإما ابنه وإما ابن عمه وإما واحد من أقاربه . وذلك لما كانوا يعصون علينا . فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثأره القديم (٣) .

وكان التغيير الثاني الذي سبب قيام دولة البرين والبحرين هو نقل مركز الثقل العالمي للغة العربية وآدابها وفنونها من العراق إلى مصر . إذ لم تعد بغداد عاصمة العالم العربي والإسلامي للنهضة العلمية والأدبية بعد أن خربت الخراب العظيم بقتل هولاءكو خان لسبعمائة من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان والمدرسون ، وكان منهم محي الدين بن الجوزي وأولاده (٤) . ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نودي بالأمان . وأحرق هولاءكو كتب العلماء التي كانت ببغداد من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا (٥) . وقيل إن هولاءكو ألقى بها بدجلة معاملة — بزعمهم — لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن (٦) ومهما يكن الأمر ، فإن سقوط بغداد وتخريبها على يد التتار قد وقع

(١) ابن نغر بردى : منتخبات ج ٣ ص ٦٣٢ .

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٣٥٧ وج ٢ ص ١٨٠ و ٢٤٣ .

(٣) شرحه : ج ١ ص ٣٥٧ .

(٤) المختصر : ج ٣ ص ١٩٥ — مادة بغداد بدائرة معارف، البستانى .

(٥) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥١ .

(٦) العبر ودبوان المبتدا والخبر : ج ٥ ص ٥٤٣ .

بعد مضي خمس وخمسون عاماً على سقوط بيزنطة وتخريبها على يد رجال الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣ م . وأنهى ما كان بين المدينتين الخالدتين من توازن حضارى وثقافى ، ازدهرت في ظله الحضارة الانسانية في منطقة الشرق الأوسط لعدة قرون ، ومنذئذ لم تعد له القيادة العلمية والحضارية إلى اليوم^(١) .

لكن مواطن علمية كبرى قامت على أنقاض بغداد في الأقطار الإسلامية الناشئة فيها بعد المحنة ، ومنها على سبيل المثال مدينة مراغة التي عمل بها الخواجة نصير الدين الطوسى الرصد ، ونقل إليه كثيراً من كتب الاوقاف التي كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ودار طب ودار حديث ، ومدرسة لكل فقيه ، ورتب فيها الفلاسفة والأطباء والمدرسين ذوى الرواتب الثابتة^(٢) . ولا شك أن غالب من رحل من علماء العراق والشام أيام النكبة والجفلة من التتار قد نال المكنانة السامية في القطر الذي حل فيه^(٣) . وبخاصة من سكن منهم الديار المصرية ، ويذكر منهم أبو شامة على سبيل المثال لا الحصر : الجمال يوسف الدايبسى ، والعماد أبى حامد الحسين المعروف بالحافظ ابن عساكر ، والسكّال التقيسى والحيمى بن سراقه مغربى ، وكمال الدين أحمد بن القاضى زين الدين ، وأولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعيالهم وأموالهم ، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر^(٤) . فضلاً عن جماعة من بمالك الخليفة المستنصر البغاددة ومقدمهم شمس الدين سلار^(٥) .

أولئك خرجوا في قفل كبير بعد قفل إلى مصر حيث « الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت » . على قول السيوطى^(٥) . وحيث توفر لهم الأمن والرخاء والرعاية من السلاطين والأمراء الذين عنوا باللغة العربية وآدابها وفنونها ، ومنهم السلطان الأشرف خليل الذى اشتهر بمعد المجالس الأدبية ومطارحة الأدباء بذهن

Runciman : op. cit., V. 3, p. 304.

(١)

(٢) ابن كثير : ج ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) عباس الزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : ج ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ذيل الروضتين : ص ٢٠٩ و ٣١٢ و ٢٣٠ و ٢٣٢ — المختصر : ج ٣ ص ٢١٦

أحداث سنة ٦٦٠ هـ .

(٥) حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٦٥ .

رائق ، وزكاه مفرط ، فضلا عن معرفته بصناعة الإنشا والتوقيع . فكان لا يعلم على مكتوب حق يقرأه كله ، ولا بد أن يستدرك على الكتاب فيما يتبين لهم فيه الصواب ، إلا أنه تعاطف في آخر أيامه ، وصار لا يكتب اسمه على المراسيم والبرقيات ، ولا يكتب حرف الخاء (خ) إشارة إلى الحرف الأول من اسمه على قول المقرئ (١) . واشتهر كذلك السلطانان جقمق وخشقدم بفصاحة لسانهما بالعربية ، ولأولها مسائل عويصة في الفقه ، ترجم له فيها العلماء . وبمن اشتغل من الأمراء بالعربية وعلومها ، وتحديثها بفصاحة وطلاقة جاني بك المتوفى سنة ٨٦٨ هـ . وخاير بك المتوفى سنة ٨٨٧ هـ ، وجاني بك حبيب العلأى الإينالى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ (٢) .

ويروى عن السلطان المملوكى بصفة عامة حرصه الشديد على أن يخاطبه جلساؤه باللغة العربية ، ويؤخذ من يخاطبه بالتركية مؤاخذه شديدة بدليل ما وقع لابن سالم (٨٧١ — ٨٥٢ هـ) واضع قواعد علم النحو على اللغة التركية يوم أن كلمة السلطان بالعربي فأجابه بالتركي قصداً للتقدم عنده بذلك ، فغضب منه السلطان ، وأمر بضربه في حضرته ضرباً مبرحاً ، وأهانته إهانة بالغة على قول المراجع (٣) .

ورغم معرفة فئات الجنس المملوكى بالرطانة التركية والمغولية والفارسية وتحديثهم بها فيما بينهم ، فإن اللغة العربية كانت لغة البلاد القومية في المعاهد العلمية والدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والمعاملات اليومية . ولذا أنشأت الدولة إدارة — في ديوان الإنشا — لترجمة الكتب الواردة من بلاد المعجم ، وعين لها رئيس وكتابة يجيدون تلك اللغات (٤) .

وكان الأزهر ولا يزال أكثر وأبرز معاهد العلم في دولة البرين والبحرين للدراسات العالية في علوم الدين بخاصة والدنيا بعامه . ينفذ إليه طلاب العلم ومشايخه من مشارق الأرض ومغاربها للتمقق في دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقيه وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو ، ودراسة اللغة العربية وآدابها

(١) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٧٩٠ .

(٢) ابن أياس : ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) التبر المسبوك : ص ٤٢٥ .

(٤) الدرر الكامنة : ص ١٩٧ .

وفنونها . وتمتد بالأزهر مجالس الوعظ وحلقات الذكر والتدريس العام بحيث يجهد الزائر له « من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس ما لا يجهد في غيره » . على قول المقرئى^(١) . ويشارك الأزهر في تلك النهضة العلمية والأدبية الزاهرة المدارس العامة والجمامع والمؤسسات الاجتماعية والثقافية من خوانق وربط وزوايا ، فضلا عن المعاهد الفنية والعسكرية التي أحدثت تغييرات جذرية في حياة المجتمع بوجه عام . يشهد عليها ما خلفه النويرى والعينى والقلمشندى والعمرى والمقرئى وأبى المحاسن وابن خلدون وابن إياس وابن حجر ، أصحاب المصنفات والموسوعات المتشعبة الأطراف والأهداف ، والحفاظة لتراث القومية العربية الحضارى^(٢) .

وثالث التغييرات الجذرية التي أجرتها دولة البرين والبحرين كان استبدال اقتصاد البلاد النقدى التجارى بسماته الحركية في الداخل والخارج بآخر يعتمد داخلياً على اقتصاد إقطاعى قوامه الزراعة . ولم يكن هذا التغيير فجائياً ، بل جاء تدريجياً ، إذ المعروف أن نظم المعاملات التجارية لم تكن موحدة في دول الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ففي مصر والشام شاع استعمال الدينار الذهبية على حين جرى التعامل في فارس والعراق بالدرهم الفضية . وظل النظام النقدى ثابتاً في مصر طالما كان الدينار الذهبى هو وحدة النقود وقاعدة التعامل . فلما قل التعامل به تدريجياً منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، حين سلك الدرهم من الفضة والفلوس من النحاس ، تنبأ خبراء الاقتصاد آنذاك بالآثار التي سوف تترتب على النقد مستقبلاً ، وصدق تنبؤهم بحدوث الخلل في النقد على عهد السلطان العادل كتبغا (٩٤/١٢٩٦ م) . حين ضربت الفلوس وصارت المعاملة وزناً لا عدلاً ، ومن ثم راجت الفلوس ، وصارت من النقد الغالب في البلد ، فطردت النقود الرديئة الجيدة من التداول^(٣) .

على أن بداية الخلل الفعلى للنظام النقدى حدث منذ منتصف القرن الحادى عشر ، حين اتسمت رقعة الدولة السلجوقية وتمذر عليها الهيمنة على أطرافها ، واتضح لوزيرها ملكشاه آل ملك الطوسى الشهرير أن قاعدة إعطاء مرتبات للجند على

(١) المخطط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع : صور ومظالم المؤلف ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) المقرئى : لإغاثة الأمة ، ص ٤٧ و ٧١ .

اختلاف أصنافهم وأجناسهم أرهقت الإدارة المالية بأبهظ المرتبات والتكاليف ، ففكر هذا الوزير في الاستعاضة عن المرتبات التقدية بالإقطاعات من الأرض لختلف طبقات الجند حتى صار الإقطاع الحربى هو القاعدة^(١) فى الدولتين السلجوقية والنورية ؛ وعنهما نقل السلطان صلاح الدين الأيوبى تلك القاعدة إلى مصر حسبما يروى المقرئى « ومنذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » فتقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمرء وعشرة للأجناد^(٢) .

وورث المالئك نظام الإقطاع الحربى عن أسيادهم الأيوبئين وأرسوا قواعدهم على أسس مقننة بعد أن قاموا بمسح البلاد وحصر زمامها مرتئين : الأولى على عهد السلطان حسام الدين لاجئين وعرفت بالروك الحسامى نسبة إلىه ، والثانية على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعرفت بالروك الناصر الذى قضى بزيادة أنصبة الأمرء والأجناد فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر فى الروك الحسامى ، وخصصت العشرة قراريط الباقية للسلطان وممالئكه^(٣) . ويصور أبو المھاسن هذا التحول التدرئجى فى اقتصاد البلاد فى عبارة بليغة نصها « وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سئقر جد بنى زئسكى ، ثم أنشأ بنو زئسكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشھئد بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب الممالئك ودولة الترك ، فانظر إلى أمر الدنيا ، وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشوؤها إلى يومنا هذا !!^(٤) واشترطت القاعدة الإقطاعية على الأمير المملوك أن يحتفظ بعدد معين من الجند يتراوح بين الخمسة والمائة حسب رتبته وإقطاعه وأن يخصص ثلثى دخله للاتفاق عليهم وأن لا يرث الأبناء الإقطاع ، خشية قيام أرمستقراطية إقطاعية ، وأن لا يقيم الأمير فى إقطاعه بل فى القاهرة أو فى عاصمة الإقليم الذى يوجد به إقطاعه ، ما دامت العبرة بالدخل لا بالملكية . لذلك لم يعرف الأمير الشرقى فن إقامة القلاع

(١) التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٣ .

(٢) المخطوط ج ١ ص ٨٧ و ١٥٦ .

(٣) راجم السلوك : حاشية ٢٢١ قسم ١ ج ٢ ص ١٤٦ .

(٤) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٢٧٩ -

والحصون والقصور المحلية المناهضة للسلطة المركزية كما كان حال زميله في الغرب الأوربي^(١). وتختلف ضريبة الأقطان باختلاف أرض مصر ، فأغلب أرض الوجه البحري تحصل الضريبة نقداً ، على عكس الوجه القبلي فتحصل عيناً ، ويزيد قدر الضريبة نقداً أو عيناً تبعاً لحصوبة الأرض ومقدار ما تنتجه من غلة وارتفاع النيل وانخفاضه^(٢). وحسبك أن تعرف أن خراج مصر على زمن السلطان الظاهر بيبرس بلغ اثنتي عشر مليوناً من الجنيهات وهو أقصى ما جتته مصر منذ ولاية عبد الله ابن سعد بن أبي السرح^(٣).

ومهما قيل عن حسنات نظام الإقطاع الحربي وسببانه ، فلا جدال أن تياراً إشتراكياً مشهوداً نما وعاش في كنف هذا النظام على هدى من المبادئ الإنسانية العامة لأحكام الشريعة الإسلامية والعرف الشرقي ، إذ ظلت الملكية الفردية والميراث والأسرة أساساً جوهرية مرعية نظرياً وتطبيقاً ، كما ظلت حقوق الفقراء المساكين واليتامى والمجزة مقررة في بيت المال تقضى من الزكاة والصدقة . وكانت فرص العمل وتسكافؤها متاحة لغالب الناس . تمثل هذا التيار الاشتراكي الأصيل في المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية والمشاريع العمرانية والزراعية التي تقيمها الدولة والأمراء والتي لا يتسع المقام لذكرها هنا ومنها على سبيل المثال القرارات الثورية التي يصدرها بعض السلاطين لمواجهة أزمات التموين التي تعرضت لها البلاد وقت الأزمات كأزمة عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) حين ارتفعت أسعار الغلال وتمذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز لجشع الأمراء والمستغلين ، فأغرق السلطان الناصر عهد الأسواق بالغلل التي استوردها من الخارج على جناح السرعة . ونودي بالقاهرة ومصر « الألباع القمع بأكثر من ثلاثين درهما للأردب الواحد ، ومن باع أكثر من ثلاثين نهب حاله » . ورسم الناصر بفتح شونه وبيع ما بها ، واشتد بالضرب البرح على المخالفين ليعيهم الخبز بأكثر من السعر المحدد^(٤) . وكثيراً ما يلجأ السلطان المملوكي إلى مصادرة عقارات وحواصل ومتاجر وأموال كبار التجار والأمراء والحكام الجشعين

Lewis : op. cit., pp. 155-156.

(١)

(٢) القلقشندي : ج ٣ ص ٤٤٨ .

(٣) ابن إياس : ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ١٩٦ .

والمعرفين والتجربين بأقوات الناس وعرضها في الأسواق بالأسمار التي يحددها المحتسب (١).

ويشير ابن بطوطة إلى تيار اشتراكي آخر حين يتحدث عن الأوقاف الخيرية بدمشق وأوجه نشاطها، ومنها أوقاف عن العاجزين عن الحج تعطى لمن يحج عن الرجال منهم كفايته، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهي اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون بليلهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لسكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير (٢). ويذكر ابن بطوطة أن دير الفاروض بخارج اللاذقية يعتبر أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين، فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والخبز والجبن والزيتون والخل والكبر (٣). وتمثل عيinat الخدمات في الجامع والخاتاه اللذان أنشأها الأمير المقر السيفي شيخو بالصليبية الطولونية، وأنشأ بها حمامين وربوعاً ودكاكين. وقرر بالخانكاه شيخاً اسمه أكل الدين محمد الرومي الحنفي، وقرر له في كل شهر أربعمئة درهم، وجعل عنده عشرين قتيماً. وجعل خطيب الجامع جمال الدين خليل بن عثمان الزولى، وجعل به درساً للمالكية أيضاً وولى تدريسه نور الدين السخاوى وقرر له ثلثمائة درهم في كل شهر، ورتب به قراء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف، وقرر لهم معالم بلغت جماتها في الشهر ثلاثة آلاف درهم. وأوقف شيخو على هذا الجامع والخاتاه وأوقافاً كثيرة، وقرر للصوفية الخبز والطعام في كل يوم والحلوى العجمية في كل شهر وغير ذلك من الجوامع والمربيات للصوفية. وجعل في الخاتاه تدريساً وقراءة سبع في كل يوم (٤).

(١) راجع: السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٨٨١ — وابن لباس ج ١ ص ١٦٢.

(٢) الرحلة: ج ١ ص ٨٣.

(٣) شرحه: ج ١ ص ٦٠ و ٦٦.

(٤) ابن لباس: ج ١ ص ٢٠٣ — السلوك: ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٤.

وكيفما كان الأمر ، فظاهرة الغلاء والرخاء ما زالوا يتعاقبان في دولة البرين والبحرين حسب عينات سلاطينها ، فالبحرية منهم « ما كان أحسن تديريهم ، وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم ، حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد ، واستجابوا خواطر الرعية ، فنالوا الرتب السنية »^(١) . فقطز كان أحد أولاد أخت السلطان خوارزمشاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبي ، وجلب إلى مصر حيث أخذ يتقدم في جيشها حتى نصب سلطاناً ، وتمكن من التنكيل بالغل في عين جالوت . وكان بيبرس من أسرى القهقاق قدمه البنادقة إلى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الإمارة ، ثم قتل قطز وصار بيبرس سلطاناً لمملكة ضخمة ، وكان قلاوون من نفس الأصقاع العجاقية وزميل قديم لبيبرس . وكان كتبغا زوج بنت هولاءكو الذي فتك به الأمراء لما حاول تدعيم ملك مغولي . أما سلاطين البرجية ، فزمانهم بخلاف ذلك كله « فالقادم مؤخر ، والصغير متمم ، والقلوب متنافرة ، والشعور متظاهرة »^(٢) . ويقول القرظي في خطبه أن قوصون قال لببشناك عند وفاة قلاوون ، وكانا يتنازعا على السلطة : « أنا ما يبجيء مني سلطان لأنني كنت أبيع الطمسا والبرغالي ، والكشاندنين ، وأنت اشتريت مني وأهل بلدي يعرفون ذلك . وأنت ما يبجيء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك »^(٣) .

هذا هو التفسير التاريخي لسقوط دولة البرين والبحرين على أيدي سلاطين من أفصح وأرذل الناس ، أهملوا نظام التجنيد المملوكي ، وأساءوا فهم الإقطاع الحربي ، فأفقروا العباد وخرّبوا البلاد حتى صارت الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد »^(٤) . مما أدى إلى تدهور الاقتصاد وتوالي الأزمات ، فاستحدثوا سياسة الاحتكار في الزراعة والتجارة لتغطية نفقاتهم المعيشية

(١) ، ٢) النجوم : ج ٨ ص ١٦٦ و ٢٢٨ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ — صبحي وحيد ص ٧٦ .

(٤) القرظي : لغاية الأمة ص ٣٦ و ٤٦ .

وحملاتهم الحربية . يقول المقرئى إن أهل الدولة احتكروا الأقوات ، ومنعوا الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، وضرب لذلك مثلاً عن احتكار السكر على عهد السلطان برسباى الذى ختم مطابحه وألزم من يدولب طبخ السكر ألا يتعرض أحد منهم لعمله ، ومنعت باعة السكر وباعة الحلوى فى شراء السكر إلا من سكر السلطان ، وعمل لذلك ديواناً ، وأقيم له جماعة ليدولبو السكر ، فامتنع كل أحد من بيع السكر إلا للسلطان ومن شراء إلا من سكر السلطان ، فضايق الناس ذرعاً بذلك وتضرر به جماعة عديدة^(١) .

وأكمل الوباء والجراد وإفارات البدو وزحف الصحراء وقصر النيل وغيره من العوامل الطبيعية عمليات التخريب الاقتصادى فاضطر السلاطين إلى القروض المالية والسلفيات من تجار الكارمية كى تمكنهم من القيام بمشروعاتهم الحربية والعمرائية على قول أبى المحاسن^(٢) . فضلاً عن فرض الضرائب غير الشرعية على الرعية . وفى هذا الصدد تقول الرواية التاريخية أن برسباى احتاج إلى المال فجمع قضاة المذاهب الأربعة ليقروه على فرض ضرائب إضافية ، فرد عليه أحدهم رداً بليغاً ، نصه « كيف نقر أخذ مال المسلمين بينما ترتدى زوج السلطان ، يوم ختان ولدها ، فستاناً تبلغ تكاليفه ثلاثين ألف دينار . وذلك فستان واحد وزوجة واحدة »^(٣) .

ما أجزأ هذا القول وما أشبهه بقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المنصور على بن المزمز أليك يوم أن عقد مجلس القضاة بالقلمة عام ٦٥٧ هـ لإقرار أخذ أموال العامة ونفقتها على العسكر لمواجهة التتار . ونصه « إذا لم يبق فى بيت المال شيء ، وأنفقتم الخواص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتهم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم »^(٤) وسار على نهجهما الحر الشيخ أمين يحيى بن الأقصرائى الحنفى شيخ المدرسة الأشرفية برسباى الذى أنكر على السلطان قايتباى فرض زيادات على الناس فى أرزاقهم

(١) شرحه : ص ٤٢ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٢٧١ .

(٣) Lewis : op. cit., p. 157.

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ .

وظائفهم وإقطاعهم وفائض أوقافهم لمواجهة فتنة شاه سوار . وكان مجلس الخليفة والقضاة والأمراء قد وافق على رغبة السلطان . أما الشيخ أمين فأجابه بأنه لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بطريق شرعى ولو نفذ ما في بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً حتى ينفذ ما بأيدي الأمراء والجند من الأموال والتاع والأقضية مما لا يحتاج إليه في الحرب . وانقض المجلس على غير رضى السلطان وإقاعه عن الوصول إلى مراده بفضل معارضة الشيخ أمين هذا . وكان المعلوم عند كل أحد أن أرباب الوظائف والقضاة لا يعلنون إلا حيث مال السلطان والقول ما يقوله السلطان ، فما بق بعد ذلك إلا الإذعان والوزن لما أشار به الملك على قول مؤرخ معاصر (١) .

هذه أعماط لمواقف عديدة وقفها العامة والخاصة في وجه الاستبداد والظلم تنذر بسوء عاقبة الظالمين . وبعدها جاءت الضربة المندرة بقرب فناء دولة البرين والبحرين في ١٧ مايو سنة ١٤٩٨ يوم أن وصل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما إلى أرض الهند عن طريق البحر مطوّفاً حول رأس الرجاء الصالح . ثم عاد فاسكو إلى لشبونه في أغسطس سنة ١٤٩٩ محملاً بالهدايا الشرقية النادرة ، ومعلناً اكتشاف طريق جديد من أوروبا إلى الشرق الأقصى ، أسرع من طريق البحر المتوسط والياه المصرية . وفي ١٥٠٦ م (١٥١٢ هـ) وصلت طلائع الاستعمار البرتغالى إلى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بقيادة البوكرك ، واحتلت - في غفلة من السلطنة المملوكية المتداعية - سقطرى ، ودارت حول عدن ، وصاحت الشاطيء العربى الجنوبى حتى هرمز ، وألزمت ملكها بدفع الجزية (٢) . ومنذئذ « تزايد الضرر من الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن الخفية ، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد » . على قول ابن إياس (٣) .

وواصل البرتغاليون زحفهم جنوباً مع ساحل ملبار ، واحتلوا جوا ، وهاجموا

(١) أبى المحاسن : منتخبات ج ٣ ص ٥١٦ و ٦٣٦ .

(٢) بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ .

(٣) بدائه الزهور لابن إياس ، بقلم زيادة : تراث الإنسانية ص ٢٦٢ .

قالقووط مركز العرب لتجارة التوابل وأزلوا الهزيمة بالأسطول المصرى الهندى المشترك فى معركة ديو البحرية ١٥٠٩ م . وبعدها بعامين (١٥١١ م) وصل البوركرك أمام ملقا وخطب فى رجاله مؤكداً « تلك الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعله محمد بحيث لا يتدلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وإنى على يقين أننا إذا انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيدي المسلمين لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين » (١) .

تلك كانت نهاية القومية العربية والإسلامية فى بحر الهند والشرق الأقصى ، ولم يعض أكثر من خمسة أعوام على هذا القول حتى اجتاحت جعافل الاستعمار التركى العثمانى أطراف الشام الشمالية ، وبلغت مدينة حلب ، على أن أحداث هذا العدوان لم تجيء مفاجئة لعام ١٥١٦ م . بل إنها وقعت بعد سلسلة طويلة من العلاقات الودية المتبادلة بين السلطنتين العثمانية والملوكية ظلت حتى ١٤٦١ م . وبعدها تحولت إلى معاداة ومباغضة ، لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة فى عام ١٤٨٣ م على عهد بايزيد العثمانى وقايتباى الملوكى ، واستمرت ثمانية أعوام حسوماً طويلة أعقبتها سلام امتد من ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م على قول زيادة (٢) . وذلك حين صحح عزم سليم العثمانى على الاعتداء ، وبعد أن مهدت له الطريق جاسوسية ناشطة غادرة مكتبته من النصر السريع الحاسم يوم واقعه مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وانهارت فيها قوة المماليك وتفرق الجند شذر مذر تحت نيران العثمانيين على قول ابن يباس (٣) .

وقاد الخائنسان خيربىك وجان بردى العزالى سليم العثمانى إلى جنوب الشام ، ودلاه على مواقع الدفاع المصرية والشامية ، وأطعماه فى مواصلة الزحف إلى الديار المصرية حيث قضت معركة الريدانية يناير سنة ١٥١٧ على السيادة المصرية والقومية العربية ، وحولت البلاد إلى ولاية عثمانية ، ودعى الخطباء للسلطان سليم على منابرها ولقبوه « ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان المراقين وخادم الحرمين

(١) پائىكار ص ٤٨ .

(٢) نهاية سلاطين المماليك ص ١٩٨ وما بعدها .

(٣) بدائم الزهور : ج ٣ ص ٦٨ .

الشريفين» (١) كرمز السيطرة على مملكة البرين والبحرين وعلى العالم الإسلامي (٢) وكان الأجدد بهم أن يلقبوه ملك البرر « الثلاثة والبحار الثلاثة » أى البر الأفريقي والبر الآسيوي والبر الأوربي ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود . وبذا انتقل مركز الثقل السياسى والحضارى فى مثلث البحر المتوسط من القاهرة إلى استامبول أو من زاوية الشرق والجنوب إلى زاوية الشرق والشمال ، وهما الزاويتان اللتان تبادلنا السيادة فى هذا البحر طوال عصوره التاريخية .

— ٥ —

هكذا طوى تاريخ دولة البرين والبحرين كطى السجل للكتب ، وعلقت صورها فى متاحف التاريخ ، على حين عاشت حيه مضيئة فى عقول وأفئدة أبنائها جيلا بعد جيل ، وقامت محاولات عدة لإحيائها ، أولها ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر حين تحولت حركة على بك الكبير (١٧٢٨ / ١٧٨٤ م) من منافسة عادية على مشيخة البلد عام ١٧٥٥ م بينه وبين خشداً شيته أمراء الجراكسة المعروفين عند الجربى بالأمراء المصريين أو البكوات إلى حرب انفصالية فيما يرجح ، شنها شيخ البلد على بك الكبير المنتصر على السلطان العثمانى وقتذاك عبد الحميد الأول ، واتجه أثناءها اتجاهاً عربياً قومياً لا عهد لمصر بل وللبلاد العربية به منذ زوال السلطنة المصرية الشامية المملوكية ١٥١٧ م . فعلى بك انتهز فرصة إنشغال تركيا بحربها مع روسيا (٦٨ — ١٧٧٤ م) وأدرك ما تعانیه الشعوب العربية من بؤس وشقاء واستعباد فى ظل السيادة التركية فأخذ يفكر فى التعبير عن رغبة تلك الشعوب فى التحرر ، وذلك يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومشروعاته التوسعية . فاستولى على الحجاز ١٧٦٩ م ومنحه شريفها لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » . وجعل بتلك الخطوة الجريئة البحر الأحمر بحيرة مصرية عادت إليها تجارة الشرق وسواحل الهند . وأرسل فى عام ١٧٧١ حملة مصرية بقيادة أبى الذهب إلى سوريا - وهو اتجاه طبيعى تسلكه مصر فى عصر الصحوة - لتحقيق وحدة مصر وسوريا

(١) ابن لياس : ج ٣ ص ٩٨ .

(٢) راجع الألقاب الإسلامية للدكتور حسن باشا ، طبعة ١٩٥٧ ص ١١٣ و ١٧٤

وص ٣٣٤ و ٣٣٧ .

ومصالحهما للشركة . وكانت هذه المرة الأولى التي يخرج فيها جيش مصرى إلى هذا الاتجاه الأسيوى منذ ١٥١٦ م . وسرعان ما تجاوب المصريون وانشاميون إلى حركة الوحدة . وانضم الشيخ الثائر ظاهر العمر صاحب عكا إلى الوحدويين ، وتلاقت أهدافه مع أهداف على بك ، ودخلت جيوشهما معاً دمشق ونشرت الأمن والسلامة في ربوعها ، وغدا على بك في يونيه ١٧٧١ م . في مركز يسمح له أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا ومحبي دولة البرين والبحرين بفهمها القديم كما كان أسلافه على قول قنصل فرنسا في صيد ، وقتذاك^(١) .

وأزعجت هذه الحركة الوحدوية الخطيرة الباب العالى فجأ إلى أساليب السياسة العثمانية واستمال إليه أحد أتباع على بك المقرين ، وهو محمد أبو الذهب الذى خان العهد وأعلن العصيان وانضم بقواته إلى قوات الاحتلال العثمانية وحارب على بك وظاهر العمر وهزمهما ، ومات على بك متأثراً بجراحه في القاهرة في مايو ١٧٧٣ م^(٢) . وبذا فشلت حركة على بك وقيل في تحليل فشلها تأخر وصول المساعدة الروسية إلى دمياط وكانت روسيا قد وعدت بتأييده ومساعدته بقوات بحرية وبرية .

وكانت المحاولة الثانية لإحياء دولة البرين والبحرين في النصف الأول من القرن التاسع عشر حين تحولت المنافسة بين واليين عثمانيين هما محمد على والى مصر وعبدالله باشا الجزائر والى عكا إلى حرب انفصالية (٣١ — ١٨٤٠ م) شنها محمد على على السلطان نفسه ، وألبسها ثوب القرن التاسع عشر مدعياً أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق يجب أن تكون جبال طوروس .

ومن الراجح التى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان « يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى أفريقية وآسيا . ففي أفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان . وفى آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية

(١) راجع : رفعت رمضان ، على بك الكبير ص ١٩٩ ، وأيضاً . Deherain : op. cit. p. 130.

(٢) حسن عثمان : المجلد فى التاريخ المصرى - ٢٨٢ .

الكبرى » . على قول المرحوم الرافعي^(١) ، أى أن محمد على قدر حاجات مصر الدولة الناشئة على أساس من التاريخ ووحدة اللغة وتبادل المنافع الاقتصادية ، واعتمد في تحقيق مشروعه هذا — الذى يحقق في الوقت نفسه أطماعه ومغامراته — على الدعاية للقومية العربية وادعاء كراهيته للتركية بدليل قول ولده إبراهيم باشا لأحد بارونات فرنسا « أن أباه يحكم مصر والسودان وسوريا ، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وأن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو في صلته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك » . فسأله البارون كيف يطعن في الأتراك وهو منهم فأجابه إبراهيم باشا على الفور « أنا لست تركياً فإني جئت مصر صيباً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيّرت من دمي وجعلته دماً عربياً »^(٢) .

ولا غرابة في هذا القول فقد سبق إبراهيم فيه سلاطين الممالك الذين وفدوا صيباناً ، وتصوروا وتعربوا وأسلموا وعبروا عن شعورهم نحو القومية العربية الإسلامية قولاً وعملاً ، وقطفوا ما قطفه إبراهيم من ثمار « فاحتل إبراهيم وقتاً ما موقعاً على الفرات ومد سلطان أبيه نحو الخليج الفارسي ومدخل البحر الأحمر ، وخضعت له الحسا والقطيف من ناحية ، وانتصرت قواته على عسير ، واحتل لفترة قصيرة عدن من ناحية أخرى » . وزاد محمد على فبادل شاه فارس شعائر الود . ولكن السياسة الإنجليزية نجحت في وقف الاتساع المصري في مناطق كانت تعدها من مناطق نفوذها . لذلك تمسكت إنجلترا بسياستها في المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها ، فزعمت في لندن مجمع الدول ، وأعلنت معاهدة لندن في يوليو سنة ١٨٤٠ ، وظلت تسوية لندن في أساسها قائمة حتى انتهت فعلاً بإعلان الحماية البريطانية على مصر في ١٩١٤ وقانوناً يتنازل تركيا عن سيادتها على مصر في مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣^(٣) .

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) الرافعي : عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : المجلد في التاريخ المصري ص ٣٣٧ .

وتوجت محاولات إحياء دولة البرين والبحرين بنزول المعجزة الكبرى وانفجار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الشعبية في قلب القاهرة رائدة الأمة العربية والعالم الإسلامي نتيجة الوعي القومي العربي وتغلغله في نفوس الجماعات ، وأدرك رائد الثورة المصرية منذ البداية « أن الدائرة العربية منا ونحن منها ، امتزج تاريخها بتاريخنا ، وارتبطت مصالحننا بمصالحها حقيقة وفملاً وليس مجرد كلام »^(١) . وتصرف إيجابياً بكل ما تملك الثورة من مقومات ، فمقد ميثاقاً عسكرياً للدفاع المشترك بين مصر وسوريا في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٥ نزلت بمقتضاء قوات مصرية حربية في سوريا في أكتوبر سنة ١٩٥٧ لتكون سنداً لها ضد المؤامرات الداخلية والحشود البرية ، التركية وحرركات الأسطول الأميركي السادس على شواطئها ، واستقبلت سوريا حكومة وشعباً هذه القوات بالترحاب والابتهاج ، لأنها لم ترها منذ محاولة محمد علي .

وفي أول فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن رئيسا جمهوريتي مصر وسوريا توحيدهما في دولة واحدة اسمها « الجمهورية العربية المتحدة » ، بديلاً عن التسمية السياسية القديمة « دولة البرين والبحرين » تمشياً مع القاعدة الدولية التي تسير عليها الدول العريقة والتي تعرف الأسماء السياسية ، فروميا اسمها السياسي الجديد بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ هو « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وأمريكا اسمها الرسمي « الولايات المتحدة » وأنجلترا تغير اسمها من بريطانيا العظمى إلى المملكة المتحدة بعد أن ضمت إليها اسكتلندا وإيرلندا في بداية القرن الثامن عشر الميلادي . يقول عبد الناصر في خطبة له « هذه الجمهورية العربية المتحدة ستكون سنداً للعرب وقوة للعرب جميعاً ، ستعادي من يعاديها ، وتسالم من يسالمها ، وتتبع سياسة تتبع من نفسها ومن ضميرها »^(٢) . ووقعت اليمن في ٨ مارس سنة ١٩٥٨ إتفاقاً مع الجمهورية العربية المتحدة يتضمن إقامة اتحاد فيدرالي بين البلدين .

لكن الاستعمار والصهيونية العالمية والرجعية العربية دبرت بليل في دمشق

(١) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة .

(٢) الرافي ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ص ٣٥٦ ؛ أحمد سويلم العمري ، دراسات

في المجتمع العربي ، ص ٦٥٠ طبعة ١٩٦١ .

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ الانفصال وكان الرد على جريئة الانفصال حامماً سريعاً في ٢٦
سبتمبر ١٩٦٢ — حين اندلعت الثورة اليمنية وقوضت عرش الرجعية التوكلية في اليمن .
ومنذ ذلك التاريخ والقاهرة تقود زحفها المقدس على طريق الوحدة والحرية
والاشتراكية ، وتقوم بدور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه تفجير الطاقة الكامنة في
كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا على قول عبد الناصر في فلسفة الثورة ، وفقه
الله وأيده بنصر من عنده .

مشاهير مؤرخي سيرة رسول الله

للككتور إبراهيم أحمد العمري

نشأ التاريخ الإسلامي نشأة مستقلة ، ولها طابعها الخاص ، ومقوماتها الذاتية الواضحة . ويرجع السبب في ذلك إلى أن طليعة المؤرخين المسلمين لم يتأثروا في تدوينهم للأحداث بما كان متبعاً عند رجال التاريخ القدامى من اليونان والرومان ، أو غيرهم من مؤرخي الأمم التي جاورت الدولة الإسلامية عند نموها واتساعها . فالمؤرخون المسلمون الأوائل كانت لهم نظرتهم الخاصة بهم في تدوين الأحداث وعرضها ، ثم طريقة التبويب وعرض الموضوعات . وصارت نشأة التاريخ الإسلامي بذلك نشأة صادقة ، وتعبيراً حساناً عن المجتمع الإسلامي ، وتطوره ، واتساع أهدافه ، وتراحي آماله .

ودعم هذه النشأة الاستقلالية للتاريخ الإسلامي أن القاعين بأمر تدوينه لم يكونوا في أوائل أمرهم من الرجال الذين عاشوا في كنف الأمراء ، أو بمن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون عيشة بسيطة ، مبتعدين عن زخارف الحياة وبريقها ، قانعين بالقليل من أسباب العيش ، قاصرين جهودهم على تتبع أحداث ماضيهم وشرح ما امتلأت به من نزعات مذهبية وعقائد سياسية وصور اجتماعية ، مستهدفين بذلك تجنب مواطنهم العثرات وأخطاء السلف ، وموضحين لهم النماذج العالية الجديرة بالدرس والاتباع . وجاءت مدونات المؤرخين المسلمين بذلك صورة زهية للمجتمع الذي عاشوا فيه ، وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وخبراتهم .

وساعد على زهافة مصنفات المؤرخين المسلمين الأول أنها نشأت في مهاد الدين ، وشبت وترعرعت لخدمة مطالب الدين كذلك . فالتاريخ الإسلامي امتزج في أول أمره برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم ، وصار حدثاً مقترناً بهما في كل مراحل تطورها . ذلك أن المسلمين حين اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التي نزلت فيها الآيات والمشاهد التي وردت فيها

الأحاديث ، وتحروا في ذلك منتهى الدقة والأمانة ، لأن القرآن الكريم حوى الأحكام والشرائع والأخبار التي تهدي الناس سواء السبيل ، فضلاً عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشاكلهم وتساعدهم على حلها .

واستازمت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبي الكريم وسيرته أول موضوع يتناوله التاريخ الإسلامي ، لأن تفهم حياة الرسول الكريم وجهاده أمر جوهري يفيد المجتمع الإسلامي في السير على هدى السنة والاسترشاد بتعاليمها . وكان تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم داخلاً فيما يروى من الأحاديث ، حيث دأب المحدثون من علماء المدينة المنورة في أول الأمر على جمع كل ما يصل إلى علمهم من أحاديث دون ترتيب ، ولكن متوخين الدقة التامة في الحصول على تلك الأحاديث . ولما رتبت تلك الأحاديث في الأبواب التي تشمل المواضيع المختلفة ، جمع منها ما يتعلق بسيرة الرسول الكريم في أبواب مستقلة ، وكان ذلك إيداناً بعولم التاريخ الإسلامي .

وكان أشهر تلك الأبواب ما يسمى باسم « السيرة والمغازي » ، لأن المغازي ولو أنه يقصد بها الغزو إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبي الكريم ومرادفة لسيرته السامية . وكان السبب في اشتداد الاهتمام بسيرة الرسول الكريم في القرنين الأولين للهجرة هو الإفادة من أقوال النبي في التشريع وفي التنظيم الإداري للدولة الإسلامية الفتية . ثم إن مغازي الرسول ، ومغازي أصحابه ، وهي التي عرفت باسم « السرايا » ، لأن الرسول لم يشترك فيها ، صارت مصدر اعتزاز للمسلمين ، ومواضع محببة في مجالس السمر . فضلاً عن ذلك غدت المشاركة في مغازي الرسول الكريم وفي السرايا التي بعث بها إلى مختلف الجهات عاملاً هاماً في رفع المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً هاماً في تحديد العطاء في الديوان ، ولاسيما في تلك الأيام الأولى من حياة الدولة الإسلامية .

وتأسست في مدينة الرسول الكريم في ذلك الوقت ، أي في أواخر أيام الدولة الأموية أول مدرسة للتاريخ الإسلامي . ثم أن هذه المدرسة حفلت بطائفة من الأساتذة الأعلام ، أسهموا خالفاً عن سالف في وضع الحجر الأساس للدراسات التاريخية ، ثم إعلاء صرحها في روح من التفاني والتعاون الصادق . واختص نشاط هذه المدرسة بالتأليف في « المغازي » ، أي في سيرة رسول الله . وبدأ هذا النشاط

في جهود مشتركة ، تمثلت في حلقات للدراسة ، وأحاطت كل حلقة بأستاذ . ثم إن ،
الدراسة في هذه المدرسة كانت مفتوحة لمن يريد ، والرواية تسير في سلسلة منتظمة ،
بحيث تسهل انتقال سيرة الرسول أو مغازيه جيلا عن جيل ، ومن شخص إلى شخص ،
على شكل محاضرات عادة .

وأول من عرف بالتأليف في هذا الميدان الجديد من المغازي والسيرة أربعة هم :
أبان بن الخليفة عثمان بن عفان (ت بين ٩٥ - ١٠٥ هـ / ٧١٣ - ٧٣٣ م) ،
وعروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) ،
ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) . ويقف على رأس هذه الطبقة الأولى من
مؤلفي السيرة عروة بن الزبير . ويرجع السبب في ذلك إلى مكاتبه الاجتماعية العالية
التي تتمتع بها ، والتي أتاحت له الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن سيرة
الرسول الكريم .

وينتسب عروة إلى أسرة عربية عريقة النسب ، كان لأفرادها صلة وثيقة بحياة
الرسول الكريم . فأبوه الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وخالته السيدة
عائشة ، وجدته خديجة بنت خويلد ، وأخوه عبد الله بن الزبير . وقد أتاحت صلة
القربي السالف ذكرها لعروة الفرصة لجمع أعظم قدر من الروايات عن الرسول
الكريم ، وبخاصة عن أدق التفاصيل . فقال عمر بن عبد العزيز عنه : « ما أجد
أعلم من عروة » . وقد قضى عروة وقتاً كبيراً من حياته في الدراسة والتدريس .
كذلك ، وصار له طلبة ينقلون عنه العلم ، كما صار مقرباً إلى البيت الأموي الحاكم ،
ويزوده بالمعلومات التاريخية الهامة .

واشتهر عروة ، إلى جانب روايته أخبار الرسول الكريم ، بوضع بعض
المعلومات كتابة ، وبخاصة في الرسائل التي كان يبعث بها إلى أبناء البيت الأموي .
وقد انتقلت دراسات عروة جيلا عن جيل ، واستفاد منها كثير من المؤرخين ،
واحفظوا بها في كتبهم . ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتب ابن اسحق والواقدي
والطبري . وصارت كتابات عروة التي تناقلها أولئك المؤرخون هي أقدم دراسة
لحياة النبي ، وعبارة عن خطوط أولية لمعالجة موضوع السيرة النبوية ، فضلا عن أنها
صارت نماذج تحتذى ، عند من جاء بعده من مؤرخي سيرة رسول الله .

وتناول عروة في دراساته معالجة المواضيع التي تتصل بسيرة الرسول الكريم ، من حيث : بدء الوحي وبداية الدعوة ، وهجرة نقر من المسلمين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة . ثم تناول بعد ذلك أعمال الرسول الكريم طوال إقامته بالمدينة ، ومن أهمها الغزوات والسرايا ، مثل سرية عبد الله بن جحش ، وغزوة بدر الكبرى ، وغزوة قينقاع ، والخذق ، وغزوة بنى قريظة ، وصلاح الحديبية ، وحملة موته ، وفتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وبعض مراسلات الرسول ، وأخباره صلى الله عليه وسلم في أواخر أيامه .

وترجع أهمية تلك الدراسات التي قام بها عروة إلى الثقة الكبرى في روايتها ، فضلاً عن أسلوبه في تدوينها ، وهو الأسلوب الذي صار مثلاً يحتذى عند الناقلين عنه . إذ كان أسلوب عروة سلساً بعيداً عن المبالغة ، مملوء بالحوية ، ودأب على التمهيد للحادثة التي يتناولها بمقدمة تحدد موضعها التاريخي ، وتفيد القارئ في الاحتفاظ بوحدة الموضوع ، والتسلسل كذلك . فعندما تناول الهجرة إلى الحبشة مثلاً ، مهد لذلك ببيان تطور العلاقات بين المسلمين وقريش منذ بداية الدعوة ، وما أعقب ذلك من تطورات ، موضحاً السبب الذي حدا بالرسول الكريم إلى اختيار بلاد الحبشة بالذات ، مما يضيئ على دراسته حيوية وقوة .

ومن ذلك أن عروة بدأ هذه الحادثة قائلاً عن قريش : « لم يبعدوا عنه (أى الرسول) أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيمهم » وأن قريشاً أخذت عندئذ تضطهد المسلمين . وأشار عروة إلى محاولة قريش العمل على أن يفتنوا من تبع الرسول من المسلمين ، « فكافت فتنة شديدة الزوال ... فافتن من افتنن وسلم الله من شاء » . ولما رأى الرسول ما حل بأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة . وذكر عروة السبب في اختيار الرسول للحبشة قائلاً : إنها كانت مركزاً من مراكز تجارة قريش ، وهاجر إليها لذلك كثير من المسلمين .

وعلى هذا النهج الواضح سار عروة في سرد السيرة ، واهتم في نفس الوقت بالكثير من التفاصيل التي تساعد على فهم تلك السيرة العطرة . فاستشهد بالآيات القرآنية التي تتصل بالأحداث التي يرويها ، وبيان الظروف التاريخية لتلك الآيات . فأشار إلى الآية الكريمة التي تبين هجرة نقر من النساء بعد أن صلح الحديبية من

مكة إلى المدينة ، لإعتناقهم الإسلام ، وموقف الرسول الكريم منهم . ويعتبر عروة بذلك مثلاً مبكراً من أمثلة المؤرخين المسلمين الذين أجادوا الجمع بين التفسير والتاريخ . وهو الأمر الذي سيبلغ ذروته عند الطبرى فيما بعد .

ومن الأشياء الطريفة التي تكشف عن دقة عروة في سرد السيرة ، أنه عمداً إلى بيان الحالة النفسية للمسلمين ، وبخاصة في الأحداث الكبرى ، مثل غزوة بدر . واستطاع عروة أن يجعل من أعماله وحدة متكاملة ، تشهد له بأن يحمل عن جدارة لقب أشهر مشاهير الطبقة الأولى من مؤرخي سيرة رسول الله .

ونالت دراسات عروة وأقرانه من مؤرخي السيرة اهتمام رجال الطبقة الثانية ، ممن اشتغلوا في هذا الميدان المبكر من التاريخ الإسلامى . ومن رجال تلك الطبقة الثانية عاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م) ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٠ هـ / ٧٥٢ م) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) . ويعتبر الزهري من أشهر رجال الطبقة الثانية ، وحلقة الربط بينها وبين رجال الطبقة الأولى من مؤرخي سيرة رسول الله .

وساعد الزهري على أن ينال تلك المكانة العالية أنه تلمذ على عروة بن الزبير ، واستفاد فائدة عظيمة من أعماله . وكان الزهري ينظر إلى عروة نظرة احترام وتقدير . ويراها بجزالة لا ينزف . ثم تفوق الزهري على أستاذه بقوة الذاكرة ، وتدوين ما يسمعه على « الألواح » و« الصحف » . وروت المراجع أشياء طريفة عن الزهري ، منها أنه كان يحرص على شرب المسهل ليقوى به الذاكرة ، ويدعم تلك الذاكرة بالتدوين . ورأى المعاصرون أن حرص الزهري على التدوين هو الذي أعطى لدراسته الأهمية والقوة والأفضلية على معاصريه من رجال الطبقة الثانية .

واعتمد الزهري على مقابلة كبار رجال العلم من معاصريه ، وكذلك النساء ، وجمع ما لديهم من معلومات عن سيرة الرسول . فكان يتردد على المجالس ، ويزور الناس الثقة في بيوتهم ، ويتعزى منهم عن الروايات الصادقة . وقد اعترف أحد المعاصرين بتفوق الزهري عليهم ، موضحاً سبب ذلك قائلاً : « كان (أى الزهري) يأتي المجالس من صدورهم ولا يأتيها من خلفهم ، ولا يبقى في المجلس شاباً إلا سأله ، ولا كهلاً إلا سأله ، ثم يأتي الدار من دور الأنصار فلا يبقى شاباً ولا كهلاً ولا محوزاً ولا كهلة إلا سأله ، حتى يحاور ربات المجالس » .

واستطاع الزهري أن يحصل على أكبر قدر من الروايات عن سيرة الرسول الكريم ، وشهد له المعاصرون ، ومن استفاد من دراساته بالعلم الواسع في هذا الميدان . وقد جمع الطبري تلك الأقوال التي تركها العلماء عن سعة معلومات الزهري . قائلًا : « كان محمد بن مسلم الزهري مقدماً في العلم بعازي رسول الله (ص) وأخبار قريش والأنصار ، رواية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه » . وحفظ الزهري بذلك ثمار الدراسات التي قام بها رجال الطبقة الأولى من مؤرخي السيرة ، وبخاصة عروة بن الزبير ، ثم بدأ يعمل على السير بتلك الدراسات خطوات إلى الأمام كان لها أكبر الأثر في تنمية أصول الأبحاث الأولى في التاريخ الإسلامي .

وتتضح أهمية الدور الذي قام به الزهري في عاملين هامين : أولهما أنه نقل السيرة من الخطوط العريضة التي اتضحت عند رجال الطبقة الأولى إلى المنهج المحدد المعالم ، سواء من حيث العرض أو أسلوب التدوين . أما من حيث العرض فقد بدأ الزهري أعماله بتقسيم سيرة الرسول الكريم ثلاثة أقسام رئيسية هي : حياة الرسول قبل البعثة ، مع تمهيد طويل لذلك بدراسة عامة لما قبل الإسلام . وتناول في القسم الثاني حياة الرسول الكريم في مكة ، وأخيراً أوضح في القسم الثالث نشاط الرسول الكريم بعد الهجرة إلى المدينة .

وأهمية هذا التقسيم الذي وضعه الزهري أنه صار النموذج فيما بعد لكثير من كتب السيرة التي وصلتنا ، والتي مازلنا نطالعها حتى الوقت الحاضر . هذا إلى أن التفاصيل التي أوردها الزهري داخل كل قسم من أقسامه الثلاث صارت بدورها عناصر يعمل الخلف على توضيحها أو الإضافة إليها بما يجمل سيرة الرسول الكريم أكثر وضوحاً ، وأعم فائدة للناس . وكان منهج الزهري في تلك السبيل مبتكراً ، يشهد له بالتفوق والاطلاع الواسع ، والقدرة على العمل المتواصل . ويكفي إلقاء نظرة سريعة على ما وصلنا من أعمال الزهري في هذا الميدان لنعرف الدور الهام الذي أسهم به هذا المؤرخ في بناء الدراسات التاريخية المبكرة في الدولة الإسلامية ، وما قدمه من أجل الخدمات لأجيال الباحثين في التاريخ الإسلامي .

تناول الزهري في القسم الأول من دراساته الحديث عن يوم خلق آدم ، ويوم دخوله الجنة وخروجه منها ، ثم هبوطه إلى الأرض ، حتى بعث الله الرسول الكريم .

وتناول بعد ذلك ذكر نوح وذريته ، وأبناء إسماعيل ، وأخبار العرب . وتدرج من ذلك إلى أخبار الأنبياء ، حتى بدأ يجمع الروايات عن الرسول الكريم وأسرته قبل البعثة . وتعتبر هذه الدراسة محاولة جريئة من الزهري لدراسة عصر ما قبل الإسلام ، وفي وقت يصعب فيه على أى باحث إذ ذاك التصدى لمثل هذا الموضوع الصعب الخطير .

وانتقل الزهري بعد ذلك إلى دراسة حياة الرسول الكريم في مكة ، منذ بدأ نزول الوحي ، وكيف عرف الرسول الكريم عن يقين أنه صاحب رسالة سامية عليه الجهر بها . وتابع الزهري دراساته موضحاً أعمال الرسول لنشر الدعوة بين قريش ، وملاقاه من متاعب ، وهجرة المسلمين إلى الحبشة ، ومقاطعة قريش لبنى هاشم وأخيراً ذكر بيعة العقبة ، التي أورد نصها ، مشيراً بذلك إلى انتشار الإسلام مبكراً في المدينة .

وخص الزهري القسم الثالث ببيان نشاط الرسول الكريم في المدينة ، فشرح حديث الهجرة إلى يثرب ، ووصول الرسول إليها ، وبناء مسجد ، هناك . وأشار إلى موقف اليهود من الرسول . ثم تناول بعد ذلك السرايا والغزوات ، موضحاً نشاط المسلمين فيها ، وقيادة الرسول الكريم لنشر الدعوة الإسلامية . واختتم هذا القسم ببيان الرسل والسفارات التي بعث بها النبي إلى سائر الحكام ، وبمخاصة خارج جزيرة العرب ، ثم ذكر مرض الرسول الكريم ووفاته .

وسار الزهري طوال هذا العرض الهام وفق طريقة جعلت دراساته ممتعة بعيدة عن الملل أو الجفاف . ذلك أن الزهري لم يتبع الطريقة التقليدية في رواية أخباره وهي الطريقة التي تجعل لكل خبر سلسلة من الرواة ، وإنما اتبع طريقة الإسناد الجمعي . فكان الزهري يجمع عدة روايات التي تتصل بالأحداث في قصة سهلة متسلسلة ويبدأها بذكر رجال الأسانيد . وجاءت هذه الطريقة عنصراً هاماً في بناء وحدة الموضوع وإتاحة الفرصة أمام القارئ ليتابع دراساته دون أن يقطع عليه تفكيره اعتراض الروايات ، ولكل رواية أسانيداً عديدة . وهكذا وضع الزهري في دراساته لسيرة الرسول الكريم الأساس السليم لصرح التاريخ الإسلامي ، وإعطائه طابعه المميز ، التحرر من قيود الحديث ومحاكاة المحدثين في الإلتصاف على جمع الروايات

رواية رواية ، لكل منها سلسلة أسانيدھا ، والتي لا رابط بينها .

ونهض تلامذة الزھرى بالمنهج الذى وضعه لهم أستاذھم على خير وجه ، وحفظوا فى نفس الوقت للمعلومات القيمة التي جمعھا هذا الأستاذ الكبير ، بعد أن كادت تتعرض للضياع ، نتيجة اختفاء المدونات التي قام بها الزھرى نفسه . فعلى الرغم من اشتهار الزھرى بحب التدوين فلم تصلنا أعماله إلا عن طريق تلامذته ، والذين تھيات لهم سبل الإطلاع على مدونات أستاذھم — قبل ضياعھا — والنقل عنها نقلاً حرفياً فى كثير من الأحوال .

ويكون تلاميذ الزھرى الطبقة الثالثة من مؤرخى سيرة رسول الله ، ومنھم موسى ابن عقبة (ت ١٤١ هـ / ٧٥١ م) ، ومعمار بن راشد (ت ١٥٤ هـ / ٧٦٥ م) ومحمد ابن اسحق (ت ١٥١ هـ / ٧٦١ م) . وأخذت دراسات سيرة رسول الله تأخذ طاباً هاماً على يد رجال تلك الطبقة الثالثة ، ومن أهمھا تفوق الأسلوب التاريخى فى التدوين على أسلوب جمع الأحاديث . وكان السبب فى ذلك كثرة المصادر التاريخية ، وازدياد الرغبة فى تنسيقھا ، بما يوضح سيرة رسول الله . وكان من أهم هذه المصادر الجديدة هو الجماعات التي دخلت فى الإسلام من أهل الديانات السابوية الأخرى من المسيحيين واليهود ، فضلاً عن ظهور طبقة القصاص ، والذين انتشروا فى الأمصار الإسلامية يلقون على الناس سير أبطال المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين أسهموا فى غزوات الرسول الكريم .

واشتهر من رجال الطبقة الثالثة ، محمد بن اسحق ، الذى أقدم فى جرأة نادرة على تنسيق هذه الموارد على اختلاف مشاربھا ، ثم وضع لها تبويباً فريداً ، جعل سيرة الرسول الكريم تأخذ مكانھا اللائقة بها فى ميدان دراسات التاريخ الإسلامى خاصة ، والدراسات التاريخية الإنسانية عامة . وساعد محمد بن اسحق على أداء هذه المهمة الكبرى ما توافر له من قدرة فائقة على النقل والترحال . رغبة فى جمع المعلومات التاريخية ، وما اتصف به من جلد وصبر على مواجهة النقاد وكبار الخصوم كذلك .

ونشأ محمد بن اسحق فى المدينة ، حيث يرجع أنه ولد سنة ٨٥ هـ ، ولقى كثيراً من علماء المدينة ، وأخذ عنھم الحديث . ثم رحل سنة ١١٥ هـ إلى الإسكندرية ، حيث

اتسمت آفاق علمه ، فاستمع إلى يزيد بن أبي حبيب ، الذي كان يعد من كبار الفقهاء والمحدثين في مصر . ثم عاد بن إسحق إلى المدينة ، ومنها رحل إلى بغداد . وظل محمد بن إسحق موضوع التقدير وبخاصة في الدراسات التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول الكريم . فقال الشافعي عن هذا المؤرخ : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق . وقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من ابن إسحق أن يؤلف لولى المهدي كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه .

وقد ألف ابن إسحق كتابه في سيرة الرسول الكريم ، وسماه « المغازي » . واشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أقسام كبرى ، وكل قسم منها يتناول جانباً هاماً من الدراسات التاريخية : القسم الأول هو « المبتدأ » ، والقسم الثاني هو « المبعث » والثالث هو « المغازي » وقد صارت هذه الأقسام الثلاث ينبوعاً غزيراً للباحثين في سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة في الفترات السابقة على ظهور الإسلام ، وصدر الإسلام كذلك .

وتناول ابن إسحق في القسم الأول وهو « المبتدأ » التاريخ الجاهلي . وقسم هذا الموضوع بدوره إلى أربعة فصول ، رتبها حسب التطور التاريخي . فذكر في الفصل الأول الوحى قبل الإسلام ، منذ خلق الله العالم حتى عيسى عليه السلام . واعتمد محمد بن إسحق في هذا الفصل على القصص والأساطير ، وما كان هناك من روايات قصصية عند أحبار اليهود وكبار رجال المسيحية . وأشار أيضاً في هذا الفصل إلى قبائل العرب البائدة ، مثل عمود وعاد ، موخجاً الرسل الذين بعثوا إلى تلك القبائل . ومن أمثلة الأساطير التي ذكرها محمد بن إسحق في هذا الفصل مما جاء عن « خلق آدم » ، قال : « فيقال — والله أعلم — إنه لما انتهى الروح إلى رأسه (رأس آدم) عطس فقال : الحمد لله . ووقعت الملائكة حين استوى سجوداً له ، حفظاً لعهد الله الذي عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذي أمرهم به . وقام عدو الله إبليس من بينهم ، فلم يسجد متكبراً متعظاً ، بغياً وحسداً ، فقال له : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ ... إلى قوله : لأملأن جهنم منك ومنك تبمك منهم أجمعين » قال ، فلما فرغ الله تعالى من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا العصية ، أوقع الله تعالى عليه اللعنة ، وأخرجه » .

وتناول محمد بن إسحق في الفصل الثاني من « المبتدأ » ، أى العصر الجاهلى تاريخ الين قبل الإسلام . ذلك أن الإشارات التى وردت فى القرآن الكرىم عن « أصحاب الأخدود » دعى إلى دراسة إنتشار المسيحية واليهودية فى بلاد الين ، وتفسير الآيات التى تتعلق « بأصحاب الفيل » كذلك ، لمعرفة جيش أبرهة ، وموقف أجداد الرسول الكرىم من حملة أصحاب الفيل على مكة .

ودرس ابن إسحق فى الفصل الثالث « من المبتدأ » القبائل العربية وعبادة الأصنام ، على حين خصص الفصل الرابع لأجداد النبى المبشرين وديانات مكة . وصار هذا العرض التاريخى يكون بذلك مدخلاً لدراسة القسم الثانى من السيرة .

واشتمل القسم الثانى من دراسة ابن إسحق على « المبعث » وهو معالجة حياة الرسول الكرىم فى مكة والمهجرة . واعتمد ابن إسحق فى هذا الفصل على روايات علماء المدينة ، وكذلك على القصص التى رويت إذ ذاك عن حياة النبى . واستطاع ابن إسحق نتيجة سعة اطلاعه أن يضيف معلومات جديدة ودقيقة عن أسماء المؤمنين الأول بالرسول ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بالمشركين فى بيعت العقبة . وعندما تحدث ابن إسحق عن الهجرة ذكر قائمة بأول من أسلم من الأنصار ، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى . على أن أهم شىء ذكره ابن إسحق فيما يتعلق بالمهجرة وما أعقبها ، هو تدوين الوثيقة المشهورة التى أبرمها النبى مع قبائل المدينة واليهود بها ، وهى الصحيفة التى غدت تكون « نظام مجتمع المدينة » ، فى صدر الإسلام .

وأفرد ابن إسحق القسم الثالث والكبرى من كتابه « المغازى » ، والمقصود به ذكر تاريخ الرسول الكرىم فى المدينة ، منذ بدأ القتال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية . وتناول ابن إسحق الغزوات والسرايا ، التى خرجت من المدينة ، أو التى تعرضت لها تلك المدينة ، وجهاد الرسول والمؤمنين فى تلك الحروب . واستخدم ابن إسحق منهجاً محدوداً فى عرض المادة العلمية ، فكان يذكر ملخصاً للمحتويات الخاصة بالغزوة فى المقدمة مع بيان الرواة فى سلسلة الإسناد ، وأحياناً يحتتم هذا العرض ببيان أخبار فردية يرى أنها ذات أهمية خاصة . وأوضح ابن إسحق دراساته بيان مفصل عن الأشخاص الذين استشهدوا فى القتال ، وما قدموه من ضروب الشجاعة .

ويلاحظ أن ابن اسحق لم يقتصر في جمع رواياته على علماء المدينة ، وإنما استند إلى روايات أهل الذمة الذين اعتنقوا الإسلام ، وكذلك بعض القصاص . وقد تعرض لنقد شديد من جانب علماء وفقهاء المدينة ، وعلى رأسهم الإمام مالك ، واشتدت الخصومة بينهما ، حتى اضطر ابن اسحق إلى مغادرة المدينة ، والاتجاه إلى العراق . ولقيت سيرة ابن اسحق اهتمام أهل العراق ، وكثر رواها . ولم تصل تلك « السيرة » التي وضعها ابن اسحق كما دونها بنفسه ، وكما وضعها بتفاصيلها ، وإنما وصلتنا عن طريق تلامذته ، ومن أشهرهم ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨١٣ م) .

وعمد ابن هشام إلى تنقيح سيرة ابن اسحق ، واختصر بعض أجزائها ، وبخاصة الفصل الأول من القسم الأول الذي تناول فيه « المبتدأ » ، أو التاريخ الجاهلي . وشرح ابن هشام غرضه من تهذيب تلك السيرة قائلا : « وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ولده وأولادهم لأصلاهم ، الأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لسبباً لشيء من هذا الكتاب عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحد من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعضه يسوء بعض الناس ذكره ... ومستقصى إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » .

وصارت هذه النسخة المهدبة ، هي المعروفة بسيرة ابن هشام . ولكن المراجع التاريخية الأخرى ، مثل الطبري ، حفظت الكثير من الأشياء التي اختصرها ابن هشام وصارت تكون إلى جانب النسخة المهدبة ، صورة واضحة المعالم عن جهد ابن اسحق في دراسة سيرة الرسول الكريم ، وما قدمه من خدمات في بناء صرح الدراسات التاريخية الإسلامية .

وإذا كانت الدراسات الخاصة بسيرة الرسول الكريم ، التي وضعها محمد بن اسحق قد لقيت نقداً شديداً من علماء المدينة باعتبارهم القومة على هذا اللون من البحث التاريخي الإسلامي ، فإن مؤرخاً آخر ، خلف ابن اسحق ، استطاع أن ينال احترام

الجميع ، وهو محمد بن عمر الواقدي . وقد ولد هذا المؤرخ في المدينة سنة ١٣٠هـ / ٧٤٨م . في عهد الخليفة الأموي محمد بن مروان . ولقى الواقدي كثيراً من شيوخ المدينة وعلمائها ، وأخذ عنهم منهمجهم ودراساتهم ، كما ظل أميناً في نفس الوقت على تقاليدهم في دراسة سيرة الرسول الكريم . وعبر الواقدي عن ذلك قائلاً : « ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ، ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحداً من أهلك يجربك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضوع فأعنيه » . وبذلك نبغ الواقدي في المغازي ، وصار حجة في سيرة رسول الله . وقال عن ذلك البغدادي « وهو (أى الواقدي) بمن طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره ، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم » .

وقابل الواقدي الخليفة هارون الرشيد ، الذي جاء إلى الحج سنة ١٧٠ هـ فقد سأل الخليفة عن رجل يستطيع أن يطوف به في أرجاء المدينة « عارف بها ومشاهدها ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أي وجهة كان يأتيه ، وقيوم الشهداء » . وأشار الجميع على الخليفة بأن الواقدي هو ذلك الرجل .

وأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي كان في صحبته إلى الواقدي ، وقال له يحيى : « يا شيخ : إن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن تصلي عشاء الآخرة في المسجد ، وتمضي معنا إلى هذه المشاهد فتوقفنا عليها » . وقفل الواقدي كل ما طلب منه ، ولم يترك موضعاً من المواضع ولا مشهداً إلا وصر بالرشيد عليه . وقد منح الخليفة هذا المؤرخ مبلغاً من المال صرفه في قضاء ديون كانت عليه .

ولم تلبث الأحداث أن دفعت بالواقدي إلى الانتقال إلى بغداد . وروى بنفسه سبب ذلك قائلاً : كنت حناطاً (بائع حنطة) بالمدينة ، وفي يدي مائة ألف درهم للناس أضراب بها ، فتلقت الدراهم . ثم إن الدهر أعضنا ، فقالت لي أم عبد الله : يا أبا عبد الله ، ما تعودك ، وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدر ، فرحلت من المدينة » .

وتابع الواقدي منذ انتقاله إلى بغداد الدراسة التاريخية ، مستفيداً مما آل إلى

هذه العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية من نشاط علمي باهر . والمعروف أن أيام الخليفة المأمون خاصة اشتهرت بنشاط حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدياد وفود العلماء من شتى الأرجاء إلى بغداد ، والمساهمة في النشاط العلمي الذي بدأ يدب بين جناباتها . وكان للواقدي شغف كبير بالإطلاع على ما دونه السلف من العلماء ، وتدوين ما يروق له منها من معلومات ، ويقال أنه كان عنده غلامان يعملان ليلاً ونهاراً في نسخ الكتب ، وأنه ترك عند وفاته ستمائة قمطر من الكتب يحتاج كل منهما إلى رجلين لحمله . وبرغم ضخامة مكتبة الواقدي فإنه يؤثرنه قوله : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظي أكثر من كتي . ولم يكن في هذا القول شيء من المبالغة لأن ما خلفه الواقدي من دراسة عن سيرة الرسول الكريم تشهد له بصدق قوله السالف الذكر .

وأطلق الواقدي على كتابه اسم « مغازي رسول الله » ، وهو يعتبر الصورة الأخيرة والكاملة من مراحل تطور دراسة السيرة النبوية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، والأساس التين الذي قام عليه الصرح الشامخ لعلم التاريخ الإسلامي . ذلك أن الواقدي اطلع على جميع المدونات والروايات التي جمعها من سبقه من مؤرخي سيرة رسول الله ، ثم انفرد بوضع منهج خاص به ، كفل له أن ينعم بحق بمركز الصدارة بين مؤرخي سيرة رسول الله ، وأن يحفظ لكتابه البقاء كاملاً ، كما تركه ، حتى الوقت الحاضر .

وأهم شيء قام به الواقدي هو أنه لم يقتصر على النقل عن الرواة ، وإنما دأب على زيارة أماكن مغازي الرسول ، وبخاصة ذات الأهمية في حياة الرسول الشخصية . وأعجب المعاصرون بهذا العمل ، وأشاد به أحدهم ، وهو هارون القروي ، الذي قال : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة (أى إناء به ماء) ، فقلت : أين تريد ، قال : أريد أن أمضي إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة .

وارتبط بمنهج الواقدي أمر هام انفرد به عن سائر أقرانه من السابقين له في تدوين السيرة ، وهو وضع نظام متكامل للتواريخ . فكثير من المغازي التي تناولها أسلافه غير مؤرخة ، وبخاصة عند ابن اسحق نفسه ، صاحب السيرة . ولكن التزام الواقدي في منهجه بالنظام المتكامل للتواريخ جعل كل مغازيه التي تناولها ذات تاريخ معين ومحدد كذلك ، وساعدت القارئ على تتبع الموضوع في سهولة ويسر .

واتسم منهج الواقدي في هذه المرحلة المبكرة من نشأة علم التاريخ الإسلامي بالقدرة على نقد الروايات ، مع ذكر آرائه وأفكاره عن الأخبار التي كان يسجلها . وجاء هذا العمل من جانب الواقدي خطوة تقدمية ، هيأت لكتابه المغازي مكانة تاريخية وعملية ممتازة فوق ما له من أهمية وسط المؤلفات التي تناولت سيرة الرسول الكريم . فكثيراً ما يقول الواقدي عقب بعض الروايات رأيه قائلاً مثلاً : « وهو الثبت » ، « والثابت عندنا » ، « ولا اختلاف عندنا » ، إلى غير ذلك من العبارات التي توضح رأيه الصريح في تقييم تلك الأخبار .

ولم تقتصر أهمية كتاب «المغازي» للواقدي عند المنهج الممتاز ، ولكن من حيث مادة الكتاب كذلك . فافتصرت المادة العلمية على الفترة المدنية ، أي منذ هاجر النبي إلى المدينة ، ثم بيان ما قام به من غزوات في سبيل نشر الدين الإسلامي حتى وفاته . واستهل الواقدي كتابه بمقدمة حدد فيها اليوم الذي هاجر فيه الرسول إلى المدينة ، ثم ذكر قائمة طويلة بالمصادر الأساسية للكتاب ، وهي تضم أسماء الرجال الذين اعتمد عليهم الواقدي في نقل مادته العلمية . ثم أورد بعد ذلك قائمة أخرى بمغازي رسول الله وسراياه ، واحدة واحدة ، مع تحديد تواريخ كل غزوة منها تحديداً دقيقاً . واختتم الواقدي هذه القائمة الثانية بملخص جيد لجهاد الرسول قائلاً : « فكانت مغازي النبي صلى الله عليه وسلم التي غزا بنفسه سبعمائة وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيها تسعاً : بدر القتال ، وأحد ، والمريسيع ، والحنديق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح وحنين والطائف ، وكانت السرايا سبعمائة وأربعين سرية .

وهذه المقدمة أشبه بالفهرس التفصيلي في الكتب الحديثة ، تعطى صورة صادقة عن محتويات الكتاب ، وتساعد القارئ على تتبع ما جاء فيه من دراسات دون جهد أو عناء . ذلك أن الواقدي قام بعد هذه المقدمة بعرض دراسة تفصيلية لكل غزوة من الغزوات التي سبق أن أجمل ذكرها في المقدمة ، وأوردها حسب تسلسلها التاريخي ، وبأسلوب موحد . فيذكر أولاً اسم الغزوة وتاريخها والمستخلف على المدينة . ثم يروي سائر التفاصيل الحربية والجغرافية وغيرها من الأخبار التي تتصل بالغزوة بما يوفيهما حقها من الدراسة والوضوح . وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فإن الواقدي يفردها وحدها مع تفسيرها ، ويضعها في نهاية أخبار هذه

الغزوة . وفي المغازي الهامة أيضاً يذكر الواقدي أسماء الذين استشهدوا أو قتلوا فيها ومن شهدها كذلك .

وجاءت هذه الطريقة التي اتبعها الواقدي في دراسته للمغازي سبيلاً جعل من المغازي الهامة فصولاً قاعةً بنفسها ، توضح مراحل جهاد الرسول الكريم في سبيل نشر الدين الإسلامي ، أما ما عدا ذلك من الغزوات الصغرى والسرايا فهي مقدمات أو نتائج للفصول الكبرى ، أشبه بالحلقات التي بين المواضيع الرئيسية التي اشتمل عليها الكتاب ، وتجمل منه وحدة متكاملة .

ويصور كتاب « المغازي » للواقدي خمسة جوانب كبرى ، أو فصول رئيسية من سيرة الرسول الكريم . والفصل الأول منها يوضح جهاد الرسول ضد قريش ، والفصل الثاني يتناول نشاط النبي من أجل القضاء على اليهود وسلطانهم ، والفصل الثالث يشرح سياسة الرسول في سبيل هدم العصبية القبلية وما تبع ذلك من فتح مكة ، وذكر في القسم الرابع كفاح النبي من أجل تأمين الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، وما ارتبط بذلك من وصف لأهم ما حدث في عام الوفود . وأخيراً أورد الواقدي في الشطر الخامس حجة الوداع ، ثم وفاة الرسول الكريم .

وتعتبر الفصول الخمسة السالفة الذكر مثلاً رائعاً لنشاط الواقدي ، ونجاحه في توضيح سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة الجوانب الشخصية من سيرته العظيمة . وتجلت قدرة هذا المؤرخ في تلك السبيل في القسم الخامس ، عند ما تناول أعمال الرسول في حجة الوداع ، إذ شرح كيف كان النبي المثل الأعلى أمام الألوف المؤلفة التي خرجت للحج معه . وأصبح كتاب « المغازي » للواقدي أكمل وأتم مصدر محامد لتاريخ النبي في المدينة ، وأوفى مرجع أيضاً لجميع مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة بين هجرة الرسول إلى المدينة ووفاته بها .

ويحتتم كتاب الواقدي مرحلة هامة من مراحل تدوين التاريخ الإسلامي بدأها مؤرخو سيرة الرسول الكريم . وصارت أعمال أولئك المؤرخين الحجر الأساسى للدراسات التاريخية الإسلامية ، والتي شيدت عليها سائر المؤلفات الكبرى التي حفلت بها الدولة الإسلامية على مر العصور ، من القرن الأول الهجري إلى الوقت الحاضر .

الملابس في العراق

خلال العصور العباسية

للدكتورة

عليجة رحمة الله

أستاذة التاريخ الإسلامي المساعدة كلية البنات — جامعة بغداد

المعلومات عن اللباس في العصور العباسية قليلة المصادر ، وقد استطعت أن أجمع بعض الشيء عنها . والظاهر أن العباسيين تأثروا بالفرس كثيراً من حيث الاهتمام باللباس كما فعل بعض الخلفاء . وقيل إن المتمد^(١) أمر يوماً بالإقلال من أكل الجوارى والغلمان لشراء الملابس . وقد تأثروا في طريقة لباسهم ونوعيته . فالنصور^(٢) في سنة ١٥٦ هـ ، أخذ من القلائس الفارسية الطويلة لباساً رسمياً لرجاله بدل العمام . وكذلك الطيلسان^(٣) والجوارب^(٤) والسروال^(٥) والأقبية^(٦) إلى غير ذلك . والألبسة على ثلاثة أنواع : لباس الرأس ، لباس الجسم ، ولباس القدم .

أوو — لباس الرأس :

الشائع عند العباسيين في ذلك الوقت الهمامة^(٧) والقنصوه^(٨) عند الرجال

(١) المسعودي : « مروج الذهب » ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) ابن الأثير : « الكامل » ج ٣ ص ٥٥٥ ؛ الطبري ج ٦ ص ٢٩٦ .

(٣) مقامات الهمذاني ص ٣٠٧ .

(٤) الجاحظ : « الناج » ص ١٥٣ .

(٥) الطبري : « تاريخ الأمم والملوك » ج ٧ ص ١٣٩ .

(٦) المقدسي : « أحسن التقاسيم » ص ١٢٨ .

(٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ١١٤ .

(٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ١١٧ .

والمصائب (١) والحجار (٢) والوشاح (٣) عند النساء (٤) . وقد اختلف لباس الرأس بين طبقات المجتمع . فلكل فئة لباسها الخاص ، فمنهم الخلفاء (٤) وأصحاب المراتب المالية كالوزراء (٦) والقضاة (٧) وقاضى القضاة (٨) والكتاب (٩) والفقهاء (١٠) والجند (١١) والمؤذنين (١٢) والخطباء (١٣) فى المساجد والزهاد (١٤) والشعراء (١٥) والمتصوفين (١٦) والتجار (١٧) وأهل الذمة (١٨) إلى آخره وحتى الطبقة الفقيرة (١٩) .

كما أنهم تفننوا فى نوعية القماش ، منهم من لبس الحرير (٢٠) والديباج (٢١) والأقمشة الموشاة بالذهب والفضة (٢٢) ومنهم من لبس الأقمشة البسيطة والرخيصة كالصوف (٢٤)

-
- (١) الثعالبي : فقه اللغة ص ٢٤٩ .
 - (٢) ابن الجوزى : الأذكياء ص ٨١ .
 - (٣) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٧ .
 - (٤) أحمد أمين : سخي الإسلام ص ٩٨ - ٩٩ .
 - (٥) الصابى : رسوم دار الخلافة ص ٩١ .
 - (٦) الجبهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .
 - (٧) الصابى : رسوم ص ٩١ .
 - (٨) سيد أمير على : الحضارة ص ٣٨٨ .
 - (٩) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٤ .
 - (١٠) الثعالبي : لطائف للعارف ص ٨ .
 - (١١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٤ .
 - (١٢ و ١٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ .
 - (١٤) ابن الجوزى : تلبس إبليس ص ١٩٨ .
 - (١٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٥ .
 - (١٦) ابن الجوزى : تلبس إبليس ص ١٩٨ .
 - (١٧) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٢٩ .
 - (١٨) آدم متر : الحضارة ج ١ ص ٨٤ .
 - (١٩) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٢٩ .
 - (٢٠) الثعالبي : فقه اللغة ص ١٧ .
 - (٢١) الشاشقى : الديارات ص ١٣٠ .
 - (٢٢) الوشاء : «أبى الطيب» الموشى ص ١٧٨ .
 - (٢٣) الجاحظ : البغلاء ص ٥٩ .

والتظن . هذا مع العلم أن بعض هذه الألبسة تتغير تبعاً لمواسم السنة^(١) والبعض الآخر كانت تلبس طيلة السنة وتعتبر شعاراً كالعمامة .

وفيما يلي شرح لبعض ألبسة الرأس :

(١) العمامة : هي لباس الرأس عند الرجال لدى جميع الطبقات وقد تغير من حيث الشكل والنوعية ، فالمخليفة عممة وللفقهاء عممة وللقضاة عممة وللكتاب عممة وللبقالين عممة وللنصارى عممة وللأعراب عممة^(٢) إلى آخره . فالعمامة هي لباس موروث عربي الأصل اتخذت قبل الإسلام ووصفها العرب في كلامهم إذ شبهوها كالتيجان على رؤوس الرجال^(٣) وأظهروا فوائدها . قيل لأعرابي مالك لا تضع العمامة على رأسك ، قال إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر^(٤) .

اعتبرت العمامة في العصر الإسلامي الأول شعاراً دينياً بالإضافة إلى أنها تعطي صاحبها الوقار والهيبة . قال أبو الأسود الدؤلي في وصف العمامة هي جنة في الحرب ودثار في البرد وكنة في الحر ووقار في الفدى وشرف في الأحدوث وزيادة في القامة وهي عادة من عادات العرب^(٥) .

ومنهم من وضعها على القلائس كالحلفاء^(٦) ومنهم من جعلها طويلة كالظرفاء^(٧) ومنهم من اتخذها من الخبز^(٨) ، أو من الصوف^(٩) الحشن ، وحتى من الخرق البالية كعمامة الفقراء^(١٠) .

أما من حيث اللون فالشائع عند المسلمين الأبيض واعتبر هذا اللون من السنن

-
- (١) الفزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص ٤ .
 - (٢) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٤ .
 - (٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٨ .
 - (٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٠ .
 - (٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٥٣ .
 - (٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٩ .
 - (٨) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ١٤١ .
 - (٩) ابن منظور : لسان العرب ج ٧ ص ١٧٣ .
 - (١٠) ابن الجوزي : تلبس إبليس ص ١٩٨ .

المتبعة ، فيذكر أن الرسول (ص) قال في الحديث الشريف « خلق الله الجنة بيضاء تلبسونها في حياتكم وتكفنون فيها موتاكم » (١).

أما اللون الأسود اتخذته العباسيون شعاراً لدولتهم فأصبحت العمامة سوداء اللون لدى الخلفاء والوزراء بالدرجة الأولى (٢) ولعمامة الناس الداخلين على الخليفة في يوم المواكب والاحتفالات (٣) ومنعت الطبقة العامة من لبس العمام السوداء (٤) وهناك اللون الأخضر وهو شعار العالويين (٥) واللون الأحمر (٦) النادر والأصفر (٧) . ولبس الملاحون والتصوفون (٨) وأهل الذمة (٩) عمام مختلفة الألوان .

وللعمامة أصول منها أن الرجل عليه ألا ينزع العمامة أمام الناس لأن ذلك يجعله غير محترم ويعتبر ساقط المروءة وتارك الآداب ، ويعاقب فيما لو نزعها في دار الخلافة (١٠) وقد تنزع في مناسبات منها كتعزية الخليفة (١١) مثلاً وتنزع أيضاً عند التحديد لله (١٢).

(ب) القلائس : اتخذها المنصور لباساً رسمياً لجنوده ولما كانت طويلة لم تعجب كثيراً من الرجال فيذكر أن أبا دلامة دخل على المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة وبقية للملابس التي أمر بها الخليفة فقال له : كيف أصبحت يا أبا دلامة قال بشر قال المنصور : كيف وبلك ، قال ما ظنك برجل وجهه في نصفه وسيفه في أسته وقد نبذ

(١) ابن الجوزي ، تلبس إبليس ص ١٩٨ .

(٢) الصابي : رسوم ص ٩١ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٩١ .

(٤) الصابي : رسوم ص ٩١ — ٩٢ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٦) الشابشي : الديارات ص ١٢٨ .

(٧) الصابي : رسوم ص ٩١ .

(٨) ابن الجوزي : تلبس إبليس ص ١٨٦ .

(٩) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ١٧١ ؛ آدم متر : الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(١٠) الصابي : رسوم ص ٧٢ — ٧٧ .

(١١) الأصفهاني : الأغاني ج ١٠ ص ١٩٠ .

(١٢) ابن الجوزي : تلبس إبليس ص ٢٥١ .

كتاب الله وراء ظهره . فأمر المنصور تغيير الزى فقال أبو دلامة شعراً بعد ذلك .
في وصف القلنسوة إذ يقول :

كننا نرجى من أمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس^(١)
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

أما الرشيد فلم تعجبه القلانس الطويلة حتى قيل أن العمانى الراجز دخل يوماً
على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوه طويلة وخف ساذج ، فقال إياك أن تنشدنى
إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان^(٢) . ولكن المعتصم أعجب بها
فأرجعها تشبهاً بملوك الأعاجم فلبسها الناس اقتداءً بفعله وسميت بالمعتصميات^(٣)
ثم في عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) صغرت^(٤) القلانس ولبسها جميع طبقات
المجتمع من خلفاء^(٥) وقضاة^(٦) وفقهاء إلى آخره وحتى ، الطبقة العامة^(٧) ، ما عدا
الشطار من اللصوص حيث اعتبروا لبسها كفرأ ولبسوا القناع^(٨) .

اختلفت القلانس من حيث طولها وشكلها فبعض الخلفاء جعلوها طويلة ووضعوا
المهائم فوقها وزادوا من طولها حتى تكون فوق قلانس الأمة^(٩) ومنهم من لبسها
بدون المهائم كما فعل القضاة^(١٠) وزادوا من طولها ومنها القلانس العادية البسيطة التي
لبسها عامة الناس .

والقلانس أنواع مختلفة منها ما تسمى بالسمورية^(١١) وهي المصنوعة من الجلد .

(١) الطبرى : ج ٦ ص ٢٩٦ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٨ ص ٣٠٢ الطبعة الأوربية .

(٤) المسعودى : مروج ج ٨ ص ٤٠٢ الطبعة الأوربية .

(٥) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٤ .

(٦ و ٧) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٥٠ .

(٨) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٢٧ .

(٩ و ١٠) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٧ .

(١١) الشابشى : الهديارات ص ٢٧ (نسبة إلى سموره وهو حيوان برى يشبه أبو عرس) ..

والقلانس الطاقية (١) والشاشية (٢) والمجالسية (٣) والقراقات (٤) والدورقية (٥) وأشهرها جميعاً الرصافية (٦). كما أنها كانت متنوعة الألوان فالتوكل أمر يوماً غلمانه من الخدم والحواشي البالغ عددهم سبعمائة أن يلبسوا الأقبية والفلنسوة كل واحد على خلاف الآخر وصنع الدراهم بلون الأحمر والصفرة والسواد وترك بمضها على لونها إلى آخره ... وجلس ومن حوله الندماء والخدم وأمر بنثر الدراهم كما تنثر الورود فنثرت فكانت الريح تحمل الدراهم تقف بين السماء والأرض كما يقف الورد في ذكرى الاحتفال بشاذ كلاه (٧).

وللقلانس أصول ورسوم تلبس (٨) عند الدخول على الخليفة والأمراء والعظماء ويستنكر نزعها في حضرتهم.

تانياً — لباس الجسم :

١ — الإزار .

٢ — الطيلسان .

٣ — الجيبة .

٤ — الدراعة .

٥ — القباء .

٦ — السروال .

٧ — الثياب .

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٢ .

(٣) الصابي : رسوم ص ٩٦ .

(٤) الصابي : رسوم ص ٩١ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٦١٤ .

(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣١٤ (نسبة مجلة الرصانة ببغداد) .

(٧) الشاشتي : الديارات ص ١٠٣ .

(٨) جهشياري : الوزراء والكتابات ص ٣١٠ ؛ الصابي : رسوم ص ٩١ .

الإزار :

لباس شاع بين طبقات المجتمع منذ عهد^(١) الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر خلال العصور العباسية . والإزار أو المئزر^(٢) كما يسمى أحياناً عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف على الجسم تقد على وسطه^(٣) من تحت السرة^(٤) وربما فيها أزرار^(٥) .

الإزار لباس الرجال^(٦) والنساء^(٧) على السواء استعمل لأغراض التستر لدى المرأة عند الخروج خارج البيت فيذكر ابن الجوزي أن امرأة جاءت إلى جارة لها تستعير منها إزاراً لتخفى في حاجة وترده من ساعتها^(٨) . وكذلك الرجل اتخذها لباساً عند ذهابه إلى المسجد . فالخطيب البغدادي يقول : إن فقيراً يجيئه بلا إزار نقرأ عليه الحديث ونبره بالتيء^(٩) ، هذا وقد استعمل لستر العورة في الحمام^(١٠) للرجال والنساء^(١١) أيضاً ، وقد لبس الجنسان الأزرق الغير مفتولة^(١٢) .

اهتمت المرأة بالإزار فتفننت في خياطته وحيآكته^(١٣) فوضعت فيه الزنابير وخبوط الأبريسم^(١٤) والذهب^(١٥) ليزيدها جمالا وأناقة ومنهن من لبسن إزارين

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص ١٧ .

(٢) ابن الجوزي : الأذكياء ص ٧١ .

(٣) مصطفى جواد : مجلة التراث الشعبي عدد ٨ ص ٥ .

(٤) الثعالبي : فقه اللغة ص ٢٤٩ .

(٥) ابن الجوزي : الحقي والمغفلين ص ١٤٤ .

(٦) الأزدي : حكاية ابن القاسم ص ٥٤ .

(٧) الأصفهاني : الأغاني ج ٧ ص ٣٠٢ .

(٨) ابن الجوزي : الحقي والمغفلين ص ١٧٧ .

(٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٧٤ .

(١٠) ابن الجوزي : الأذكياء ص ٧١ .

(١١) ابن الجوزي : تلبس إبليس ص ٣٧٦ .

(١٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٨٠ .

(١٣) ابن الجوزي : الحقي والمغفلين ص ١٧٧ .

(١٤) الأصفهاني : الأغاني ج ٧ ص ٣٠٢ .

(١٥) ألف ليلة وليلة ج ١ ص ٢٠ .

مختلفين في الألوان^(١). أما الألوان فالشائع الأبيض^(٢) وهناك الأزرق^(٣) ، واللون الذي تغلب عليه الحمرة والصفرة والمسمى خلوف^(٤) واللون المشرب بالصبيغ أو ما يقارب الاحمرار^(٥) . أما نوعيته فاستعمل الصوف^(٦) والقصب^(٧) والحز^(٨) ، ومنها من القماش الرخيص ويسمى بالفوطي^(٩) عند الفقراء ، ويذكر المقدسي أن الأزرق تصنع في مدينة النعمانية^(١٠) وتستخدم في جميع المدن^(١١) ويذكر ابن منظور في الكوفة أزراً مخططة يلبسها الجمالون والخدم^(١٢) .

هناك لباس آخر سمي بالكساء يلبس فوق الثياب كالأزار والجبّة وهو لباس شتوي قد يقوم مقام الجبّة المحشوة^(١٣) ويطلق عليه اسم الملاء^(١٤) ويسمى بالبرنكان وهو الكساء الأسود^(١٥) وقد ذكره الجاحظ في شعره :

إني وإن كان إزارى خلقا وبرنكاني سملا قد أخلقا^(١٦)
قد جعل الله لساني مطلقا

ومنها الغالية الثمن المسماة بالكساء الطبري^(١٧) والرخيصة المسماة بالكساء

-
- (١) الأزدي : حكاية أبي القاسم ص ٥٥ .
 - (٢) الأزدي : حكاية أبي القاسم ص ٥٤ .
 - (٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢١٨ .
 - (٤) الأصفهاني : الأغاني ج ١٥ ص ١٣١ .
 - (٥) الوشاء الموشى : أبي الطيب ص ١٧٨ .
 - (٦) الجاحظ : البغلاء ص ٥٩ .
 - (٧) الصابي : رسوم ص ٩٨ .
 - (٨) الثمالي : فقه اللغة ص ٢٥٤ .
 - (٩) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٥٣ .
 - (١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
 - (١١) الثمايشي : الديارات ص ٢٩ .
 - (١٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٧ ص ٣٧٣ .
 - (١٣) الجاحظ : البغلاء ص ٥٩ .
 - (١٤) الجاحظ : البغلاء ص ١٠٥ .
 - (١٥) الجاحظ : البغلاء ص ٣٠٠ .
 - (١٦) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٢٧ .

القومس (١١) ونوع آخر يسمى بالكساء القرهي (٢) إلى آخره .

الجبة :

تلبس فوق الثياب (٣) فيها حشمة ووقار يتبع في خياطتها مقاييس لها أحكام وجيوب (٤) طويلة وعريضة لبسها المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت بسيطة في شكلها مصنوعة من الصوف اتخذها عمال الخلفاء الراشدين عند دخولهم على الخليفة (٥) . وقد تطورت في العصر العباسي وتنوعت ، فمنها المكفوفة (٦) الحواشي ، ومنها المحشوة البطنة (٧) . وتلبس في الشتاء (٨) ومنها المصنوعة من الحرير (٩) العالي ، أو الخز (١٠) أو القطن ، أو الكتان (١١) ، أو من الصوف (١٢) .

وتعتبر الجبة لباساً عاماً لجميع فئات المجتمع ، فالغنى يتخذها من قماش غالي (١٣) حريراً أو خزاً أخضر ، طويلة وعريضة (١٤) ، أما المتصوف فيجعلها من الصوف مع أحكام طويلة مرقعة (١٥) والفقير قد لا يلبسها إن كان من عامة الناس ، أما الفقير

-
- (١) الجاحظ ، الحيوان ج ٣ ص ٤٧ .
 - (٢) ابن الجوزي ، المحق والمغفلين .
 - (٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٥ .
 - (٤) ابن الجوزي ، تلبس إبليس ص ١٨٤ .
 - (٥) ابن عبد ربه ، المقدم الفريد ج ١ ص ٦ .
 - (٦) ابن الجوزي ، تلبس إبليس ص ١٨٤ .
 - (٧) الجاحظ ، البخلاء ص ٥٩ .
 - (٨) الأزدى ، حكاية أبي القاسم ص ٧٢ ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٥١ .
 - (٩) البلوي ، ألف باء ج ٢ ص ١٨٧ .
 - (١٠) ابن الجوزي ، المحق والمغفلين ص ١٧٧ .
 - (١١) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ١٠٦ .
 - (١٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٧٧ .
 - (١٣) الشابتي ، الديارات ص ٢٩ .
 - (١٤) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ .
 - (١٥) ابن الجوزي ، تلبس إبليس ص ١٨٥ .

من العلماء والفقهاء فلا بدله من لبسها . قيل إن أحد العلماء الفقراء اضطر أن يمكث في البيت لأنه لا يملك جبة^(١) .

الدراعة :

أما الدراعة فهي جبة مشقوقة من المقدمة^(٢) وجيها طوقها^(٣) لبسها الخلفاء^(٤) والوزراء والأغنياء كما لبسها الفقراء^(٥) ، أما أنواعها منها الرقيقة المفردة ومنها دراريع الديباج^(٦) المفردة ، ومنها السوداء^(٧) اللون ، ومنها الخضراء^(٨) المصنوعة من الخبز ، ومنها المصنوعة من الصوف وتسمى بالدرعة^(٩) .

القباء :

ثوب خارجي يسميه أهل العراق اليوم بالزبون وأهل مصر والشام (القبناز)^(١٠) فارسي الأصل^(١١) أصبح لباساً رسمياً لرجال^(١٢) الدولة العباسية عام ثلاثمائة هجرية (سنة ٩١٢م) وكان لا يدخل المقصورة في ليلة الجمعة إلا من كان من الخواص التمييزين بالأقية السود . قيل حضر يوماً أحد الخواص بدراعة فرد حتى مضى ولبس القباء . وكان لبسه جارياً في جميع الجوامع حتى سنة أربعمائة هجرية ، ثم أصبح مقصوراً على الخطباء والمؤذنين^(١٣) فقط .

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٥١ .

(٢) الشاشتي : الديارات ص ٤٩ ؛ ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) جهشباري : الوزراء والكتابات ص ١٧٦ .

(٤) الخالديان : الهدايا ص ١١٤ .

(٥) ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ ؛ الأزدي : حكاية أبي القاسم ص ٧٢ .

(٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٩١ .

(٧ و ٨) الشاشتي ، الديارات ص ٢٩ .

(٩) ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .

(١٠) الشاشتي ، الديارات ص ٣٧ .

(١١) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨١ .

(١٢) متر ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٠ .

(١٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ١٢٩ و ٤١٦ .

لبس الخلفاء قباء مولدًا مصمماً أو ملصماً أو خزاً^(١)، أما الأمراء والقواد فلبسوا الأقبية السوداء من كل صنف^(٢)، وكان لباس الوزراء^(٣) والكتاب^(٤)، كما أنه لباس الخدم والحاشية^(٥) وصغار الصبيان^(٦) حتى المرأة^(٧). أما الألوان فالشائع منها الأسود^(٨) وهو الرسمي والأخضر^(٩) والأبيض ومنه المختلف الألوان^(١٠).

والقباء لباس طويل قد يصل إلى الأرض^(١١) ومفتوح عند الرقبة. يبدو القفطان من تحته كما فعل^(١٢) الخلفاء، والقباء أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي استحدث الأكام الواسعة، ومنه من له شق من الخلف^(١٣) أو من تكون أكمامه مشقوقة^(١٤). أما الأكام كانت ضيقة وقصيرة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم^(١٥) حتى عهد المستميين في القرن الثالث أحدث لبس الأكام الواسعة، فبلغ عرضها نحو ثلاثة أشرار^(١٦) وفي القرن الرابع الهجري أصبحت مشقوقة عند القضاة^(١٧)، ولهذا الاتساع فائدة إذ استعملت للخرن مقام الجيوب^(١٨)، فالأمون خزن فيها حبات الدر

-
- (١) الصابي، رسوم ص ٩١؛ الشاشتي، ديارات ص ٢٧.
 - (٢ و٣) الصابي، رسوم ص ٩١.
 - (٤) التنوخي، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١١—١٢.
 - (٥) الشاشتي، الديارات ص ٣٧ و٩٩ و١٣٠.
 - (٦) الشاشتي، الديارات ص ٩٩.
 - (٧) الشاشتي، الديارات ص ١٠٥.
 - (٨) الصابي، رسوم ص ٩١.
 - (٩) الشاشتي، ديارات ص ١٠٦.
 - (١٠) الشاشتي، ديارات ص ١٠٣.
 - (١١) ابن الجوزي، المحقق والمفتين ص ٨٩.
 - (١٢) سيد أمير علي، الحضارة ص ٣٨٧.
 - (١٣) التوحيدى، الأمتاع والمواآنة ج ١ ص ١٧٩.
 - (١٤) التوحيدى، الأمتاع والمواآنة ج ١ ص ١٦٦.
 - (١٥) زيدان، التمدن ج ٥ ص ٨٢.
 - (١٦) السيوطى، تاريخ الخلفاء ص ١٤٤.
 - (١٧) التوحيدى، الأمتاع والمواآنة ج ١ ص ١٦٦.
 - (١٨) مآر، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٠.

الكبار ونثرها على حصر من ذهب عندما جلست بوران^(١) ، كما حفظت فيها النقود أيضاً ، قيل أن رجلاً خرج إلى السوق يشتري حمراً فلقى صديق له فسأله إلى أين فقال : إلى السوق لأشتري حمراً ، فقال : قل إن شاء الله . فقال : ليس ها هنا إن شاء الله ، الدرهم في كمي والحمار في السوق^(٢) . وحفظت فيها الرقع لدى الوزراء والقواد^(٣) ، كما حفظ المسك^(٤) والدواء^(٥) عند الأطباء وحفظ العالم والكاتب كتابه في كفه^(٦) ، ذكر أن السجستاني المحدث التوفي سنة ٢٧٥ هـ كان له كم واسع وكم ضيق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه^(٧) ، والمهندس وضع فيه ميله^(٨) والحياط يجعل فيه الجلم^(٩) والقاضي يضع فيه الكرامة^(١٠) والفلاح حمل فيها أنواع الجبوب^(١١) وللمشعوذين خزنها فيها مواد السحر كالحية^(١٢) والبلبل^(١٣) وحتى النساء خزنن فيها البخور والريحان وأنواع

- (١) الشابتي ، الديارات ص ١٠٠ .
- (٢) ابن الجوزي ، الحقي والمفعلين ص ١٤٥ .
- (٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٠٤ ؛ طيفور ، بغداد ص ٨١ .
- (٤) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٨ .
- (٥) ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ص ٢٩٦ .
- (٦) متر ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٠٦ .
- (٧) متر ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٦ .
- (٨) متر ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٢١ .
- (٩) المسعودي ، مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ الطبعة الرابعة .
- (١٠) متر ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢١ .
- (١١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٧٠ .
- (١٢) الشابتي ، الديارات ص ٨ .

قيل إن إبراهيم الملقب حمدون بن اسماعيل كان ينادم المعتصم ثم الواصل بعده وكان يعاتب المتوكل في ذلك الوقت وجاءه بحيه في كفه وأخرج رأسها تعريضاً بأمه شجاع وكان ذلك يعجب الواصل « شجاع اسم حيه » .

- (١٣) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ١٤٦ .

دخل أحد المشعوذين إلى دار القنطرة فرأى خادماً من خواصه يبكي على بلبل مات له فقال له ما عليك أيها الأستاذ إن أحييته فقال ما تريد فأخذ البلبل الميت فأدخله في كفه وأدخل رأسه وأخرج بعد ساعة بلبلًا حياً ففجع من كان في القصر وظهر بعد ذلك أن أخبأ في كفه بلبلًا حياً فأخذ الميت وأخرج الحي ...

الخطور ، فالجارية مقيم كانت تحب البنفسج لا يخلو كعها من الریحان لإعجابها به (١).

الطيلسان :

لباس فارسي معرب (٢) لبسه المسلمون اقتداء بالرسول (ص) مع العمامة (٣). ليست له أكمام أو جيوب خال من التفصيل والحياطة (٤) وهو عبارة عن كساء مدور أخضر لجمته أو سداه من صوف (٥) يوضع فوق الكتف أو فوق الرأس ويتدلى على الجبين إذ يغطي نصف الوجه (٦) وقد يلف الطرفان الأماميان حول الرقبة ويتدليان على الأكتاف . أما الطرفان الخلفيان فيتركان على الظهر . ويعتبر من الألبسة الجميلة المنظر والثينة . وقدّم الطيلسان تخلص من الخلفاء إلى الأمراء والوزراء (٧). وكذلك بين أصحاب المراتب العالية (٨) . ويذكر أن محمد بن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلساً خلقاً مرقعاً فأصبح مضرب الأمثال في وصفه بالشعر :

يا بن حرب كسوتني طيلساناً مل من حجة الزمان وصدا
وطال ترداده إلى الرفو حتى لو بعناه وحده لتهدي (٩)

وذكر في الشعر باسم السيجان (١٠) :

ولم تكن سيجان العراقيين نقرة براقش القلنس بالرجال الأطاول

-
- (١) الأصفهاني ، الأغانى ج ٧ ص ٣٠٦ .
 - (٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٢ .
 - (٣) سيد أمير علي : الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٢ .
 - (٥) الصابي : رسوم ص ٩١ .
 - (٦) الأزدي : حكاية أبي القاسم ص ٥ .
 - (٧) ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٤٠ .
 - (٨) الخالديان : الهدايا ص ٥١ - ٥٢ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .
 - (٩) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٦٠١ .
 - (١٠) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٨ .

وللطيلسان ألوان ، الأخضر^(١) وهو الشائع والأبيض^(٢) ، والأسود^(٣) كما قال .

الشاعر :

رفعت رأسي للخيال فما رأيت غير المطى وظلمة الطيلسان

هذا ولبس الطيلسان كل من القضاة^(٤) والخواص من العلماء والشايخ^(٥)

والنساء^(٦) والكتاب^(٧) والجند^(٨) والوعاظ^(٩) والأدباء^(١٠) وحتى العامة .

وخير دليل على انتشار لبس الطيلسان ما ذكره المقدسي في القرن الرابع الهجري وهو أن أهل العراق في عهده كان من رسومهم التجميل والتطليس^(١١) .

السروال :

لباس فارسي^(١٢) قال الجاحظ إن السروال لباس العجم لم تستسغه العرب^(١٣) إلا

في العصر العباسي وقال آخر : أنا والله العربي لا أرقع الجربان ولا ألبس التبان^(١٤)

إلى آخره . لبسه الرجال^(١٥) والنساء^(١٦) على السواء وكان شائعاً بين عامة الناس^(١٧) .

أنواع الثياب :

كانت الثياب متنوعة في مادتها وأشكالها ومتفاوتة في أسعارها منها العالية الثمن

-
- (١) الهمداني : مقامات ص ٣٠٧ .
 - (٢) الجاحظ : البيان ج ٢ ص ٣٤٢ .
 - (٣) التنوخي : نشوار ج ١ ص ١٠٢ ؛ الشايشتي : الديارات ص ١٩٣ .
 - (٤) الجاحظ : البيان ج ٢ ص ٣٤٢ ؛ الصابي : رسوم ص ٩١ .
 - (٥) الهمداني : مقامات ص ٣٠٧ .
 - (٦) الخالديان : الهدايا ص ١١٧ .
 - (٧) متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٣ .
 - (٨) ابن جبير : الرحلة ص ١٩٨ .
 - (٩) الخالديان : الهدايا ص ١٣٤ .
 - (١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٩ .
 - (١١) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨٣ .
 - (١٢) الوشاء ، الموشى ص ١٧٦ .
 - (١٣) الجاحظ ، البيان ج ٢ ص ٩٧ .
 - (١٤) متر ، تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤١١ .
 - (١٥) الخالديان ، الهدايا ص ١٨٢ .
 - (١٦) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٩ .

التي وصل سعرها إلى ١٥٠٠ دينار^(١). وهي الحلاة بالذهب والفضة^(٢) والجواهر والديباج^(٣) ومنها الرخيصة الثمن كالصوفية والقطنية والكتانية ... واشتهرت الثياب المصمتة^(٤) والثياب المسماة بقلون التي وصفها الشاعر بقوله :

أنا أبو قلون في كل لون أكون^(٥)

والثياب المسترية التي اهتم بها المتمدن^(٦) وثياب القوي^(٧) والقصب^(٨) والإبريسم^(٩) والقز^(١٠) والملمع^(١١) وهي التي أدخلها التوكل وسميت باسمه للتوكليات وانتشرت بين الناس^(١٢) وثياب الخز^(١٣) والمشهور منها خز البصرة ، والثياب المسلية وتصنع في مدينة النعمانية^(١٤). ومن الثياب نوع تسمى بالفوطة وهو ثوب قصير غليظ يجلب من السند وقد يكون من الصوف^(١٥) ونوع آخر يسمى بالدرع وهو ثوب قصير تلبسه المرأة فنشده على الوسط وتجعل له يدين وتخيظ فرجيه^(١٦) ، ويقول ابن منظور : أن درع المرأة قميصها وهو ثوب قصير تلبسه الجارية في بيتها^(١٧) .

أما الألوان فكانت متنوعة منها الكثيرة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران مثال لللحم والديبقي المعنبر وتعتبر ملبوسات النساء أو الفتيات والإماء^(١٨). أما اللون

-
- (١) العاشقي ، الديارات ص ٧٩ .
 - (٢) الخالديان ، الهدايا ص ١٦٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ١٨٧ .
 - (٣) الهمداني ، مقامات ص ٤١٨ .
 - (٤) العاشقي ، الديارات ص ١٧٣ .
 - (٥) الهمداني ، مقامات ص ٩٣ .
 - (٦) المسعودي ، مروج ج ٤ ص ١٦٨ .
 - (٧) الوشاء ، الموشى ص ١٧٨ .
 - (٨) الصابي : رسوم ص ٩١ .
 - (٩) الثعالبي : فقه اللغة ص ١٧ .
 - (١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
 - (١١) الوشاء : الموشى ص ١٧٨ .
 - (١٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي .
 - (١٣) و(١٤) المقدسي أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
 - (١٥) ابن منظور ، لسان العرب ج ٧ ص ٣٧٣ .
 - (١٦) و(١٧) ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .
 - (١٨) الوشاء ، الموشى ص ١٨٥ .

الأبيض فقد كان مقصوراً على الرجال لم تلبسه النساء إلا المهجورات منهن^(١) ويلبسن
البياض في السراويل^(٢) والريطة فقط^(٣) .

فالظرفاء ، وهم يشكون الطبقة الأنيقة الهندام ، كانت تراعى اختيار الألوان
المناسبة والموافقة بعضها البعض ، تجنبوا لبس الثياب الملونة ، واعتبروها من لبس
النساء والإماء ، وكانوا يؤكدون على أن أحسن الزى ، هو « ما تشاكل وانطبق
وتقارب واتفق »^(٤) . وبنفس الوقت منهم من اتخذ اللون الأبيض عسكاً بقول
الرسول صلى الله عليه وسلم : « لبسوا الثياب البيض فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها
. موتاكم »^(٥) . أما طبقة الفلاحين فقد لبسوا الثياب الملونة^(٦) والصوفية المصبغات
ومنها اللون الأزرق التي اعتبرت شهيرة^(٧) وحق من أولاد الحلفاء وكبار رجال
العرب من لبس المصبغات^(٨) ومنهم من صبغ العمامة باللون الأصفر^(٩) .

* * *

هذا عدا أنواع ملابس الرجال ، أما النساء فكن لا تلبسن الثياب الصفراء والسوداء
والخضراء والموردة والحمراء ، إلا ما كان من جنسه الصفرة والتزيق والخضرة
والتوريد والحمرة مثل اللاذ^(١٠) والحريز والقز والهدباج والوشى والخز^(١١) ويلبس
المصبوغ بلون الحمرة والصفرة المسماة بالخصي^(١٢) ، فالمرود والأحمر والسيزي

(١) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .

(٢) ائشعالي ، فقه اللغة ص ٢٥٣ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ج ٧ ص ٣٧ .

(٣) (٤) الوشاء ، الموشى ص ١٧٩ « الريطة ملاءة إذا كانت قطعة واحدة وقيل الريطة

كل ملاءة ذو منسج واحد وقيل كل ثوب لين ودقيق » ، ابن منظور ج ٧ ص ٣٠٧ .

(٥) ابن الجوزي ، تلبيس ص ١٨٦ .

(٦) ابن الجوزي ، تلبيس ص ١٨٣ .

(٧) ابن الجوزي ، تلبيس ص ١٨٦ .

(٨) الشاشتي ، الديارات ص ٢٢ .

(٩) الجاحظ ، البيان ج ٣ صفحة ٩٧ .

(١٠) (١١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ الحرير الصيني الأحمر .

(١٢) الهمداني ، مقامات صفحة ٢٥٠ .

الأخضر من لبس النبطيات^(١) ، أما الأسود فلبس الحداد^(٢) ، والأزرق من لبس الأرامل^(٣) وللحداد^(٤) أيضاً في المغرب .

هذا وقد تفتنوا في خياطة وتطريز الثياب فكتبوا الأشعار الرقيقة على أحكام القمصان ، وعلى الأردية وعلى القمصان نفسها^(٥) . قيل إن جارية لبعض الهاشميين اسمها عريب كتبت على قميصها الشعر التالي :

وإن لأهواء مسيئاً ومحسناً وأقضى على قلبي له الذي تقضى^(٦)

والخيوط الذهبية التي استعملت في التطريز تسمى بالسكابدون^(٧) ، ولا يزال شائعاً في العراق حتى اليوم .

والقمصان كانت بصورة عامة طويلة تدعو إلى الخلاء كما قال الشاعر :

معى كل فضفاض القميص كأنه إذا ما سرت فيه المدام فتيق^(٨)

وبالنسبة للزهاد والمتدينين تعتبر القمصان الطويلة من الشهرة ولا تتماشى مع الدين الإسلامي^(٩) بناء على قول الرسول صلى الله عليه وسلم في نهيه عن لبس الثياب التي تجر على الأرض (فضل الإزار في الستار)^(١٠) وأنكرها أيضاً العرافون^(١١) ، هذا وقد وضعوا في القمصان والثياب أزرار تطلق فتززع الثياب^(١٢) .

-
- (١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ .
 - (٢) ابن الجوزى ، للدهش صفحة ٣٠٧ .
 - (٣) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ .
 - (٤) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٢ .
 - (٥) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .
 - (٦) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .
 - (٧) الصابي ، رسوم صفحة ٩١ — ٩٢ .
 - (٨) المبرد ، الكامل ج ١ صفحة ٤١ .
 - (٩) ابن الجوزى ، تلبس صفحة ١٨٧ .
 - (١٠) زيدان ، التمدن ج ٥ صفحة ٨٢ .
 - (١١) الجاحظ ، البيان ج ٣ صفحة ٩٦ .
 - (١٢) الجاحظ ، البيان ج ٣ صفحة ١١٥ .

ثالثاً : لباس القرم السّاع منها :

الحفاف ، اللنعال ، اللالكلة ، الجوارب :

(١) فالحنفاف^(١) كانت تلهج بذكرها الفرس بينما العرب تلهج بذكر النعال^(٢) . وعرفت عند المسلمين في صدر الإسلام ذكرها الإمام علي (عليه السلام) إذ قال جمال المرأة في حنفها^(٣) ، وكان مهماً بالنسبة لجميع الطبقات حتى الفقيرة . قيل إن أعرايياً عليه ثياب رثة وهو شاخص نحو الكعبة لا يضع شيئاً ثم دنا من الأستار فتملق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشد يقول :

أما تستحي مني وقد نمت شاخصاً أناجيك ياربي وأنت علم^(٤)
فإن تكسني يارب حفاً وفروة أصلى صلاتي دائماً وأصوم

هذا ولبسته المرأة . قيل إن امرأة ماتت فاشتري لها زوجها كفنأً قصيراً فقالت له العاسلة الكفن قصير فقال ألبسيها حنفها^(٥) . كما أنه مهم بالنسبة للطبقة الارستقراطية إذ لا يدخل على الخلفاء والأمراء والسادة العطاء إلا وفي رجله حنف وهو دليل على الاحترام والتعظيم^(٦) على أن تكون من النوع الجيد^(٧) وكانت من لباس الخلفاء أيضاً^(٨) .

الحنفاف أنواع منها الهاشمية والدارنية والمشمرة والخفيفة إلى آخره^(٩) والألوان للتداوله السوداء والحمراء والصفراء ومنها ما اختلط فيها لوان الأسود والأحمر

(١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٠ ؛ ابن الجوزى ، الحقى والمغفلين صفحة ١٧٨ .

(٢) الجاحظ ، البخلاء صفحة ١٠٤ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ صفحة ١٠٦ .

(٤) ابن الجوزى ، الحقى والمغفلين صفحة ١٠٨ — ١٠٩ .

(٥) ابن الجوزى ، الحقى والمغفلين صفحة ١٦٤ .

(٦) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ صفحة ١١٣ .

(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ صفحة ٩٥ .

(٨) الأصايب ، رسوم صفحة ٩١ .

(٩) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٦ .

أو الأسود والأصفر^(١). فالأحمر اعتبر من لباس الخلفاء فقط في القرنين الثالث^(٢) والرابع^(٣) الهجري ولا يسمح لغيرهم بلبسها بينما في السابق نهى أصحاب الرسول (ص) نساءهن من لبسها وقالوا « هي من زينة نساء آل فرعون »^(٤). وهذا وقد جاء في نشوار المحاضرة أن اللون الأحمر اعتبر من زى المتعلمين من الكتاب^(٥) في العصر العباسي الأول وقال متر إن الخفاف الحمر وإن لبسها عامة المسلمين ولكنها كانت من لباس المتخشين المتطرفين الجهال^(٦) وذكر المصري أن أحد العامة لبس الخفاف الحمر^(٧). وذكر متر أن أحد الخطباء في الموصل لبس خفاً أحمرأ في سنة ٤٠١هـ^(٨).

للخفاف كما للأكمام فوائد إذا اتخذت للخزن فالحسن بن مخلد أحد وزراء المعتد خزن فيها دستوراً فيه حمل ما في الخزائن من الأمتعة والثياب^(٩) كما أن الفتح ابن خاقان كان يخزن فيه كتاباً ليقراه من مجلس التوكل^(١٠) وخزن الندماء في خفاف غلمانهم طعاماً فاذا أمضهم الجوع تناولوا ما أعدوه من ذلك^(١١) وحتى السكين خزنت في الخفاف^(١٢).

(ب) النعال :

عرف النعال عند العرب منذ زمن بعيد ووصفوه في شعرهم قال الشاعر^(١٣) :

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع وشركا من استها لا ينقطع

(١) ابن الجوزي ، تلبس لبليس صفحة ٨ ؛ التنوخي ، نشوار ج ٨ صفحة ٢٧ .

(٢) و(٣) الصابي ، رسوم صفحة ٧٥ و ٩١ .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٧ .

(٦) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٧) المصري ، جمع الجواهر ص ٢٦٤ .

(٨) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(٩) الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٨ .

(١٠) آدم متر ، الحضارة ج ١ ص ٣٠٦ .

(١١) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٠ .

(١٢) الصابي ، رسوم ص ٤٥ .

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٦ .

وقال بعضهم إنها خلاخيل الرجال (١) . والنعل أنواع منها (الريحيه والتخان
الكثانية المشعرة واليانية) (٢) والفضية (٣) إلى آخره . واشتهرت النعل التي لها
خصران دقيقان فقال الشاعر :

إلى معشر لا يخلصون نعالهم ولا يلبسون السيب ما لم يخلص (٤)

ويذكر القدسي أن أهل العراق يكثرون التنعل (٥) في القرن الرابع الهجري
ويقول إن الجوس تلبس النعال السندية أو تسير حافية .

واشتهرت نعل الطبقة الغنية فتفننوا في صنعها فالسيدة أم المقتدر عرفت بنعلها
المصنوع من ثياب ديقية والمخشو بالسك والخيط بالحرير (٦) . وكذلك نعال السيدة
زيدة المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة (٧) : قيل إن بعض النساء استعملن
النعال في الضرب على صدورهن في حالة الحزن فيقول الشاعر :

وقام بناتي بالنعال حواسرا والصدق وقع السبت تحت القلائد (٨)

هذا وقد تهادى الناس النعل كما فعل أبو الصاهية إذ أهدى للمأمون (٩) نعلا
وكتب إليه يقول :

نعل بعثت بها لتلبسها تسعى بها قدم إلى المجد
لو كنت أقدر أن أشركها خد كما جعلت شراكها خدى (١٠)

-
- (١) الجاحظ ، البيان ج ٣ ص ٩٨ .
 - (٢) الرشاء ، اللوشي ص ١٨٠ .
 - (٣) الخالديان ، الهدايا ص ١٩٩ .
 - (٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٩ .
 - (٥) للقدسي ، أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
 - (٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .
 - (٧) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (٨) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٨ .
 - (٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢١ .
 - (١٠) ابن المعتز ، الشعر والشعراء ص ٦٨٧ و ٨٦٨ .
- الخالديان ، الهدايا ص ٢٧ .

(ج) الملائكة (١) :

كلمة فارسية وهي نوع من الأحذية لبسها الرجال (٢) والنساء (٣) على السواء ، وتكون مختلفة الألوان منها الحمراء (٤) وهي لباس الخلفاء الخاص والسوداء هي لباس الأمراء والقواد تربط بالزنانير (٥) أما العامة فتختار جميع الألوان ما عدا الأحمر (٦) وهي من لباس الظرفاء أيضاً (٧) .

هناك لباس آخر يسمى بالران قيل يشبه الخف إلا أنه لا قدم له وهو أطول من الخف على هامشه خرقة تعمل كالحف محشوة قطناً تلبس في الشتاء وتمنع البرد (٨) .

(د) الجوارب (٩) :

لباس الرجال والنساء (١٠) . منها السوداء اللون وهي لباس الأمراء والقواد (١١) ومنها الخبز والقز (١٢) والرعزوى (١٣) .

هذا عن أنواع الملابس وأشكالها في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، أما عن طبقات المجتمع في العراق في هذين القرنين ، فيمكن أن نلخصه فيما يلي :

-
- (١) ابن الجوزي ، الظراف ص ٩١ .
 - (٢) الصابي ، رسوم ص ٩٢ .
 - (٣) ابن الجوزي ، ذم الهوى ص ٨٩ .
 - (٤) الصابي ، رسوم ص ٧٥ .
 - (٥) الصابي ، رسوم ص ٩٢ .
 - (٦) الصابي ، رسوم ص ٩٢ .
 - (٧) ابن الجوزي ، الظراف ص ٩١ .
 - (٨) الشابشتي ، الديارات ص ٨٦ .
 - (٩) الصابي ، رسوم ص ٩٢ .
 - (١٠) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٥ .
 - سيد أمير علي الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (١١) الصابي ، رسوم ص ٩٢ .
 - (١٢) الروشاء ، الموشى ص ١٨٠ .
 - (١٣) المرعزوى من القز الحرير .

١ — لباس الخلفاء:

اتخذوا اللون الأسود^(١) شعاراً لهم ولبسوه عند الخروج لمقابلة العامة كما فعل المستعين^(٢) وفرض أيضاً على كل من يدخل عليهم في يوم المواكب^(٣) واللون الأسود استعمال في الراية^(٤) والعلم^(٥) وكيس النقود^(٦) وحتى البوابون الواقفون على الباب للحراسة لبسوا الأقبية السوداء^(٧).

للخلفاء لباس خاص في المواكب يتكون من العمامة السوداء أو الرصافية ويتقلدون سيفاً وقضيباً وبردة الرسول (ص) ويحملون مصحف عثمان وسيف ثاني^(٨).

أما بصورة عامة فقد لبسوا القلانس ووضعوا عليها العمام السوداء كما أمر جعفر المنصور بذلك وقد زينها البعض بمجوهرة غالية^(٩). ولبسوا العمام السوداء لوحدها^(١٠) أيضاً. ولبسوا القلانس الطويلة.

أما لباس الجسم فكان يشمل القباء الأسود للصمت أو اللحم وقد يكون من الخبز^(١١). كما قد يكون مفتوحاً من الصدر يظهر القفطان من تحته^(١٢) ويلبس فوق الجبة السوداء^(١٣) العباءة. ومن لباسهم أيضاً القميص والمطوف^(١٤).

-
- (١) الجاحظ ، البيان ج ٣ ص ٣٧٣ .
 - (٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٤٨٦ .
 - (٣) الصابي ، رسوم ص ٩٠ .
 - (٤) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (٥) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢١ .
 - (٦) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .
 - (٨) الصابي ، رسوم ص ٩٠ .
 - (٩) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (١٠) الخطيب البغدادي ، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .
 - (١١) الصابي ، رسوم ص ٩٠ .
 - (١٢) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٧ .
 - (١٣) البيهقي ، الخاسن والأضداد ص ٤٩٩ .
 - (١٤) الجاحظ ، التاج ص ١٥٣ .

والطيلسان والدراعة^(١) والسرवाल^(٢) والرداء^(٣) ، كما لبسوا الأقيية السوداء^(٤) وقد تتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر^(٥) وعند الركوب استعدت المعز الحلية الذهبية وكانت قبلا فضية^(٦) ، أما في الاقدام فقد لبسوا الخفاف الحر^(٧) وقد يلبس النعل^(٨) .

٢ — لباس أولاد الخلفاء :

أما أولاد الخلفاء فلم تشر المصادر إلى أن لهم لباساً خاصاً سوى بعض الاشارات العابرة إذ أشار^(٩) التنوخي إلى لبسهم العمامم البيض وذلك عند خروج أبي أحمد ابن المقندر مع أبيه لمقابلة مؤنس . ولبس إبراهيم بن المهدي للبطنة للمعم والعمامة^(١٠) ووضعوا النيجان إذ قيل إن المعز خلع على أخيه أبي أحمد تاجاً مرصعاً بالجواهر^(١١) . أما أولاد الأنصار كان زيهم الخاص العمامم الصفراء^(١٢) .

٣ — لباس الوزراء :

يتميز بلبس الأقيية السوداء المولدة^(١٣) والخفاف وذلك في حالتين الأولى عند الدخول على الخليفة يوم الموكب^(١٤) والثانية عند القيام بعهمة الوزارة^(١٥) وقال

- (١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٤١ .
- (٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٤١ .
- (٣) البيهقي ، المحاسن والأضداد ص ٤٩٩ .
- (٤) الصابي رسوم ص ٩٠ .
- (٥) سيد أمير على ، المحاضرة ص ٣٨٧ .
- (٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٢ .
- (٧) الصابي ، رسوم ص ٩١ .
- (٨) البيهقي ، المحاسن والأضداد ص ٤٩٩ .
- (٩) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .
- (١٠) طينفور ، بغداد ص ١١٥ .
- (١١) السبوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٢٤ .
- (١٢) الصابي ، رسوم ص ٩١ — ٩٢ .
- (١٣) الصابي ، رسوم ص ٩١ .
- (١٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٩١ .
- (١٥) الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٤٢ .

الشاعر يصف حالة الوزيرين حامد بن العباس وعلى بن عيسى الأول الوزير الأصلي
وعليه السواد والثانى الوزير الفعلى وليس عليه السواد .

أعجب من كل ما رأينا أن وزيرين فى بلاد^(١)
هـذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد

وذكر أنهم يحملون السيوف ولا يصلون إلى الخليفة إلا بقاء أسود ومنطقة
وسيف^(٢) .

٤ — لباس القضاة والمقهاء :

لباسهم طيلسان أسود ودراعه سوداء^(٣) والقلائس المستديرة الضخمة وفى
منتصف القرن الرابع أبدلت القلائس بالعمائم السود للصقولة^(٤) وأول من غير
لباس العلماء أبو يوسف قاصى الرشيد^(٥) . وكانت العمائم من شاشات كبيرة والأحكام
طويلة ويتميز قضاة المذاهب كالشافعى والحنفى بلبس طرحة فوق العمامة^(٦) .

ولا يلبسون الحرير بل الصوف الأبيض ولا يلبسون اللون إلا فى بيوتهم على
الأغلب^(٧) أما قضاة الأمصار والبلاد (القميص والطيلسة الدنيا والدييات)^(٨) .

٥ — لباس الأمراء والقواد :

يتميزون بالأقبية السوداء من كل صنف مع لبس العمائم وفى أرجلهم الجوارب
واللالسكات السود مشدودة بالزنانير^(٩) .

٦ — لباس الكتاب :

كان زيهم فى القرن الثالث الهجرى لبس القباء والسيف والمنطقة والشاشية

- (١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٤٨٦ .
- (٢) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٢١ .
- (٣) الأصبهاني ، الأغاني ج ٥ ص ٣٩٠ .
- (٤) الصابى ، رسوم ص ٩١ .
- (٥) سيد أمير على ، ص ٣٨٨ .
- (٦ و ٧) محمود العرنوسى ، ص ١٢٠ .
- (٨) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
- (٩) الصابى ، رسوم ص ٩١ — ٩٢ .

في عهد المتوكل^(١) ولبسوا الدرازيع^(٢) والظيلسان والقميص والسروال والمبطنة^(٣).

٧ — لباس الأطباء :

يتميز بلبس العمام الكبيرة^(٤).

٨ — لباس الخطباء والمؤذنين :

يتميز بلبس القباء الأسود الذي كان رسماً جارياً على كل من يدخل المقصورة في يوم الجمعة للصلاة وحتى سنة أربعمائة لم يبق إلا الخطباء والمؤذنون يلبسون الأقبية السوداء^(٥). والمنطقة السوداء حتى القرن الخامس الهجري ويقول الجاحظ قد لا يلبس الخطيب الملحفة والجببة والقميص والرداء. ولكن لا بد من لبس العمامة والإزار وحمل العصا عند التأهب للخطابة^(٦) ويذكر مترآن في سنة ٤٠١ لبس خطيب بالموصل قباء ديبقي أبيض وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين^(٧).

٩ — لباس الشعراء :

كانت تلبس الموشى والمقطعات والأردية الشرب وكل ثوب مشهر^(٨). قيل كان يلبس البعض ثياباً شاذة تجلب النظر يسمونها مشهر، وقال الجاحظ^(٩) : إن بعضهم لم ينزع قميصه قط، وآخر لم ينزع ثوبه من جهة الرأس، بل يفك الأزرار فيسقط الثوب على الأرض، وآخر يلبس برداً أسود في الصيف والشتاء فهجاه أحد الشعراء.

(١) التنوخي، نشوار ج ٨ ص ١١ — ١٢ .

(٢) متر، الحضارة ج ٢ .

(٣) الخالديان، الهدايا ص ١١٧ .

(٤) ابن الجوزي، الأذكياء ص ١٠٦ .

(٥) الخطيب، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .

المقدسى، أحسن التقاسيم .

(٦) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ٩٢ .

(٧) متر الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(٨) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ١١٥ .

(٩) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ١١٦ .

مع بردك الأسود قبل البرد في قوة تاتيك صما سرد^(١)

١٠ — لباس الحرس :

منهم البوابون الواقفون على أبواب المقصورة وهم يتميزون بلبس الأقبية السوداء^(٢). أما الحرس السائر في اللواكب فيتميز بلبس الثياب الفخمة يعشون وفي أيديهم السلاح وكان ذلك في عهد الهادي .

أما المعتصم فقد ألبس الغلمان أنواع الديباج والناطق الذهبية^(٣) .

١١ — لباس الخدم والحاشية :

يتميز بلبس القباء والمنظفة دائماً^(٤) ولكنهم لبسوا الأقبية والرداء اللورد في مناسبة عيد النوروز . كما فعل شفيح خادم المتوكل^(٥) :

١٢ — لباس التجار :

لهم زى خاص يتكون من رداء وطيلسان ونعال^(٦) وطاق وقد يلبس الغني ردائين .

١٣ — لباس العامة :

فالأغنياء منهم يلبسون القميص ورداء فوق السراويلات^(٧) والجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد وتسمى موزاج^(٨) وللتوسطو الحال يلبسون الإزار والقميص والدراعة والمسترة الطويلة وحزاماً يسمى قريند^(٩) . وقد تختلف ألبستهم

(١) الجاحظ ، البيان والتبين ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) الصابي ، رسوم ص ٩١ . التنوخي ، نشوار ج ٨ ص ٩٠ .

(٣) محمد جمال سرور ، الحضارة صفحة ٢٣ .

(٤) الشاشتي ، الديارات صفحة ١٩٩ .

(٥) الشاشتي ، الديارات صفحة ٣٧ .

(٦) ابن الجوزي ، ذم الهوى صفحة ٤٧٥ .

(٧) مّز ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٢٣ .

(٨) سيد أمير علي ، الحضارة صفحة ٣١٩ .

(٩) سيد أمير علي ، الحضارة صفحة ٣٨٨ .

بأختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم وأما كنهم ، ولكن بصورة عامة تشمل
ألبيستهم على ما ذكرنا بالإضافة إلى الجبة والنعال والجوارب والقباء^(١). أما الفقراء
منهم الذين لا يملكون شيئاً سوى الثياب المزقة العتيقة فتسمى ثيابهم خلقان^(٢).
ويذكر أن بعض الفقراء مر بامرأة فأعجبته فتزوجها فلما دخل البيت أزعوه خلقانه
وألبسوه ثياباً جدداً ... وتسمى أيضاً (بأسمال)^(٣) ولبسوا المدرعة^(٤) وهي نوع
من أنواع الجيب .

١٤ - لباس المتصوفين :

نهتم بذكرهم لانتشار هذه الطائفة في القرنين الثالث والرابع فتميزت بلبس
الثياب الحشنة والرقعة^(٥) والصوفية مع فوطة مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة
طويلة^(٦) . هذا وقد تميزت البستهم بكثرة الرقع^(٧) فيها وذكر ابن الجوزي أن
وزن الرقع في كم من أكمام أحد المتصوفين بلغ أحد عشر رطلا^(٨) ، وقال الشعراء
في وصف رقع الصوفية بقولهم :

ألبس قيصك ما اهتديت لحيه فاذا أضلك جيه فاستبدل^(٩)

أما اللون فكان الأزرق لسببين ربما لكونه لون حداد أو لأنه يلائم رجال
قوم فقراء جوالين ويعتقد متزان السبب الأول هو الأصح^(١٠) .

١٥ - لباس الظرفاء والمنادمة :

تجنبوا لبس الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران إلا في حلقات الشراب

- (١) زيدان ، التمدن ج ٥ صفحة ٨٣ .
- (٢) ابن الجوزي ، المدهش صفحة ٢٣٣ ؛ البيهقي ، المحاسن والأضداد صفحة ٤٠٣ .
- (٣) ابن الهبارية ، الصادح والباغم صفحة ٢٩ .
- (٤) ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ صفحة ٨٢ .
- (٥) ابن التوحيدى ، الأمتاع صفحة ١١٦ .
- (٦) متر ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٤ - ٢٥ .
- (٧) ابن الجوزي ، تلبس وابلس صفحة ١٨٤ .
- (٨) ابن الجوزي ، تلبس وابلس صفحة ١٨٥ .
- (٩) الجاحظ ، البخلاء صفحة ٣٧ .
- (١٠) متر ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٤ - ٣٥ .

وفي بيوتهم ولبسوا البياض^(١). والسكتان الناعم النقي اللون مثل الديبقي^(٢). أما لباس الندماء إن كانت تشمل الخليفة أو من يجالسه في مجلسه الخاص بالشراب والأنس هي عبارة عن أثواب مصبغة الألوان الزاهية الاحمرار والاصفرار والاحضرار يصقلونها حتى تلمع^(٣).

* * *

هذا عن الرجال ، أما عن ملابس النساء في العراق في القرنين الثالث والرابع للهجرة .

فالمعلومات قليلة عنها وهي ثلاثة أقسام : ألبسة البدن والرأس والقدم . فالأولى منها الثياب الداخلية وتشمل على القرقور والآتب والشوذر والصدار والمجول فكلها متقاربة الكيفية والقصر وعدم الأكام تلبسها في الدار عند الخلوه^(٤). وثوب مشهور يسمى الغلالة^(٥) يلبس الجسد^(٦) وأنواعها الغلالة الدخانية^(٧) وغلالة القصب^(٨) وأيضاً القميص الذي يلبس على الجسم ويسمى بالبدنة^(٩) ويذكر المقدسي انتشار القوط المصنوعة من القز في القرن الرابع^(١٠) أيضاً .

أما الثياب الخارجية فهي أنواع ، الثمينة الغالية كالديباج والموشاة بالذهب . وقد تبلغ أسعارها آلاف الدراهم والدنانير ومنها الرخيصة المصنوعة من الصوف أو القطن المسماة بالأسمال أو الخلقان (سبق وأن أشرنا إليها) .

-
- (١) الوشاء ، الموشى ص ١٨٣ .
 - (٢) منر ، الحضارة ج ٢ ص ٣٤٧ .
 - (٣) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨٣ .
 - (٤) الثعالبي ، فقه اللغة ص ٢٥٣ .
 - (٥) الثعالبي ، فقه اللغة ص ٢٥٢ .
 - (٦) الهمداني ، مقامات ص ١٩٨ .
 - (٧) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .
 - (٨) الأزدي ، حكاية أبي القاسم ص ٧٥ .
 - (٩) الشاشبي ، الدبارات ص ١٧ .
 - (١٠) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ٤١٦ .

يتكون اللباس الخارجي من الإزار^(١) ، والسروال^(٢) الأبيض اللون والقباء وهذا نادراً ما تلبسهن ، كما فعلت عريب وصيفة الأمين^(٣) . وهناك الأثواب والقمصان وهي متنوعة الأشكال منها الطبرية والفوهية والرشيديّة والديقيّة . . إلى آخره ولبسن الريطة^(٤) . ولبسن الوشاح على الصدر^(٥) وقال الشاعر في ذلك :

أما ترى وشاحها ما يقلق أما ترى حمالها ما ينطق^(٦)

وعرفت (البدنة)^(٧) وهي قميص لؤلؤ وجوهر وهي الدرغ القصير ألبستها أم جعفر إلى بوران ليلة زفافها من عبيدة بن عبد الله التي لم ير في الإسلام مثلها .

أما لباس الرأس فيتكون من المقابع^(٨) والخمار^(٩) والمعصبة^(١٠) والبرنس ، فالمقابع منها^(١١) : التيسابرية وعلى الأغلب سوداء اللون^(١٢) والخمار أسود ، وقد يكون من الصوف^(١٣) . أما المعصبة سوداء منها المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة وهي من ابتكار عليّة أخت الرشيد^(١٤) . قيل دخل أبو الحسن على الرشيد يوماً وحواله وقفن جوارى لبلبن عصابة منضدة بالدر والياقوت مكتوباً عليها بصفايح الذهب شعراً .

-
- (١) الأزدي ، حكاية أبي القاسم ص ٥٣ — ٥٤ .
 - (٢) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .
 - (٣) الشاشتي ، الديارات ص ١٧ .
 - (٤) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٥٣ ابن منظور لسان العرب ج ٨ صفحة ٣٠٧ .
 - الهمداني . مقامات صفحة ٤٠٢ .
 - الشاشتي ، الديارات صفحة ١٧ .
 - (٥) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٣٤٩ .
 - (٦) ابن الهبارية ؛ الصادح والباعم صفحة ٧ .
 - (٧) الشاشتي ، الديارات صفحة ١٠٠ ؛ ابن الساعي ، نساء الخلفاء صفحة ٦٨ .
 - (٨) طيفور ، بندااد صفحة ١٠٤ .
 - (٩) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٥٤ .
 - (١٠) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٤٩ .
 - (١١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٤ .
 - (١٢) الأزدي ، حكاية أبي القاسم صفحة ٥٤ .
 - (١٣) الأبيشيبي ، المستظرف صفحة ٣٢ .
 - (١٤) سيد أمير علي ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

ظلمتى فى الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم^(١)

أما غطاء الرأس البرنس منه المنضد بالجواهر والحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار وهو من ابتكار عليّة أخت الرشيد^(٢) وقد زين الرأس بحلية ذهبية حولها عصابة منضدة بالجواهر^(٣).

لباس القدم :

سبق أن ذكرنا شيئاً فى موضوع لباس القدم وبصورة عامة لبس النعال والحفاف والجوارب وربما سرن حافيات أو بنعال بسيط وهؤلاء نساء الطبقة الفقيرة ومنهن من لبسن النعل المرصعة^(٤) بالجواهر كما فعلت زبيدة أو النعل المصنوعة من ثياب ديبقية تسمى بثياب النعال وذلك أنها كانت صفاقاً مقطوع على مقدار النعال المحذوة وتطلى بالسك والعنبر وتجمد وتجعل ذلك بين كل طبقتين من الثياب من ذلك الطيب . . . حتى تلف بعضها على بعض وتصمغ بالعنبر وتلّزق حتى تصير قطعة واحدة^(٥).

أما الحفاف فالطبقة الأولى منها بيضاء مصقولة وتحرز حوالها بالابريسم وقد يلبسها عشرة أيام فقط وتلف فترمى جملة دنانير^(٦) فى ثمنها ولبسن الجوارب أيضاً^(٧).

الحلى :

الكلام عن الحلى طويل لكثرة أنواعها ومنتهكلم بإيجاز عن بعضه فالمعروف أن النساء لبسن الحلى منذ زمن طويل فى عصور ما قبل التاريخ ولا تزال حتى اليوم وتطورت تلك الحلى من بسيطة ورخيصة إلى أحجار كريمة وثمينة وأشهر أنواع الحلى القلائد والأساور والحلاخل والحواتم والأكاليل إلى آخره .

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٨ صفحة ١٣٥ .

(٢) و(٣) و(٤) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

(٥) التنوخى ، ج ١ صفحة ١٤٢ .

(٦) التنوخى ، ج ١ صفحة ١٤٣ .

(٧) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

(١) فالقلائد^(١) كانت تستعمل من ودع وعظام وخزف واستعمل هذا النوع لدى النساء والرجال على السواء^(٢) وربما لسببين الأول للحفاظ والسلامة والثاني للزينة . ومنها ما استعملت من اللؤلؤ والدر والياقوت والتي بلغ سعرها عشرة آلاف دينار كقلادة أم سلمى التي أهدتها إلى أبي العباس^(٣) أو عشرة آلاف درهم كقلادة المأمون التي أهديت إلى الحسن بن سهل^(٤) وخيوط الياقوت الأحمر في بدنة زيدة التي أهدتها إلى بوران^(٥) وبين النوعين من القلائد ربما توجد قلائد من ذهب مع قليل من الأحجار الكريمة أو من الفضة وهي من حلى الطبقة المتوسطة .

(ب) والنوع الآخر المهم الخواتيم ملبوس الرجال والنساء^(٦) أنواعها كثيرة منها الفص الكبير أو الفص الصغير والخاتم الكبير فيذكر أن الإمام الشافعي قال إذا رأيت الرجل خاتم كبير وفصه صغير فذاك رجل عاقل وإذا رأيت فصه كبير وخاتم صغير فذاك عاجز^(٧) . ومن الخواتيم التي نقش عليها أسماء وألقاب أشخاص كخواتم^(٨) الخلفاء وزوجاتهم وأمهاتهم فهذه نقشت على خاتمها (أنا) ^(٩) وهكذا فعل بقية الناس هذا واستعملت الخواتيم كهدايا بين الناس ترمز للقطيعة أو للمحبة^(١٠) .

(ج) أما الخلاخل هي لباس النساء^(١١) وتلبس في الأرجل ولا تزال تلبسها نساء الطبقة العامة اليوم وتدرج من الفضة إلى الذهب المرصع بالجواهر .

-
- (١) الهمداني ، مقامات صفحة ٩١ .
 - (٢) ابن الجوزي ، الحقي والمغفلين صفحة ٤٧ .
 - (٣) الخالديان ، الهدايا صفحة ١٤٤ .
 - (٤) الخالديان ، الهدايا صفحة ٢٥٧ .
 - (٥) الشاشتي ، ديارات صفحة ١٠٠ .
 - (٦) ابن الجوزي ، الحقي والمغفلين صفحة ١٧ .
 - (٧) ابن الجوزي ، الحقي والمغفلين صفحة ١٨ .
 - (٨) ابن الجوزي ، الحقي والمغفلين صفحة ١٧ .
 - (٩) الثعالي ، ثمار القلوب صفحة ١٢٩ .
 - (١٠) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٨ .
 - (١١) ابن الجوزي ، ذم الهوى صفحة ٤٧٥ .

(د) المنطق وهو الحزام الذى يشد على الوسط واستعمل من الذهب للرصع بالأحجار كما فعلت زبيدة^(١) وقله الشاعر فى المنطق والقلادة . .

ومنطق من نفسه بقلادة الجوزاء حسا^(٢)

هذا بالإضافة إلى أنواع كثيرة من الحلى المتنوعة كالتيجان والأكاليل والأساور والأقراط^(٣). وهناك نوع من الزينة وهى الكتابة والنقش على القمصان^(٤) والأكام^(٥) والعصائب^(٦) والأحزمة^(٧) والنعل^(٨) وعلى الخواتم^(٩)، وتعدتها إلى الكتابة على الكؤوس، والسيوف، وبقية الأمتعة، وحتى على الوجه والصدر والمراوح إلى آخره^(١٠).

-
- (١) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .
 - (٢) الشابشى ، الديارات صفحة ١٠٠ .
 - (٣) الشابشى ، الديارات صفحة ١٠٠ .
 - (٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٩ وهى حلية تلبسها المرأة فوق الأذن ، الثعالبي يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٩ .
 - (٥) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .
 - (٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٨ صفحة ١٣٥ .
 - (٧) الهمداني . مقامات ص ٩٧ .
 - (٨) التنوخى ، نشوار ج ١ صفحة ١٤٦ .
 - (٩) ابن الجوزى ، الحقى والمفلقين صفحة ١٧ .
 - (١٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد صفحة ١٣٥ .

الكارمية

الساطر بصيبي عبر الجليل

يبدو أن الوقت قد حان للعمل على متابعة التاريخ الاقتصادي العربي ، والتعرف على الدور الذي لعبه العرب في هذا المضمار ، بعد أن انتقلت إلى أيديهم هذه التجارة ، التي عرفت باسم عام هو « الكارم » وصار رجاله يعرفون بالكارمية كما أنه من الضروري أيضاً ، القيام بمحاولة الكشف عن العلاقات ، التي قامت بين العرب وبين المشتغلين بالتجارة ، في حوض المحيط الهندي الذي كان يحتل مركزاً وسط في التجارة العالمية . والواضح أن التجارة تخرج من بلدان على مستوى حضاري ، وتنتقل إلى من يشتريها أو يقايض عليها . فلماذا نجد أن المحيط الهندي ، قد كان السوق التجاري الكبير الذي كانت تتجمع في موانيه البضاعة من أقطار الشرق الأقصى والهند وغيرها . وأخذت هذه للرحلة تنتقل رويداً رويداً نحو الشمال حتى تم انتقالها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وكان طبيعياً أن يتخذ العاملون في هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من هذا البحر . ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ، وأخذوا منها موطناً لهم في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وكانت مرحلتهم هذه نهاية لنشاط واسع المدى ، عبر قرون بعيدة العور ، وانتقلت هذه التجارة وزعامتها إلى الغرب منذ القرن الخامس عشر . وكانت بداية العرب في التجارة العالمية ، حلقة مكملة لما بدأه العرب بما أدخلوه من تحسينات في التنظيمات التجارية بحكم الخبرة والتجربة وتطور الظروف .

ومرحلة انتقال الزعامة التجارية إلى الغرب وظروفها لأمر جدير بالبحث والدراسة للتعرف على أصوله والعمل على توضيح أسسه ، بمقارنتها مع ما عمل به الغرب ، والاستعانة في هذه الدراسة بمجموعات وثائق الجيزة التي نقلت من مصر القديمة (جنوب القاهرة) في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي وأن عدداً كبيراً منها مازال قيد الدراسة .

والكارمية الذين عرفوا بهذا الاسم هم فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى في التوابل وما إليها من بهار وغيره من البضاعة . ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة إلى سيد رئيسي

وهو أنه ، بالنسبة للظروف التي كانت قائمة في ذلك الماضي السعيق ، لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته إلا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، وتنظيم وسائل النقل وما إليها وتعرض ما تنقله في الأسواق الكبرى في مصر وغيرها حيث كانت نعمد الزايدات ومن ثم تنتقل إلى يد تجار نصف الجملة ومنهم إلى التجار الصغار في مصر وغيرها كما كانت تنتقل أيضاً إلى التجار والوكلاء من العرب الذين يحضرون لشراء هذه البضاعة لتزويد الأسواق الأوروبية بم حاجتها . وكانت الرغبة في السيطرة على هذه التجارة التي كانت بين العرب من أول الدوافع ، إلى قيام البرتغال بكشف الطريق حول أفريقيا ، إلى المحيط الهندي ، منذ نهاية القرن الخامس عشر .

والواضح أن التجارة تتطور مع تقدم الحضارات ، ونشاط العاملين بها ، فالعرب قد انتشروا بعد الإسلام ، في الموانئ المطلة على المحيط الهندي ، وتغلغلوا في داخل القارة الإفريقية للعمل التجاري ، وإنشاء الشبكات العديدة لتجارة القوافل ، سواء بالنقل المائي أو على الدواب ، كما استخدم ، في عدد من المناطق ، التي لا تصلح فيها عمليات النقل بالدواب والسفن ، الإنسان للنقل ، وحددت للإنسان مناطق معينة يعمل فيما بينها ، وكان هؤلاء يقدمون عن طريق زعيم . يجمع هؤلاء من السلاطين المحليين ، الذين يتقاضون أجورهم من زعيم العمل ، وكان بين هؤلاء ، أسرى الحروب ، التي يشنها الزعماء على بعضهم البعض . تجدد النشاط العربي في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي بخاصة ، ووصلوا إلى الشرق الأقصى ، وازداد النشاط بعد أن كان في الفترة السابقة ، لظهور الإسلام ، في حالة أقرب إلى الكساد التام لآكثر من سبب .

ويهمنا بادئ ذي بدء ، الكشف عن أصل اللفظ « كارم » الذي ورد في المراجع ، بإضافة الألف واللام (أداة التعريف) ، فكان يقال ، الكارم والكارمي والكارمية ، وهذا يؤكد أنه لفظ عام ، ويؤكد هذا ما ذكره القلقشندي ، كما سنبينه فيما بعد — إن هذا اللفظ قد وجد في الدواوين ، على هذا النحو ، ولا معنى به في العربية ، وبهذا أضعف الرواية التي ترجمه إلى « الكاتم » ، على اعتبار القائلين لهذه التجارة كانوا من بلاد الكاتم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال غير صحيح إطلاقاً .

وكان من الضروري أيضاً ، أن نبعث عن أصول هذه الفئحة التجارية . الأمر

الذى نجده وثيق الاتصال بمصدر اللفظ ، فالقصة قد وجدت ، فى صورة من الصور ، ثم تطورت ، مع الزمن ، مع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم ، هو ما تعرف به ، وتوارثه من جاء بعدهم ، أو من تحولت إليه السيطرة التجارية ، فى أسواق الهند وغيرها . وجاء فى هامش الصفحة ٨٩٩ من كتاب السلوك للمقرزى ما يفيد أن الكارمية كافى معظمهم من أهل بلد الكانم الإسلامية^(١) ، ويفترض ليمان أن هذا اللفظ قد أخذ عن متاجرهم ، إذ وجد أن كلمة Wararima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الجهان وهو من التوابل التى اشتغلوا بها^(٢) .

ويقول ابن ماجد فى كتابه ، أن طريق استعجاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم^(٣) ويشير الإدريسى أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون من حوض تشاد الشب إلى مصر^(٤) .

ومما نوضح بعاليه نستطيع أن نصل إلى عدة تقاط من أهمها أن لفظ « كارم » هو اسم عام ، وأنه لم يكن إسماع عربياً ، ثانياً أن هؤلاء الكارمية قد جاءوا إلى مصر واتخذوا منها مركزاً لأعمالهم فى عام ١١٨١ م . أما ما جاء عن الصلات التجارية بين مصر والكانم فليس بالأمر ذى الأهمية فى الموقف الخاص بأصول اللفظ وتطوره ونحاول أن نستعين بأوراق الجنيزة ، ونجد فى هذه الأوراق ، أو بمعنى أدق فيما نشر منها حتى الآن أن التجارة « الكارمية » قد كانوا يمارسون تجارتهم فى المحيط الهندى وأنهم قد اتخذوا لهم مراكز رئيسية فى أمكنة تجارية هامة ، فمنها ما كان فى كوجزرات ومنها ما كان فى الخليج العربى مثل سيراف ، كما كانت لهم وكالات فى مختلف الموانئ ، كما كانت جماعات منهم منتشرة فى مختلف المدن الكبيرة مثل بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها .

(١) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك القسم الأول نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) الدكتور صبغى لبيب فى مقاله « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » الذى نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الرابع — العدد الثانى لسنة ١٩٥٢ ص ٦ وما بعدها .

(٣) دكتور صبغى لبيب فى مقاله آف الذكر .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ٢٢ و ٤٠/٣٩ نقلت عن مقال الدكتور صبغى لبيب المشار إليه أعلاه .

وبعد أن تجمعت لدينا المعلومات الكثيرة عن النشاط الكارمى من القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده ، بما فى ذلك الافتراضات فى محاولة التعرف على أصولهم تنتقل إلى عرض لما كانت عليه الحالة التجارية فى بحر الهند (المحيط الهندى) منذ القدم ، فى صورة موجزة ، وقد يبدأ هذا بما قامت به الملكة حتشبسوت التى حكمت مصر فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، بمنع الوسطاء التجاريين فى الحصول على التوابل والمواد العطرية . وأرسلت السفن المصرية إلى بلاد بنت لشراء هذه الحاجيات ، وكانت لازمة بخاصة فى خدمة المعابد ، من أما كن عرضها ، وفى هذا دليل على قيام نشاط تجارى على مستوى مناسب — فى ذلك العهد السحيق .

وقد لا يعوزنا الموقف الحالى إلى الحوض فى التطورات التجارية من الألف الثالثة قبل الميلاد التى أخذ بها كنقطة بعيدة فى القدم لبداية للنشاط التجارى بخاصة ما يتعلق معه بمصر .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن « الكارمية » قد نشأت أولاً فى المحيط الهندى أو على الشاطئ الغربى للهند ، وإذا اقتطنا اللفظ قسمين لوجدناه يتكون من « كار » فى المقطع الاول ثم « يم » فى المقطع الثانى أى « كاريم » — وكار معناه الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة إلخ إلخ ، ويم معناه « المحيط أو البحر البعيد الشواطىء أو النهر الكبير ، وبهذا نخرج إلى النتيجة بتفسير هذا اللفظ إلى « كاريم » وسقط الياء وصار « كارم » أى « حرفة التجارة فى البحار » وهذا فيما نعتقد لفظ يرجع فى أصوله إلى لغة هندية على الجانب الغربى منها ونجد أيضاً أن لفظى كار ويم موجودان فى صورة أو أخرى فى المصرية القديمة وأن لفظ « كار » مازال متداولاً حتى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل « كارك أيه » .

* * *

وفى ختام هذه الكلمة القصيرة عن الكارمية فى العهد السابق لانتقالهم إلى مصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى نجد لزاماً علينا التنويه والإشادة بالبحث القيم الذى كتبه الدكتور صبحى لبيب الذى جمع فيه الشاردة والواردة عن نشاطات

الكارمية في الفترة التي تعرض لها . ونعتقد أن مجال البحث مازال واسعاً أمام الباحثين لتحقيق الجوانب المتعددة للموضوع بخاصة بعد ظهور دراسات من وثائق الجنيزة . والله المستعان

« مراجع البحث »

- GOITEIN, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.
- WIET, GASTON : Les Marchands d'Epices sous les Sultans Mamlouks, Editions des "Cahiers d'Histoire Egyptienne", Le Caire, 1955.

دور العراق العثماني

في حرب القرم

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية في تاريخ أوروبا الحديث وفي تاريخ الدولة العثمانية . ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تمن بصدى هذه الحروب في ولايات العراق العثماني .

كانت الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان أوروبا على الشرق الأدنى . واستطاعت خلال جهادها أن تقضى على الإمبراطورية البيزنطية ، وأن تقلم أطراف جمهورية البندقية ، وأن تمد سيطرتها على معظم البلقان والشام ومصر والعراق والخليج العربي^(١) ، واليمن والحجاز وشمال أفريقيا^(٢) . ولكن الدولة العثمانية عجزت عن خض شوكة الأساطيل البرتغالية في المياه العربية الجنوبية فأثرت الحكومة العثمانية أن تتوقع على نفسها وراء سواحلها ، ولم تحاول القوى الداخلية أن تنطلق إلى مجالات التنافس الدولي على قدم المساواة مع الدول الأوروبية القومية الناهضة^(٣) . كما أن هذه الدول الأوروبية لم تكن في حاجة إلى أن تقنعم على الدولة العثمانية قوتها ، ولا شك أن نظم الحكم العثماني مسئولة إلى حد كبير عن الجمود الذي أصاب الدولة ، حيث أن قوة الدولة كانت مستمدة — في كثير من الأحيان — من قوة سلاطينها ورجالها الباب العالي ومن نزاهة كبار الموظفين وحكام الولايات (الولاة) . ولكن بعد السلطان مراد الرابع^(٤) — آخر السلاطين العظام الفاتحين — تولى العرش عدد من السلاطين الضعاف الذين لم يحسنوا اختيار

(١) باستثناء الجزء الجنوبي الشرقي .

(٢) باستثناء مراکش .

(٣) باستثناء حركتي نجر الدين المعني الثاني وعلى بك الكبير اللتين فشلتا في إنشاء علاقات

خارجية دائمة .

(٤) حكم من ١٦٢٣ — ١٦٤٠ .

موظفيهم أو حكام الولايات . ثم إن الدولة كانت مقسمة إلى ولايات يحكم كل منها « وال » كانت مدة حكمه قصيرة ، وكانوا لا يعنون إلا باستتباب الأمن وجمع الضرائب ، ولم يعنوا بالخدمات التعليمية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية . فتلك الخدمات كانت من جهة نظر الحكام العثمانيين من مسؤوليات الشعب نفسه ، الأمر الذي حال دون وجود مثل هذه الخدمات بسبب انتشار الجهل بين أفراد الشعب ، ولعدم احتكاكه بشعوب خارجية يقتبس منها أشكالاً حديثة من الخدمات الضرورية . هذا إلى أن الشعب كان يعيش على هيئة دوائر شبه مغلقة نتيجة لسطحية الحكم العثماني من جهة ولأن الشعب كان مقسماً إلى طوائف (١) ، وملل (٢) ، وأهل مدن (٣) ، وأهل أرياف (٤) ، وإلى عشائر (٥) وعصبيات محلية حاكمة معترفة بالتبعية للسلطان (٦) . وهكذا كان التفكك هو الطابع الواضح للتشكيل الداخلي للدولة العثمانية حيث أن ذلك النظام كان يقوِّع كل ولاية وكل ملة ، وكل عصبية وكل طائفة وكل عشيرة حول نفسها . ولم تلبث الولايات العثمانية أن أصبحت تحت حكم عصبيات محلية سواء بموافقة الباب العالي عن طيب خاطر أو رغم أنه .

- (١) كانت كل طائفة مسئولة عن تدبير أمورها بنفسها ، وكان شيخ الطائفة هو المسئول عن تحسين أحوال طائفته وحل مشاكلها الداخلية أو مشاركتها مع الحكومة .
- (٢) كانت لكل ملة غير إسلامية قوانينها الخاصة بها . ولم تكن الدولة تتدخل في القضايا المذهبية طالما لا يوجد تهديد مباشر للأمن . وكان للرئيس الديني — كالبطريق مثلاً — سلطات مالية وإدارية واسعة .
- (٣) كان أهل المدن أقرب الناس إلى متناول أيدي الحكام . ومن ثم كانت أغلب المدن الكبرى خاضعة للحكم العثماني فيما عدا تلك المدن التي ظهرت فيها أسر حاكمة مثل مدن السليمانية وأربيل والعمادية .
- (٤) لم يكن الفلاحون طائفة متماسكة ، وإن كانوا يشكلون القاعدة الشعبية الكبرى في المناطق الخصبة في العراق ومصر والشام وشمال إفريقيا ، وكانوا يعانون من شدة استبداد الحكام بهم .
- (٥) كانت العشائر العربية تملأ العراق والشام وشبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وأطراف مصر ، وكانت كل عشيرة تحت إمرة شيخها ، وكانت هذه العشائر تكره الحكم العثماني التركي وتقاومه كلما استطاعت ذلك . وأما العشائر الكردية في شمال العراق فكانت تلمب على الحكام العثمانيين وعلى الفرس الطامعين في الاستيلاء على العراق .
- (٦) أبقى السلاطين العثمانيون الأمراء الأكراد ، وكذلك شيوخ العشائر وشريف مكة في مشيختهم مكتفين بإعلان هؤلاء الزعماء الولاء للسلطان العثماني .

ولقد ظهر المماليك في العراق في منتصف القرن الثامن عشر كعصية احتكرت الحكم في ولاية بغداد وتوابعها^(١) وحاول المماليك أن يفرضوا حكمهم على العراق بأسره ، ولكن قاومتهم الإمارات والعشائر الكردية بقوة لا تقبل عن مقاومة العشائر العربية لهم . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون بقلق بالغ إلى تلك العصابات ويودون لو استطاعوا أن يعيدوا حكمهم المباشر إلى ولاياتهم ، ولكن توالى الأزمات الداخلية والحروب الحاصرة ضد روسيا والنمسا شغلت الدولة العثمانية عن مهمة إعادة الحكم المباشر إلى جميع الولايات

وظل الأمر على هذا النحو حتى وقعت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأثبتت هذه الحملة عجز العصابة المحلية المملوكية الحاكمة في مصر عن حماية البلاد ، كما أثبتت عجز الجيوش العثمانية عن طرد الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة الإنجليز . وأصبح جلياً أن الدولة العثمانية أصبحت في حاجة سريعة إلى تجديد جيشها إذا أرادت أن تدفع عن نفسها عدوان العرب الذي تعددت لديه مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين دوله . ولقد أقدم السلطان سليم الثالث على محاولة جريئة لإعداد جيش على النظام الأوربي إلا أن الرجعية الانكشارية البكتاشية في الآستانة وجهت ضربة سريعة وقاضية للسلطان ، أنهت حياته ، وأوقفت مشروعه ، ولكن إلى حين . فمع أن السلطان محمود الثاني تولى العرش في أعقاب ذلك الانقلاب الرجعي (١٨٠٨) إلا أنه بمرور السنوات أدرك أن سلفه سليم الثالث كان على حق ، فدر ضربة محكمة للانكشارية (١٨٢٦) قضت عليهم نهائياً ، وأطلقت يده في إصلاح أمور الجيش ومختلف أجهزة الدولة . وكان من أعز أمانيه أن يعيد حكمه المباشر إلى كل الولايات الواقعة تحت حكم العصابات ، ونجح فعلاً في أنه يعيد حكمه المباشر إلى ولايات العراق والأناضول وطرابلس (ليبيا) . إلا أن اصطدام محمود الثاني بالثورة القومية اليونانية ، وبمركة التوسع المصري أيام « محمد علي » أدى إلى عرقلة تلك الجهود . ولقد أرغمت الدول الكبرى الأوربية محمد علي على الانسحاب من المورة إلا أن « محمد علي » انزع

(١) كان العراق مقسماً إلى ولايات أربع هي (بغداد ، الموصل ، شهر زور ، البصرة) ولم تلبث البصرة أن أصبحت متسلمية تابعة لبغداد ، بينما تلاشت ولاية شهر زور وأصبحت عدة إمارات كردية من أشهرها الإمارة البابانية في السليمانية ، والبهديبانية في الهاديية ، والبوتانية في جزيرة بن عمر ، والصورانية في رواندوز ، وكانت هذه الإمارات تحت إشراف ممالك بغداد . أما الموصل فظلت ولاية قائمة بذاتها .

منه الشام ومع أن الحكم المصري في الشام كان حكماً تقديمياً — إذا قيس بالحكم العثماني هناك — فإن الدول الكبرى الأوربية وعلى رأسها إنجلترا ، عملت على سلب مصر مكاسبها وعلى منع قيام دولة عربية قوية في المنطقة ، حيث أن مصر خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر أصبحت تسيطر سيطرة فعلية على خطوط المواصلات العالمية الحديثة السريعة بين أوروبا والشرق الأقصى . ثم إن السلطان العثماني عقد اتفاقية خنكارسكله سى (١٨٣٣) في أعقاب هزأته أمام الجيوش المصرية ، فاتحاً بذلك المضائق أمام الأسطول الروسي ، واعتبرت إنجلترا تلك الاتفاقية بمثابة حماية روسية على الدولة العثمانية .

لهذا وضع بالمرستون Palmerston — وزير خارجية إنجلترا حينذاك — سياسته على أساس إعادة ولايات الشام وشبه الجزيرة العربية إلى السلطان العثماني ، على أن تصبح إنجلترا من وراء ذلك صاحبة اليد العليا في خطوط المواصلات العالمية عبر العراق أو مصر . فأزلت الحكومة الإنجليزية أربع بوادر مسلحة في أنهار العراق بين ١٨٣٥ — ١٨٣٩ فجعلت العراق بذلك قاعدة دفاعية هجومية ضد الوجود المصري في الشام وتمنع أية محاولات لإيجاد تعاون بين شعبي العراق ومصر ضد الحكم العثماني . كذلك عملت السلطات الإنجليزية على مساعدة العثمانيين في القضاء على العصبيات المحلية المتطلعة إلى مصر أو المستفيدة من التوسع المصري^(١) .

وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر من العوامل التي دفعت الدولة العثمانية إلى تنفيذ الإصلاحات العسكرية ، فإن انتصارات المصريين في الشام كانت دافعاً مباشراً للعثمانيين لتطوير نظمهم ، فصدر خط كلخانة (١٨٣٩) الذي نص على المساواة بين الرعية أمام القانون بغض النظر عن الدين والمذهب ، وعلى أن يتحمل الجميع أعباء المواطنة العثمانية فيما يتعلق بموضوعي الضرائب والجنسية . وإذا كانت الرجعية الانكشافية هي التي عصفت بمحاولة سليم الثالث الإصلاحية فإن السلبية البيروقراطية والجهل والاضغوط الاستعمارية هي العوامل الرئيسية التي جمدت خط كلخانة وجعلته مجرد حبر على ورق . على أن هذا الخط يمكن أن يعتبر نقطة بداية لإصلاح جديد ، كما يعتبر بداية

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠-١٨٧٤ ، المكتبة العربية

القاهرة ١٩٦٨ الفصل الخامس ص ١٢٠ - ١٥١ .

لظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية ومللها . فقد اعتقد المسلمون أن ذلك الخط سيؤدي إلى تحول من جانب الدولة إلى المسيحية الأوربية . بينما اعتقدت الملل المسيحية في الدولة أن ذلك الخط إيذان بانتصار قريب للمسيحية على الإسلام ، وأن الوقت قد أزمف لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم في أيدي مسيحي أوروبا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية ، ولهذا رأى المسيحيون في الدولة العثمانية في ذلك الخط حقوقاً لهم ، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة ، فامتنعوا عن الدخول في الجندية ، ورحب المسلمون بذلك .

والملاحظ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية والكنسية الأوربية بمسيحي المشرق العثماني ، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون في قناصل إنجلترا وفرنسا وفي المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستانت الإنجليز والأمريكيين قوة يعتمدون عليها في التخلص من الواجبات المفروضة عليهم ، وفي الحصول على حقوقهم ، بل وفي الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين المحليين . وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتناً هوجاء ، وهذا ما حدث في شمال العراق بين النساطرة^(١) والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحجة للنساطرة كان لها دوى كبير في دوائر الدولة والدوائر العالمية .

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت أزمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة في العتبات المقدسة وحكومة فارس من جهة والحكومة العثمانية من جهة أخرى^(٢) . وكانت فارس الجبلية الشيعية المذهب خلال القرون الماضية تتطلع إلى احتلال سهول العراق الخصبة التي تحتوى على قبرى

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ م) الذي دعا إلى المذهب الذي عرف باسمه والذي يجعل المسيح طبيعتين لإحداها لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحدها كبراس بطريق الأسكندرية حتى نفاه ومات في المنفى (٤٥٠) . وخلال العصر العباسي كانت أكثرية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات مقصودة حتى القرن التاسع عشر . وقد درسنا الصراع الدموي بين النساطرة والأكراد في ١٨٤٢ في كتابنا « تاريخ العراق الحديث » الفصل السادس .

(٢) العراق قسمة تقريباً بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع في السيطرة على المدينتين سيطرة كاملة .

الإمامين « علي » و « الحسين » . ولا يكاد يمر قرن من الزمان حتى تنقض الجيوش الفارسية على العراق لتطردها الجيوش العثمانية ... وهكذا . وخلال الصراع بين محمد علي (والى مصر) والسلطان محمود الثاني ، مد شاه فارس يده إلى « محمد علي » لعله يتفاهم مع محمد علي من أجل استعواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على السليمانية والمهمرة . والعتبات المقدسة^(١) . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثماني في العراق ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وكاد الموقف أن ينفجر عندما حاصر نجيب باشا (والى بغداد ١٨٤٢ — ١٨٤٧) كربلاء وكانت قد استعصت على اسلافه . وحيث أن الجالية الفارسية بالمدينة تمسكت بالقوة بما كان لكربلاء من شبه استقلال ذاتي^(٢) ، فقد تحول هجوم القوات العثمانية على المدينة إلى مذبحه للشيعه هناك ، ولم تبدأ الأمور إلا بتدخل كل من روسيا وانجلترا حتى سويت الأزمة بالمفاوضات .

وفي جنوب العراق كانت هناك مشكلة معقدة حول المهمرة وعربستان (خوزستان) فقد سبق أن استولى « علي رضا باشا » — والى بغداد — على المهمرة سنة ١٨٣٧^(٣) ولكنه تركها في يد رؤساء عشيرة كعب العربية^(٤) ، وكان عملاء الفرس من هؤلاء الزعماء أكثر دهاء من عملاء العثمانيين الأمر الذي أدى إلى ضياع المهمرة وعربستان من الدولة العثمانية بتمتضى معاهدة أرضروم الثانية (١٨٤٧) التي وقعت بوساطة من روسيا وانجلترا^(٥) .

(١) ع . نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٠٤ .

(٢) وصفت كربلاء في بعض الوثائق بأنها « A self-governing semi alien Republic » .
J. Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf Culcutta, 1915, Vol. I, Pt. I, pp. 1348-1349.

(٣) V. Fontanier : Voyage dans l'Inde, Paris, Tome I, pp. 360.5, (٣)
.374.5, 602.4 ; R. Taylors, Memorandum (I.O.R., P.P.G., Vol. 35, pp. 799-818).

(٤) H. Layard : Early Adventures in Persia, London 1887, (٤)
Vol. I, pvp. 455-459, Vol. II, pp. 216, 244, 271-272 ; Taylor's Despatch to the Secret Committee : July 8, 1842. (India Office Records, Political Agent at Bagdad, Vol. 13, pp. 77-79).

(٥) انظر نص الاتفاقية في « الجمهورية العراقية (وزارة الخارجية) قضية الحدود المراقبة-

الإيرانية — مطبعة الحكومة — بغداد ١٩٣٥ ص ٤ — ٨ .

وبينما حصلت فارس على عربستان بمقتضى تلك المعاهدة فقد تخلت عن جميع مطالبها في السلمانية وكردستان. وكان ذلك تمهيداً للقضاء النهائى على العصبيات المحلية الحاكمة في كردستان. ولقد كانت الإمارات الكردية في شمال العراق مثار مشاكل معقدة متتالية بين الدولتين الفارسية والعثمانية، واستطاعت الحكومة العثمانية أن تقضى على الأسرات الحاكمة الكردية الواحدة بعد الأخرى، فسقطت الأسرة البهديمانية والأسرة البوتانية والأسرة الصورانية ولم يبق من العصبيات الكردية الحاكمة سوى الأسرة البابانية في السلمانية. وكان أحمد بابان هو الأمير الحاكم أثناء المفاوضات التي سبقت عقد معاهدة أرضروم الثانية. وكان الرجل جريئاً طموحاً. ووجد في القنصل الإنجليزي في بغداد المستر هنرى رولنسون Henry Rawlinson قوة تشد أزره ضد العثمانيين. وكان رولنسون يحث حكومته والحكومة العثمانية على الإبقاء على أحمد بابان حاكماً على السلمانية، إلا أن العثمانيين كانوا قد عقدوا العزم على تصفية الإمارات والعصبيات في العراق، وزحفت القوات العثمانية — بالتعاون مع عبد الله بابان أخى أحمد — صوب السلمانية وأرغمت أحمد على الفرار من عاصمته إلى إيران وتولى الحكم مكانه أخوه عبد الله (١). وعلى عادة البابانيين عاد أحمد من الأراضى الفارسية على رأس جيش جديد لاستعادة حكمه ولكنه فشل في هذه المحاولة رغم الدفاع الحار من جانب رولنسون عنه. وبعد ذلك بوقت قصير استدعى «عبدى باشا» — والى بغداد — من السلمانية حاكمها عبد الله بابان واحتفظ به في بغداد ثم نفاه إلى الآستانه (١٨٥١) وانتهى بذلك حكم الأسرة البابانية (٢).

تلك كانت الأوضاع العامة في العراق قبيل حرب القرم، ويمكن أن نوجزها في النقاط الرئيسية التالية.

١ — كان العراق مقسماً إلى ولايتين (بغداد والموصل). كانت بغداد مسئولة عن أمور البصرة وكردستان.

٢ — أصبحت للعراق قيمة كبيرة في مجال التنافس الدولى حول خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب بواسطة البواخر أو بواسطة السكك الحديدية.

H. Rawlinson to S. Canning, August 6, 1842, June 24, July 8, 1846, Sept. 29, 1846, F.O. 195/237; Rawlinson to Addington, No. 4, June 26, 1846, F.D. 78/656. (١)

Rawlinson to Aberdeen June 14, 1853, F.O. 195/957; Kembell to Canning No. 6, February 27, 1850, No. 21, July 3, 1850, F.O. 195/334. (٢)

٣ — انتهى عهد العصبية المحلية الحاكمة ولكن ظلت العشائر العربية والكردية على ما هي عليه من التنازع شديد حول شيوخها ومن ثورات تكاد تكون موسمية على الحكومة .

وكانت عشائر الجاف الكردية السنية تثير مشاكل عديدة عبر الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، كما أن بعض العشائر العربية الشيعية كانت مستعدة للثورة بالتعاون مع الفرس . وكانت حكومة طهران وسلطانها في المناطق المجاورة للعراق مستعدة لإمداد الثوار السنيين والشيعة على السواء بالمساعدات المادية والعسكرية ضد الحكومة العثمانية ، خاصة وأن ذكريات أزمة كربلاء الدموية كانت لا تزال قريبة ، وأنه كانت هناك تطلعات قوية من جانب شيعة العتبات المقدسة نحو فارس . إلى جانب هذا كانت مشكلات الحدود لا تزال قائمة ، وكانت كل دولة تحاول أن تثبت بطريقة أو بأخرى أحقيتها في الأقاليم المتنازع عليها (قطور، زهاب ، الحمرة) . وكانت هناك لجنة مشتركة لتحديد الحدود تقوم بعملها في وضع خريطة تفصيلية لتلك الحدود . وكانت هذه اللجنة مكونة من مندوبين عن الدولتين الفارسية والعثمانية وعن الدولتين الوسيطتين : روسيا وإنجلترا . وخلال أزمات الحدود بين الدولتين اتضح أن روسيا كانت تشد أزر فارس ، بينما كانت إنجلترا تشد أزر الدولة العثمانية^(١) .

٤ — كانت ذكريات المذابح الطائفية بين الأكراد والنساطرة لا تزال تدوى في الآذان وكان النساطرة على استعداد للتعاون مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية ، خاصة وأن إنجلترا وروسيا تدخلتا لصالح النساطرة خلال تلك المذابح^(٢) هذا إلى أنه كان من المعروف أن روسيا تحمي الأرثوذكس وفرنسا تحمي الكاثوليك وإنجلترا تحمي البروتستنت في الدولة العثمانية ، فدارت في العراق منافسات شديدة بين المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والمبشرين البروتستنت الأمريكيين ، وكان النشاط

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث : الفصل الثامن .

(٢) Ross : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902, pp. 38, 52-59, 66-69, 135, 147 ; J. Piolet : La France au dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIXe siècle. Publiées sous la direction du Père J.B. Piolet, 2 Tomes. Paris, Tome I, pp. 259-260 ; J. Samuel : Journal of a Missionary Tour through the Desert of Arabia to Bagdad. Edinborough 1844; A. Grant : The Nestorians, London 1841.

التبشيري الفرنسي، قوياً لدرجة أن الممثلين الإنجليز في العراق تصوروا أن الفرنسيين بعد سنوات قليلة سيطروا سيطرة كاملة على مسيحي العراق ، فعمل المبشرون الإنجليز والأمريكيين على وقف النشاط التبشيري الفرنسي الكاثوليكي بين النساطرة ، وسموا إلى تحويل أكبر عدد منهم إلى البروتستنتية .

وبنشوب حرب القرم في يونيو ١٨٥٣^(١) كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب إلى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الإنجليز احتمالات قوية أيضاً عن أن النشاط الروسي سيتزايد في اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب . وكان الإنجليز كذلك يخشون من أن يستخدم الروس حكومة فارس في إثارة المشاكل في وجه الحكومة العراقية ، خاصة وأن علاقات فارس الإنجليزية لم تكن أقل سوءاً من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقد أن الإنجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها . كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوي بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط^(٢) .

وكانت سنة ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو إنجلترا الحرب ضد روسيا إلا في مارس ١٨٥٤ . وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة إذا ما طغنت فارس طغمتها في العراق . وكان احتمال انهيار الدول العثمانية قوياً

(١) لن نخوض في تفاصيل حرب القرم فهي أشهر من أن تعد . ودراستنا هنا قاصرة على دور العراق في هذه الحرب ويكفي أن نشير إلى أن الصراع الفرنسي الروسي السياسي المذهبي كان عاملاً رئيسياً لتلك الحرب . على أن آمال روسيا في المضيق بل في الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى لروس . ونشبت الحرب في يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى . ولما دمر الأسطول الروسي القطر البحرية العثمانية الراسية في سينوب دخلت فرنسا وإنجلترا الحرب . وكانت الأخيرة قد عزمت على منم روسيا من أن تنوسم على حساب الدولة العثمانية .

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ - ١٨٥٦) أكبر حليف لبريطانيا في الخليج العربي واشترك معها في العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربية المطللة على الخليج العربي في ١٨٠٩ وفي ١٨١٩ .

جداً لدى هنرى رولنسون — القنصل الإنجليزي في بغداد ، فطفق يدبر أمره على هذا الأساس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء إنجلترا على العراق وكان يرى أن الإنجليز قد فاتتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى (١٨٣٢ — ١٨٣٩) ، وأن الفرصة قد وامت للإنجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتهزوها .

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التى يجب أن تستعمرها بريطانيا هى ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى وعناه ومصب شط العرب . وأخذ رولنسون يحث حكومته على الإسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الكبرى على طريق الهند . ولأن أهل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — يبنظرون يوم الخلاص من الحكم التركى على يد الإنجليز^(١) .

لكن هذه المخططات التى وضعها رولنسون لم تكن تتمشى مع سياسة حكومة لندن التى أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسى من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن أنظار قنصلها فى بغداد إلى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى دائرة اختصاصه ، وأهم ما يجب عليه أن يفعله فى هذا الصدد هو منع فارس من استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق^(٢) .

ومع أن المسئولين الإنجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان فى ظهره وأنه لن يثير مطالبه فى قطور وكردستان وعربستان وكربلاد فى هذه الظروف إلا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماماً بالحكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف إلى اغتصاب العراق بالقوة^(٣) .

والملاحظ أنه فى أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة

H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853, F.O. 195/957. (١)

Clarendon to Rawlinson : November 3, 1853, F.O. 78/957. (٢)

Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R., (٣)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239) ; Rawlinson to Redcliffe : June
29, 1853, F.O. 195/367.

من حوادث الحدود فسرتهما السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسي للعراق . فقد هاجمت عشائر من بني لام^(١) الشيعية العربية القوات العثمانية ثم فرت إلى الأراضي الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية^(٢) . كذلك أثارَت بعض عشائر الحلف الكرديّة السنية الفوضى على الحدود العثمانية — الفارسية . وكانت لدى الممثلين الإنجليز في طهران معلومات تؤكد أن بعض المالكين للروس في البلاط الفارسي على اتصال بعشائر الحدود بقصد إثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفاً عن جبهات القتال الرئيسية التي تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة في البلقان والأناضول^(٣) .

وكان رشيد باشا الكوزللكي قد تولى باشوية بغداد في ١٨٥٢^(٤) . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشتونون هجوماً على العراق إن أجلا أو عاجلا . وتبعاً لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسي المنتظر . وكان على رشيد الكوزللكي أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالي الذي لم يكن لديه أى احتياطي من المال أو القوات لإرسالها إلى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التي واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزللكي الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية ، فلجأ إلى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالي لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية . وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجاً لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث إنكار الذات وبذل الأموال في مثل هذه الظروف الحرجة . ولكنه عندما شرع في جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع إلا من أولئك الذين يقعون مباشرة تحت سيطرة الحكومة ، مثل الموظفين ، وأصحاب المنازل والتجار والأعيان والعلماء^(٥) ، أما العشائر العربية

(١) من كريات عشائر العراق . انظر عنها في عباس الغزاوي : عشائر العراق جزء ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/362.

(٣) Thompson to Clarendon : July 22, 1854, August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, pp. 594-602).

(٤) ظل والياً على بغداد حتى توفى بها سنة ١٨٥٦ .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : July 25, 27, 1853, F.O. 195/367.

والكردية التي تؤلف أغلبية سكان العراق — فلم تسهم في تقديم المعونات المالية ، أولاً لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جداً ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة إلا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكي كذلك في الأضرار اقتصادياً بفارس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءً مفتوحاً فتتحول إليه السفن ولا تذهب إلى المحمرة فيعود إلى البصرة ازدهارها^(١) ، كما فكر في إقامة تحصينات في زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة أضروم الثانية . ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع . وبإقامة تحصينات عثمانية في المنطقة يمكن إغلاق أخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق . إلا أن الإنجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لا لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضاً ستؤدي إلى أن يتخذ الفرس إجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية في هذا الوقت العصيب^(٢) .

كذلك اتجه رشيد الكوزلكي إلى وضع نقاط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشئ محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا إلى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة إلى جانب أنها يمكن أن تستخدم في منع التسليح من اجتياز الحدود من إيران إلى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الإجراءات ، واعتبرتها أقرب إلى الأعمال السياسية منها إلى أعمال الصحة الوقائية الدولية^(٣) . ويبدو أن رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم شستر حشد حينذاك عشرين ألف مقاتل^(٤) . ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هي الأمر الملح في مثل هذه التطورات .

Rawlinson to Shell : January 29, 1853, F.O. 78/957. (١)

Ibid.

Turco-Persian Boundary Negotiations, Part I, (1843-1844), pp. 115-119, Part III (1845-1852), pp. 107/115, . . . 424/7B, F.O. 424/7D. (٢)

وانظر عباس الغزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد ج ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367. (٣)

Rawlinson to Redcliffe : No. 37, December 28, 1853, F.O. 195/367. (٤)

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكى سوى ١٦ ألف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية . ولكن لم يكن فى استطاعته أن يطلب المساعدة العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التى استعجدها السلطان محمود الثانى من قبل لإتقاذ العراق من الغزو الفارسى^(١) سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد أرسلت جزءاً من قواتها إلى جبهة البلقان^(٢) ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة فى شمال العراق والشام والأناضول إلى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أى هجوم من تلك النواحي^(٣) . بل لقد طلب السلطان العثمانى من والى الموصل — فى وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لإرسالهم إلى جبهة القرم^(٤) . وآثرت القيادات العثمانية ألا تسحب أية قوات من تلك التى تحت قيادة رشيد الكوزلكى حتى تمكنه من مواجهة أى هجوم مفاجئ فارسى^(٥) .

كان رشيد الكوزلكى فى نفس الوقت لا يستطيع أن يلقى بكل ما لديه من قوات فى الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التى يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن فى وسع رشيد الكوزلكى سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندى فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسى . وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . إلا أن رشيد الكوزلكى عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندى — سالف الذكر — فى مواجهة الغزو الفارسى فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية إلى جانب جيش الحكومة دفاعاً عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكى يعتقد أنه بذلك يستطيع

(١) ع. نوار : داود باشا : المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٢) عبد الرحمن الراقعى : عصر اسماعيل . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ١٨

— ٣٥ و ١٩ — ٣٧

(٣) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rassam to Cadrington (C. in C. of British Forces in the East, April 7, 1856), No. I, F.O. 195/394.

(٥) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.
Rawlinson to Malmesbury : F.O. 78/957, 1853.

أن يكسب هدوء العشائر وبالتالي يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات في جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجعل من المسير على الفرس التدخل في أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه (١) . ويبدو أنه لقي نجاحاً في هذه الخطوة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب (١٨٥٣ — ١٨٥٦) (٢) . بل إنه استطاع أن يدعوا عشائر ستمر الجربا (٣) وعشائر عتره (٤) إلى الإنضمام إلى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق (٥) أن تكون على أهبة الاستعداد لحوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلـكلى بالأمرات الكردية الحاكمة سابقاً ، لجمع قوات إضافية . فقد طلب من رسول بك (آخر أمراء راوندوز) أن يتوجه إلى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الأستانة عبد الله بابان — آخر حكام السليمانية — وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية (٦) .

وخلال هذه الحرب اكتشف الكوزلـكلى قيمة استخدام البواخر في النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا . عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومي والنصف الثاني أهلي لشراء باخرتين لتعملا في أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلـكلى أحد المصانع

Ibid. (١)

(٢) ع. العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٠٥ — ١١٦ .

(٣) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٤) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل في الصحراء بين العراق والشام .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

وعشائر المنتفق في جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٦) Rawlinson to Redcliffe : No. 34, 35, November 16, 30, 1853, Ibid.

البلجيكية^(١) لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول إن حرب القرم هي أول حرب أوروبية استخدمت فيها البواخر^(٢) وأنها أيضاً أول حرب أدت إلى استخدام البواخر الوطنية في المياه العراقية .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسؤولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن إعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم في مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثماني لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران أن لم توقف تلك الإستعدادات . ولكن دون جدوى^(٣) . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وأن القنصل الفارسي في العراق كان في الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التي كان يعاني منها الفرس في العتبات المقدسة حينذاك^(٤) . وبما زاد في حدة التوتر أن الفرس عينوا خبيراً روسياً في الجيش الفارسي المرابط في (بوشهر) وإقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديداً مباشراً للعراق حيث أن العثمانيين كانوا في حرب فعلية ضد الروس^(٥) .

ثم إن الفرس بعثوا بقواتهم إلى جزيرة (خرج) فرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه في شط العرب لنهم

(١) يلاحظ أن رشيد الكوزلكلي لم يطلب بناء الباخرتين في المصانم البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الإمكان عن مصادر النفوذ الإنجليزي في العراق . انظر عباس الزاوي : تاريخ العراق ج ٧ ص ١١٠ — ١١٤ .

T. Cuienet : La Turquie d'Asie, Paris, Tome III, p. 249.

(٢) . f. جرانث وه . تمبلي : تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمي ومراجعة د . أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ص ٤١٧ .

Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., (٢)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-9.

Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 34 (٤)
November 30, 1853, F.O. 195/367.

Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., (٥)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239.

من عبوره^(١) . ومع أن المحمرة كانت قد أصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية ، إلا أن رشيد وجد أن الخطر الذى يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وأنه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفملا عرض الكوزلكلى على الشيخ جابر — شيخ المحمرة — أن يتعاون مع حكومة بغداد^(٢) . ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلوا الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسى ، وهو أمر كان يراه الإنجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم وأطماعهم فى المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح فى قبضتهم ، وأن السفن الإنجليزية العاملة بين بغداد والبصرة والخليج العربى والمهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق إلى الهند فى يد فارس العادية للإنجليز حينذاك . ولهذا لم يكتف الإنجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وإنما أرسلوا إلى شط العرب إحدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند Auckland لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لإتعام حرب على الدولة العثمانية^(٣) . وأغلب الظن أن الإتفاق — الذى توصلت إليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية للحاق بها^(٤) — كان بوساطة الإنجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين .

Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., (١)
P.P.G., Vol. 107, pp. 83-90).

Rawlinson to British Embassy : January 25, 1854, No. 2 (٢)
(Saldanha : Precis of Turkish-Arabia, Calcutta 19-4, Paragraph
No. 7).

Ibid. (٣)

Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I.O.R., F.R., (٤)
P.P.G., Vol. 108, p. 703).

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التي وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسي السفن العثمانية الراسية في ميناء سينوب في وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد أحرزت تقدماً كبيراً ، ولكن تلك الحادثة أدت إلى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تعن كثيراً بنواحي العراق في المراحل الأولى من الحرب اعتماداً على المفاوضات الجارية لمعد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على إثارة المشاكل في وجه العثمانيين في العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا إلى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثماني في العراق وكانت بمض هذه القوى مستعدة فملاً لأن تمد يدها إلى الروس ومن ذلك أن شيخ عشيرة (بانيازلي) الكردي ثار على الحكومة العثمانية وانضم إلى الروس^(١) . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بمشائركردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهين للحكم العثماني^(٢) . ولكن هذه الاتصالات جاءت في وقت متأخر جداً من الحرب ولعل هذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة في أن يقوم الفرس بعمل إيجابي ضد العراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدي سقوط سباسبول (١٩٥٥/٩/٨) في يد الحلفاء إلى التخفيف من النشاط الروسي نحو العراق ، إلا أن سقوط قارص في يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس إمكانات وفرصاً أوسع لزيادة نشاطهم في أنحاء العراق . وفعلاً خشي الإنجليز من تزايد هذا النشاط الروسي بين عرب وأكراد العراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكي أشد تخوفاً من الإنجليز في هذا الصدد حتى أنه طلب من الإنجليز أن يبعثوا إلى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشاركة في الدفاع عن البلاد^(٣) .

وليست هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها قوات هندية إلى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سنة ١٨٥٥ وهم في طريقهم

Rassam to Redcliffe : No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394. (١)

Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5, February 4, 1856, F.O. 78/1212. (٢)

Ibid. (٣)

إلى جبهة القتال الروسية العثمانية في قارص^(١) ولكن القوات التي طلبها رشيد الكوزلكي لم تمد هناك حاجة إليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيداً لعقد الصلح وبالتالي توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا أن الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبي الحدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون أن تقع اشتباكات بين الطرفين . وظل الهدوء سائداً على المسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصلح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات . ولكن أثر ذلك الصلح تأثيراً غير مباشر على فارس ، حيث تمكنت إنجلترا — بعد أن فرغت من حرب القرم — من أن توجه ضربة إلى قارص ، فأرسلت حملة بحرية صمدت في نهر كارون واستولت على المهجرة (١٨٥٧) ، واشتركت في هذه العمليات الباخرة الإنجليزية المسلحة كوميت Comet الراسية أمام القنصلية الإنجليزية في بغداد . وتغاضى العثمانيون عن ذلك حيث أن التحالف الإنجليزي العثماني كان في ذروة قوته^(٢) .

وبعد حرب القرم ازدادت أهمية العراق ازدياداً كبيراً جداً نظراً لأن الفرنسيين كانوا فعلاً قد أخذوا من سعيد باشا — حاكم مصر — امتياز حق قناة السويس (١٨٥٤ — ١٨٥٦) . وأصبح طريق العراق — في نظر الإنجليز — هو الطريق البديل إذا ما سيطر الفرنسيون على قناة السويس . كذلك رأى عدد من الإنجليز المعينين بالمواصلات الإنجليزية مع الشرق الأقصى أنه قد أصبح من الضروري على إنجلترا تنفيذ المشروع الذي يربط البحر المتوسط بالخليج العربي بخط حديدي يتولى أمره الإنجليز . وتزعم هذه الفكرة و . أندرو Andrew^(٣) ، ف . جسي

Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. (١)
78/1212.

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Part I, (٢)
p. 1386 ; Tart II, p. 1698.

P. Sykes : A History of Persia, London 1951, Vol. II, (٣)
pp. 349-351.

(٣) اشتبه بمعموعات من خطوط حديدية في الهند وبدعاياته واسمة النطاق من أجل مد خط حديد الفرات .

Chesney^(١) . ولكن بالمرستون أعلن في البرلمان البريطاني^(٢) أنه لن يوافق على إعطاء أى تأييد حكومى لمثل تلك المشروعات ، وفي نفس الوقت نثار بالمرستون في معارضته لمشروع شق قناة السويس^(٣) على أن الحكومة الإنجليزية في الوقت نفسه قررت أن تكون لها السيطرة الاحتكارية على أنهار العراق من النواحي التجارية والنواحي العسكرية على السواء ولم يتورع الإنجليز في ذلك عن أن يقتلوا أو على الأقل أن يسهموا في الإجهاز على مشروع رشيد باشا الكوزلكى الذى سبق أن أشرنا إليه . فملاحظ أن الباخرتين اللتين طلب رشيد باشا شراءهما لاستخدامهما في المياه العراقية لربط بغداد بالبصرة بخطوط بواخر منتظمة ، بدأتا في العمل في العراق في أبريل ١٨٥٩^(٤) ولم تمر سنة واحدة حتى تعطلت الباخرتان وأسمرت البيوتات الإنجليزية في العراق إلى تأليف شركة عرفت باسم شركة لينش للملاحة البخارية في نهري دجلة والفرات في ١٨٦٠ .

Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company.

وكان بيت لينش هو ممثل هذه الشركة في العراق ثم استصدرت السفارة البريطانية في الاستانة فرماناً من الباب العالي يعطيهم حق استخدام باخرة في نهردجلة وفعلاً نزلت الباخرة سيقى أوف لندن إلى المياه العراقية في ١٨٦٢ . وتوالى نزول البواخر التجارية البريطانية في العراق حتى تفوقت البواخر البريطانية على العثمانية في الوقت الذى كانت توجد في المياه العراقية منذ ١٨٣٩ باخرة مسلحة بريطانية^(٥)

(١) هو نفسه قائد بعثة الفرات التى وضعت أساس السيطرة البريطانية على أنهار العراق (١٨٤٤ — ١٨٣٧) . وقد أورد هوسكنز تفاصيل وافية عن نشاط كل من أندرو وحسى في هذا الصدد .

انظر British Routes to India : London 1928, Chapters : VII, VIII, XIII.

(٢) Ibid., p. 24-26.

(٣) الرفعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٥٧ — ٦١ .

(٤) R. Brant's Memorandum Respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913. Confidential (10207), pp. 23-26.

Cuinet : op. cit., Tome III, p. 249.

(٥) Ibid., p. 341.

ولم يكن للعثمانيين أى باخرة مسلحة على نفس المستوى أى أن السيطرة العسكرية كانت لهم هناك وبفضل البواخر البخارية الجديدة حصلوا على السيطرة الاقتصادية كذلك . الأمر الذى سيؤدى إلى نزاع متطاوّل بين الإنجليز والعثمانيين لم يحسمه سوى الاحتلال البريطانى للعراق خلال الحرب العالمية الأولى .

المراجع العربية

- جرانث وعمبرلى : تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ،
ترجمة بهاء وفهمى ، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل
العرب .
- الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج ١ ، الطبعة الثانية —
القاهرة ١٩٤٨ .
- صفوت (محمد مصطفى) : محاضرات فى المسألة الشرقية ومؤتمر باريس
بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية —
القاهرة ١٩٥٨ .
- الزاوى (عباس) : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٤ ،
١٩٥٦ ج ٦ ، ج ٧ .
- نوار (عبد العزيز) :
- * تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠ — ١٧٨٢ ، المكتبة العربية —
دار الكاتب العربى القاهرة تحت الطبع .
- * داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ ، المكتبة العربية —
دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ .

صحف

- تقديم وقائع ، العدد ٥٤٧ لسنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥١ م .

Abbreviations

I.O.R., F.R., P.P.G. : India Office Records, Factory Records,
Persia and Persian Gulf.

الوثائق غير المنشورة

BRANT, R. : Memorandum respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913, F.O. Confidential 10207.

مصورة على ميكروفيلم

F.O. 78/656, 957, 1212.

F.O. 195/237, 334, 367, 394, 957.

F.O. 424/7 B, D.

مصورة على ميكروفيلم

India Office Records

● Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vols. 53, 106-108.

● Political and Secret Department, vol. 13.

LORIMER, J.H. : Gazetteer of the Persian Gulf, voll I, part 1, Culcutta, 1915.

SALDANHA : Precis of Turkish Arabia, Culcutta, 1904.

مصورة على ميكروفيلم

TAYLOR : Memorandum on the Actual Position of the Pachtalic of Bagdad (I.O.R., F.R., P.P.G., vol. 53, pp. 799-818.

المراجع الأوربية

CUINET, T. : La Turquie d'Asie, Paris, tome III.

FONTANIER, V. : Voyage dans l'Inde, Paris 1840 (2 tomes).

GRANT, A. : The Nestorians or the Lost Tribes. Containing Evidence of their Identity, London 1841.

- HOSKINS, J. : British Routes to India, London 1928.
- HUART, C. : Histoire des Arabes, Paris 1912, tome II.
- HUREWITZ, J. : Diplomacy in the Near and Middle East,
vol. I, London 1958.
- LAYARD, H. : Early Adventures in Persia, London 1887.
- PLATONOV, S.F. : History of Russia, London 1925.
- ROSS, H.J. : Letters from the East (Edited by his Wife),
London 1902.
- SAMUEL, J. : Journal of A Missionary Tour through the
Desert of Arabia, Edinborough 1844.
- SYKES, P. : A History of Persia, London 1951 (2 vols.).
- WHIGHAM, N. : The Persian Problem, London 1903.

أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابة ١٩٠٦

دكتور يونانده ليهب رزق

من أشهر الأزمات السياسية التي قامت حول خليج العقبة في القرن العشرين تلك الأزمة التي عرفت في الوثائق البريطانية « بأزمة العقبة » والتي أطلقت عليها الصحافة المصرية وقتها « حادثة طابة » ، هذه الأزمة التي احتدمت في الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٠٦ ، والتي نتج عنها أخيراً اعتراف الدولة العثمانية بخط الحدود المصرية من رفح إلى رأس خليج العقبة ، وبالتالي بالاعتراف بمصرية الساحل الغربي لهذا الخليج من النقطة الواقعة غرب العقبة بثلاثة أميال إلى مدخله في الجنوب .

وتفجر الأزمة نتج عن رغبة « الدولة العلية » في الاستيلاء على خليج العقبة وتمسكها أولاً بأن الحدود المصرية تمتد من العريش إلى السويس ، ولما تراجمت خطوة تنازلت عن السويس لتمد خط هذا الحدود بين رفح ورأس محمد . . المهم ظلت تركيا تبعد الخليج عن الأراضي المصرية ، وكان هدفها من وراء ذلك :

١ — تأمين فرع سكة حديد الحجاز المزمع مده — وقتذاك — من معان إلى العقبة بزحزحة الحدود المصرية غرباً مما يضيع على القوات المصرية أو قوات الاحتلال البريطاني اتخاذ سيناء كقاعدة لتهديد هذا الخط .

٢ — تحويل خليج العقبة — كما كتب كرومر — إلى بحر مغلق Mare Clausum في أيدي الآتراك^(١) بإبعاد مصر عن مداخله وساحله الغربي لأنه كان هناك أيضاً احتمالات العدوان البحري البريطاني على العقبة ، وقد كتب كرومر في هذا المعنى حين ذكر « أن الخط الحديدي سوف يكون تحت رحمتنا عندما يصل إلى البحر عند العقبة »^(٢) .

وفي سبيل تحقيق هذه الرغبة العثمانية وفرض « الأمر الواقع » قامت القوات التركية بعملية « قفز » إلى بعض المراكز التي ظلت تعتبر في الأراضي المصرية وهي طابة وتب العقبة والقطار .

Corres, Part LXV, No. 22, Lord Cromer to Sir Edward Grey, April 6, 1906, Tel. No. 89. (١)

Corres, Cart LXIV, No. 58, Lord Cromer to Sir Edward Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 32. (٢)

ولكن لا الحكومة المصرية ولا سلطات الاحتلال البريطاني كانت مستعدة لقبول هذا « الأمر الواقع » وكان دافعهما إلى ذلك :

١ — أن قبول الادعاءات التركية سيؤدي إلى أن يصبح للقوات العثمانية مراكز اقتراب خطيرة يمكن أن تهدد منها « قناة السويس » .

٢ — كما أن معنى قبوله أيضاً التنازل عن حقوق مصرية تاريخية ومقررة على الساحل الغربي للخليج العقبة .

ومن تشبث كل طرف بموقفه نشبت تلك الأزمة العنيفة والتي وصات إلى حد توجيه إنذار بريطاني للحكومة العثمانية في ٣ مايو ١٩٠٦ .
ولتمسك الحيط من أوله .

* * *

براية الأزمة وأصولها :

ضمن الأراضى التي أسندت إدارتها إلى « ولاية مصر بمحدودها القديمة » ، كما جاء في فرمان الصادر في يونيو ١٨٤١ لمحمد علي — بعض المراكز على الساحل الشرقي للخليج العقبة وهي « طابا » و « المويلح » و « العقبة » بهدف تأمين طريق الحج البرى بين مصر والحجاز .

ورغم توقف استعمال هذا الطريق بعد شق قناة السويس في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر ، إلا أن هذه المراكز ظلت تحت الإدارة المصرية حتى عام ١٨٩٢ حين نشبت أول أزمة بشأن ميناء وخليج العقبة .

ومن الغريب أن تبدأ تلك الأزمة من محاولات صهيونية مبكرة للتوطن في بعض مناطق الساحل الشرقي للخليج .

ففي خلال عام ١٨٩٠ زار مصر أحد اليهود وإسمه « بول فريدمان » الذى اتصل بسلطات الاحتلال البريطانى في مصر وأبلغها بنيتة على الهجرة إلى سواحل الخليج ، ولم تمنع تلك السلطات

وفي أواخر العام التالي — ١٨٩١ — عاد فريدمان مع عشرين من اليهود الألمان والروس ونزلوا جميعاً على ساحل الخليج ، ولكن كانت كل الظروف ضد هذه المحاولة اليائسة ، فالصحف المصرية نهبت إلى الخطر القادم من أوروبا ، كما أن الرجل وعصبته لم يحسنوا معاملة الأهالي هناك واشتروا أرضاً في ناحية « المويلح » مع أن قوانين الدولة العثمانية كانت لا تبيح بيع الأرض للأجانب في شبه جزيرة العرب (١) .

وأثار هذا الأمر الحكومة العثمانية التي لم تكثف بطرد فريدمان وجماعته من المنطقة ، وإنما انتهز السلطان عبد الحميد الثاني فرصة وفاة الخديوى توفيق في أوائل العام التالي — ٧ يناير ١٨٩٢ — وبعث بفرمان تولية خلفه عباس الثانى — ١٧ يناير — وقد تمعد إدخال بعض التغييرات على حدود الأراضى التي يديرها الخديوى قصد منها حرمان مصر ليس فقط من إدارة المرا كز التي كانت ممنوحة لها شرق خليج العقبة ، وإنما من قسم من أراضيها وهو شبه جزيرة سيناء .

وما أن علم المعتمد البريطانى فى القاهرة السير إيفلين بيرنج — اللورد كرومر فيما بعد — بمحتويات فرمان الجديد حتى طلب من الخديوى ومن الحكومة المصرية عدم قراءته ، فقد كان هذا الأمر يعنى :

١ — محاولة الاعتداء على تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ التي ضمنها الدول الكبرى .

٢ — الاقتراب العثماني بصورة خطيرة من « قناة السويس » مما يهدد شريان الإمبراطورية البريطانية الحيوى .

وقد تبع ذلك أن شهد شتاء ١٨٩٢ ضغطاً دبلوماسياً بريطانياً عنيفاً على استنبول اضطر الباب العالى معه إلى أن يرضخ أخيراً ويعود فيترك سيناء التي حاول أن يسلمها من مصر ويضمها إلى ولاية الحجاز .

وتقرر هذا فى البرقية التي أرسلها جواد باشا الصدر الأعظم إلى الخديوى عباس الثانى فى ٨ أبريل والتي جاء فيها « أما من جهة شبه جزيرة سيناء فهي باقية على حالتها

(١) المقطم — العدد ٥١٩٤ بتاريخ ٢ مايو ١٩٠٦ .

وتكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية التي كانت مداراة بها في عهد جدكم اسماعيل باشا
ووالدكم محمد توفيق باشا» (١) .

وقد عمل بيرنج على نشر البرقية بصورة عامة واعتبرت قسما مكملا لفرمان التولية ،
وحتى يمكن تجنب أى سوء فهم لمعنى البرقية فقد قدم المعتمد البريطانى فى القاهرة
مذكرة فى ١٣ أبريل إلى « تيجران باشا » ناظر الخارجية المصرى أبلغه فيها أن عليه
أن يعلم أنه لا يمكن حدوث أى تغيير فى العلاقات بين مصر والباب العالى دون موافقة
الحكومة البريطانية ، وأضاف « أن برقية الصدر الأعظم التى تفضلتم باطلاعى عليها
تجعل من الواضح أن شبه جزيرة سيناء وهى الأراضى المحددة من الشرق بخط يسير فى
اتجاه جنوبى شرقى من نقطة قريبة من شرق العريش إلى رأس خليج العقبة سوف تظل
تحت الإدارة المصرية . وأن قلعة العقبة الواقعة شرق هذا الخط سوف تبقى قسما من
ولاية الحجاز » .

وقد نشرت تلك الملاحظة — التى وافق عليها اللورد سولسبرى وزير الخارجية —
ومعها مراسلة أخرى خاصة بفرمان التولية ونسخة من برقية الصدر الأعظم فى الجريدة
الرسمية — الوقائع المصرية — وقد أرسلت جميعها إلى السفير البريطانى فى استنبول
فى ١٤ من نفس الشهر (٢) .

ولما كانت بريطانيا حريصة على ألا تظل المسألة محصورة فى دائرة الخلاف بين
السلطان وتابعه الخديوى وإنما أرادت أن تدخل الدول الكبرى كعنصر فى الموقف
على اعتبار أن المسألة خرق لتسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ التى ضمنتها تلك الدول فقد
أرسلت نسخ من الفرمان والبرقية وخطاب بيرنج إلى وزير الخارجية المصرى إلى
مختلف الدول وإلى ممثلى فرنسا وروسيا فى القاهرة .

وقد رد وكيل قنصل عام فرنسا فى القاهرة المسيو « ريفرسو Reverseaux »
فى ١٤ أبريل بأن « حكومة الجمهورية كلفت سفيرها لدى الباب العالى باعتماد هذين
الشاهانين » ورد القنصل الروسى المسيو « كوياندر Koyander » فى نفس

(١) فيليب جلاذ : قاموس الإدارة والقضاء ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

اليوم أيضاً بأن « سفير جلالة الإمبراطور بالأستانة اعتمد فخوى هذين المحررين باسم الحكومة الإمبراطورية » (١) .

وقد جمعت وزارة الخارجية المصرية كافة هذه المراسلات وطبعتها في كتيب رسمي في بداية العام التالي — ١٨٩٣ — وزع على كافة الوكالات الأجنبية في البلاد (٢) .
وهدأت المشكلة بعد ذلك حتى عام ١٩٠٦ .

في خلال تلك السنوات الطويلة بين عامي ١٨٩٢ ، ١٩٠٦ كانت الظروف في مصر وخارجها تتغير بسرعة لصالح الدولة العثمانية الأمر الذي أغرى القائمين على السلطة فيها بالعودة إلى إثارة مسألة سيناء وخليج العقبة مرة أخرى في أوائل ذلك العام الأخير .

١ — فأولاً زادت في تلك الفترة إلى حد كبير الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي رعاها وشجعها السلطان العثماني والتي لاقت أطيب الصدى في أنحاء العالم الإسلامي .

٢ — كما أنه في نفس الوقت ازدادت عملية مد الخطوط الحديدية داخل الدولة العثمانية وبالذات « سكة حديد الحجاز » التي كان في النية مد أحد فروعها من معان إلى العقبة ، وكان من المرغوب فيه تماماً ألا يتهدد ذلك الفرع أى « خطر أجنبي قريب » . وقد تمثل هذا « الخطر الأجنبي القريب » في الوجود البريطاني في سيناء تبعاً لوجوده في مصر .

٣ — وفوق ذلك فإن الجبهة الداخلية في مصر كانت مهيئة لخطوة عثمانية جريئة ضد الاحتلال البريطاني للبلاد ، ففي تلك الأعوام كان « الحزب الوطني » قد نما نمواً كبيراً ، وكانت ميول زعيمه « مصطفى كامل » الموالية للسلطان والجامعة الإسلامية واضحة تماماً تنادى بها جريدته « اللواء » في كافة أعدادها تقريباً .

٤ — يضاف إلى كل ذلك أن الجؤ الدولي كان ممهداً لإثارة المسألة بهدف إثارة

(١) فيليب جلاذ : المرجع السابق ج ٦ ص ٧٦١ .

(٢) Ministère des Affaires Etrangères : Firman Impérial
d'Investiture adressé à S.A. Abbas Hilmi pacha, Le Caire — Imprimerie Nationale, 1893.

المسألة المصرية كلها وإعادة طرحها على بساط الباحثات الدولية ، ففي تلك الحقبة كانت ألمانيا قد بدأت تظهر كقوة استعمارية منافسة للتحالف الاستعماري الفرنسي البريطاني ، وفي بداية هذا العام بالذات — ١٩٠٦ — كان هناك مؤتمر دولي في الجزيرة (بالعرب) وضع الوفاق الودي الذي كان قد عقد قبل ذلك بعامين فقط بين فرنسا وإنجلترا أمام اختبار عمير .

وكما كتب كرومر في مذكرة طويلة عن الأزمة مؤرخة في ٢١ مايو ١٩٠٦ « إن هدف الحكومة التركية هو امتحان قوة مركز البريطانيين في مصر والتعرف على مدى استمرار معونة الدول الأخرى في هذا الشأن »^(١) ، وكتبت جريدة « الطان » الفرنسية في نفس المعنى في مقال لها في ٢٩ أبريل حيث ذكرت « أن المقصد السري للسياسة التركية هو أن تفتح ضد إنجلترا كل المسألة المصرية وهو ما حاوله المسيو هانوتو أثناء أزمة فاشودة »^(٢) .

٥ — وأخيراً فلا شك أنه كان لموقف السلطات البريطانية في عدن من ثوار اليمن أبلغ الأثر على السلطان العثماني ، فقد أرسلت عدة تقارير من القاهرة إلى استنبول خلال صيف خريف ١٩٠٥ تؤكد أن الحكومة البريطانية تساعد ثوار اليمن بامدادهم بالسلاح والذخائر والأغذية ، كما أنها تعاون الفارين من صفوف الجيش التركي . وقد اعترف كرومر في نفس المذكرة السابقة بأن السلطات البريطانية في عدن قد احتفظت بأعداد كبيرة من الترك المهارين الجامعين لأنه لم يكن من الممكن تركهم يموتون جوعاً^(٣) .



تبدأ نذر الأزمة حين ظهر مقال في جريدة اللواء في ٩ ديسمبر ١٩٠٥ نبه فيه كاتبه بأن «سلطات الاحتلال البريطاني تعد صحراء سيناء لأعمال حرية مهمة وابتدأت نظارة الحربية في أواسط عام ١٩٠٥ في وضع تصميات هذه الأعمال» .

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) اللواء — العدد ٢٠٢١ في ٧ مايو ١٩٠٦ .

(٣) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, Desp. No. 77.

ويستطرد كاتب المقال في تحذيره من أعمال هذه السلطات متحدثاً عن مغزى تعيين ضابط بريطاني هو الكولونل براملي « قومنداناً لطور سيناء » وتخصيص مبلغ ٨٨ ألف جنيه في ميزانية العام التالي « لإصلاح شبه جزيرة سيناء » (١) .

وبعد ذلك بفترة قصيرة وفي ١٧ ديسمبر كتب والي سوريا إلى استنبول بأن الحكومة المصرية قد قررت بناء ثكنات عسكرية في المنطقة فيما بين العقبة والقسيمة ، وأضاف أن قوات الاحتلال البريطانية سوف تشارك في بناء تلك الثكنات .

وقد أجب السلطان في نفس اليوم يطلب من والي سبق المصريين وبناء مركز حراسة همامي في نفس المنطقة (٢) .

ويقرر كرومر أن الإنجليزي الوحيد الذي كان موجوداً في سيناء في هذا الوقت هو المستر براملي Bramly الذي كان قد عين قبل ذلك بفترة قصيرة مفتشاً مديناً للمنطقة ، ولم يكن هناك آنذاك جندياً واحداً بريطانياً أو مصرياً شرق السويس (٣) .

ولكن يوضح بلنت Blunt الأسباب التي دعت إلى إرسال براملي .. يقول .. أن براملي الذي لم يكن في خدمة الحكومة من قبل قد شد انتباه كرومر بعد قيامه بعدة رحلات ناجحة في الصحراء الليبية على ظهور الجمال ، وقد دعا هذا المعتمد البريطاني في القاهرة إلى استخدام الشاب المذكور في الحكومة المصرية في وظيفة مفتش في سيناء وأرسله إلى شبه الجزيرة « للتحري عن مدى صحة التقارير التي وصلت إلى القاهرة عن نية السلطان مد فرع سكة حديد الحجاز من معان إلى العقبة » (٤) .

على أي حال وحتى لانتاح الفرصة لمزيد من الشكوك من جانب السلطات التركية فقد تقدمت الحكومة المصرية في تلك الأثناء بطلب إلى السلطان بتعيين لجنة من الأتراك والمصريين لتحديد التخوم بين سيناء وسوريا ، ولكن لم يحرك السلطان ساكناً (٥) .

(١) جريدة اللواء ، العدد ١٨٩٦ في ٩ ديسمبر ١٩٠٥ .

(٢) Corres, Part LXIV, Inc. in No. 26, Sir Nicholas O'Conor to Cromer, Dec. 26, 1905.

(٣) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906.

(٤) Blunt, W.S., My Diaries, Part II, p. 133.

(٥) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، القسم الثاني ج ٢ ص ٧٧ .

وبدلاً من الرد على مصر أرسل الباب العالى للسفارة البريطانية فى استنبول فى ١٣ يناير ١٩٠٦ رسالة يشكو فيها من أن ضابطاً إنجليزياً يقود قوة من الجيش المصرى قد أقام معسكراً بالقرب من العقبة على طريق غزة وأعلن عن نيته على إقامة مراكز حراسة فى هذه النقطة وفى غيرها من الأراضى التركية .

وطلبت الحكومة العثمانية فى رسالتها الى السير نيكولاس أوكونر O'Connor السفير البريطانى اتخاذ الخطوات اللازمة لسحب هذه القوة من المركز الذى احتلته خارج الأراضى المصرية .

وليهدى السير أوكونر من روع السلطان فقد أبلغه أن الهدف من هذه البعثة هو البحث بطريقة ودية مع السلطات التركية المحلية وضع بعض المراكز المعينة الواقعة على الحدود والتي لم يحدد موقعها أبداً ، كما أرسل إلى القاهرة على الفور يتحرى الحقيقة (١) .

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه « أوكونر » إلى كرومر يستعلم عن حقيقة الموقف — ١٣ يناير — وردت التقارير من سيناء إلى القاهرة عن عدوان قوات تركية على المنطقة .

وقد صدرت تعليمات المعتمد البريطانى فى القاهرة على الفور إلى السكولونل براملى تطلب منه التقدم إلى المنطقة المجاورة للعقبة والاتصال بالقائد التركى هناك والتعرف على أسباب كل تلك الشكوك التى بدت (٢) .

ووصل كرومر إلى السفير البريطانى فى استنبول فى ١٥ يناير بأنه « من المتوقع أن تستمر الاضطرابات حتى تتعين الحدود » ، وطلب منه أن « يعرض اقتراح الخديوى بتعيين مبعوث تركى مع مندوب مصرى لتعيين الحدود » (٣) .

ولكن ظلت الدولة العثمانية على عدائها لفكرة تعيين الحدود وكانت إجابتها دائماً « إن الباب العالى لن يعين مبعوثاً حيث أنه ليس هناك مشكلة حدود بل

Corres, Part LXV, No. 230, O'Connor to Grey, May 3, 1906, (١)
Desp. No. 307.

Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77. (٢)

Corres, Part LXXIV, No. 15, Cromer to Grey, Jan. 15, 1906, (٣)
Tel. No 7.

عدوان على الأراضى العثمانية لا يمكن السكوت عليه» (١).

وفد عبرت اللواء عن رأى مختار باشا القومسيير العثماني فى القاهرة فى هذا الموضوع بأنه « مادامت مصر ولاية تركية فلا يمكن أن يوجد بينها وبين بقية الولايات الخاضعة للإدارة التركية مباشرة حدود وتخييم» (٢).

وكان رأى أوكوز فى هذا الصدد أنه «لما كان السلطان حساساً للغاية فيما يتعلق بالمسألة المصرية مما يدعونى إلى الاعتقاد بأن لا فائدة من محاولة إغرائه على الموافقة على تعيين لجنة مشتركة للحدود ...» (٣).

وبناء على ذلك فقد رأى السفير البريطانى فى استنبول فى البداية تجميد الأزمّة وكتب بأنه «إذا لم نصم على تعيين الحدود فلن يتحول الأمر إلى أزمة خطيرة» (٤).

ولكن رأت السلطات البريطانية فى القاهرة أنه نتيجة لعدم موافقه الحكومة التركية على تعيين الحدود، فقد كان من الضرورى تأمين المراكر المصرية على هذه الحدود، وعلى ذلك فقد تقرر إرسال قوة مصرية صغيرة (تتكون من ٥٠ رجلاً يقودها ضابط مصرى هو سعد بك رفعت) لمقابلة المستر براملى على الحدود قرب العقبة ولاحتلال طابة وهى نقطة تقع على الساحل الغربى من الخليج على بعد حوالى خمسة أميال من قلعة العقبة بجزراً وثمانية أميال برأى.

وصدرت التعليمات فى نفس الوقت إلى المستر براملى لاحتلال «نقب العقبة والقطار» اللذين يتحكمان فى الجبل الذى يمر خلال الطريق من الساحل إلى داخل هضبة سيناء.

وقد تقدمت هذه القوة الصغيرة إلى طابة فى سفينة خفر السواحل المصرية «نور البحر» ذلك أن المواصلات عبر الصحراء وسلاسل جبال سيناء غاية فى الصعوبة، وقبل أن تصل التعليمات الجديدة للمستر براملى كان قد وصلته عدة تحذيرات من

(١) Corres, Part LXV, No. 230, O'Connor to Grey, May 3, 1906.

(٢) اللواء، العدد ٢٠٢١ فى ٧ مايو ١٩٠٦.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 27., O'Connor to Grey, Jan. 22, 1906, Tel. No. 5.

(٤) Ibid., No. 32, O'Connor to Grey, Jan. 26, 1906, Tel. No. 32.

القائد التركي الذى كان موجوداً فى مكان يدعى « أم رشراش » بما دعاه إلى العودة إلى مركزه فى « نخل » ليرسل التقرير اللازم ، ولكن بمجرد وصول التعليمات إليه كره على الفور عائداً إلى الخليج قاصداً طابرة ليكون فى استقبال القوة القادمة التى ما أن وصلها حتى فوجئء باجتماع على ظهر سفينة خفر السواحل المصرية بين قبطان السفينة الإنجليزية وقائد القوة المصرى من جانب وبين قائد قوة تركية كانت قد مسقت إلى احتلال المركز من ناحية أخرى .

وقد أعلن القائد التركي أن لديه أوامر صريحة بمنع أى قوة من النزول فى طابرة ولو استدعى الأمر استعمال العنف .

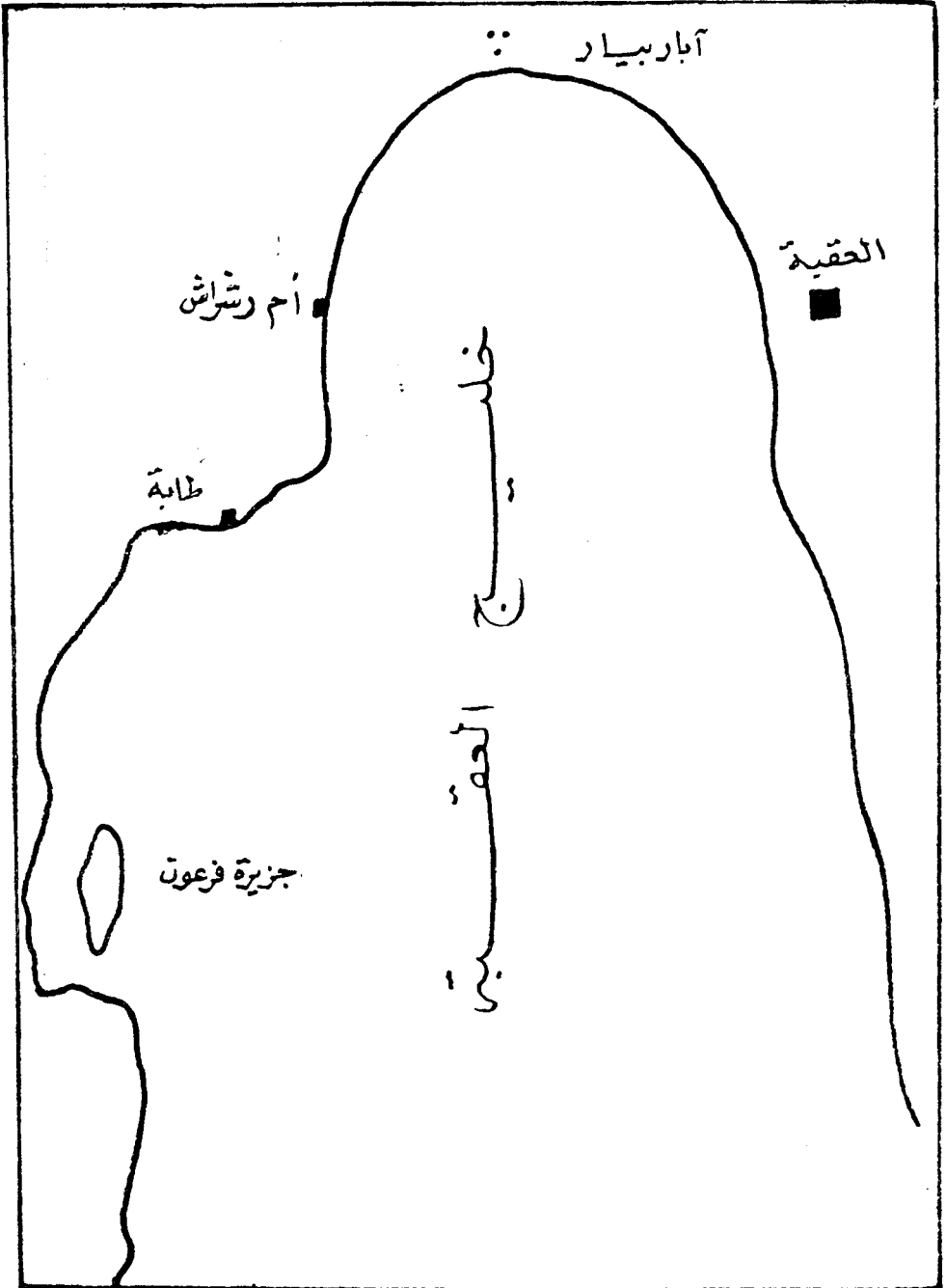
ولما كانت الأوامر الصادرة للضابط المصرى سعد بك رفعت تحذره من الصدام إلا فى حالة إطلاق النيران عليه ، كما أنه لم يكن لديه القوة الكافية للنزول إلى البر قسراً فقد انسحب إلى جزيرة فرعون الملاصقة للساحل الغربى على بعد أميال قليلة جنوب طابرة وقبع فى انتظار ما ينجلي عنه الموقف (١) .

* * *

فى هذا الوقت وخلال النصف الثانى من يناير ١٩٠٦ ، وبينما كان كرومر فى السودان لافتتاح ميناء بور سودان ، طرأ على الموقف تغير سياسى واضح حين استعمل الصدر الأعظم مع الخديوى أفسى لهجات العنف والتهديد فى برقيات ثلاث متوالية أرسلها له فى تلك الفترة .

تطلب البرقية الأولى من هذه البرقيات أن تمتنع مصر عن بناء المراكز وتعلن أنه لن يتم إرسال مندوب تركى لتعيين الحدود .

أما البرقية الثانية فتذكر أن الأراضى التركية لا تشمل العقبة فحسب بل تشمل أيضاً المناطق المجاورة بما فيها طابرة ، وأنها ليست ضمن الأراضى (الممنوحة لمصر) ، وشكا الصدر الأعظم من أن قارباً مصرياً مسلحاً — نور البحر — قد أرسل إلى طابرة وعليه جنود ، وختم برقيته بما معناه أن مصر نفسها قسم من تركيا ، فليس هناك على ذلك حاجة لتعيين الحدود بين الأراضى المصرية والتركية ، وأنه إذا ما أصرت



مصر على الاستمرار في إنزال الرجال وبناء المركز « فإن هذا الخروج عن الأوامر سوف يستدعى اتخاذ أشد الإجراءات لوقفه » .

ويتساعد الضف العثماني في البرقية الثالثة بطلب سحب « نور البحر » والقوة المصرية من جزيرة فرعون والتوقف عن بناء المراكز وإلا « سوف تحدث أزمة » (١) .

ورداً على هذا التهديد التركي تقدم المستر فندلى — القائم بأعمال كرومر أثناء تعيينه — باقتراحات محددة طالباً سرعه تنفيذها .

من الناحية الدبلوماسية طالب بإرسال التعليمات إلى السفير البريطاني في استنبول للاحتجاج لدى الباب العالي ضد :

١ — رفض السلطان الموافقة على لجنة مشتركة للحدود .

٢ — رغبة السلطان الواضحة تجاهل برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ التي لم يأت فيها أى ذكر لما حول العقبة .

٣ — تهديدات الصدر الأعظم باستعمال القوة ضد المراكز المصرية التي اعتقد أنها موجودة في الأراضي التركية .

كما اقترح فندلى إبلاغ السلطان بأن مصر ترغب في إدارة أراضيها التي تقررت لها عام ١٨٩٢ في سلام ، وأنه إذا ما هددت المراكز المصرية فإن الحكومة المصرية سوف تضطر إلى طلب المعونة من الحكومة البريطانية .

أما من الناحية العسكرية فقد طالب بإصدار الأوامر إلى البارجة البريطانية « ديانا Diana » الموجودة وقتذاك في بور سودان بالتقدم إلى العقبة .

كما أرسل التعليمات إلى براملى وسعد بك رفعت يطلب منهما في حالة حدوث هجوم تركي عليهما أن يبادرا فيحتلا المراكز الآتية :

١ — « آبار بيور » الواقعة على رأس خليج العقبة والتي يمتلكها الأعراب

المصريون .

٢ — « نعب العقبة » وهى مركز الاقتراب الرئيسى من الساحل إلى الداخل .

٣ — « طابة » التى سبقهما الأتراك إليها .

ولكن نبه عليهما فى نفس الوقت بتجنب إثارة العداوات ما أمكن .

وأصبح واضحاً أنه لم يعد ممكناً حل المسألة عملياً مما دعا إلى إبلاغ براملى ورفعت أن المفاوضات ستبدأ فى هذا الشأن بين القاهرة ولندن واستنبول بهدف الوصول إلى حل مناسب (١) .

* * *

المفاوضات :

يمكن أن تقسم الفترة التالية التى أعقبت برقيات الصدر الأعظم فى ٢٥ يناير وحتى اتخذت الأمور شكل الأزمة السياسية خلال النصف الثانى من أبريل والنصف الأول من مايو إلى الأقسام الآتية :

أولاً — المباحثات الأولية وتائجها :

كان رأى كرومر أن تتخذ السياسة الإنجليزية فى المباحثات التى أزمع إجرائها مع الدولة العلية الخطوط الثلاثة الآتية :

١ — عدم المبالاة فى حالة تهديد الأتراك بطرد القوات المصرية المسلحة داخل الحدود المصرية سواء كان الألمان وراء الترك أو لم يكونوا .

٢ — التصميم على تعيين لجنة حدود مشتركة دون تضييع الوقت .

٣ — ضرورة جلاء القوات التركية عن المراكز المصرية التى احتلتها (٢) .

وفى لقاء بين السير أوكوز ووزير الخارجية التركى صباح ٢٨ يناير فى استنبول أبلغه بهذه المطالب وذكر له أن التأخير فى تعيين الحدود سيؤدى إلى تنأج وخيمة

Corres, Part LXIV, No. 29, Findlay to Grey, Jan. 25, 1906, (١)
Desp. No. 16,

Ibid., No. 39, Findlay to Grey, Jan. 28, 1906, Tel. No. 20. (٢)

وطالبه بأن ترسل الأوامر إلى القائد التركي في العقبة بالجلاء عن المراكز المصرية .
ورد عليه توفيق باشا — وزير الخارجية — بأن هناك اجتماعاً لمجلس الوزراء
التركي في تلك الليلة وأنه سوف يقوم بإبلاغ آراء السفير البريطاني ومطالبه إلى المجلس
ووعده ببذل جهده للوصول إلى اتفاق مرضٍ (١) .

ويتصل وزير الخارجية بالسير أوكونر صباح اليوم التالي ليلفنه بأن المسألة
قد حسمت فقد وصلت برقية من قائد العقبة بأن تفاهماً قد أمكن التوصل إليه بعد
مقابلة مع قائد القوات المصرية وأن اتفاقاً مرضياً للمسألة قد تم (٢) .

ولكن تنفي القاهرة في نفس اليوم الوصول إلى أي اتفاق ويرى فندلي أن سبب
هذا الإبلاغ هو « تأثر السلطان من لهجة السفير البريطاني القوية في محادثته مع
وزير الخارجية » (٣) .

ويبدو أن سبب هذا الإبلاغ التركي الرسالة التي كان قد بعث بها رشدي باشا قائد
قوات العقبة إلى سعد بك رفعت قائد القوات المصرية بأنهما « إخوان نخدم نفس
السلطان ، وحيث أن المقام العالي قد أتم شرح الأمر بالتفصيل لسمو خديوى مصر
فليس هناك خلاف بيننا » ثم ناشده التقدم إلى السويس وتسوية المسألة بين الإخوة (٤) .

على أي حال فإن السفير التركي في لندن « موزورس باشا » قد عاد وأوضح
أن الاتفاق الذي تم الحديث عنه ليس إلا بعض الإيضاحات المتبادلة بين القائد التركي
في العقبة والقائد المصرى الذى أرسل إلى تلك الجهات (٥) .

ورغم تفاؤل فندلي في القاهرة بإمكان تراجع الباب العالى عن موقفه إلى حد
أنه بدأ يبحث عن مبرر لتراجع السلطان بأنه خلط بين ضبا الواقعة على الساحل
الشرقى من الخليج وبين طابة الواقعة على ساحله الغربى ... رغم هذا التفاؤل إلا أنه

Corres, Part LXIV, No. 40, O'Connor to Grey, Jan. 28, 1906, (١)
Desp. No. 40.

Ibid., No. 41, O'Connor to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 12. (٢)

Ibid., No. 42, Findlay to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 21 (٣)

Ibid., Inc., No. 3 in No. 63, Cromer to Grey, Feb. 4, 1906, (٤)
Desp. No. 17.

Ibid., No. 57, Grey to O'Connor, Feb. 9, 1909, Tel. No. 7. (٥)

تبدو جميعه قبل أن ينتهى الشهر حين تحدث مختار باشا مع وزير الخارجية المصرى وأبلغه أن تعبير « بقاء شبه جزيرة سيناء على حالتها » الذى آتى فى برقية الصدر الأعظم فى ٨ أبريل ١٨٩٢ يعنى أن وضع سيناء (كلمحق) ومن ثم فهمى من أملاك السلطان ومختلفة تماماً عن الأراضى الأخرى لمصر (١).

كما أن الأحداث فى المنطقة موضع التنازع كانت تثير بدورها بصورة تدعو الحكومة البريطانية إلى اتخاذ موقف أشد حدة مع الباب العالى .. وينقلنا هذا إلى المنطقة حول الخليج لئرى تطور الموقف فيها .

ثانياً — الموقف المحلى واحتلال الأتراك لمراكز أخرى :

أخذ الأتراك خلال النصف الأول من فبراير يعززون مركزهم فى العقبة والمناطق المحيطة بها بصورة أقلقحت حكومة لندن والسلطات البريطانية فى القاهرة إلى حد كبير .

ففى أول الشهر وصلت الأخبار من مصادر وثيقة بأن لواءين من قوات المشاة التركية يتقدمان إلى العقبة (٢).

وفى ١١ فبراير وصلت إلى القاهرة مجموعة من التقارير من براملى يتحدث فيها عن تهديدات القائد التركى للمركز المصرى فى جزيرة فرعون مما دعاه إلى عدم الإذن لسفينة خفر السواحل « نور البحر » بالعودة إلى السويس وذلك لتساهم فى حماية المركز المصرى .

كما ذكرت تقارير المفتش الإنجليزى أن الأتراك قد احتلوا مراكز أخرى فى الأراضى المصرية على الساحل الغربى للخليج وهى « نقب العقبة » و « القطار » بالإضافة إلى طابة التى كانوا قد احتلوها من قبل .

وقد أبلغ القائد التركى فى العقبة براملى وسعد رفعت أنه لن يستطيع الاستمرار فى الاتصال بهما فى المستقبل لعدم اعترافه بمركزها الذى احتلاه فى الأراضى التركية (٣).

Corres, Part LXIV, No. 48, Findlay to Grey, Jan. 30, 1906, (١)
Tel. No. 48.

Ibid., No. 51, O'Connor to Grey, Feb. 3, 1906, Tel. No. 14. (٢)

Ibid., No. 65, Cromer to Grey, Feb. 11, 1906, Desp. No. 34. (٣)

وتعادى الأتراك في تهديداتهم فبعد بضعة أيام من قطعهم الاتصال مع المركز للمصريين في جزيرة فرعون أرسل القائد العثماني يبلغ للمصريين الموجودين في الجزيرة بأنه يحملهم عواقب رفضهم الطلبات المتعددة بالانسحاب من الجزيرة .

وأدى هذا الموقف إلى صدور التعليمات إلى القائد المصري التي تكرر وتؤكد ضرورة استمراره في السيطرة على الجزيرة حيث أنها ميناء طبيعي قوى ، كما حذر المفتش البريطاني القائد التركي من السماح لقواته بالهجوم إلى المناطق القريبة من الجزيرة^(١).

وقد أدت هذه التطورات على أرض المنطقة المتنازع عليها إلى تغير واضح في تكتيكات الدبلوماسية البريطانية التي بدأت تغير أسلوب التفاوض إلى أسلوب الضغط السياسي العنيف بهدف الوصول إلى حل عاجل للمسألة .

ثالثاً — الضغط الدبلوماسي البريطاني :

كنتيجة للرغبة التي أبدتها مختار باشا في أن لسيناء « وضماً خاصاً » مختلفاً عن بقية مصر وهو ما رفضته وزارة الخارجية البريطانية بتاتاً حيث أن معنى هذا أن السلطان يعتبر نفسه حراً تماماً في تفسير برقية ٨ أبريل على هواه^(٢). وكنتيجة للحدة التي وضحت في تصرفات السلطات التركية في المنطقة المتنازع عليها بدأ البريطانيون يلعبون لعبتهم المفضلة في هذه الظروف .. لعبة الضغط الدبلوماسي .

ففي ٢٩ يناير قابل أوكونر الصدر الأعظم وقدم له احتجاجاً شديد اللهجة على احتلال القوات التركية لطابة وعلى إرسال التعليمات للقائد التركي بعدم السماح بالنزول للقوات المصرية فيها .

وختم الاحتجاج بأنه ليس من حق الأتراك احتلال المكان الذي هو بلاشك أرضاً مصرية ونصح بالانسحاب السريع لتجنب أزمة حادة في الأفق^(٣).

(١) Corres, Part LXIV, No. 68, Cromer to Grey, Feb. 13, 1906, Desp. No. 34 A.

(٢) Grey of Falladon : Twenty Five years, 1892-1906, p. 125.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 47, O'Connor to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 13.

وبعد ذلك بيومين استدعى السير أدوارد جراى السفير التركى فى لندن وأبأغه أن استمرار الوضع القائم سيؤدى إلى اضطرابات لانهاية لها^(١).

وعندما رأى السفير البريطانى فى استنبول تقديم اقتراح مؤداه سحب قوات الجانبين من المنطقة حين إقرار تسوية للمسألة رفض كرومر هذه الفكرة وصمم على التمسك بمحق مصر فى احتلال طابفة فور إخلاء الأتراك لها ، وكان رأيه أن الشيء الوحيد الذى يمكن تقديمه للسلطان هو « وعد بعدم التدخل فى الخط الحديدى بأى صورة »^(٢).

وبالفعل لم يقدم أوكونر أى تنازلات فى مقابلته للصدر الأعظم فى أعقاب وصول برقية كرومر سوى الوعد بتأمين الخط الحديدى^(٣)، وعاد يضغط مرة أخرى للوصول إلى اتفاق ودى للمسألة دون أى تعقيدات ذات طبيعة سياسية .

وكنتيجة لاستمرار هذا الضغط وعد الصدر الأعظم باجتماع لمجلس الوزراء لبحث المسألة بعد ذلك بيومين^(٤) .

ولكن ما أن انتهى اجتماع المجلس المذكور دون الوصول إلى أى نتيجة حتى بادرت الحكومة البريطانية على الفور باتخاذ خطوتين محددتين :

الأولى : بتقديم احتجاج رسمى للسفير التركى فى لندن جاء فى آخره .. « والتصميم تام على الجلاء العاجل عن المراكز التى تحتلها القوات العثمانية فى الأراضى التى يديرها الخديوى وقد صدرت التعليمات بذلك إلى سفير جلالته فى استنبول .

« وتثق الحكومة البريطانية أن الباب العالى يرى بعد التطورات الأخيرة ضرورة إقرار خط الحدود بتعيين لجنة مشتركة لذلك »^(٥).

Corres, Part LXIV, No. 49, Grey to O'Connor, Jan. 31, 1906, (١)
Tel. No. 51.

Ibid., No. 58, Cromer to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 32. (٢)

Ibid., No. 60, O'Connor to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 16. (٣)

Ibid., No. 59, O'Connor to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 15. (٤)

Ibid., No. 70, Memorandum communicated to Musurus Pasha, Feb. 13, 1906. (٥)

الثانية : التصاعد بالتهديد السياسى إلى حد إرسال سفينة حربية بريطانية إلى مياه الخليج .

والواقع أنه منذ أواخر يناير وكرومر يلح فى اتخاذ مثل هذا الإجراء كعامل له وزنه فى الموقف^(١) . ونتيجة لهذا الإلحاح تقرر أن تبقى البارجتان « ديانا » فى السويس و « منيرفا » فى بورسعيد تحت طلب السلطات البريطانية فى القاهرة^(٢) .

وفى ١٤ فبراير وبعد تقديم الاحتجاج الرسمى للسفير التركى بيوم واحد صدرت التعليقات للورد كرومر بتحويله حق الأمر بتقدم « ديانا » إلى العقبة^(٣) ، وعلى الفور أصدر كرومر هذا الأمر .

ولما كان هذا الإجراء فى جوهره يهدف إلى التأثير السياسى قبل أى شىء آخر فقد قدمت مذكرة فى نفس اليوم لموزورس باشا أبلغ فيها أن الحكومة البريطانية قد قررت إرسال إحدى سفنها الحربية إلى جزيرة فرعون نتيجة للتهديدات المستمرة من قائد العقبة التركى للمركز المصرى ولتمنع أى عمل من أعمال المدوان على الأراضى المصرية^(٤) .

* * *

أنت الحطة البريطانية بثأرها سريعاً فما أن وصلت إلى استنبول الأخبار عن احتمال تقدم ديانا إلى ميساه خليج العقبة حتى انعقد مجلس عسكري فى يلدز فى نفس اليوم لبحث مسألة سحب القوات العثمانية من طابة والمرآكر الأخرى وبحث تصرفات القائد التركى فى العقبة^(٥) .

ولما لم تصل أى أنباء عن نتيجة هذا الاجتماع حتى مساء اليوم التالى — ١٥ فبراير

(١) Corres, Part LXIV, No. 38, Findlay to Grey, Jan. 28, 1906, Tel. No. 19.

(٢) Ibid., Inc. in No. 53, Lord C. Bresford to Admiralty, Feb. 4, 1906.

(٣) Ibid., No. 72, Grey to Cromer, Feb. 14, 1906, Tel. No. 16.

(٤) Ibid., No. 71, Memorandum communicated to Musurus Pasha, Feb. 14, 1906.

(٥) Ibid., No. 67, O'Connor to Grey, Feb. 14, 1906, Tel. No. 19.

— قرر السير أوكونر إرسال أحد معاونيه إلى القصر للاستفسار . وقابل المستر لامب Lamb سكرتير السلطان الأول الذى أبلغه أن المجلس قد توصل إلى قرار مؤداه « أن الأراضي التي تديرها مصر بمقتضى فرمانات لا تتضمن الأماكن محل النزاع »^(١).

وأدى هذا الرد — الغير المتوقع — إلى خيبة أمل شديدة اجتاحت السفير البريطانى فى استنبول الذى علم من مصادره الخاصة أن موقف الوزارة التركية يرجع إلى برقية وصلت من مختار باشا فى القاهرة تذكر السلطان أن البريطانيين كانوا قد تقدموا باقتراح خلال مفاوضات ١٨٩٢ يرمى إلى أن تمتد الحدود الإدارية التركية المصرية من رأس محمد إلى العريش^(٢) .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى كرومر اعترض على الفكرة أشد الاعتراض وذكر « أن إدارة مصر لسيناء هو حق حصل عليه الحديوى من السلطان » ورأى المعتمد البريطانى فى القاهرة امتداد المفاوضات لانتظار الأثر الذى سينتج عن تقدم ديانا إلى العقبة ولرغبته فى مناقشة الأسباب التى دعت وزارة الحربية إلى تخفيض قوات الاحتلال فى مصر فى تلك الفترة الحرجة .

وكان رأيه أن الواجب يقتضى زيادة هذه القوات إذا ما اتخذت المفاوضات شكلاً حاداً^(٣) .

على أى حال فرغم قرار المجلس المسكرى إلا أن السلطان ما لبث أن أرسل خطاباً ودياً إلى السير أوكونر يبلغه فيه أن فى نيته إرسال لجنة من موظفين هلمانيين للتأكد من موقع المراكز محل النزاع وأنه سوف يسحب قواته إذا ثبت أن هذه المراكز واقعة فى أرض تديرها الحكومة المصرية .

والتقط السفير البريطانى هذا الخطاب المشجع وكتب للسلطان أنه لو حصل مثل مصرى على عضوية هذه اللجنة ، ولو جلت القوات التركية عن تلك المراكز فسوف

Corres, Part LXIV, No. 77, O'Connor to Grey, Feb. 15, 1906, (١)
Tel. No. 20.

Ibid., No. 78, O'Connor to Grey, Feb. 16, 1906, Tel. No. 21. (٢)

Ibid., No. 81, Cromer to Grey, Feb. 17, 1906, Tel. No. 41. (٣)

يوصى - إبتاتاً لحسن نية الحكومة البريطانية نحو تركيا - بألا تحتلها القوات المصرية حتى يتم الاتفاق بشأنها^(١).

ولكن ما حدث من تشكيل هذه اللجنة التركية وعملها لم يأت بأكثر من خيبة أمل جديدة للبريطانيين .

رابعاً - اللجنة التركية :

خلال الشهر التالى ما بين منتصف فبراير ومنتصف مارس كانت اللجنة التى اقترح السلطان إرسالها للتحرى فى المنطقة المتنازع عليها هى العامل الأساسى فى الموقف .

ولكن نتيجة لسوء فهم من الجانب البريطانى عن طبيعة هذه اللجنة لم يساهم مجيئها فى حل المشكلة وإنما زادها تعقيداً ودفعا خطوة نحو الأزمة .

فبينما نظر البريطانيون إلى هذه اللجنة على أن لها صلاحيات واسعة من التحرى والتفاوض والاتفاق ألفها السلطان على أساس أنها لجنة تحرى فحسب ، وعلى ضوء هذه النظرة البريطانية طلب أوكونر فور تقديم العثمانيين للاقتراح إليه أن يحصل ممثل للحكومة المصرية على عضوية هذه اللجنة ، وبعد وصول عضوى اللجنة إلى القاهرة دون اتصال بالحكومة المصرية ضغط السفير البريطانى فى استنبول « بضرورة إرسال تعليمات محددة للمبعوثين العثمانيين للدخول فى مفاوضات مع الحكومة المصرية »^(٢).

بل وصل الأمر بالسلطات البريطانية فى القاهرة إلى تشكيل اللجنة المصرية التى ستتولى هذه المفاوضات مع المندوبين العثمانيين . . وقد تشككت من سرهك باشا وسعد بك رفعت والكابتن أوين Owen رئيس إدارة الخابرات المصرية والذى كما رأى كرومر - « سيتولى الإدارة الفعلية للمفاوضات »^(٣).

وتتبع الآن خطوات هذه اللجنة ومصيرها ، وفى اليوم التالى لاقتراح السلطان

(١) Corres, Part LXIV, No. 83, O'Connor to Grey, Feb. 18, 1906, Tel. No. 23.

(٢) Ibid., No. 110, O'Connor to Grey, March 2, 1906, Tel. No. 31.

(٣) Ibid., No. 112, Cromer to Grey, Feb. 22, 1906, Desp. No. 21.

لإرسال من ينوب عنه في التحري عن حقيقة موقع المراكز المتنازع عليها أبلغ وزير الخارجية التركية السير أوكونر أن ثمة برقية أرسلت إلى مختار باشا بأن يتقدم إلى العقبة سريعاً لبحث مسألة الحدود .

• ولكن رفض السفير البريطاني في استنبول هذه الفكرة وأعلن عدم ارتياح حكومته لاختيار مختار باشا بالذات لهذا الدور^(١) .

ونتيجة لهذا الرفض عدلت الحكومة العثمانية عن اختيارها وقررت اختيار ضابطين تركيين للمهمة بدلا من المندوب السامي التركي في القاهرة وإن كانت قد طالبت في نفس الوقت بانسحاب «ديانا» في مقابل إرسال أوامر إلى القائد التركي في العقبة بعدم التدخل في شؤون جزيرة فرعون ، ولكن لم يجد هذا الطلب أذناً صاغية من الحكومة البريطانية^(٢) .

على أي حال ترك الضابطان اللذان تم اختيارهما (مظفر بك وفهمى افندى) استنبول صباح ٢٠ فبراير قاصدين إلى الإسكندرية^(٣) ، وما أن وصلا إلى القاهرة حتى دخلا قصر مختار باشا ولم يظهرأ خارجه ، وحتى أول مارس لم يظهر أي أثر للمندوبين العثمانيين ولم يحاولوا الاتصال بأى مسئول مصرى أو بريطانى ، خاصة أن الخديوى كان في هذا الوقت في رحلة في الصحراء كان مفروضاً ألا يعود منها قبل ٤ مارس^(٤) .

وتتبع عن جمود الموقف أن طلبت وزارة الخارجية البريطانية من سفيرها في استنبول أن يضغط على الباب العالى ليتحرك مبعوثاه^(٥) ، وطلب أوكونر مقابلة السلطان في اليوم التالى وطالبه بضرورة إرسال التعليمات للمبعوثين العثمانيين لبدء التفاوض مع الحكومة المصرية^(٦) .

Corres, Part LXIV, No. 86, O'Conor to Grey, Feb. 19, 1906, (١)
Tel. No. 25.

Ibid., No. 87, O'Conor to Grey, Feb. 20, 1906, Tel. No. 26. (٢)

Ibid., No. 88, O'Conor to Grey, Feb. 20, 1906, Tel. No. 22. (٣)

Ibid., No. 104, Cromer to Grey, Feb. 28, 1906, Tel. No. 51. (٤)

Ibid., No. 109, Grey to O'Conor, March 1, 1906, Tel. No. 19. (٥)

Ibid., No. 110, O'Conor to Grey, March 2, 1906, Tel. No. 31. (٦)

ولكن قبل عودة الخديوى من رحلته بيوم واحد — ٣ مارس — صدرت الأوامر من الاستانة للضابطين التركيين بالسفر على الفور إلى العقبة عن طريق بيروت ومنها إلى دمشق فعمان فالعقبة .

وكان هذا الموقف غير متوقع لدى المسئولين البريطانيين ، وكما عبرت المقطم لسان حال الاحتلال فى هذا الوقت « لقد وقع صنيع الحكومة الحميدية هذا موقع الدهشة والاستغراب عند جميع الذين علموا به » (١) .

وقد امتزجت الدهشة بالضيق الشديد من جانب الحكومة البريطانية التى قررت تعبيراً عن هذا الضيق أن تتقدم فى نفس يوم وصول المبعوثين التركيين إلى العقبة بمذكرة شديدة اللهجة مطالبة بالإسراع بسحب القوات العثمانية من طابة (٢) .

وقد سبق تقديم هذه المذكرة البريطانية برقية احتجاج من الخديوى للسلطان بغادرة المبعوثين للبلاد دون أن يتصلا به ، ويذكر السلطان باحتجائه على احتلال القوات التركية للأراضى المصرية (٣) .

وكان رد الحكومة العثمانية على هذه الاحتجاجات تعزيز قواتها الموجودة فى العقبة فأرسلت لواء و نصف من المشاه إليها (٤) . كما أبلغ مختار باشا الخديوى فى ١٢ مارس أن المبعوثين التركيين ليس لهما أى سلطة مستقلة ، وإنما قد أرسلوا لمعاونته (٥) . أما احتجاجات الحكومة البريطانية فكان الرد عليها دائماً طلب الانتظار إلى حين وصول تقرير المبعوثين من العقبة .

ودارت المشاورات فى هذا الوقت بين المسئولين البريطانيين حول إرسال سفينة حربية أخرى إلى العقبة بهدف فرض مزيد من الضغط على السلطان (٦) .

(١) المقطم ، العدد ٥١٤٦ فى ٥ مارس ١٩٠٦ .

(٢) Corres, Part LXIV, No. 126, O'Connor to Grey, March 11, 1906, Tel. No. 35.

(٣) Ibid., No. 122, Cromer to Grey, March 8, 1906, Tel. No. 59.

(٤) Ibid., No. 130, O'Connor to Grey, March 12, 1906, Tel. No. 37.

(٥) Ibid., No. 134, Cromer to Grey, March 13, 1906, Tel. No. 65.

(٦) Ibid., No. 136, O'Connor to Grey, March 15, 1906, Tel. No. 38.

وقد وافق السير إدوارد جراى على الفكرة وإن رأى أن يسبقها إبلاغ استنبول. أولاً بهذه النية إذالم تنسحب القوات التركية تماماً وبسرعة من طابة والناطق المصرية^(١).

وما أن أبلغت تركيا بهذا القرار حتى تحرك ممثلوها في القاهرة وفي العقبة .

في القاهرة أوعز مختار باشا لجريدة « الأهرام » بأن تنشر خبراً مؤداه أن الأتراك سوف يرسلون قوة إلى نخل لحماية مداخل خليج العقبة كما تعمل بريطانيا على تأمين مداخل خليج السويس^(٢) ، كما أبرق في نفس الوقت للسلطان يلح عليه بعدم الخضوع للتهديد البريطانى والتمسك بالمرآكز المحتلة^(٣) .

وفي العقبة أبلغ رشدى باشا القائد التركى الكابتن فييس هورنبى Hornby قبطان البارجة ديانا بأنه متمسك بأن الحدود تمتد من السويس إلى رفح ولا يعترف — نيابة عن حكومته — بقرية ٨ أبريل ١٨٩٢^(٤) .

وكان الرد على احتجاج بريطانى عنيف تم تسليمه إلى موزورس باشا فى ٢١ مارس^(٥) أن أبلغ الباب العالى السير أوكونر أنه لا يوافق على تبادل المذكرات مع الحكومة البريطانية بشأن الحدود المصرية فهذه مسألة تخص تركيا ومصر فقط^(٦) .

* * *

مالث المبعوثان التركيان أن بعثا بتقريرها إلى استنبول مؤكداً وقوع طابة فى الأراضى التركية^(٧) ، وتبع معرفة خفى هذا التقرير أن تقدم مختار باشا بطلب لفتح

(١) Corres, Part LXIV, No. 140, O'Connor to Grey, March 16, 1906, Tel. No. 107.

(٢) Ibid., No. 146, Cromer to Grey, March 19, 1906, Tel. No. 70.

(٣) Ibid., No. 147, O'Connor to Grey, March 19, 1906.

(٤) Ibid., No. 148, Cromer to Grey, March 21, 1906, Desp. No. 148,

(٥) Ibid., No. 149, Grey to O'Coner, March 21, 1906, Desp. No. 28.

(٦) Ibid., No. 168, O'Connor to Grey, March 27, 1906, Tel. No. 46.

(٧) Corres, Part LXV, No. 7, O'Connor to Grey, April 2, 1906, Tel. No. 53.

باب المفاوضات مع الخديوى لتسوية المسألة^(١) .

ولما كان قرار إرسال سفينة أخرى بريطانية قد تعطل نتيجة لبعض الخلافات الإدارية بين البحرية ووزارة الخارجية^(٢) ، ولما كان أعضاء مجلس العموم قد بدأوا يطالبون بإحالة المسألة كلها إلى التحكيم وهو ما لم تكن الحكومة البريطانية راغبة فيه لما يستتبعه من تمقيدات سياسية طويلة^(٣) . ولما كان هناك بقية من أمل فى تسوية المسألة عن طريق المفاوضات رأى البريطانيون الموافقة على المفاوضات المقترحة ... ولكن بشروط :

شرط أول : ضرورة تخويل مختار باشا رسمياً من استنبول لمفاوضة الخديوى^(٤) .

شرط ثان : أن تتم اللقاءات الخاصة بهذه المفاوضات بحضور رئيس وزراء الخديوى وزير خارجيته^(٥) .

ورغم تنفيذ هذين الشرطين إلا أن المسئولين البريطانيين فى القاهرة أو استنبول قد أعربوا عن تشاؤمهم من نتيجة هذه المفاوضات وأن قصد الأتراك منها ليس إلا « محاولة لإضاعة الوقت »^(٦) .

وينقلنا هذا إلى المرحلة الأخيرة من مراحل محاولات حل المشكلة قبيل الأزمة وهى مرحلة المفاوضات .

خامساً — المفاوضات المصرية — التركية :

تم أول لقاء بين مختار باشا من ناحية وبين الخديوى ورئيس وزرائه ووزير خارجيته من ناحية أخرى يوم الأربعاء ١١ أبريل ١٩٠٦ .

Corres, Part LXV, No. 15, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. (١)
No. 87.

Ibid., No. 166, Admiralty to Foreign Office, March 27, 1906. (٢)

(٣) من طلب المستر بيلوك Belloc عضو مجلس العموم البريطانى لوزير الخارجية فى جلسة ٢٠ أبريل .

Parliamentary Debates — House of Commons, Fourth Series, Vol. 155, p. 169.

Corres, Part LXV, No. 22, Cromer to Grey, April 6, 1906, Tel. (٤)
No. 89.

Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77. (٥)

Ibid., No. 16, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. No. 88. (٦)

وكشف المندوب السامى العثمانى كافة الأوراق التركية فى هذا اللقاء ، فمع اعتراف مختار باشا بأن المسألة يجب أن تفسر على أساس برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ إلا أنه فسر هذه البرقية على الأسس الآتية :

١ — أن هضبة سيناء تتكون فقط من الأراضى الواقعة جنوب الخط المستقيم بين العقبة والسويس وبما أن طابة تقع جنوب هذا الخط فهو يعترف بها كنقطة واقعة فى الهضبة وبالتالي فى مصر .

٢ — أن الأراضى المصرية شمال هذه المنطقة تسير حدودها مع الخط بين رفح والسويس ، أما الأراضى التى يحدها من الشمال الغربى الخط بين رفح والسويس وجنوباً الخط من السويس إلى العقبة وشرقاً الخط من العقبة إلى رفح فهى أراضى تركية .

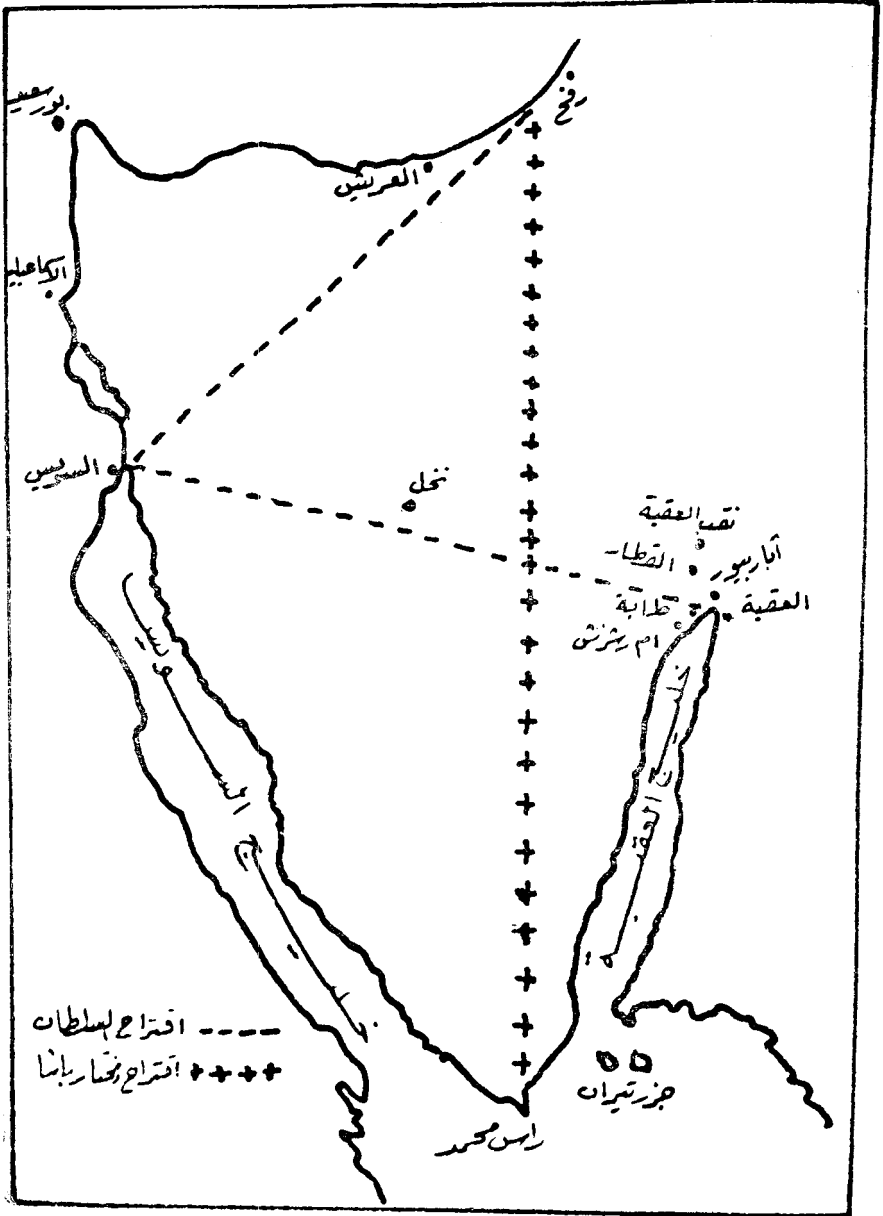
وتحدث مختار باشا فذكر أن السلطان يعلق أهمية كبيرة لخط الحدود المقترح لرغبته فى مد خط حديدى إلى العقبة ومنه خطوط فرعية إلى السويس وبورسعيد . ولكن المندوب السامى التركى استدرك — بصورة مقصودة — فأعان أنه فى إمكانه رغم رغبة الباب العالى أن يعقد معاهدة على أساس أن خط الحدود يمتد مباشرة من رفح إلى رأس محمد وبذلك يقع كل الساحل الغربى لخليج العقبة ضمن الأراضى التركية^(١) .

وكان معنى الاستجابة لطلبات السلطان فى رأى كرومر « السماح ببناء خط حديدى حتى شواطئ قناة السويس ، وعملية البناء تتم طبعاً تحت إشراف الألمان . وهذه مسألة تمس مصالح بريطانيا مباشرة وعلى قدر عظيم من الأهمية فهى لن تهدد حرية مصر فحسب بل يمكن أن تشكل تهديداً تركياً خطيراً على حرية الملاحة فى قناة السويس وذلك امتثالاً لطلبات قوة أوروبية أخرى »^(٢) .

أما الموافقة على طلب مختار باشا فقد كان يعنى :

Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, (١)
Desp. No. 77.

Ibid., No. 39, Cromer to Grey, April 11, 1906, Tel. No. 98. (٢)



خطوط الحدود التي اقترعها الأتراك
أثناء المفارقات

١ — غلق خليج العقبة فالقناة الصالحة للملاحة والتي تؤدي إلى هذا الخليج عرضها ٤٠٠ ياردة ويستطيع الأتراك بناء قلعة في النقطة المواجهة لجزر تيران مما يجعل الدخول إلى خليج العقبة شبه مستحيل للسفن البريطانية ويجعله من الناحية الفعلية مجرداً تركياً مغلقاً يهدد الطريق إلى الهند وذلك بقوارب الطوربيد التي يمكن إرسالها بسهولة في وحدات من العقبة .

٢ — سوف تكون الحدود التركية على بعد ١٠٠ ميل فقط من السويس وقرية جداً من « نخل » وهي مركز إستراتيجي مهم جداً يمكن أن تتعرض مصر باستمرار للخطر منه .

٣ — سوف تصبح بعض القبائل العربية التي ظلت دائماً تحت الإدارة المصرية تحب الإدارة التركية وهذا الإجراء سيسبب متاعب كبيرة في شبه جزيرة سيناء^(١) .
وبناء على ذلك تقرر رفض كافة وجهات النظر التركية وقطع المفاوضات التي بدأها مختار باشا والتفاهم رأساً مع استنبول .

وأرسل الخديوي رده — بناء على نصيحة كرومر — على مقترحات مختار باشا في برقية طويلة إلى الصدر الأعظم يوم ١٤ أبريل يبلغه فيها أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اتفاق مقبول هو اتخاذ برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ كأساس للمفاوضة وأنه إذا ما كان هناك بعض البقاع العينة مشكوك في وضعها ، فيمكن أن يسمح المهندسون خط الحدود بين رفح والعقبة ، وبدلاً من أن ينتهي هذا الخط عند قلعة العقبة يمكن أن يسير إلى نقطة على ساحل الخليج تبعد ما لا يقل عن ثلاثة أميال إلى غرب القلعة .

وختم الخديوي برقيته أنه إذا ما قبلت مقترحاته فسوف تصبح طابطة ضمن الأراضي المصرية وعلى القوات التركية وقتئذ أن تنسحب منها^(٢) .

ولأكثر من أسبوع لم يحدث شيء يستحق التسجيل . . . وبقية تحركات كافة أجهزة الدولة العثمانية تبذل كل جهودها لدفع الموقف إلى أزمة . . . وعلى حد تعبير السير إدوارد جراي « يبدو أن السلطان عبد الحميد كان متوقفاً لإنذار »^(٣) .

(١) Corres, Part LXV, No. 44, Cromer to Grey, April 13, 1906, Tel. No. 101.

(٢) Ibid., No. 46, Cromer to Grey, April 14, 1906, Tel. No. 103.

(٣) Grey of Falladon, op. cit., p. 125.

الأزمة :

كان أول رد فعل لبرقية الخديوى إلى الصدر الأعظم المؤرخة في ١٤ أبريل رد الأخير عليه بعد ثمانية أيام كاملة — ٢٢ أبريل — ببرقية طويلة يذكر فيها أن الأراضي المذكورة في فرمان الإمبراطورى لا تحوى ميناء أو خليج العقبة وأن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ التى تعتبر ملحقاً لفرمان التولية تشير فقط إلى القسم الغربى من ميناء ، ويستطرد الصدر الأعظم فى برقيته بأنه قد تقرر إقامة متصرفية العقبة وأن على الخديوى اتخاذ الخطوات المناسبة لإنهاء هذه المسألة وعدم السماح بأى تدخل خارجى من أى نوع^(١).

كما وصل فى نفس الوقت خطاب خاص من السلطان إلى الخديوى بنفس المعنى ويكرر المطالبة « بنهو هذا الأمر بدون إعطاء فرصة لتمكين المداخلة الأجنبية واستكمال الأسباب لإعادة ارتباط موقع العقبة بولاية الحجاز كما تقتضيه شيمتكم الجليلة المنطوية على العلم بدقائق الأمور »^(٢).

وفى ٢٥ أبريل طلب مختار باشا مقابلة الخديوى ، وتمت المقابلة بحضور رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، ولم يقدم المندوب السامى التركى أى اقتراحات جديدة فى هذه المقابلة وإنما قدم تهديداً .. فقد ذكر أنه يجب أن يفهم أن المسألة لن تبحث أكثر من ذلك وأنه يجب إطاعة أوامر الحكومة العثمانية^(٣).

وفى نفس اليوم حدث عدوان آخر على الحدود المصرية فقد أبرق مراسل المقطم فى العريش بأن الجنود العثمانيين قد أزالوا الأعمدة الرخامية القائمة فى نقطة رفع بمنزلة حدود ثابتة بين الحكومة المصرية والحكومة الحميدية . مع أن تلك الأعمدة قد نقش عليها اسم الجنب العالى وتاريخ حضوره إلى تلك النقطة فألقته الجنود التركية على الأرض ولم تحترم الإسم الكريم المنقوش عليه^(٤).

Corres. Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, (١)
Desp. No. 77.

(٢) أحمد شفيق : المصدر السابق ص ٨٥ .

Corres. Part LXV, No. 72, Cromer to Grey, April 25, 1906. (٣)
Tel. No. 113.

(٤) المقطم — العدد ٥١٨٩ بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٠٦ .

وقد طير كرومر الخبر إلى لندن وذكر معه أن أهالي العريش قد أبدوا ما لا مزيد عليه من الانزعاج بسبب هذا الحادث^(١).

ووصلت التقارير أيضاً إلى القاهرة بأن الحامية التركية في العقبة وصلها إمدادات متزايدة من المدافع والرجال ، وقد صرح رشدى باشا قائد هذه الحامية بأن في نيته التقدم نحو نخل .

يضاف إلى كل ذلك أن الجرائد المصرية المؤيدة للجامعة الإسلامية قد ضاعفت من حملتها على موقف بريطانيا إلى حد أن كرومر كتب في هذا الوقت « أنه من الممكن الآن أن يتحول أى حادث صغير إلى ثورة دينية عارمة » .

والواقع أن عملية الإثارة لم تقتصر على الصحف بل أقيمت الخطب في بعض الجوامع وأقامت بعض الطوائف الاحتفالات الدينية بهدف الدهاية وإظهار التأييد للسلطان ، وقد رأى كرومر أصبح مختار باشا وراء كل هذا^(٢).

وكان على الحكومة البريطانية أمام كافة هذه الإجراءات التركية أن تتخذ موقفاً حاسماً ومن ثم بدأت في خلال الأيام القليلة في أواخر أبريل وأوائل مايو تتبلور فكرة تقديم « إنذار » للحكومة العثمانية ونقلنا هذا إلى قصة تلك الأيام ...

مضمرة الإنذار :

كانت فكرة القيام بعمل حاسم ضد الأتراك تراود المتمد البريطاني في القاهرة منذ أواخر مارس . وقد رفض كرومر كل تفكير يشتم منه أى استسلام لمطالب السلطان أو لبعضها لأنه « سوف ينتج أسوأ الأثر إذا ما أذعنا لرغبة السلطان في تمزيق شروط فرمان بأى وسيلة » ، ولكنه مع ذلك طالب بالتمهل « فمن المرغوب منح جلالته كل فرصة للخضوع لاحتجاجاتنا حتى إذا اضطررنا إلى القيام بأى عمل حاسم لا يكون لديه حجة »^(٣) .

Corres, Part LXV, No. 75, Cromer to Grey, April 25, 1906, (١)
Tel. No. 117.

Ibid., No. 62, Cromer to Grey, April 22, 1906, Tel. No. 109. (٢)

Corres, Part LXIV, No. 164, Cromer to Grey, March 27, 1906, Desp. No. 80. (٣)

وفكرة عدم تقديم أى تنازلات عادة يكررها السفير البريطانى فى استنبول بعد ذلك بشهر كامل حيث رأى « أن مثل هذا العمل سيعتبر علامة ضعف وسيزيد من الصعوبات التى تواجهنا »^(١).

ولكن قبل اتخاذ « الإجراء الحاسم » المطلوب كان على الحكومة البريطانية أن تبحث أمرين : أولهما تأمين موقفها الدولى والمحلى قبل اتخاذ هذا الإجراء ، وثانيهما نوع الإجراء المرغوب .

١ — تأمين الموقف الدولى والمحلى :

(١) الموقف الدولى : لما كان توقيت نشوب الأزمة متفقاً مع انعقاد مؤتمر الجزيرة الثانى فى يناير ١٩٠٦ فقد تصور البريطانيون أن ألمانيا تعمل على تحويل أنظارهم إلى شىء آخر فدفعت السلطان إلى اختلاق المشكلة^(٢).

وقد تضاعف الشك فى موقف ألمانيا نتيجة لاصطحاب الحملة الصحفية على البريطانيين بمقالات مليئة بالمديح والثناء على « دولة ألمانيا » لاسيما من اللواء التى زار رئيس تحريرها مصطفى كامل برلين فى تلك الفترة وبقي بها بعض الوقت .

أما فرنسا فلهذا البداية وقد أبدت عن طريق سفيرها فى لندن واستنبول الاستعداد لتقديم كل معونة ممكنة للجانب البريطانى^(٣).

ومع انتهاء مؤتمر الجزيرة خلال أبريل تحول الموقف تماماً لصالح الجانب البريطانى ... فبالنسبة لألمانيا تقدم « الكونت مترنيخ » سفيرها فى لندن إلى وزير الخارجية البريطانية بتأكيدات مؤداها أن الحكومة الألمانية لا تقدم أى عون أو تأييد للحكومة التركية فى موقفها من مسألة طابة ونفى الاتهامات التى رددتها الصحافة البريطانية بهذا المعنى^(٤).

Corres, Part LXV, No. 65, O'Connor to Grey, April 23, 1906, (١)
Tel. No. 66.

Corres, Part LXIV, No. 50, Findlay to Grey, Jan. 27, 1906, (٢)
Desp. No. 14.

Ibid., No. 129, O'Connor to Grey, March 5, 1906, Desp. No. (٣)
150.

Corres, Part LXV, No. 97, Grey to Sir F. Lasselles (Berlin) (٤)
April 30, 1906, Tel. No. 122.

أما فرنسا فقد عبرت جريدة الطان في مقال لها ٢٨ أبريل عن موقف الحكومة الفرنسية بأنها « متفهمة تماماً مع بريطانيا بشأن مسألة الحدود المصرية — التركية وأنها سوف تنفذ كافة التزاماتها الناتجة عن الاتفاق الودي في ٨ أبريل ١٩٠٤ وأن على أصدقائها الإنجليز أن ينتظروا نفس المعونة الودية التي قدموها في مؤتمر الجزيرة »^(١).

وقد تمت لقاءات متعددة يوم ٣٠ أبريل بين وزير الخارجية البريطانية وسفراء الدول الصديقة فقد اجتمع أولاً مع السيوكامبو وأبلغه بالموقف ، وكان رأى السفير الفرنسي وجوب استخدام إحصاء قوى مع الأتراك^(٢)، كما اجتمع بالسفير الروسي الذي رأى إبلاغ حكومته على الفور بالموقف^(٣).

وكانت ردود الحكومتين مشجعة للغاية فلم تكثف الحكومة الفرنسية بتقديم تأييدها ، بل أن السيوكامبو بوتيرو Boutiron السفير الفرنسي في سان بطرسبرج تحدث مع الكونت لامسدروف Lamsdroff وزير الخارجية الروسي في المسألة مما دعا الأخير إلى إرسال تعليماته إلى السيوكامبو زينوفيف السفير الروسي في استنبول لينسق جهوده مع زميله الفرنسي والإنجليزى للضغط على الباب العالي .

وقد أعرب الكونت لامسدروف للسفير البريطانى المستر رايس عن رغبته في عمل مشترك للسفارات الثلاث في استنبول^(٤) .

كما أبلغ السفير الفرنسي البريطانيين بصورة رسمية بأن حكومته قد أرسلت تعليماتها لسفيرها في استنبول لاستعمال كل نفوذه لإجبار السلطان على الموافقة على المطالب البريطانية^(٥) .

وبهذا أصبح الجو الدولى مهدأ تماماً لاتخاذ « الإجراء الحاسم » .

Corres, Part LXV, No. 92, Sir F. Bertie to Grey, April 28, 1906, Desp. No. 183. (١)

Ibid., No. 96, Grey to Bertie, April 30, 1906, Tel. No. 241. (٢)

Ibid., No. 98, Grey to Spring Rice, April 30, 1906, Tel. No. 195. (٣)

Ibid., No. 111, Spring Rice to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 80. (٤)

Ibid., No. 115, Grey to Bertie, May 2, 1906, Tel. No. 57. (٥)

(ب) للوقف المحلى : زادت حدة الجرائد المصرية ذات الاتجاه الإسلامى فى الأيام الأخيرة من أبريل وأوائل مايو إلى درجة كبيرة فى هجومها على التصرفات البريطانية فى المسألة برمتها . فقد هاجمت إنكار حقوق سيادة الدولة العلية على مصر . حيث أن « كل طلبات مولانا السلطان مجابة لدى مولانا الخديوى وأن المصريين لا يريدون مساعدآ لهم ضد سيدنم فليرجع الدخيل ويتخذ عن ذلك بابآ » (١) .

وكتب مصطفى كامل فى اللواء بأنه « لا يسلم بأن لانجلترا الحق فى الدفاع عن بلادنا ضد الدولة العلية إلا كل راغب فى سيادة الإنجليز علينا لأنه ليس لانجلترا صفة شرعية ولا رسمية فى هذا القطر » (٢) .

ونصحت جريدة « الظاهر » انجلترا بعدم التهور فى مسألة العقبة فإن عليها أن « تعلم أنها وإن كانت ذات ممالك واسعة فنصف ممالكها يرى طاعة مولانا الخليفة الأعظم ، فهل إذا استمرت فى عنادها لا ترى خطراً على السلام العام وإن لم يكن فهل لا يوجد خطر على مستعمراتها التى يقطنها المسلمون » (٣) .

وتقدم لنا نفس الجريدة وصفاً لأحوال المصريين فى تلك الأيام فتقول « إن الفتيان استعادوا من آبائهم وأجدادهم قصص الثورة العرابية وتساءلوا عما يصنعون لو اشتعلت نيران القتال على حدود القتال .

« وسرت الأخبار إلى العامة وما أسرع سرعان تلك الأنباء فتلقفوها بأسرع ما يخطف الظمآن إناء الماء . فلم يكن أحدنا يسير فى طريق أو يمر بجماعة أو يحدث عامياً إلا ويسرى التتمس فى حديثه » (٤) .

وبسبب هذه اللهجة العنيفة وهذا الجو العام كانت احتمالات ردود فعل ضخمة فى مصر نتيجة لاتخاذ الإجراء المتظر كبيرة ، ولهذا فقد رؤى قبل اتخاذ هذا الإجراء أن

(١) جريدة « الأمة » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦ مقال بعنوان « لم يتدخل الإنجليز فى مشكلة العقبة » .

(٢) جريدة « اللواء » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦ مقال بعنوان « مشكلة طورسينا » .

(٣) جريدة الظاهر فى ٣٠ أبريل ١٩٠٦ .

(٤) جريدة الظاهر فى ١٣ مايو ١٩٠٦ .

يتم زيادة جيش الاحتلال البريطاني في مصر (١) .

وطلب زيادة الحماية البريطانية في مصر كان كرومر يلح في تلبيته منذ أوائل أبريل كوسيلة للضغط على السلطان (٢) ، ولما أخذت الأزمة تطل برأسها زاد إلحاح المعتمد البريطاني لزيادة جيش الاحتلال وكان رأيه أن القوة الموجودة في مصر وقتذاك لا تكفي لإلحاح السيطرة على القاهرة والإسكندرية فقط .. ولكن ماذا عن الباقي (٣) . وما لبثت وزارة الخارجية البريطانية أن وافقت على قرار إرسال القوات المطلوبة ورأت إعلان هذا القرار بصورة عامة ليكون له تأثيره المطلوب على الرأي العام في داخل مصر (٤) .

وفي ٢٦ أبريل صدرت الأوامر بتحريك ثلاثة فيالق من كريت إلى القاهرة تعززها قوة أخرى من مالطة إلى جانب إرسال قوة من المدفعية من بريطانيا نفسها على أن يتم تحريك هذه القوات قبل آخر الشهر (٥) . وبالفعل تم وصول أغلب هذه القوات قبل اتخاذ « الإجراء الحاسم » .

وقد هاجمت الجرائد المصرية هذا الإجراء وتساءلت عمّن طلب هؤلاء الجنود « هل طلبتهم مصر حتى تسكفل بنفقتهم مع العلم بأنها تنفق في العام على إخوانهم المعسكرين في قصر النيل والعباسية والقلمة نحو ٨٠٠ ألف جنيه . أليس من الظلم أن تكلف مصر بمبلغ ١٦٠ ألف جنيه لهؤلاء القادمين مع أننا لم نطلبهم ولسنا في حاجة إليهم ، وليست مصر في حال تدعو إلى الخوف والقلق حتى تحشد لها الجنود وتجنّد الفرق » (٦) .

كما عملت السلطات البريطانية في القاهرة على تدعيم مركزها الداخلي بإجراء آخر وهو المواجهة السريعة لتحطيم الأتراك لأعمدة الحدود عند رفح ، وعلى هذا

Corres. Part LXV, No. 71, Grey to Cromer, April 24, 1906, Tel. (١)
No. 52.

Ibid., No. 11, Cromer to Grey, April 4, 1906, Tel. No. 84. (٢)

Ibid., No. 47, Cromer to Grey, April 16, 1906, Tel. No. 104. (٣)

Ibid., No. 55, Grey to Cromer, April 19, 1906, Tel. No. 45. (٤)

Ibid., No. 76, War Office to Foreign Office, April 26, 1906. (٥)

(٦) جريدة الظاهر في ٢ مايو ١٩٠٦ .

قد اقترح كرومر إرسال البارجة « منيرفا » التي كانت راسية آنذاك في بور سعيد إلى العريش أو رفح لتحرى حقيقة الموقف وأن يقدم قائدها الكابتن ويموث Weymouth احتجاجاً شديداً للسلطات التركية إذا وجد أن الأعمدة قد أزيحت فعلاً (١) .

وفعلاً صدرت التعليمات لمنيرفا في ٢٧ أبريل لتقوم بالمهمة التي اقترحها المعتمد البريطاني في القاهرة (٢) .

وفي أول مايو قدم الكابتن « ويموث » التقرير المطلوب ، وأبلغ أن الأعمدة قد أزاحها الترك فعلاً ، وذكر أنه رغم محاولة الترك لمنع البارجة البريطانية من الاقتراب من البر ، إلا أن القائد الإنجليزي ومعه موظف مصري كبير هو « نعوم بك شقير » قد تمكن من مقابلة قائد القوة العثمانية في رفح وتسليمه الاحتجاج (٣) .

٢ — نوع الاجراء المطلوب :

لما كان قد ثبت عدم جدوى المفاوضات بعد تلك المحاولات الطويلة التي تمت منذ احتلال الأتراك لطبقة حتى أوائل مايو ١٩٠٦ ، ولما كان طرفا النزاع قد رفضا اللجوء إلى الوسائل السلمية الأخرى سواء بالتحكيم الذي رفضته الحكومة البريطانية وراه السلطان « مدعاة لتمقيدات متعددة لا ترغبها الحكومة العثمانية » (٤) أو بالعرض على محكمة لاهاى التي رفضها كرومر « لأنها ستكون فرصته لألمانيا لمعاملتنا بالمثل على موقفنا في مؤتمر الجزيرة ، وذلك بإثارة المسألة المصرية كلها » (٥) ، كما رفضها السلطان في برقية له إلى سفيره في لندن وذكر أنه « قوى بما فيه الكفاية

(١) Corres, Part LXV, No. 79, Cromer to Grey, April 26, 1906, Tel. No. 118.

(٢) Ibid., No. 83, Grey to Cromer, April 27, 1906, Tel. No. 50.

(٣) Ibid., No. 103, Cromer to Grey, May 1, 1906, Tel. No. 129.

(٤) Ibid., No. 59, Inc. No. 6, Yildiz to Musurus Pasha, March 25, 1906.

(٥) Ibid., No. 39, Cromer to Grey, April 11, 1906, Tel. No. 98.

الدفاع عن حقوقه»^(١). تقول إنه بعد استنفاد هذه الوسائل كان من المنتظر أن تكون طبيعة الإجراء المطلوب عسكرية بالضرورة .

وقد تقرر منذ البداية ألا يكون هذا الإجراء من ناحية البحر الأحمر حتى لا يتخذ ذريعة بأنه تهديد للأماكن المقدسة الإسلامية مما يثير نائرة الشعور الإسلامي^(٢).

والواقع أن الحكومة البريطانية كانت حريصة للغاية منذ البداية على تجنب إثارة المشاعر الإسلامية سواء داخل مصر أو خارجها لاسيما أن تحذيرات متعددة قد وصلتها في هذا الشأن ، ففي خلال مقابلة بين السير أوكونر والسلطان عبد الحميد في ٥ مارس ألح الأخير إلى خطورة الموقف البريطاني « لأن الأراضي موضع النزاع ذات صلة مباشرة بالراكن الإسلامية القديمة »^(٣)، كما نبه بلنت أيضاً في نفس الوقت إلى خطورة مسألة سيناء أصلتها « بطريق الحج البرى بين القاهرة والمدينة »^(٤).

كما تقرر أيضاً استبعاد أى إجراء عسكري محلى ، فعند ما اقترح السفير البريطاني فى استنبول أن تقوم قوة انجليزية بالتقدم إلى المناطق محل النزاع وطرد القوات التركية من طابنة بل ومن العقبة إذا لزم الأمر^(٥) رفض وزير الخارجية هذا الاقتراح لأنه سيستدعى تجميع قوات كبيرة لطرد الأتراك والسيطرة على المنطقة كما أن حرارة الجو فى هذا الوقت من العام — مايو — كانت لا تشجع على مثل هذا الإجراء^(٦).

وقد رؤى أن أنسب إجراء هو « مظاهرة بحرية فى شرق البحر المتوسط » بالقرب من السواحل التركية ، فقد اقترح السير إدوارد جراى أن يتجمع الاسطول

Corres, Part LXV Inc. in No. 37, Cromer to Grey, April 10, 1906, Tel. No. 58. (١)

Ibid., No. 79, Cromer to Grey, April 26, 1906, Tel. No. 118. (٢)

Corres, Part LXIV, No. 129, O'Connor to Grey, March 5, 1906, Desp. No. 150. (٣)

Blunt, W.S., My Diaries, p. 133. (٤)

Corres, Part LXV, No. 109, O'Connor to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 75. (٥)

Ibid., No. 114, Grey to O'Connor, May 2, 1906, Tel. No. 62. (٦)

البريطاني أولاً في يريه في اليونان وإن لم يكف هذا لإذعان العثمانيين تتقدم قطع هذا الأسطول إلى جزيرتي لنوس Lemnos وميتلين Mytilene الواقعتين في بحر إيجه والتابعتين للأتراك وأن تظل هناك حتى يمكن الوصول إلى تسوية مرضية^(١).

وكانت موافقة ممثلي الحكومة البريطانية في القاهرة واستنبول تامة على هذا الإجراء فقد ذكر أوكوز « أن السلطان سيدعن لنطق القوة وذلك بالمظاهرات البحرية في مياه الليفانت »^(٢).

ولم يعد باقياً بعد كل ذلك سوى تقديم الإنذار واتخاذ الإجراءات العسكرية والسياسية اللازمة لوضعه موضع التنفيذ .

الإنذار :

بعد أن تقرر نوع العمل الذي رأت الحكومة البريطانية اتخاذه بدأت الاتصالات بالدول الصديقة لاطلاعها على هذا القرار ، وكان أكثر هذه الدول حماساً لمعاونة الإنجليز هي فرنسا التي ذكر سفيرها في لندن المسيو بول كامبو أن التعليمات قد أرسلت على الفور للسفير الفرنسي في استنبول لاستعمال نفوذه لإجبار السلطان على الموافقة على المطالب البريطانية^(٣) . كما تم الاتصال أيضاً بالسفيرين الروسي والإيطالي في لندن فأبدى الأول استمداً بلاده للمعاونة^(٤) بينما أبدى الثاني ترحيب بلاده بهذه الخطوة^(٥) .

ولكن يجب أن نسجل هنا أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن راغبة من هذه الدول سوى في « معاونة دبلوماسية محددة » أما أى إجراءات عنيفة فينفرد بها الإنجليز وحدهم لأنهم قادرون عليها من ناحية وخوفاً من رد فعل إسلامي عام نتيجة لتجمع الدول الأوربية ضد دولة الخلافة من ناحية أخرى^(٦) .

Corres, Part LXV, No. 93, Grey to Cromer, April 30, 1906, (١)

Tel. No. 55 and to O'Connor, Tel. No. 58.

Ibid., No. 109, O'Connor to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 76. (٢)

Ibid., No. 115, Grey to Bertie, May 2, 1906, (٣)
Tel. No. 57.

Ibid., No. 127, Grey to Spring Rice, May 3, 1906, Tel. No. (٤)
81.

Ibid., No. 128, Grey to Sir E. Egerton (Rome), May 3, (٥)
1906, Tel. No. 59.

Ibid., No. 126, Grey to O'Connor, May 3, 1906, Tel. No. 64. (٦)

ثم من الجانب العسكرى تمت دراسة إمكان انضمام بعض قطع الأسطول البريطانى فى مصر إلى بقية الأسطول الذى تقرر استخدامه فى تنفيذ الإجراء العسكرى المطلوب، وقد وافق كرومر على انضمام « منيرفا » إلى هذا الأسطول ولكنه اعترض بشدة على فكرة سحب « ديانا » من العقبة حتى « لا يحتل الأتراك جزيرة فرعون ونخل مما يسبب اضطراباً شديداً فى العالم الإسلامى ويزيد الأمور تعقيداً، كما أن بقاء ديانا يعمل فى الإمكان إذا تقدم الترك إلى نخل أو قناة السويس تدمير العقبة وعدم تمكن الترك من استعمال آبارها مما يجعل هذا التقدم مستحيلاً » (١) وقد أخذ بوجهة نظر المتعمد البريطانى فى القاهرة فى هذه المسألة تماماً (٢).

وبعد إتمام كل تلك الترتيبات تقدم السير أوكونر عصر يوم الخميس ٣ مايو عام ١٩٠٦ إلى وزير خارجية الدولة العثمانية بمذكرة طويلة ذكره فى أولها بفرمان تولية الحديوى عباس وبرقية ٨ أبريل ١٨٩٢ بشأن إدارة سيناء ومذكرة المتعمد البريطانى فى القاهرة لوزير الخارجية المصرى فى ١٣ من نفس الشهر بتفسير هذه البرقية . . واستطردت المذكرة « وخلافاً لما جاء فى تلك المذكرة فإن الحكومة الامبراطورية قد احتلت طابطة بقوة عسكرية رفضت أن تسحبها رغم تكرار الطلب بذلك ورغم أن طابطة واقعة ضمن الأراضى الخاضعة لإدارة سمو الحديوى بدون شك .

» وإن ما جاء فى مراسلات الصدر الأعظم إلى الحديوى جعل مفاوضات القاهرة مستعجلة بالمرّة كما أن معنى قبول ما جاء فى هذه المراسلات خطورة الموقف على قناة السويس ومصر . وقد استمرت المفاوضات حتى الآن لعدة أسابيع دون تقدم يذكر بل نتج عنها زيادة ادعاءات الباب العالى فيما يخص إدارة مصر .

» وعلى الحكومة العثمانية أن تعلم أن الحكومة البريطانية لن تظل ساكته على انتهاك حقوق سمو الحديوى والمدوان على أراضيه .

» وعلى ذلك فى الشرف أن أبلغ سموكم أن وزير الخارجية البريطانية قد أصدرلى التعليمات لإبلاغكم أنه على الحكومة العثمانية أن توافق على تعيين خط الحدود بين رفح إلى رأس خليج العقبة على أساس برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ وأن تجلو عن طابطة .

Corres, Part LXV, No. 124, Cromer to Grey, May 3, 1906, (١)
Tel. No. 131.

Ibid., No. 134, Grey to Cromer, May 4, 1906, Tel. No. 62. (٢)

« وأن أى تأخير سوف ينتج عنه زيادة صعوبة الموقف ، وأضيف إلى ذلك أنه إذا لم يتحقق هذا خلال عشرة أيام فستكون النتائج وخيمة للغاية » (١) .

* * *

من الخيوط المتشابكة للمقدمة لقصة الأيام العشرة التالية نستطيع أن نخرج بصورة تبدأ خطوطها بالتحركات العسكرية البريطانية يصحبها مساندة دولية وتأييد من الرأى العام البريطانى مع احتياطات أمن واسعة داخل مصر لحمايتها من أى هجوم تركى محتمل .

والجانب الآخر من الصورة تتضح فيه المحاولات التركية للتملص من خيوط الأخطبوط البريطانى وفشلها جميعاً، بل يمكن أن نلاحظ أنه كلما زادت هذه المحاولات زاد ضغط أذرع الأخطبوط .

وكان طبيعياً أن تكون الخطوط الأخيرة لهذا التسلسل المنطقي استسلام تركى كامل ونهاية للأزمة .

وبناء على رسم هذه الجوانب نستطيع إبراز التفاصيل .

الجانب الأول : التحركات البريطانية والموقف المولى والرافلى :

صدرت الأوامر صباح ٤ مايو للأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط بقيادة الأدميرال لورد تشارلز برزفورد Beresford بالتقدم إلى بيريه وفعلاً بدأت قطع هذا الأسطول فى تنفيذ الأوامر على الفور بعد أن انضمت إلى إليها البارجة « منيرفا » التى كانت قد أنهت مهمتها فى رفح (٢) .

ومع إعلان هذه التحركات البحرية تقدم السفير الفرنسى فى استنبول إلى وزير الخارجية التركية بنصيحة قوية بالاستجابة لمطالب الإنجليز (٣) .

وفى نفس الوقت صدرت التعليمات إلى المسيو « زينوفيف » السفير الروسى

Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, (١)
Desp. No. 77.

Ibid., No. 130. Admiralty to Foreign Office, May 4, 1906. (٢)

Ibid., No. 131, O'Connor to Grey, May 4, 1906, Tel. No. 82. (٣)

في استنبول بتسنيق جهوده مع زميله الفرنسى والبريطانى لزيادة الضغط على الباب العالى (١) .

وقد أبلغ وزير الخارجية الروسى السفير البريطانى فى سان بطرسبرج أنه مما يسمعه جداً عودة التعاون مع الدولتين اللتين تعاونت معهما روسيا فى مؤتمر قريب — يقصد مؤتمر الجزيرة (٢) .

ووصل الأمر بالتعاون البريطانى — الفرنسى — الروسى فى استنبول إن تمكنت السفارة الفرنسية من الحصول — بطريقة ما! — على خريطة وضعتها قيادة الجيش الخامس التركى للحدود المقترحة التركية — المصرية فسلمتها المسيو كوستانس إلى زميله السير أوكونر على الفور (٣) .

ولكن كان موقف « ألمانيا » هو الذى يحيط به عديد من علامات الاستفهام فالصالح الألمانية الكبيرة التى نمت فى الدولة العثمانية فى هذا الوقت يضاف إليها مقالات الصحافة الداعية للجامعة الإسلامية فى القاهرة — على رأسها اللواء — والتي كانت تجدد دائماً الصداقة العثمانية — الألمانية إلى جانب زيارات البارون فون أوبنهايم Oppenheim — السكرتير الشرقى للقنصلية الألمانية — المتكررة لمختار باشا إبان الأزمة . . . كل هذا ألقى الريب والشكوك حول الموقف الألمانى من الصراع البريطانى العثمانى .

وقد دعا هذا السير إدوارد جراى فى مقابلة له مع السفير الألمانى فى لندن أن ينبه هذا السفير لتصرفات البارون أوبنهايم وذكره أن المونة التى قدمها الألمان للسلطان أثناء أزمة مقدونيا قد شجته أن يذهب بعيداً (٤) .

كما تحدث المسيو كامبو السفير الفرنسى فى لندن مع زميله الألمانى وأبلغه رأى الحكومة الفرنسية من أن البارون أوبنهايم بأعماله فى القاهرة لا يضر حسب

Corres, Part LXV, No. 162, O'Connor to Grey, May 3, 1906, (١)
Desp. No. 805.

Ibid., No. 154, Spring Rice to Grey, May 3, 1906, Desp. (٢)
No. 293.

Ibid., No. 148, Spring Rice to Grey, May 6, 1906, Tel. (٣)
No. 86.

Grey of Fallidin, Op. cit., p. 130. (٤)

بالمصالح البريطانية في مصر بل يضر بمصالح كافة الدول التي لها مستعمرات في العالم الإسلامي بتشجيعه روح الجامعة الإسلامية^(١).

ومع حرص بريطانيا وفرنسا على إبقاء ألمانيا بعيدة عن حلبة الصراع إلا أنها منذ البداية كانت بعيدة فعلاً، ففي ٢٩ إبريل نشرت مجلة North German Gazette شبه الرسمية مقالا تنفي أن ألمانيا لها أي يد في تشجيع تركيا في موضوع العقبة، كما أن مجلة فرانكفورت زيتونج Frankfortur Zeitung التي صدرت قبل ذلك بيوم واحد كتبت مقالا آخر طويل عن الموضوع وقدمت نفس النفي^(٢).

وفي ٢ مايو قابل وزير الخارجية الألمانية السفير التركي في برلين وسأله عن السبب الذي يدفع السلطان لنشر الشائعات بأن ألمانيا معه في صراعه مع إنجلترا^(٣). وفي اليوم التالي قابل السفير البريطاني مستولا كبيراً في وزارة الخارجية الألمانية صرح له انه « قد تم أفهام السفير التركي أن حكومته لا يمكن أن تساعد السلطان في هذا الموضوع وأن النصيحة التي قدمت له في هذا الشأن لا تتمدى حث حكومته على التفاهم مع الحكومة البريطانية »^(٤).

وقبيل نهاية الأزمة نشرت مجلة دوتيش كولونيال زيتونج Kolonial Zeitung Deutche المعبرة عن آراء وزارة الخارجية الألمانية تشير إلى عقم الرأي القائل بأن ألمانيا قد شجعت السلطان في مسألة الحدود المصرية — التركية وذلك لتعارض هذا الرأي مع المصالح الألمانية الناتجة عن تزايد مصالحها التجارية في مصر^(٥).

ومعنى ذلك أن العمل العسكري البريطاني من الوجهة الدولية — كانت له حرية الحركة تماماً .

(١) Documents Diplomatiques Français, 1871-1914, 2me Serie (1901-1911) Tome X, No. 51 Cambon à Bourgois 11 Mai, 1906.

(٢) Cores, Part LXV, No. 152, Lascelles to Grey, April 30, 1906, Desp. No. 72.

(٣) Ibid., No. 277 Cromier th Grey May 26, 1906 Desp. No. 72.

(٤) Ibid., No. 153, Lascelles to Grey, May 3, 1906, Tel. No. 127.

(٥) Ibid., No. 267, Lascelles to Grey, May 15, 1906, Tel. No. 140.

يضاف إلى ذلك أن التأييد الداخلى للسياسة البريطانية في هذه المسألة كان تاماً .
وإذا استعرضنا بعض جلسات مجلس العموم إبان الأزمة لوجدنا أن كل ما دار حولها
من مناقشات ينبض بالرضاء عن خطوات الحكومة وحضها على المحافظة على الحقوق
المصرية^(١) وعلى حماية قناة السويس^(٢) .

والمحاولة الوحيدة التي بذها بلنت Blunt لجميع الأعضاء الراديكاليين في المجلس
للاشتراك في احتجاج ضد الإنذار على اعتبار أنه انتهاك لحقوق السلطان قد يثير ثائرة
العالم الإسلامى .. هذه المحاولة قد لاقى إخفاقاً تاماً لأن هؤلاء الأعضاء كانوا غاضبين
على السلطان إلى درجة أن أحداً منهم لم يقبل الاشتراك في هذا الاحتجاج^(٣) .

كما أبدت الصحافة البريطانية خطة الحكومة ولم نعتز فيها سوى على ذلك الصوت
الخافت لستر بلنت عندما نشرت « المانشستر جارديان » يوم ١٢ مايو خطابه الذي
أرسله إلى السير إدوارد جراى محتجاً على الإنذار الذي تم توجيهه للسلطان^(٤) .

الجانب الثانى : الموقف المحلى :

أخذت الأخبار المتناثرة قبيل الإنذار وبعده تصل إلى لندن عن بعض التحركات
العسكرية التركية ، فقد أبلغ المستر جون ديكسون Dickson القنصل البريطانى في
القدس في أواخر أبريل بأن ٤٠٠ جندى تركى نزلوا في يافا ، كما قدر عدد الأتراك
الموجودين في العقبة بـ ٢٤٥٠ رجلاً^(٥) .

وأرسل نفس القنصل في ٧ مايو بأن الأوامر قد صدرت لتقوية يافا كما وصلت
قوات من يافا إلى الحدود عند رفح^(٦) ، وعلم في اليوم التالى أن الأتراك يستطيعون

(١) أنظر سؤال Ashley المستر اشلى في جلسة أول مايو .

Parliamentary Debates, House of Commons, — Fourth
Series, Vol. 156, pp. 403-404.

(٢) أنظر سؤال المستر لبتون Lupton في جلسة ١٠ مايو .

Ibid., Vol. 157, p. 178.

Blunt W.S. op. cit., p. 143. (٣)

Ibid., p. 144. (٤)

Corres. Part LXV No. 149, O'Connor to Grey, April 28, 1906 (٥)
Desp. No. 282.

Ibid., No. 158, O'Connor to Grey, May 7, 1906, No. 89. (٦)

حشد ٢٠ ألف رجل في عمان خلال أسبوعين (١) .

وقد أزعجت هذه الأخبار كرومر الذى رأى الاستعداد لمواجهة احتمال تحرك الأتراك نحو قناة السويس .

وكانت أول خطوة تتخذ في هذا السبيل إرسال قوة عسكرية تتكون من مائة رجل من خفر السواحل مع مدفعين ومدفع جيلى إلى « نخل » لما هو معلوم من أن سيطرة أى قوة أجنبية على ذلك المركز الاستراتيجى الهام يمكنها من أن تهدد قناة السويس (٢)

وقد أدى قلق كرومر المتزايد على سلامة القناة إلى أن يطالب بتقدم الأسطول والقوات البريطانية إليها ، ولكن قبل أن يتم هذا التقدم كان هناك ثلاثة أمور يجب أقرارها :

١ — مدى اتفاق وجود السفن الحربية في قناة السويس أو بناء القواعد العسكرية على شاطئها مع المادة الثامنة من معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ .

٢ — مدى فاعلية قوات الأسطول البريطانى في منع الأتراك عن عبور القناة إذا بقيت في بحيرة التماسح .

٣ — مدى ما يمكن أن تقدمه وزارة الحربية من قوات من الهند أو من بريطانيا في مثل هذه الحالة (٣) .

وقد أجاب السير ملكولم مكرويث المستشار القضائى للحكومة المصرية على التساؤل الأول من تساؤلات كرومر بأنه ليس ثمة تعارض بين اتخاذ أى خطوات للدفاع عن قناة السويس وبين معاهدة ١٨٨٨ (٤) .

وقد اهتمت وزارة الخارجية ووزارة الحربية البريطانيتان بالجوانب الأخرى التى

Corres, Part LXV, No. 168, O'Connor to Grey, May 7, 1906, (١)
Tel. No. 91.

Ibid., No. 143, Cromer to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 136. (٢)

Ibid., No. 142, Cromer to Grey, May 5, 1906. (٣)

Ibid., No. 144, Cromer to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 137 (٤)

أثارها المعتمد البريطاني بل أن وزارة الهند أيضاً تم استشارتها في الموضوع حيث تقرر الاستماعة بقوات هندية للدفاع عن قناة السويس ومصر في حالة الهجوم عليها وذلك لأنه كان يهم الإنجليز أن يكون جنود هذه القوات من غير المسلمين (١) .

ولما كان تطبيق المادة الثامنة من معاهدة القناة بشأن وجود قوة فيها للدفاع عنها في حالة الضرورة القصوى يستدعى تضامن إثنين من ممثلي الدول الموقعة على هذه المعاهدة مع ممثلي بريطانيا في القاهرة فقد تقرر إجراء مشاورات عاجلة في هذا الشأن مع الحكومتين الفرنسية والروسية (٢) .

وتمت الاتصالات اللازمة مع السفير الفرنسي في لندن الذي أبلغ الحكومة البريطانية استعداد حكومته للتعاون في هذا الموضوع كما نجحت اتصالات مشابهة مع الحكومة الروسية في بلوغ نفس الأهداف (٣) .

وبناء على هذه الاتصالات فقد أرسلت حملة قوية من الفرقاطات وقوارب الطوربيد إلى المياه المصرية يقودها الرير أدميرال سيرهدورث لمبتون H. Lempton وبقيت في حالة استعداد لصد أى هجوم تركي محتمل على القناة (٤) . كذا وفقت وزارة الحربية على بقاء القوات الهندية المطلوبة رهن الاستعداد تحت طلب المعتمد البريطاني في القاهرة (٥) .

وفي نفس الوقت تمت اتصالات سرية بين وكيل القنصل البريطاني في غزة المستر كنيز فيش Knesevish في ١٢ مايو وبين عدد كبير من أبناء المدينة الذين ذكروا « أنهم غير راضين عن الأتراك ، وأن الإناء قد فاض بما فيه ، وأنهم على استعداد لكتابة التماس يوقع عليه كبار رجال غزة لتسليمه إلى القنصلية طالبين الحماية » .

(١) Corres, Part LXV, No. 161, Grey to Cromer, May 7, 1906, Tel. No. 67.

(٢) Ibid., No. 173, Cromer to Grey, May 8, 1906, Tel. No. 144.

(٣) Ibid., No. 208, Grey to Cromer, May 11, 1906, Tel. No. 80.

(٤) Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٥) Ibid., No. 183, Grey to Cromer, May 9, 1906, Tel. No. 70.

كما طالب « أفندية المدينة » وكيل القنصل أن تمتد الحدود المصرية إلى أسدود لتشملهم كما كان الوضع دائماً^(١) .

وبالطبع كان لهذه الاتصالات قيمتها الكبيرة كإجراء دفاعى يمكن استعماله في حالة الهجوم التركى المحتمل إذ يمكن معه إثارة أهالى تلك البلاد ضد الحكم العثمانى فى مثل هذه الحالة .

الجانب الثالث : المعركة السياسية

كانت أول ردود الفعل التركية للأنذار البريطانى أن أرسل السلطان « نجيب باشا » كبعوث خاص له صباح يوم ٥ مايو إلى السفير البريطانى فى استنبول برسالة يجدد فيها تأكيدات باحترام برقية ٨ أبريل وبأنه لا يدعى أى شىء غرب خليج العقبة .

وقد رد السير أوكونر على ذلك بأنه على السلطان أولاً وضع هذه التأكيدات موضع التنفيذ بالجلاء عن طابة وتعيين الحدود بين سيناء وولاية الحجاز ، كما حذر مبعوث السلطان من استمرار هذا الأسلوب غير الرسمى لأن حكومته مصممة على أن تسير الأمور فى أقصى حدود الرسمىات^(٢) .

وفى مساء نفس اليوم عاد نجيب باشا يحمل معه من السلطان مشروع اتفاق لحل الأزمة ، أما أهم نقاط المعاهدة المقترحة فقد كانت :

- ١ — أن تعترف بريطانيا بسيادة السلطان على مصر .
 - ٢ — أن يعترف السلطان بكل المعاهدات والقرارات الخاصة بمصر .
 - ٣ — فى حالة الضرورة يشارك بقواته فى الدفاع عن مصر وقناة السويس جنباً إلى جنب مع بريطانيا العظمى .
- وذكر رسول السلطان أنه فى حالة موافقة الحكومة البريطانية على هذه المعاهدة

Corres, Part LXV, No. 298, O'Connor to Grey, May 29, 1906. (١)

Ibid., No. 138, O'Connor to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 83. (٢)

فسوف يتم الجلاء عن طابطة وتتكون لجنة تركية — إنجليزية مشتركة لتعيين الحدود .
وكان رد أوكوز على هذا الاقتراح لا يقل عنفاً عن رده على الاقتراح الأول
فقد أبلغ نجيب باشا بأنه لا يرى ضرورة لمثل هذه المعاهدة حيث أنه لا داعى لبحث
مسألة اعتراف السلطان بالفرمانات التي أصدرها (١) .

كما رفض كرومر فكرة إصدار أى تصريح بسيادة السلطان على مصر « فمثل
هذا الأمر لم يكن موضع تساؤل أبداً ولكن يبدو أن الهدف هو إحراز نصر
ديبلوماسى سيكون له أثر كبير هنا — أى فى القاهرة » (٢) .

وقد رأت استنبول بعد ذلك أن تغير من أسلوبها السياسى فقامت بمحاولة يائسة
لإبعاد البريطانيين تماماً عن ميدان الصراع على اعتبار أن المسألة تخص مصر والدولة
العثمانية وحدهما ، وعلى هذا الأساس فقد أرسل الصدر الأعظم برقية إلى الخديوى
فى ٧ مايو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا بصورة مباشرة بشأن مسألة الحدود (٣) .

وكان مما جاء فى هذه البرقية « أن وضع إنجلترا فى مصر يعتمد كما هو معروف
على الاحتلال العسكري للبلاد وأن تدخلها فى تلك المسألة لا يصح فهمى من اختصاصك
وحدك . وحيث أن السلطان قد أسند إدارة الأراضى المصرية إليكم فهو يرجوكم
ألا تمكنوا أى قوة أجنبية من التدخل فى انتظار ردكم » .

وقد بعث الخديوى — بناء على نصيحة كرومر — بالرد على برقية الصدر الأعظم
بأنه ليس لديه ما يضيفه إلى آرائه السابقة فى الرد على هذا الموضوع (٤) .

وبعد فشل تلك المحاولة التركية أخذت السلطات العثمانية تتنازل شيئاً فشيئاً عن
موقفها فى الوقت الذى ظل فيه المسئولون البريطانيون يتشددون ويضغظون حتى
انتهت الأزمة باستسلام تركى كامل .

Corres, Part LXV, No. 140, O'Connor to Grey, May 5, 1906, (١)
Tel. No. 85.

Ibid., No. 199, Cromer to Grey, May 10, 1906, Tel. No. 104. (٢)

Ibid., No. 179, O'Connor to Grey, May 9, 1906, Tel. No. 96. (٣)

Ibid., No. 181, Cromer to Grey, May 9, 1906, Tel. No. 147. (٤)

ففي اليوم التالي لرد الحديوي استقبل وزير الخارجية التركي السير أوكوز وأبلغه أن السلطان قد أمر بانسحاب القوات العثمانية من طابطة والإبقاء على الوضع الراهن في سدياء .

ولما لم يقدم الوزير التركي تأكيدات بانسحاب القوات التركية من الأماكن الأخرى التي احتلتها رد السفير البريطاني بأن هذه المحاولة الجديدة ليست إلا إضاعة للوقت وأن الأمر قد أصبح خطيراً للغاية^(١) .

وكنتيجة لمحاولة الأتراك تجميع الموقف دون إجابة محددة على الإنذار تقرر أن تحتل قوات الأسطول البريطاني جزيرتي متيلين ولنوس يوم الأحد — يوم نهاية مهلة الإنذار — وذلك بهدف منع حركة النقل التركي في البحر المتوسط^(٢) .

كما تقرر فرض الرقابة على خط البرق التركي للماز بالعريش وخط البريد الشرقي الذي تهيمن عليه شركة التلغراف الشرقية Eastern Telegraphy Company كوسيلة من وسائل الضغط على السلطان خاصة أن البرقيات التي كانت تصل من اليمن كانت تمر عن هذا الطريق^(٣) وكان التحفظ لوحيد لوزارة البريد البريطانية على هذا العمل هو إبلاغ مكتب البرق الدولي في برن به حتى لا يكون مخالفاً للمعاهدات الدولية^(٤) .

وخلال الوقت الذي كانت تقوم فيه السلطات البريطانية « بلوى ذراع » الدولة العثمانية تقدم السير ادوارد جراي بمقترحات أخرى كزيد من إجراءات القهر إذا رفض الباب العالي الموافقة على الإنذار .

١ — استدعاء مختار باشا من مصر .

٢ — طرد الأتراك من خليج السلوم .

٣ — حرمان السلطان من حق الفيتو على حق مصر في الاستدانة .

Corres, Part LXV, No. 191, O'Conor to Grey, May 10, 1906, (١)
Tel. No. 101.

Ibid., No. 194, Grey to Cromer, May 10, 1906, Tel. No. 74. (٢)

Ibid., No. 174, Cromer to Grey, May 8, 1906, Tel. No. 96. (٣)

Ibid., No. 196, General Post Office to War Office, May 11, 1906. (٤)

٤ - طلب التعويض المناسب عن كافة المصروفات التي أنفقتها الحكومة البريطانية على المظاهرة البحرية أو أية إجراءات أخرى يمكن أن تكون ضرورية .

٥ - إقرار كافة المسائل المتعلقة بين الحكومة البريطانية والباب العالي (١) .

وكانت هذه المقترحات تتفق مع رأى كرومر تماماً الذى كان يرغب فى إخراج مختار باشا من القاهرة بأى عن (٢) .

وفعلا صدرت التعليمات للسير أوكونر بإبلاغ العثمانيين بأن عدم استجابتهم للمطالب البريطانية سيؤدى إلى تقديم مطالب جديدة لهم (٣) . ولكن مع ذلك كانت الرغبة واضحة فى منح الباب العالي منفذاً بسيطاً يمكن أن ينسحب منه دون إراقة كل ماء وجهه ، وعلى هذا فقد تقرر الموافقة على طلب السلطان بتأكيد حقوقه على مصر فى أحد خطابات السفير البريطانى إليه (٤) .

وعندما قابل أوكونر الصدر الأعظم ليقدم له التحذير الجديد أبلغه الأخير أنه قد طلب من الخديوى تعيين المبعوثين الذين سيعملون مع المبعوثين الترك لتعيين الحدود الإدارية المصرية لشبه الجزيرة ، وأن الانسحاب من طابطة والأماكن الأخرى سوف يبدأ تلك الليلة .

ورغم ما فى هذا الرد من الاستجابة التامة للمطالب البريطانية إلا أنه لم يرض السفير البريطانى حيث أن حل المسألة بهذه الصورة سوف يمنح الحكومة التركية الفرصة لإحياء كل ادعاءاتها فى أى وقت آخر (٥) .

كما رفض المعتمد البريطانى فى القاهرة إقرار المشكاة بهذه الطريقة حيث أن السلطان سيعتبر أن التسوية قد تمت بالاتفاق المباشر بينه وبين الخديوى ومن ثم فلن يكون فى حاجة إلى إعادة تأكيد برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ والتي تكون قسماً من الفرمانات

Corres, Part LXV, No. 187, Grey to O'Connor, May 9, 1906, Desp. (١)
No. 181.

Ibid., No. 206, Grey to O'Connor, May 11, 1906, Tel. No. 81. (٢)

Ibid., No. 204, Grey to O'Connor, May 11, 1906, Tel. No. 78. (٣)

Ibid., No. 202, Cromer to Grey, May 11, 1906, (٤)

Ibid., No. 211, O'Connor to Grey, May 11, 1906, Tel. No. 111. (٥)

ولا يمكن تغييرها دون موافقة الحكومة البريطانية « ومن هنا فمن المحتمل جداً مواجهة هذه المسألة مرة أخرى بعد فترة قصيرة إن لم يتخذ الاحتياط الكافي» (١) .

ورغم أن الخديوي عباس الثاني قد رد على الصدر الأعظم برضائه على مقترحاته وبأنه سوف يرسل مبعوثيه لتعيين الحدود بما اعتبره البريطانيون تعويقاً لعملهم (٢) ، إلا أن السير أوكونر صمم على الحصول على رد الإنذار مما دعا وزير الخارجية التركي إلى أن يعده بإبلاغه بقرار السلطان قبل مساء ١٤ مايو (٣) . كما ضغط السير جراي أيضاً على موزورس باشا في لندن وطلب منه ضرورة وصول السلطان قبل اجتماع مجلس الوزراء البريطاني في اليوم التالي وأن الموقف سيصبح خطيراً للغاية إذا استمرت الحكومة التركية في تجاهلها لوضع بريطانيا في مصر (٤) .

وأمام كل هذه الضغوط لم يكن أمام استنبول إلا الاستسلام وينقلنا هذا إلى الجانب الأخير من الصورة

الاستسلام التركي :

خلال الساعات القليلة ما بين تحذيرات السير أوكونر والسير ادوارد جراي لوزير الخارجية التركية والسفير العثماني في لندن مساء يوم ١٣ مايو والموافقة التركية الكاملة على المطالب البريطانية عصر اليوم التالي كانت الأعصاب مشدودة تماماً والاستعدادات قائمة على قدم وساق وقد وضع احتمال الصدام قبل أي احتمال آخر .

ف عندما أبلغ قائد عام أسطول البحر المتوسط كرومر بأن برقية قد وصلتته من البحرية البريطانية بأن السلطان سيقبل الطلبات البريطانية على وجه التأكيد وأنه يستعد لإعادة سفن الأسطول إلى مراكزها الأصلية رفض المعتمد البريطاني بشدة هذا التفكير وأعلن أنه حتى إذا تم الوصول إلى إتفاق فلا يجب إعادة الأسطول قبل جلاء القوات التركية

Corres, Part LXV, No. 217, Cromer to Grey, May 12, 1906, (١)
Tel. No. 153.

Ibid., No. 222, O'Connor to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 117. (٢)

Ibid., No. 220, O'Connor to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 115. (٣)

Ibid., No. 229, Grey to O'Connor, May 13, 1906, Tel. No. 87. (٤)

عن طابة ورفع^(١) .

وقد استجاب الأدميرال تشارلز برزفورد لمطالب الساسة البريطانيين بل إنه ذكر أن في إمكانه بالإضافة إلى احتلال متيلين ولمانوس أن يحتل جزر الأرخيبيل الخمس الأخرى وكان رأيه أن احتلال رودس — مركز الوالى — سوف يؤدي إلى قيام حركة وطنية يونانية ضد العثمانيين لن يمكن القضاء عليها بسهولة^(٢) .

في نفس الوقت ظلت القبضة البريطانية في تشدها في الأخذ بخناق العثمانيين ، فقد أمر كرومر الحديوى بإرسال برقية إلى الصدر الأعظم مؤداها أن لاحل يرضيه سوى أن يمتد خط الحدود من رفح إلى العقبة^(٣) .

ولما كان الرأى العام في مصر يغلى وكتبت الجرائد تهاجم البريطانيين هجوماً عنيفاً فصدر اللواء يوم ١٣ مايو وقد زين صدره بمقالة بعنوان « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »^(٤) كما كتب المؤيد قبل ذلك بيوم واحد مقالة بعنوان « كيف يزداد حب الدولة العلية في مصر وكيف ينمو بغض الإنكليز » نقل بعضها عن مقالة للاهرام بنفس المعنى^(٥) .. نقول إنه نتيجة لهيجان الرأى العام المصرى قرر كرومر أن ينشر الخبر بأن الباب العالى قد استجاب لكافة مطالب الحكومة البريطانية بهدف تهدئة المصريين^(٦) .

والواقع أن توقعات المعتمد البريطانى في هذا الشأن قد تحققت تماماً في نفس يوم نشر الخبر ، ففي عصر ١٤ مايو وصلت مذكرة تركية من الباب العالى ردأ على الإنذار البريطانى المؤرخ في ٣ من نفس الشهر بها إجابة لكل المطالب التى قدمت في هذا الشأن^(٧) .

Corres, Part LXV, No. 234, Cromer to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 159. (١)

Ibid., No. 237, O'Connor to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 121. (٢)

Ibid., No. 235, Cromer to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 160. (٣)

(٤) اللواء العدد ٢٠٢٦ في ١٣ مايو ١٩٠٦ .

(٥) المؤيد العدد ٤٨٦٠ في ١٢ مايو ١٩٠٦ .

Corres, Part LXV, No. 236, Cromer to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 161. (٦)

Ibid., No. 239, O'Connor to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 124. (٧)

وقد وافق الباب العالي في مذكرته على ما جاء في برقية جواد باشا في ٨ أبريل ١٨٩٢ للخديوى وأنه قد تقرر الجلاء عن طابة وصدرت الأوامر لتنفيذ هذا القرار كما وافق على أن خط الحدود سيextend من رفح في خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على بعد ٣ أميال غرب قلعة العقبة ، وختم السلطان مذكرته معرباً عن أمله أن تستمر العلاقات الطيبة مع الحكومة البريطانية .

وأمام هذا الاستسلام التركي لم يكن أمام السير أوكونز سوى التعبير عن رضاء حكومته الكامل في مذكرة للحكومة العثمانية في نفس اليوم (١) .

وقد أبلغت الحكومة البريطانية الدول الصديقة التي ساندتها خلال الأزمة — فرنسا وروسيا — برضوخ تركيا وقدمت لها شكرها على المعونة التي أسدتها لها (٢) .

أما في مصر فقد هلت صحيفة المقطم بالنصر البريطانى وإن حاولت جريدة اللواء أن تقلل من قيمة هذا النصر على اعتبار أن « جلاله السلطان قد تحقق أن الأمة المصرية عن بكرة أبيها ملتفة حول عرشه التفاف العروق بالقلب وأن الإنكليز مهما تبوا وأجهدوا لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يبعثوا المصريين عنه شبراً واحداً وأن مصر والمصريين باقون على ولائه مهما طال عهد الاحتلال وقوى مركزه في البلاد » (٣) .

على أى حال فقد رفض كرومر — رغم التسوية — الموافقه على تقليل قوة الاحتلال التي تم زيادتها في البلاد وكان رأيه « أن الطبقات الدنيا من المسلمين خاصة في المدن الكبيرة لازالت روحها خطرة للغاية وأن الأيام وحدها هي الكفيلة بهدئة هذه الروح وحتى يتم هذا فقد تقرر أن تبقى الحماية البريطانية على قوتها » (٤) .

وما لبثت القوات التركية أن جلت عن كل المراكز التي ظلت تحتها منذ بداية الأزمة وهي طابة ونقب العقبة والقطار كما أعيدت أعمدة الحدود التي كان قد تم

Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, (١)
Desp. No. 77.

Ibid., No. 241, Grey to Spring Rice and Sir E. Bertie, May (٢)
14, 1906.

(٣) اللواء - العدد ٢٠٢٧ في ١٤ مايو ١٩٠٦

Corres, Part LXV, No. 250, Cromer to Grey, May 17, 1906. (٤)
Tel. No. 165.

إزالتها من رفح وانسحب العثمانيون شرق الحدود^(١) .
وفي استنبول قرر السلطان إقصاء « عزت باشا » أحد مستشاريه الرئيسيين بعد الفشل الذي أصابه خلال الأزمة وخلفه « أمين بك » كواسطة بين السلطان والصدر الأعظم^(٢) ، كما تشكلت اللجنة التي تقرر أن تساهم مع اللجنة المصرية برئاسة السكاكين أوين في تخطيط الحدود بين البلدين ، وقد أتمت اللجنتان عملهما في أول أكتوبر من نفس العام حين وقعت اتفاقية الحدود في رفح^(٣) ، وبنهاية عملية التخطيط انتهت عملياً تماماً أزمة العقبة التي كادت أن تؤدي إلى صدام عسكري بريطاني عثماني .

مصادر الأزمة :

لقد أثرت أزمة العقبة في مستقبل مصر إلى حد بعيد المدى فهي لم تنته بالاستسلام التركي أو بتعيين حدود مصر الشرقية .

ويمكن أن نعتبر أن آثار هذه الأزمة هي التي مكنت سلطات الاحتلال البريطاني عندما أعلنت الحماية على مصر أثر دخول تركيا الحرب في صفوف دول الوسط ١٩١٤ أن يكون هذا الإعلان « مستريحاً » تماماً بعد أن مكنتها هذه الأزمة من :

١ — العمل على القضاء على المظهر المادي من استعمار تبعية مصر للدولة العثمانية بمحاولة إنهاء منصب المندوب السامي التركي في القاهرة نتيجة لموقف الرجل الذي كان يشغله إبان الأزمة وهو الغازي مختار باشا .

٢ — ضرب الحركة الوطنية في مصر بضرب الصحافة الوطنية على رأسها جريدة اللواء بإعادة إحياء قانون المطبوعات الصادر في نوفمبر ١٨٨١ مرة أخرى في أوائل ١٩٠٩ .

وكانت حجة البريطانيين في صدور هذا القانون الموقف الذي اتخذته هذه الصحافة من الأزمة .

Corres, Part LXV, No. 255, Cromer to Grey, May 19, 1906, (١)
Tel. No. 168.

Ibid., No. 259, O'Connor to Grey, May 15, 1906, Desp. No. 332. (٢)

(٣) نص الاتفاقية في الوقائع المصرية العدد ١٢٧ لسنة ٧٦ في ١٠ نوفمبر ١٩٠٩ .

٣ — بالطبع تبع إضعاف التبعية المصرية للدولة العثمانية قوة الاحتلال البريطانى فى البلاد مكتسبة من فرض الحماية عليها فى أوائل الحرب العالمية الأولى .
وتفصل الآن الحديث عن كل هذه الآثار :

محاولة إلغاء منصب المنروب السامى التركى :

فى عام ١٨٨٦ عينت الحكومتان البريطانية والتركية مبعوثين لبحث الأمور المتعلقة بالموقف فى مصر هما الغازى مختار والسير هنرى درمندوولف .

وقد نتج عن المفاوضات بينهما تلك المعاهدة التى سميت « بمعاهدة وولف » والتى لم يعتمدها السلطان مما أدى إلى عدم تنفيذها . ورغم فشل المهمة التى جاء من أجلها مختار باشا إلى القاهرة إلا أنه بقى فيها مندوباً سامياً تركياياً .

وكان من المفهوم تماماً أن علاقة مختار باشا ببعض الصحف فى القاهرة هى التى دفعتها إلى شن حملة شعواء على الاحتلال أثناء الأزمة إلى حد هدد بقيام ثورة دينية فى البلاد مما أدى إلى استدعاء مزيد من قوات الاحتلال لمواجهة هذه الثورة المحتملة .

كما كان من المفهوم أيضاً أن من أسباب التعقيدات الكثيرة التى دخلت على المفاوضات والتى انتهت إلى الأزمة كان موقف مختار باشا نفسه .. فمثلاً عندما تقرر عقد مجلس عسكري لبحث المسألة فى ١٤ فبراير كان موقف السلطان ودياً للغاية ، وقد خرج أوكونر من هذا بأن المسألة على وشك الحل ، ولكن فجأة يتغير موقف الباب العالى ويعلن فى اليوم التالى أن طباطبة قسم من الأراضى التركية ، وقد علم أن التغيير الذى طرأ على الموقف كان نتيجة لبرقية وصلته من مختار باشا^(١) .

ولهذا نظر كل من كرومر وأوكونر إلى مختار باشا بعين العداء ، وعندما قررت الحكومة التركية اختياره مندوباً لها ليتقدم إلى العقبة ويتجرى عن حقيقة موقع الأراضى المتنازع عليها أبلغ السفير البريطانى فى استنبول وزير الخارجية التركية أن « حكومته لا تنظر لهذا الاختيار بعين الرضاء »^(٢) .

Corres. Part LXIV, No. 21, O'Conor to Grey, Feb. 16, 1906. (١)
Tel. No. 21.

Ibid., No. 86, O'Conor to Grey, Feb. 19, 1906, (Tel. No. 25. (٢)

كما لم يتردد كرومر في إبداء غضبه وتشاؤمه من نزول البعثين التركيين مظفر بك وفهيمى أفندى في قصر مختار باشا ، واعتبر أن هذا النزول مقدمة لفشل مهمة البعثين (١) .

وأثناء المفاوضات كان مختار باشا دائماً في الصورة وكان يحرض السلطان على الاحتفاظ بالمراكز المحتلة وتأمين غيرها ، بل إنه دفع القائد المسكرى في العقبة إلى تقديم تقارير بنفس المعنى (٢) .

لسلك هذه الأسباب بدأت السلطات البريطانية في القاهرة لاتعترف بمركز مختار باشا ككندوب سام تركى في البلاد . ويكتب كرومر في هذا المعنى في ٢١ مايو بأنه يعتبر « أن الخديوى هو الممثل الوحيد الشرعى للسلطان في مصر » (٣) .

وعند ما تقدم مختار باشا لمفاوضة الخديوى باسم الدولة العثمانية في أوائل أبريل رفض عباس بتعريض من البريطانيين بدء التفاوض قبل أن يصل إليه من استنبول تخويل لمختار باشا بمثل هذا العمل (٤) ومن الواضح أن هذا الرفض قد تضمن عدم اعتراف الحكومة المصرية بالرجل ككندوب سام تركى في البلاد يمكن أن يمثل حكومته دون تخويل منها .

وبالفعل لم تبدأ المفاوضات إلا بعد أن وصل التخويل المطلوب بعد حوالى أربعة أيام (٥) .

وبعد انتهاء الأمانة ظلت الحكومة البريطانية تترصد لنصب المندوب السامى التركى في مصر حتى وصلتها الأنباء باستقالة مختار باشا خلال النصف الأول من أغسطس عام ١٩٠٨ .

وقد دعا هذا وزير الخارجية البريطانية أن يؤكد عدم سماح حكومته بتعيين خلف جديد لمختار باشا . وكتب سيرادوارد جراى لاسيرلوثر G. Lowther السفير البريطانى

Corres, Part LXIV, No. 104, Cromer to Grey, Feb. 28, 1906, (١)
Tel. N. 51.

Ibid., No. 147, O'Connor to Grey, March 19, 1906, Tel. No. 39. (٢)

Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, (٣)
Desp. No. 77.

Ibid., No. 15, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. No. 87. (٤)

Ibid., No. 32, Cromer to Grey, April 9, 1906, Tel. No. 95. (٥)

الجديد في استنبول أنه « من المرغوب فيه تماماً منع تعيين خلف في مركز المندوب السامى التركى في مصر ما دام قد تخلى عنه الغازى مختار باشا ، وليسكن معلوماً أن الموظف الوحيد الممثل للسلطان في مصر هو الحديوى » (١) .

وعندما عين رضا باشا في فبراير من العام التالى رفضت الحكومة البريطانية الاعتراف بهذا التعيين (٢) .

ولما احتجت الدولة العثمانية على موقف البريطانيين من هذه المسألة رفض هذا الاحتجاج ولم تتمكن تركيا من تنفيذ رغبتها بتعيين آخر مكان مختار باشا (٣) .

ولكن بعد خلع السلطان عبد الحميد في نفس العام — ١٩٠٩ — وكانت العلاقات قد تحسنت إلى حد كبير بين بريطانيا وبين رجال الاتحاد والترقى وافقت وزارة الخارجية البريطانية على تعيين « رؤوف باشا » مندوباً سامياً تركياً في مصر ولكن بعد أن وافق الصدر الأعظم « على ألا تقوم أى علاقات بين هذا المندوب وبين رجال الحزب الوطنى في مصر وأن يتم كل تعاون بينه وبين المعتمد البريطانى في القاهرة » (٤) .

هكذا — وبعد تمنع — عاد هذا المنصب ولكن دون فاعلية حقيقية للدولة العثمانية أو للوطنيين في مصر ، وايس أدل على فقدان هذا المنصب لأهميته من أنه عندما تواترت الإشاعات في أواخر عام ١٩١١ عن استقالة رؤوف باشا وأراد السير لوثر — السفير البريطانى في استنبول سبر غور هذه الإشاعات من الصدر الأعظم فرغم نفي الأخير لها في إجابته على السفير البريطانى ألا أنه أكد له أن هذا المنصب أصبح عديم الجدوى تماماً (٥) .

Corres, Part LXX, No. 88, Grey to Sir G. Lowther, Aug. 19, 1908, Tel. No. 158. (١)

F.O. 407/174, No. 17, Grey to Lowther, Feb. 13, 1909. (٢)

F.O. 407/174, No. 42, Grey to Graham, March 6, 1909. (٣)

F.O. 407/174, No. 152, Grey to Lowther, Sept. 29, 1909. Tel. No. 673. (٤)

F.O. 407/177, No. 571, Lowther to Grey, Nov. 20, 1911. (٥)

قانونه المطبوعات :

لقد ظلت السلطات البريطانية تحمل في ذاكرتها أثر موقف الصحف المصرية في إثارة الرأي العام المصري أثناء الأزمة ووصوله إلى حد حافة الثورة .

وقد اعترف كرومر أن السبب الأساسي لاستدعاء فيلقين من المشاة وقوة من الفرسان وبطارية مدفعية في أوائل مايو هو تحريض الصحافة الإسلامية لمشاعر جماهير المسلمين» (١) .

ولدينا وثيقة هامة تثبت أن أن نشوء فكرة إحياء « قانون المطبوعات » جاء من موقف الصحافة المصرية من الأزمة . . يقول كرومر بالحرف الواحد في أواخر أبريل « فيما يتعلق بالإجراءات ضد الصحافة الداعية إلى الجامعة الإسلامية فقد علمت من مستشاري القانونيين أن للحكومة المصرية الحق في إيقاف أى جريدة طبقاً لقانون للصحافة لا يعمل به منذ عدة سنوات، وسوف تعيد الحكومة المصرية إليه الحياة» (٢) .

وبعد انتهاء الأزمة تنفست السلطات البريطانية في القاهرة الصعداء فقد كتب فندلي « أن الموجة الأولى من العنف الصحفي التي قادتها جرائد اللواء والتؤيد والظاهر والأمة قد مرت الآن» (٣) .

ولكن كرومر لم ينس أبداً لهذه الصحف موقفها فقد هاجمها هجومياً عنيفاً في تقريره في نهاية نفس العام وذكر أنها تشوه الحقائق وترويه على غير صحتها وكثيراً ما عمدت إلى إفسادها ، ويستطرد « إنى لا أذكر أنى قرأت في جريدة منها مقالة واحدة مادتها صحيحة أو مفيدة في المسائل المالية أو التعليم أو القضاء » .

ويعود كرومر للحديث عن الصحافة الإسلامية كسبب أساسي للهباج الذى حدث خلال أزمة العقبة ، وقد أرجع ذلك إلى عاملين :

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906.

(٢) Corres, Part LXV, No. 73, Cromer to Grey, April 25, 1906, Tel. No. 114.

(٣) Corres, Part LXVI, No. 66, Findlay to Grey, July 21, 1906, Tel. No. 125

- ١ — أن أغلب المصريين لا يزالون يصدقون كل ما يقال .
 - ٢ — أن المهيجين لا يعرفون مبدأ ويتبعون كل وسيلة للتهميش .
- وخرج المعتمد البريطاني من كل هذا بضرورة وجوب تقييد حرية الصحافة^(١) .
- ولا جدال أن موقف الصحافة المصرية من أزمة العقبة إلى جانب إجراءات محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش سنة ١٩٠٨^(٢) . التي ثبت منها عجز قانون العقوبات عن الحد من المقالات أو الأخبار التي قد تؤدي إلى اضطرابات أو مقاومة لسلطات الاحتلال . . تقول لا جدال أن هذا الموقف وهذه المحاكمة هما السببان الأساسيان في إعادة إحياء قانون المطبوعات في أوائل ١٩٠٩ وماتج عن هذا الإحياء من آثار غائرة في الحركة الوطنية المصرية .

أثر الأزمة في قوة الاحتلال البريطاني في مصر :

مع الهزيمة التركية وما تبعتها من ضعف قيمة منصب المندوب السامي التركي وصدور قانون المطبوعات كانت هناك أيضاً آثار بالغة الأهمية في وضع الاحتلال البريطاني في مصر مما منحه مزيداً من القوة .

فأولاً من الناحية الدولية لا شك أن الاستقرار الذي كسبه الاحتلال البريطاني لمصر بعد الاتفاق الودى ١٩٠٤ قد تأكد بعد التراجع التركي في أزمة العقبة في مايو سنة ١٩٠٦ ، فالدولتان الوحيدتان اللتان كانا يعنهما إثارة المسألة المصرية قد تخليا عنها ... فرنسا بالاتفاق وتركيا بالقهر .

ولنا أن نلاحظ في هذه الناحية أيضاً أن فرصة وضع الاتفاق الودى موضع التطبيق والتي أتاحت لبريطانيا في أوائل العام بـمعاونة فرنسا في « مؤتمر الجزيرة » قد أتاحت هذه الأزمة مثلتها لفرنسا بـمعاونة حليفها في استنبول إبان احتدامها ووضع الاتفاقات في حيز الممارسة الفعلية هو الذي يقويها .

Annual Report, 1906, p. 10.

(١)

(٢) كان الشيخ جاويش قد نشر في اللواء أخبار مبالغاً فيها عن ثورة عبد القادر ودجوبه في مديرية النيل الأزرق في السودان مما دعا إلى تقديمه للمحاكمة .

كما أمكن التوصل إلى نتيجة سياسية أخرى هامة بوضع مبدأ اعتراف الحكومة العثمانية بحق الحكومة البريطانية في التدخل في شئون مصر وفي المفاوضات التي يجب أن تجرى بين الحكومة العثمانية وبين الحديوي^(١).

أما من الناحية الداخلية فمع العيى الذى تحمله الشعب المصرى نتيجة لزيادة مصروفات جيش الاحتلال بسبب زيادته بمبلغ ٥٠ ألف جنيه^(٢) فهناك أمور يجب أن نسجلها هنا كنتائج مباشرة أو غير مباشرة للأزمة :

١ — بدأت سلطات الاحتلال تشن حملة قوية ضد الحزب الوطنى وجريدة اللواء فرمته بالتعصب — رغم نفي مصطفى كامل دائماً لهذه التهمة — وبغشامة الدولة العثمانية على حساب مصر^(٣).

وكان النجاح الذى أحرزه مصطفى كامل فى النصف الثانى من نفس العام فى « حادثة دنشواى » حافزاً للسلطات البريطانية فى القاهرة فى السير فى سياستها لهدم الحزب .

ومن المسلم به أن هذه السياسة قد أحرزت نجاحاً كبيراً ساعدها عليه وفاة مصطفى كامل المبكرة والعلاقات الودية التى نشأت بين العتمد البريطانى الجديد السيرالدين غورست والحديوي عباس الثانى بالإضافة إلى صدور قانون المطبوعات ونجاحه فى كتم كل صوت حر .

٢ — فى مقابل هذه السياسة العنيفة مع من أسماهم البريطانيون « بالمتطرفين » أخذت تشجع من كانوا فى رأيهم « معتدلين » وقد تمثل هؤلاء المعتدلون فى نظر سلطات الاحتلال فى « حزب الأمة » .

وعندما تأسست شركة من الأعيان المصريين فى نفس العام — وكانوا نواة حزب الأمة فى العام التالى — بمبلغ ٣٠ ألف جنيه لإصدار « الجريدة » لتتطرق باسمهم

Corres, Part LXV, No. 259, O'Conor to Grey, May 15, 1906, (١)
Desp. No. 332.

Annual Report, 1906, p. 9. (٢)

(٣) أنظر مقال المقطم « مسألة العقبة » العدد ٥١٦٤ و٢٦ مارس ١٩٠٦ .

لم يستطع القائم بأعمال المتمد البريطاني في القاهرة أن يخفى سروره الذى عبر عنه في مذكرة طويلة كتبها لوزير الخارجية في لندن (١).

٣ — وعى البريطانيون دائماً في ذهنهم الموقف المتوى الذى وقفه الخديوى عباس الثانى من الأزمة ، فقد علموا أخيراً وaban وصول الموقف إلى ذروته بوجود اتصالات سرية بين يلدز والحدوي كما عرفوا أن الرأى الذى كان قد قدمه الأراك بعدم شرعية التدخل البريطانى فى أمر يتعلق بالسلطان وأحد أتباعه كان من اقترح عباس نفسه (٢).
وفى رأى أن هذا الموقف المنحاز للباب العالى كانت تحت نظر الحكومة البريطانية عندما قررت مع إعلان الحماية البريطانية على البلاد خلع الخديوى عباس الثانى وتولية السلطان حسين كامل خلفاً له .

* * *

هذه هى « أزمة العقبة » بأبعادها المختلفة التاريخية والسياسية وآثارها القريبة والبعيدة ، وإن كان لنا أن نشير بشئ فى نهاية هذا الموضوع فهو أنه مما لا شك فيه أنه إذا كان فى هذه الأزمة قيمة تذكر لمصر فهذه القيمة تتمثل فى تثبيت حقوق مصر التاريخية فى شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة .

هذا هو الغنم الحقيقى والوحيد الذى كسبته مصر من الأزمة وهو ما بذلت بريطانيا جهودها لتحقيقه . . . لمصالحتها بالطبع ! ! !

دكتور بونارد لبيب رزق

Corres. Part LXVI, No. 82, Findlay to Grey, Aug. 5, 1906. (١)
Desp. No. 140.

Corres. Part LXV, No. 215, Cromer to Grey, May 21, 1906. (٢)
Tel. No. 151.

* أنظر الاتصالات السرية بين الخديوى والسلطان بشأن الأزمة فى :

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن القسم الثانى — ج ٢ ص ٨٣ — ٨٢ .

مصادر البحث

وثائق غير منشورة :

Further correspondence respecting the affairs of Egypt and the Sudan :

Part	Date
LXIV	Jan.-March, 1906
LXV	April-June, 1906
LXVI	July-Sept., 1906
LXVIII	Jan.-June, 1907
LXX	1908

Public Record Office (London)

Foreign Office 407/174	1909
407/177	July-Dec. 1911

وثائق منشورة :

Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth Series, 1906, Vols. 153-157.

Report by his Agent and Consul General on the Finances, Administration and Condition of Egypt and the Soudan, 1906.

Ministère des Affaires Etrangères : Firman Impérial d'Investiture adressé à S.A. Abbas Hilmi Pacha, Le Caire, 1893.

Documents diplomatiques français 1871-1914, 2ème série (1901-1911), Tome X.

كتب :

Cromer, The Earl of :

Modern Egypt (2 vols.), London 1908.

Blunt, Wilfrid Scawen :

My Diaries

being a Personal Narrative of Events, 1888-1914, Part two (1900-1914), London (undated).

Grey of Falladon :

Twenty Five Years 1892-1916, Volume 1. London, 1925.

- أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن القسم الثاني — ج ٢ القاهرة ١٩٣٦ .
فيليب جلاذ : قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء (الاسكندرية ١٨٩٥) .
دوريات : القطم — اللواء — المؤيد — المظاهر — الأمة .

موقف مصر من الحرب الطرابلسية (*)

١٩١١ - ١٩١٤

للكنور جمال زكريا قاسم

منذ أوائل القرن الحالى أخذت إيطاليا تطعم إلى الاستيلاء على ليبيا ، آخر الولايات العثمانية فى شمال أفريقيا ، التى لم تكن قد سقطت بعد فى أيدي الاستعمار الأوروبى الذى أخذ يحتاج ولايات الدولة العثمانية فى السنوات التى أعقبت مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

وعملت إيطاليا على ممارسة نشاطاً استثمارياً واسع المدى قتل فى المدارس التى أنشأتها لنشر الثقافة الإيطالية ، وكذلك فى الإرساليات التبشيرية ، ووضع للصورت والحرائط استعداداً للغزو . ولكن الأمم من ذلك كله إنشاء فرعين لبنك روما Banco di Roma فى عام ١٩٠٥ فى كل من ولايتي برقة وطرابلس ، القدان نجما فى الاستيلاء على أراضي الليبيين نتيجة لعدم وفائهما بالقروض .

وعلى الرغم مما فطن له أهالى البلاد من أطماع إيطاليا ، واستنجام أكثر من مرة بالدولة العثمانية طالين منها اتخاذ وسائل حاسمة لوقف هذه الأطماع ، إلا أن الدولة العثمانية لم تمر الأمر النفاذاً ، وربما يرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أن إيطاليا لن تجرؤ على غزو ليبيا حتى لاثير سخط العالم الإسلامى ، كما حدث عندما استولت فرنسا على تونس ١٨٨١ ، فضلا عن أنها إذا حاولت ذلك فإن الدول الأوربية لن تسمح لها ولن تترك لها الفرصة التى تمكنها من تحقيق أطماعها .

ولا شك أن هذا التفكك كان خاطئاً لسببين :

السبب الأول : أن حركة الجامعة الإسلامية بدأت تراجع مؤقتاً فى أعقاب الحركات الدستورية التى أخذت تحتاج العالم الإسلامى ، مع التسليم فى نفس الوقت

(*) هذه الدراسة قدمت إلى « مؤتمر ليبيا عبر المصور » الذى نظمته الجامعة الليبية بيننازى فى الفترة من ١٦ إلى ٢٣ مارس ١٩٦٨ .

أن العدوان الإيطالي على ليبيا كان بعثاً جديداً لحركة الجامعة الإسلامية التي عادت إلى الظهور بقوة مما كانت عليه في السابق.

والثاني : أن إيطاليا نجحت في حل الكثير من مشاكها مع الدول الاستعمارية وتمت القسمة بينها وبينهم ، فهي من ناحية عملت على استغلال المحالفة الثلاثية لتتمكن من تميز سمعتها السياسية ومركزها الاستراتيجي . بهدف الضغط على منافستها الأولى في شمال أفريقيا وهي فرنسا التي كانت تفقد حجراً عثرة في سبيل توسعها في شمال أفريقيا .

على أن إيطاليا كانت تدرك في نفس الوقت أن هذه المحالفة لن تساعد — بسبب الخلاف بينها وبين فرنسا — على تحقيق أطماعها ولذلك كان اتجاه إيطاليا الواضح إلى إنجلترا ، ولم تردد إنجلترا في مساعدة إيطاليا على تكوين امبراطوريتها في شرق أفريقيا بهدف الحد من امتداد الاستعمار الفرنسي إلى الحبشة أو السودان .

ويتضح التقارب الإنجليزي الإيطالي في عام ١٨٨٥ فإن ذلك العام يسجل توثق العلاقات بين إيطاليا وإنجلترا بالدرجة التي مكنت إيطاليا من تأسيس مستعمراتها في شرق أفريقيا ، ومع ذلك فإن الضربة القوية التي وجهت لإيطاليا في الحبشة (عدوة ١٨٩٦) جعلت إيطاليا توجه نظرها إلى شمال أفريقيا . ولما كانت إيطاليا تدرك أن فرنسا تدخل هذه المنطقة في مجال نفوذها الاستعماري فقد آثرت تسوية الأوضاع بينها وبين فرنسا بالطريق السلمي ، ففي عام ١٩٠١ تم عقد اتفاق بين الدولتين تناول شؤون المنطقة ووضع فيه التقارب بين فرنسا وإيطاليا ، وفي العام التالي عزز هذا الاتفاق باتفاق آخر ، وفي هذين الاتفاقيين أضحيت كل من برقة وطرابلس منطقة نفوذ إيطالية ، وفي نظير ذلك وافقت إيطاليا على إطلاق يد فرنسا في مراکش دون معارضة .

ومنذ ذلك الوقت أخذت إيطاليا تنظر إلى برقة وطرابلس كما لو كانت هذه البلاد مقاطعات إيطالية ، كما نجحت إيطاليا في الحصول على مواضع كل من إنجلترا وروسيا وإيطاليا على الإحتلال الإيطالي لليبيا ، كما وافقت فرنسا أيضاً بشرط ألا يتمدد الإحتلال منطقة شمال أفريقيا .

ومهدت إيطاليا للإحتلال بإيجاد مصالح لها في كل من برقة وطرابلس ، وساعدها على إيجاد مصالح لها في هاتين الولايتين الحالة السيئة التي بلغت ليبيا والجزير بالذکر أن الكثير من المصادر تلقى على الدولة العثمانية مسئولية إهمال الولاية وأن

ليقبل لم تلق أى عناية أو اهتمام من قبل السلطات الحكومية، بالأستانة ، ومع ذلك فقد يكون من الإنصاف أن نلتبس بعض المذخر للإدارة التركية ، فإن إهمالها بشئون الولاية كان يرجع بالدرجة الأولى إلى أن الليبيين كانوا قليلا ما يتأثرون بالأنظمة التركية التي تفرض عليهم ، خاصة في عهد الاتحاديين ، وإعمار يوثرون العيش طبقاً لما درجوا عليه من نهج معين في الحياة (١) ولذلك اصطدمت التنظيمات العثمانية بمعارضة وطنية عنيفة . وكانت من الأجدى للدولة في هذه الظروف أن تشجع السنوسيين على حكم البلاد ، ولكنها على العكس من ذلك أساءت معاملتهم وضيقت عليهم الخناق خوفاً مما يحرج عليها ذلك من اشتباك مع الفرنسيين بهدف إيقاعهم توهمهم من أواسط أفريقيا إلى غرب أفريقية ، بعد أن نجح الفرنسيون في تأسيس ما كان يعرف سابقاً باسم السودان الفرنسي (٢) . ومن ناحية أخرى كان السلطان عبد الحميد الثاني يشك في السنوسية ويخشى من استفحال أمرها لدرجة قد تهدد خلافته . ولذلك كان من المنتظر بعد الانقلاب الدستوري الذي عصفت بحكم السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨/١٩٠٩ أن تعمل الدولة في عهدها الجديد على إصلاح بشئون الولاية ، ولكن الاتحاديين استقروا رأيهم على أن ولاية طرابلس من الولايات التي لا تفيد الدولة فائدة مالية تذكر وأنه لا داعى لتوجيه الإهتمام إليها (٣) .

واتهمزت إيطاليا هذه الفرصة فأخذت الصحافة الإيطالية تمهد الرأي العام الأوربي للاحتلال وظهرت في الصحف الإيطالية الكثير من المقالات التي تؤكد أن من واجب الإنسانية أن تقوم إيطاليا بإصلاح الحالة في ليبيا بعد أن فشلت الدولة العثمانية ، خاصة وأن البلاد تتمتع بثروات ضخمة يمكن أن تستغل فيما لو وجدت الأيدي العاملة والخبرة الفنية . وكان من نتيجة ذلك أن هام الشعب الإيطالي حبا بليبيا وأخذ نشيد طرابلس الجميلة Tripolitania Bella يتردد في السنة الإيطالية .

ولاشك أه إيطاليا — في تقدير الكثيرين — كانت تريد أن تسمح ما لحق بها من طار الهزيمة في موقعة عدوة بإحراز انتصار سهل على دولة متهالكة ضئيفة كالدولة العثمانية .

(١) Pritchard (Evans), *Sanusi of Cyrenaica*, London 1944, p. 90.

(٢) و (٣) محمد فؤاد شكرى السنوسية دين ودولة ص ١١٢ — ١٢٠ .

وعلى الرغم من أن الاحتلال الإيطالي لليبيا حدث في وقت بلغت فيه المرحلة الإمبريالية، التي انتهت بالسيطرة على مناطق كثيرة من آسيا وأفريقيا، أقصى مدى لها فإن كثيراً من المؤرخين يحملون الإتحاديين مسئولية فقدان ولاية ليبيا ووقوعها في أيدي الإيطاليين .

وتفريط الإتحاديين في كثير من الأراضي المربية قد يكون موضوعاً قابلاً للنقاش : هل كان ذلك التفريط بقصد التنازل عن مناطق لا تعارس فيها الدولة العثمانية نفوذاً فعلياً نظير الحصول على تأييد الدول الأوربية للدولة أو إغايتها في أزماتها المالية أو في إصلاح شئونها الإدارية والمسكرية ؟ أم كان ذلك التفريط نتيجة فساد رجال الدولة واستهترامهم ، خاصة حينما وصلت إلى الصدارة العظمى وزارة إبراهيم حقي باشا ، إذ يعتقد الكثيرون أن حقي باشا كان متواطئاً مع الإيطاليين الذين ربطته بهم روابط عديدة أبرزها صداقته لبعض الشخصيات الإيطالية الرسمية ، ثم زواجه من إحدى الإيطاليات ، وظهر أثر ذلك التواطؤ في إهمال الدولة العثمانية لشئون ليبيا وفي سحب معظم الجيش العثماني أثناء قيام ثورة الامام يحيى في اليمن ١٩١١ أى وقت كان التهديد الإيطالي بالغا أقصى درجة له^(١) ، كما أهملت وزارة إبراهيم حقي تسليح الفرق المحلية الليبية واستدعت الكثير من الموظفين العثمانيين إلى الآستانة وعلى رأسهم والي نفسه إبراهيم باشا إثر احتجاج الحامية الإيطالية المقيمة في ليبيا على سوء معاملته لها ، ولم تهتم الدولة العثمانية بتعيين والياً غيره .

أصبح من الواضح منذ تولى الإتحاديون الحكم في عام ١٩٠٩ أن السياسة الإيطالية تضغط ضغطاً متزايداً على ليبيا ، وساعد إيطاليا على ذلك كراهية الليبيين لجماعة الإتحاد والترقي لتدخلهم في كل ما يمس تقاليدهم ومعتقداتهم^(٢) .

وكان من الطبيعي أن تنتهز إيطاليا كل هذه الظروف لتقديم إنذارها إلى الدولة

(١) حدث هذا التفريط في مناطق كثيرة من العالم العربي أبرزها في منطقة الخليج وجنوب الجزيرة المربية إذ تنازل الإتحاديون عن سيادة الدولة العثمانية في هذه المناطق لبريطانيا بمقتضى القسويات التي عقدت قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٣ — ١٩١٤ . انظر دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات المربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ ، الفصل التاسع .

(٢) Cachia (Anthony, J.), *Libya under the second Ottoman Occupation, 1835-1911, Tripoli 1945, pp. 56-57.*

الثمانية في ٢٨ سبتمبر ١٩١١ ، وذكرت في هذا الإنذار أنها قررت التدخل عسكرياً في كل من طرابلس بعد استفعال حالة الفوضى التي يتعرض لها الأجانب خاصة الإيطاليين القيمين في كلتا الولايتين^(١) ، وردت الدولة الثمانية على الإنذار رداً متخاذلاً حاولت فيه أن ترجع إهمال شئون الولاية إلى الحكم للناض ، أى قبل قيام الحكم الدستوري في الدولة الثمانية ، كما حاولت الدولة الثمانية أن تجد تسوية للأزمة وأظهرت الكثير من القسائل لحسم النزاع ، ولكن الأسطول الإيطالي كان مستعداً لقطع الصلة بين الولاية والدولة الثمانية في اليوم التالي من تقديم الإنذار (٢٩ سبتمبر ١٩١١)^(٢) .

ومع التسليم بوجود فرق شاسع بين قوة إيطالية الفتية وبين قوة الدولة الثمانية فإن هناك إجماع أيضاً على اتهام وزارة حتى باشا بإهمالها شئون الدفاع ، خاصة وأن حتى باشا كان سفيراً للدولة الثمانية قبل أن يمين صدرأ أعظم ، أى أنه كان أكثر من غيره على علم تام بما تبينه إيطاليا لليبيا ، ومع ذلك كان هذا التراخي الواضح الذي كان سبباً في إقالة وزارته ، كما قدم الندوبان الليبيين في مجلس البعثان طلباً لها كته واتهام وزارته بالحيانة العظمى وأنها خالفت أول وآخر مادة من القانون الأساسي في الأمور الخارجية والداخلية والمالية والحرية بتركها طرابلس وبنغازي عاجزتين عن الدفاع ، ولكن حال دون هذه المحاكمة انتهاء بعض أعضاء الوزارة إلى حزب الإتحاد والترقي صاحب الأغلبية في المجلس ، التي اكتفى بإقالة الوزارة وتأليف وزارة أخرى برئاسة سميد باشا رئيس مجلس الأعيان^(٣) .

وحاولت الوزارة الجديدة إنقاذ ما يمكن إنقاذه فلجأت إلى الدول الأوربية طالبة مساعدتها وتوسطها في الأزمة ، كما أبرق السلطان محمد الخامس إلى ملك إنجلترا وإمبراطور ألمانيا ورئيس الجمهورية الفرنسية وبقية ملوك وقيصرة أوروبا . ولكن اعتذرت جميع هذه الحكومات عن التدخل مما أثار غضب الأتراك وحماسهم

Rodd to Grey 28.9.1911, Doc. No. 81, F.O. 407, 177, Part (١)
LXXXIX. Further correspondence respecting Egypt and Sudan.

Luther to Grey 29.9.194, Doc. No. 94. Further correspon- (٢)
dence.

(٣) انظر نمس التقرير الخامس بشأن طلب محاكمة وزارة ابراهيم حتى باشا مقدم من

للبعوثين الليبيين إلى مجلس البعثان --- مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ ص ٨٦٢ .

وجعلهم يسممون على مقاتلة الإيطاليين والدفاع عنهم لميلادهم وتحقيقاً لهذه الغاية قامت الدولة العثمانية بدعاية واسعة النطاق ضد إيطاليا في العالم العربي والإسلامي طالبة المساعدة وتوحيد الصفوف تجاه هذا العدوان الصليبي الجديد الذي سيكتسح الإسلام، ويزيل معالمه، وقبلت تألفت الجمعيات المتعددة في مختلف الأقطار الإسلامية لمساعدة الدولة العثمانية في محنتها .

استولى الإيطاليون على طرابلس ودرنة ومصراته وطبرق واستخدموا في الغزو قوات كبيرة برية وبحرية ، ولما كان الغزو الإيطالي جاء مؤقتاً توقيتاً مناسباً بالنسبة لانشغال الدولة العثمانية بشئون أخرى ، فقد تمكن الإيطاليون نتيجة لذلك من التركيز بسهولة على الساحل ، وكانت الخطة الإيطالية تقضى بالامتداد على الساحل وفصولة عن الداخل ومنع وصول أية مساعدة لفلول الحاميات التركية المتبقية في ليبيا حتى تطلب التسليم ويضطر الليبيون نتيجة لذلك للخضوع للحكم الإيطالي (١) . وتمهدت إيطاليا وهي في مستهل عملياتها العسكرية بسلامة الأجانب المقيمين في طرابلس وبرقة ، كما أبلغت حصارها للسواحل الليبية لكثير من الدول الأوربية (٢) .

ومن المؤكد أن بعض الدول على الرغم من أنها أظهرت حياداً تاماً بشأن هذه الحرب إلا أنها كانت تساعد إيطاليا في احتلالها لليبيا ومن هذه الدول فرنسا وإنجلترا ، أما ألمانيا فبالنظر إلى محالفتها لإيطاليا وصدقتها للدولة العثمانية فإنها كانت أميل إلى عرض وساطتها في هذه الأزمة باعتبارها صديقة للطرفين (٣) . وعلى الرغم من أن إيطاليا قدرت المدة اللازمة لتسليم ليبيا خمسة عشر يوماً إلا أن هذه الأيام الممدودة امتدت سنوات طويلة ، إذ صادف التقدم الإيطالي من الساحل إلى الداخل عقبات شق وحاولت إيطاليا نتيجة لذلك إرضاء الباب العالي بتقديم ترضية مالية مقابل تنازله عن هذه الولاية ، ولكن الدولة العثمانية رفضت ذلك وشجعتهما على الوقوف في وجه إيطاليا هيأج العالم الإسلامي وعودة حركة الجامعة الإسلامية تشق مجراها من جلايد بشكل أعنف مما كانت عليه .

Barbour (Neville), A. Survey of North West Africa, second edition, London 1962, p. 352. (١)

Rodd to Grey 19.9.1911, Doc. No. 93, F.O. 407, 177. (٢)

Egoshen to Grey, 23.9.1911, F.O. 38212, No. 91. Cf. F.O. 407, 177, Part LXXIV. (٣)

والحقيقة أن الإعتداء الإيطالي على ليبيا كان بمثابة منطلقاً جديداً لحركة الجامعة الإسلامية ، فمن الواضح أنه بدأ ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨م وخلق السلطان عبد الحميد الثاني توقف مجرى الدعوة للجامعة الإسلامية وفتور سيرها في المنهج الذي كانت تسير فيه قبل ذلك بثلاثين عاماً (١٨٣٨) ، الأمر الذي جعل من الصعوبة يمكن تحديده الفصول الذي كان لهذه المحفزة ، وثالث ثورة تركيا الفتاة الثورة الدستورية في إيران ، وأخذ العالم الإسلامي يضطرب بتيارات القومية ويمكن ذلك كان لفترة مؤقتة إذ لم تلبث أن عادت حركة الجامعة الإسلامية تستأنف سيرتها ، وكان الباحث على ذلك اشتداد اعتداء إيطاليا والدول الغربية على ممتلكات الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى تنكث الدول البلقانية وإشمالها الحزب على الدولة العثمانية ، وبدأ واضحاً أن الروح الصليبية تبعث في شكل تجديده .

والحقيقة أن اعتداء إيطاليا على الدولة العثمانية كان فتحاً للسألة الشرقية . ظهر لحارد فعل قوي في هياج العالم الإسلامي بشكل بلغ أقصى ذروة له ، الأمر الذي دفع بهبرائيل هانوتو Gabriel Hanotaux وزير المستعمرات الفرنسية والمؤرخ الفرنسي المعروف إلى القول « إن إيطاليا صادقت صعوبات شديدة في طرابلس وغيرها المحصنة لأنها لم تكن تحارب الدولة العثمانية وحدها ، وإنما كانت تحارب العالم الإسلامي أجمع ، وأن إيطاليا جنت على نفسها وعلى الدول الأوروبية جناية لا ينعم إلا الله عاقبتها ومنهاها (١) .

ذلك أن العالم العربي والإسلامي اهتز نتيجة لقيام إيطاليا بهذا العدوان ووجدت الدولة العثمانية تنفاساً من ولاياتها حتى الولايات النشطة عليها فقد أرسل الإمام يحيى رغم قيامه بالثورة رسالة إلى السلطان يلين استعداده للقيام بمائة ألف جندي تحت قيادته ، كما أبقى عبد العزيز آل سعود أمير نجد في ذلك الوقت إلى الباب العالي يقول : إن مقاطعة نجد تفتخر من كل جوارحها أنها متاطعة عثمانية ، وأن جميع القبائل

(١) لوثروب ستودارد - حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٤١ - ١٤٢ القاهرة

التي نعت إمره مستعدة للرحف في ظل الأعلام العثمانية إلى حيث تأمرم الدولة العلية^(١)، كما وفد الكثيرون من شتى أنحاء العالم الإسلامي للتطوع في الجهاد في طرابلس حتى بلغ عددهم أكثر من ستة عشر ألفاً في العام التالي لنشوب الحرب ، كما تألفت لجان الإعانة وأرسلت البعثات الطيبة إلى ميادين القتال . ونشطت الصحافة إلى دعوة المسلمين لمساندة الدولة وأن الوقت ليس وقت مطالبة بإصلاح ولا مؤاخذه على إفساد وإعما هو وقت لا يتسع إلا لشيء واحد وهو تأمين الدولة ببذل الأموال والأرواح ، وأن الولايات للتطلعة إلى اللامركزية ينبغي ألا تعجل في طلبها لأن الدولة في الطريق إلى ذلك والوقت وقت اتحاد واعتصام^(٢) . كما حملت الصحافة العربية بدعوة المسلمين إلى إظهار شعورهم نحو دولة الخلافة بالقول والكتابة والمظاهرات والاحتجاج ومقاطعة التجارة الإيطالية ومساعدة الدولة العثمانية بالمال والرجال ، وأن أوربا لن تبقى على شيء ما لم يتحد المسلمون ويتأسكوا . ولقيت هذه الدعوة صدى جيداً في العالم الإسلامي فحملت المسكرات التركية في ليبيا بمجاهدين لا من بركة وطرابلس ، وإعنا من المغرب والسودان ومصر والشام وأفغانستان ، كما جاءت للساعدة أيضاً من تونس والجزائر رغم خضوعهما لفرنسا إذ استجاب سكانهما للدعوة الإسلامية مكذبين هانوتو في زعمه أن فرنسا باحتلالها الجزائر وتونس نجحت في فصلها عن جسم الأمة الإسلامية ، والواقع أنه كان للحملة الإيطالية تأثير كبير على مركز الإنجليز في البلاد الإسلامية الخاضعة لهم ، ويفهم ذلك مما ذكره جيوليتي في خاطراته التي نشرها عن حياته عندما كان رئيساً لوزراء إيطاليا أن إنجلترا ألحت عليه بالاتفاق كيما كان مع تركيا إنهاء لهذه الحرب التي أثارته جميع العالم الإسلامي ، ووردت الإحتجاجات على إنجلترا بشأنها ليس من الهند فحسب ، وإعنا من شتى بقاع العالم الإسلامي^(٣) .

وكان للحرب الطرابلسية في مصر عند إعلان إيطاليا الدولة العثمانية بالحرب

(١) سليم قمين - تاريخ الحرب العثمانية الإيطالية ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) مجلة المنار ج ١١ م ١٤ ص ٨٣٣ .

(٣) لوتروب ستودارد - حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ١٤٣ .

في ٢٨ سبتمبر ١٩١١ دوى عظيم ، كما كان لها في السياسة المصرية أثر بالغ (١) .
وسوف يكون مجالنا في هذه الدراسة تحليل موقف مصر من هذه الحرب ،
ويمكن أن تقسم هذا الموضوع إلى عدة أقسام :

أولاً : موقف سلطات الإحتلال والحكومة المصرية .

ثانياً : موقف الحديوى .

ثالثاً : موقف الشعب المصرى .

وكان أهم ما أثير في الفترة الأولى من إعلان الحرب مسألة مرور الجيش العثماني في مصر، إذ كان فرض إيطاليا الحصار على السواحل الليبية مما يدفع الحكومة العثمانية إلى الوصول برآ إلى الولاية المحصورة بجزراً لأنها كانت تخشى أن تتمقب إيطاليا أسطولها الضعيف وسط البحر ، ولذلك أضحت حاجة الدولة العثمانية ضرورية لمرور الجيش العثماني من الأراضي المصرية . وكانت هذه للسألة على غاية كبيرة من الأهمية إذ حاول الوطنيون في مصر استغلالها لتأكيد سيادة الدولة العثمانية على مصر دفماً لتسلط الإنجليز ، ولذلك أجمعت العناصر الوطنية على أن تبادر الدولة العثمانية إلى إرسال جنودها إلى مصر دون أن تلجأ في ذلك إلى استئذان وزارة الخارجية البريطانية أو حتى إحاطتها علماً بذلك ، وإنما تجيء جنودها مباشرة وترسل أوامرها إلى الحكومة المصرية لاستقبالها وتمهيد السبيل لها والحفاظة عليها ومدّها بما تحتاج إليه طبقاً لحقوق الدولة العثمانية ، وما تنص عليه الفرمانات العثمانية التي صدرت متضمنة حقوق الدولة العثمانية في استخدام الجنود المصرية عند نشوب الحرب في أية جهة تريدها (٢) ، ولم يشذ عن هذا الرأي في مصر أى صوت حتى الأصوات التي عارضت أن تلتقى مصر بثقلها في الحرب ومنها أحمد لطفي السيد ، فعلى الرغم من هدم تشجيعه معاونه مصر للدولة العثمانية في حربها مع إيطاليا ، إلا أنه أكد أن مرور القوات العثمانية البرية من مصر إلى طرابلس أمر من حقوق الدولة العثمانية لا ينازعها فيه منازع إن كان لها مصلحة في ذلك ، ولا شك أن مثل هذه المساعدة هي أقل

(١) محمد حسين هيكل — مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٤٩ .

(٢) الجريدة : مرور الجيش العثماني بمصر ٣ أكتوبر ١٩١١ .

ما ينتظره من جانب مرتبطين بروابط متعددة منذ زمن قديم ، وكما أنها ضرورية لإظهار المحاملة الواجبة للدولة العثمانية التي تربطها بمصر روابط الأخوة (١).

واسند الوطنيون في تأييدهم الدولة العثمانية إرساله جيوشها إلى أن بريطانيا لن تستطيع أن تؤثر على الحكومة المصرية أو إرغامها على الوقوف في وجه الجيوش العثمانية فتادياً من غضب الأمة المصرية ومراعاة لعواطفها. وأكد الوطنيون على نجاح هذه الطريقة بما أبداه الجنود والضباط المصريون من الفتور عند ملامكتهم بالحفاظ على الحدود المصرية في حادثة طابا المشهورة بحكم اليك والإحترام لجنود الدولة العثمانية (٢).

وأما موقف اللورد كيتشر المعتمد البريطاني في مصر والذي وصل إلى منصبه في نفس الوقت الذي أعلنت فيه الحرب فقد كان يمثل بطبيعة الحال وجهة النظر الإنجليزية التي كانت ترحب بالاحتلال الإيطالي لليبيا على اعتبار أنه يساعد على إيجاد دولة عازلة Buffer State في طرابلس تملأها إيطاليا ، لتعزل بين الإنجليز في مصر وبين الفرنسيين في تونس ، ولذلك اعترض الإنجليز على مرور القوايا العثمانية على الرغم من أن مصر وإن كانت متمتعة باستقلالها الإداري إلا أنها داخلية في نطاق السيادة العثمانية ، وجيشها تحت طلب الدولة. وكانت مصر تعتبر ولا شك أصلح قاعدة للعمليات العسكرية العثمانية ضد الغزو الإيطالي لطرابلس (٣) كما أن إعلان حياد مصر يعني رفض حقوق الدولة العثمانية عليها ورفض السماح للمسلمين المصريين الارتباط بدعوى الجهاد للدفاع عن أشقائهم في القنيدة. ولذلك كان السؤال الذي فرض نفسه في ذلك الوقت هو هل تسير القوات المصرية المسلحة إلى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية ؟ أم تقف معززة على الحياد ؟ وفي حالة وقفها على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بالأراضي المصرية ، فماذا يكون موقفها ؟ أتعز هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائي من جانب إيطاليا ؟ أم تقضيها بطبيعتها الإسمية للدولة العثمانية أن تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن تخرج عن

(١) المصدر السابق ، الفارة الطليانية ٣ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) اللواء ، ١٢ أكتوبر ١٩١١ ، الرأي العام المصري في حادثة طرابلس بالغرب .

(٣) Young, Egypt, pp. 192-193.

هذا الحياذم وإيجلترا ما موقفها وهي معتنه مصر؟ هل تسهل للجنود الثمانية للرجوع أم تقف في طريقهم (١) وفيما يبدو أن إيطاليا كانت تبتدي قلقاً بالغاً على هذا الموقف يدل على ذلك للرسائل الرسمية التي تتسائل فيها الحكومة الإيطالية عما إذا كانت بريطانيا ستسمح للقوات العثمانية بالمرور في مصر، وتبتدي قلقها عن أبناء تضاربت في ذلك الوقت عن بعثة عثمانية وصلت إلى القاهرة برئاسة كمال باشا، وكان هدف هذه البعثة اتخاذ الإجراءات اللازمة مع الحكومة المصرية، لتسهيل مسألة عبور القوات العثمانية، واحتجت إيطاليا بأن ذلك لا يتمشى مع الحياذم (٢) وقد نفت الدوائر البريطانية هذه الأنباء نقياً قاطعاً وأكدت أنها غير صحيحة، وأبدي السير إدوارد جري وزير الخارجية البريطانية رأياً في الموقف بأنه لا يمكن لبريطانيا أن تسمح لبلدة خاضعة لاحتلالها أن تكون مسرحاً لعمليات عسكرية (٣)، كما أكد السفير البريطاني في روما لوزير الخارجية الإيطالية ما أبلغه إياه وزير الخارجية البريطانية من أن بريطانيا تقبل الاحتلال الإيطالي لليبيا بدلاً عن أية قوة أخرى تكون على مقربة لها في مصر خاصة بعد الموقف الذي نشأ نتيجة لحماية فرنسا على مراكش وما استتبعه ذلك من قلب ميزان القوى في منطقة البحر المتوسط (٤)، هذا فضلاً عن أن نجاح إيطاليا في ضم ليبيا إلى ممتلكاتها سيساعد على تفكيك الإمبراطورية العثمانية خاصة إذا نصحت ألمانيا وولايات البلقان في إعلان استقلالها عن للدولة العثمانية فإنه يمكن في هذه الحالة أن تمتنع إنجلترا الفرصة لتوطيد دعائم نفوذها في مصر، ومن هنا يمكن القول بصفة عامة أن الاحتلال الإيطالي لليبيا كان يجد تأييداً بوجه خاص من قبل فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان الطامعتان في الممتلكات الإسلامية للدولة العثمانية.

وكان على الحكومة البريطانية أن تلجأ إلى الأسلوب السياسي لتعلمين أن احتياز

(١) اللواء في ١٣ أكتوبر ١٩١١، للرأي العام المعروض في جريدة طرابلس الغرب

(٢) Grey to Rodd 6.11.1911, Doc. No. 463, F.O. 407, 177.

(٣) Grey to Rodd 30.9.1911, Doc. No. 108. Further correspondence. F.O. 407, 177.

(٤) Rodd to Grey 30.9.1911, Doc. No. 111, F.O. 407, 177.

الجنود العثمانية لقناة السويس بعد خرقاً لاتفاقية ١٨٨١ ، وأن بريطانيا تخشى في هذه الحالة أن تبادر إيطاليا لانتهاك هذه الاتفاقية أيضاً وتبعت بأسطولها إلى القناة بحجة منع الجنود العثمانية من المرور . وبهذه المناسبة أرسلت شركة قناة السويس مذكرة إلى كل من لندن وباريس طالبت فيها حماية القناة في الحالة الحاضرة إذا أرادت إحدى الدولتين للتصارتين التصدي عليها ، باعتبار القناة على الحياد وتحت رعاية هولية .

ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية تخشى إذا أقدمت على اجتياز مصر بقواتها أن تعتبر بريطانيا ذلك خرقاً للحياد الذي فرضته على البلاد ، وبالتالي قد يؤدي ذلك إلى ضياع حقوق الدولة العثمانية في مصر بمعنى أن إنجلترا في هذه الحالة يمكن أن تتف في وجه الجيش العثماني وتعلن رسمياً حمايتها على مصر أو امتلاكها وفصلها عن السلطنة العثمانية . وهكذا كان الموقف على النقيضين ، فإما أن يؤدي مرور القوات العثمانية من مصر إلى تأكيد السيادة العثمانية ، في حالة خضاض إنجلترا ، أو إلى عدم الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية نهائياً على مصر ، وتأكد انفصالها عن الدولة .

وبالإضافة إلى المجادلات السياسية التي أقدمت عليها بريطانيا بهدف منع الدولة العثمانية من إرسال جنودها إلى مصر حاولت أن تمنع الدولة من ناحية أخرى بدم جدوى استخدام مصر كطريق لمنازلة الإيطاليين في طرابلس بحجة عدم فائدة هذا الطريق من الناحية العسكرية ، إذ أن هناك صعوبات كثيرة أبرزها ما يتعرض له الجيش العثماني في حالة مقدمه من سوريا إلى الحدود المصرية ، وأنه عندما يصل إلى طرابلس منتهك القوى يمكن أن يتلقاه الجيش الإيطالي المستريح ويفتك به فسك بالآ .

أما إذا استخدمت الدولة العثمانية الإسكندرية ففي هذه الحالة يمكن أن تمد إيطاليا الإسكندرية معادية لها . والحقيقة أن الدولة العثمانية نشطت في إرسال سفنها إلى الإسكندرية كما أخذت المخابرات الإيطالية بدورها منشط في تعقب التحركات العثمانية ووصلت التقارير إلى الحكومة الإيطالية بأن ثلاثة قطارات خاصة تحمل مؤنات وذخيرة أخذت من السفن العثمانية وأجهت عبر طريق مريوط الحديدى ، كما تعقب المخابرات الإيطالية قوافل الإمدادات التي ترسل إلى ليبيا عن طريق مصر^(١) ، وكان من

CF. Memorandum communicated by Marquis Imperiall, (١)
31 October, 1911, F.O. Further Correspondence respecting Egypt
and Sudan.

الواضح اتجاه الدولة العثمانية إلى استخدام هذا الخط الذي كان يمتلكه الحديوي عباس حلمي الثاني ، لتنظيم حركة البدو في الداخل ضد الإيطاليين (١) .

كما أخذت الحكومة الإيطالية تمنح على سماح السلطات المصرية لجماعة من البدو والضباط والأتراك باختراق الحدود إلى برقة وطرابلس . وعلى الرغم من تأجيج الحماسة الوطنية تأييداً للدولة العثمانية فقد كان موقف الحكومة المصرية في هذا الظروف الدقيق سلبياً صرفاً تركت الأمور لإنجلترا ولمثلها في مصر اللورد ككنشر تصرف فيه السياسة البريطانية بما تشاء ، ورأت إنجلترا أن تعلن حياد مصر في الحرب وأصدرت بالفعل تعليماتها إلى قائد القوات الإيطالية المحاربة بأن اللياه الإقليمية المصرية تعتبر مياهاً محايدة ، ومن ناحية أخرى فإن السلطات البريطانية تمهدت إزاء إيطاليا بأنها لن تسمح باتخاذ مصر قاعدة للمبليات العسكرية (٢) .

وعلى الرغم من أن بعض المدرعات التركية وصلت إلى اللوانى المصرية فعلا ، فإن الحكومة الإيطالية لم تقدم مع ذلك على محاصرة أى ميناء مصرى وهو لم تفعل ذلك بحماة للانجليز ، أو بالأحرى اطمئناناً إلى موقف الإنجليز (٣) ، كما أبلغ ككنشر السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية أن مصر تسيير على قواعد الحياد الدولى ، كما أن الأمور تسيير على ما يرام باستثناء واضح وهو أن السفن العثمانية تبقى فى اللوانى المصرية أكثر من أربعة وعشرين ساعة ، وأعرب عن أمله فى ألا تمعرض الحكومة الإيطالية على ذلك تجنباً لدواعى الإحراج مع الدولة العثمانية . ويلاحظ بصدد ذلك أن الحكومة العثمانية أخذت ترسل قواتها عن طريق العقبة وليس عن طريق السويس (٤) . وأكثر من ذلك فقد طلبت بريطانيا من السفن المصرية الواقعة فى نطاق المبليات العسكرية بين تركيا وإيطاليا أن تتميز بأعلام خاصة نظراً للتشابه بين العلمين المصرى والتركي (٥) ، وصدرت الأوامر للشدة للسفن العثمانية الراسية فى موانى القناة بمضادتها

-
- Grey to Kitchner 30.10.1911, Doc. No. 324. (١)
Rodd to Grey 30.9.1911. (٢)
Grey to Rodd 4.10.1911, Doc. No. 186. (٣)
Kitchner to Grey 3.10.1911, F.O. 407, 177, Part LXXLV. (٤)
Grey to Kitchner 6.11.1911, F.O. No. 457. (٥)

لوزن وأن عملتها لن تنترم بآلة وأعد للذموم بها بموجب نص المادة الرابعة من اتفاقية قناة السويس ، أما بالنسبة للقوانين الأخرى فقد أعطيت لها مهلة لا تزيد عن أربعة وعشرين ساعة والإيجوز للسلطات المصرية في حالة بقاءها لمدة أطول من ذلك أن تقوم بنزع أسلحتها (١).

وقد أثار اعتراف الحكومة بالحياة الذي فرضته إنجلترا على مصر - فأبيرة الرأي العام المصري الذي اعتبر أن مصر في حالة حرب فعلية وليست في حالة حياد وأنه سواء مزع الجيش العثماني من مصر أو لم يمر منها فمصر في حالة حرب طبقاً للقوانين الدولية ؛ ولما كانت مصر تابعة للتوتة وخاصة لسيادتها بالاعتراف إنجلترا فانها قبل سيادة دولة أخرى بن وبطاعها من هذه السيادة في مواقف عديدة أمام الدول الأخرى ، بصرف النظر عن أن هذا الباطح كان في تلك اللواتف في مصلحة إنجلترا ، فإن إعلان مجبر الحرب على إيطاليا أمر ضروري تقتضيه ظروف تسمية مصر للدولة ، فضلاً عن أن مصر لا يملك أن تضع نفسها على الحياد لأنها ليست بدولة طالما هي قانوناً خاضعة للدولة العثمانية (٢) . وطالب المصريون إرسال اللدد والذخيرة من مصر وعن طريقها إلى طرابلس ومقاطعة الإيطاليين وضرورة إجلائهم من البلاد وأنه لا ينبغي على إنجلترا أن تمارض في الحالة الأولى ولا تمارض ألمانيا - خليفة إيطاليا - في الحالة الثانية (٣).

نوع هذا الموقف الوطني الذي أبداه المصريون إلا أن الحكومة المصرية الخاضعة لنشاط الاحتلال أخذت بتفاصيل من شد أزد الميبيين خاصة بعد توقيع الصلح مع الدولة العثمانية ، فقامت بمصاهرة الصحف الوطنية وحذرتها من الخث على الجهاد أو الدعوة للتطوع في صفوف المجاهدين (٤) . ولكن الحكومة المصرية فضلت مع ذلك في مراقبة الحدود المصرية الطرابلسية نظراً لامتداد هذه الحدود إلى مسافات

(١) Kitchener to Grey 2.10.1911, F.O. No. 141.
(٢) جريدة اللواء ، أول أكتوبر ١٩١١ ، ماذا يكون جواب الأنجليز على ذكر مرور الجنود الثانية من طريق مصر - موقف الحكومة العثمانية .
(٣) مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ - المسألة المصرية من ١٩٢٦ .
(٤) جريدة اللواء ٥ أكتوبر ١٩١١ « الأمم غير الحكومات ، لا سلطة ولا سيطرة على القواطف » .

طويلة من ناحية وللعلاقات الثابتة الدائمة ومنها علاقات الزواج بين عرب طرابلس وبدومصر من ناحية أخرى^(١) فاستمرت المساعدات المصرية تصل إلى المجاهدين في ليبيا رغم الظروف الصعبة التي كانت تجتازها قوافل الإمدادات .

وحاول الوطنيون في مصر — رغم ظروف الاحتلال القائم في البلاد — استئالة الحكومة المصرية للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية مستخدمين في ذلك جمع الوسائل وحفلة الصحافة الوطنية بالأسانيد القانونية التي تبرر وقوف مصر إلى جانب الدولة العثمانية ، فعلى الرغم من أن مصر كانت محتلة من قبل الإنجليز فعلياً إلا أن إنجلترا كانت تعترف في نفس الوقت بحق السيادة السياسية للدولة العثمانية — أي أن مصر تتبع الدولة العثمانية في سياستها الخارجية وعلى هذا الأساس يتعم على الحكومة المصرية عند إعلان الحرب أن تتخذ كل الوسائل القانونية التي يقضى بها نظام الحرب في كل دولة محاربة . ولكن الحكومة المصرية لم تقدم على شيء من ذلك ، فضلاً عن أن مصر لم يكن لها من السيادة الخارجية التي تستطيع معها أن تبلغ أياً من الدولتين — إيطاليا والدولة العثمانية — أنها على الحياد .

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تعلن الحكومة المصرية بقيام الحرب بينها وبين إيطاليا ، وأهلب الظن أنها كانت لا تريد أن تدخل المسألة في نطاق دولي واسع لن يكون كما قدرت الدولة العثمانية في صالحها ، ويبدو أن إيطاليا نفسها كانت ترحب بأن يكون موقف مصر استثناء على الرغم من خضوع مصر للسيادة العثمانية بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وذلك حتى لا تشتبك مصالحها مع مصلحة الإنجليز المحتلين لمصر^(٢) .

وهكذا قدر لمصر في خلال الحرب الطرابلسية أن تكون باتفاق كل من بريطانيا وإيطاليا غير محاربة وفي نفس الوقت ليست محايدة حياداً تاماً . كما أن عدم إعلان الدولة العثمانية لمصر بحربها مع إيطاليا أثر تأثيراً كبيراً في الموقف . إذ لم يكن بوسع الدولة العثمانية المطالبة بتنفيذ الاتفاقية الخاصة التي توجب على مصر أن تقدم للدولة العثمانية جنوداً للقتال في حالة اشتباها في القتال طالما أن مصر لم تعلن جهده

(١) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٤٩ .

الحرب رسمياً^(١) . وعلى هذا الأساس يبقى الإيطاليون في مصر يتمتعون بكافة الامتيازات والحقوق المحولة لهم دون حاجة إلى حماية دولة أخرى .

إن المشكلة التي واجهت الحكومة المصرية أنها كانت حائرة في التوفيق بين الواجبات الناشئة عن تبعيتها للدولة العثمانية وبين ما يفرضه الاحتلال عليها من تصرفات . أو بتعبير آخر أن ذا حق على مصر يطالبها بتنفيذه وذا قوة غاصبة مستقر في مصر يمنعها من أداء الحق ، فكيف يمكن التوفيق ؟ !

ولما كانت التبعية العثمانية قانونية والاحتلال الفعلي غير قانوني ، فعلى هذا الأساس لا يمكن معارضة الالتزامات الناشئة عن التبعية بالاحتلال ، ولكن بطبيعة الحال كان ذلك من الوجهة النظرية وليس من الوجهة العملية أو الفعلية ، ومع ذلك فنحن لو تمسكنا ببعض الشيء مع هذا الأساس النظري يمكن القول أنه طالما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية ، فيتحتم على الحكومة المصرية اتخاذ خطة إزاء تلك الحرب ، ولكن الموقف يتعمد نتيجة أنه على الرغم من أن وضع مصر القانوني هو أنها مستقلة استقلالاً إدارياً إلا أنها في نفس الوقت تابعة في السيادة الخارجية وبعض السيادة الداخلية للدولة العثمانية فضلاً عن أنها محتلة فعلياً من بريطانيا . ويمكن أن يتضح الموقف أكثر بأن الدولة العثمانية دولة محاربة ، وبريطانيا المحتلة لمصر على الحياد من هذه الحرب ، والموضوع الذي يمكن إثارته ماذا يمكن أن يكون موقف الحكومة المصرية إزاء ذلك ؟

وللاجابة على ذلك نستطيع أن نقول إن نظام الحرب نظام مقرر بالقانون الدولي وهو يقضى بأن التابع يعطى حكم متبوعة متى أعلنت الحرب ، أى أنه إذا كان للتبوع محارباً ، فالتابع محارب وإن كان للتبوع على الحياد فالتابع كذلك ، ولما كان الاحتلال البريطاني لمصر لم يؤثر — نظرياً — في تبعية مصر للدولة العثمانية فإنه بمجرد إعلان الدولة العثمانية للحرب فإن ذلك يعتبر بمثابة إعلان مصر للحرب أيضاً طالما كانت سيادة مصر الخارجية في يد الدولة العثمانية ، وإن إبلاغ إعلان الحرب إلى مصر هو في حد ذاته مطالبة صريحة من الدولة العثمانية لمصر بالاستعداد لتنفيذ

(١) الجريدة ، عدد ١٣٨٩ ، ١٩ أكتوبر ١٩١١ مقالة محمد حسين هيكل « مركز

مصر من الواقع وفي القانون » .

جميع الواجبات المفروضة عليها قبل الدولة ، وهذا يعنى أن الحكومة المصرية يمكنها بوصفها تابعة قانوناً للحكومة العثمانية أن تجعل تحت طلب الدولة العدد المقرر من الجنود للاشتراك مع الجيش العثماني في حالتي الدفاع والمهجوم ، كما أنه عليها أن تقطع علاقاتها مع قناصل إيطاليا الموجودين في مصر وعليها أن تستعد لتنفيذ ما قد يطلب منها من الإجراءات العسكرية التي ترى الدولة العثمانية تطبيقها لظروف الحرب ، وتكون داخلة في نطاق سيادتها ويدخل في ذلك إطفاء فنارات الموانئ المصرية ، ما عدا فنارات الموانئ الدولية كميناء بور سعيد والسويس ، إذ أنهما يعطيان قانوناً حكم الحياد الذي عليه قناة السويس وغير ذلك مما تستدعيه الاحتياطات العسكرية ، فإذا لم تفعل مصر ذلك فاتها تعد منشأة عن الدولة العثمانية نافية لهودها معها ، ولكن بطبيعة الحال إن موقف الحكومة المصرية الفعلي كان مرتباً ارتباطاً كبيراً بموقف سلطات الاحتلال في مصر، ويمكن على هذا الأساس أن نعلم تقاعس الحكومة المصرية عن تأييد الدولة العثمانية بأنها لم تكن حرة للتصرف في بلادها بل كانت مغولة اليد عن العمل ، بالاحتلال الفعلي ، الذي كان من حق السيادة التركية أن تمليه على مصر حفظاً لسيادتها وخروجاً من جعل هذه السيادة الخارجية سيادة إسمية ، وأن مصر متى أعلنت الحرب باعتبارها تابعة للدولة جاز لإيطاليا في هذه الحالة مهاجمة الموانئ المصرية كما تهاجم موانئ ليبيا ، وفي هذه الحالة ستدخل بريطانيا الحرب لحماية احتلالها .

وكان من المفروض كذلك على مصر بحكم تبعيتها للدولة العثمانية أن تقطع علاقاتها بالوكالة الإيطالية أسوة بما فعلت أثناء الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧ ، حينما قطعت علاقاتها باليونان ، غير أن اللورد كاتشر المعتمد البريطاني في مصر أرجأ القرار النهائي الخاص بهذا الموضوع ريثما يستشير في ذلك وزارة الخارجية البريطانية . هذا على الرغم من أنه لم يحدث شيء في مصر يستوجب تصرفاً من نوع جديد منذ وقوع الحرب اليونانية العثمانية فيما عدا توقيع الإتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا ١٩٠٤ .

ولكن بريطانيا كانت تخشى بما يحتمل أن تأتي به الحرب الإيطالية العثمانية مشكلة لم تكن تخشى على نفسها منها خلال الحرب اليونانية العثمانية ، وهي أن إيطاليا يمكن إذا وقفت مصر موقفاً معادياً أن تقوم بالأعتداء عليها وسوف يؤدي ذلك

بإنجلترا وهى محتلة مصر فعلا إلى محاربة الدولة المتعدية ، ومن هنا يمكن أن يتسع نطاق الحرب وتصبح المشكلة دولية مليئة بالأخطار^(١) ، وهذه هى الإجابة الصحيحة لسؤال فرض نفسه فى ذلك الوقت حول عدم ووقوف إنجلترا فى الحرب الطرابلسية مثل الموقف الذى وقفته فى الحرب اليونانية العثمانية ، لأن اليونان لم تكن دولة قوية يمكنها أن تحارب مصر والدولة العثمانية كما هو الحال بالنسبة لإيطاليا .

وعلى الرغم من أن كتشنر لم يعترض على طلب الحكومة المصرية بأن يعهد بالمصالح الإيطالية فى مصر إلى دولة أخرى ، إلا أن الوضع استمر على بقاء الوكالة الإيطالية قائمة بعد احتجاج الحكومة الإيطالية لدى بريطانيا بأن انسحاب الوكالة الإيطالية من مصر يمكن أن يعتبر نصراً أديباً للحكومة العثمانية خاصة بعد أن أخطر كتشنر اللورد جراى وزير الخارجية البريطانية بأن المصدر الأعظم أبلغ خديو مصر بأن الوكالة الألمانية فى الآستانة تولت رعاية المصالح الإيطالية^(٢) ، ويطالبه أن يفعل ذلك أيضاً ، أى أن يعهد إلى الوكالة الألمانية حماية المصالح الإيطالية ، مما كان سبباً لاحتجاج السفير الإيطالى فى لندن الذى عد ذلك مناورة سياسية تقوم بها الدولة العثمانية مؤكداً أن حقوق تعيين الممثلين الأجانب فى مصر هى من حقوق الخديو وليست من حقوق السلطان^(٣) .

إنقضى وضع مصر إذن أن تقف على الحياد ولكن ذلك لا يعنى أن مصر كانت تملك استقلالاً خارجياً يرقى بها إلى مستوى باختيار الموقف الذى تريده نظراً لتبعيةها للدولة العثمانية من ناحية واحتلالها من ناحية أخرى ، وإنما دلت فقط على موقف الحياد تحت ضغط سلطات الإحتلال ، وأصبح من الواضح أن مصر على الرغم من أنها من الناحية القانونية جزء من الإمبراطورية العثمانية إلا أنها من الناحية الفعلية جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، والأمر الذى لا مراء فيه أن الحرب الإيطالية الليبية كشفت سلطات الإحتلال فى مصر ، كما كشفها بعد ذلك الحرب العالمية الأولى فى أن الإنجليز لا يحتلون مصر بثابة ممثلين للسلطان العثمانى أو الخديو وإنما

(١) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩١١ مشكلة قطع العلاقات بين مصر وإيطاليا .

(٢) Kitchener to Grey 6.10.1911, Doc. No. 225.

(٣) Rodd to Grey 11.10.1911, Doc. No. 284.

تمثلين للمصالح الأوربية بصفة عامة والمصالح الإنجليزية بصفة خاصة (١) .

وبطبيعة الحال لم يكن موقف مصر مما يتهيج له ، إذ أنه يدل على عدم وجود كيان لمصر في العالم الخارجى ، ومع ذلك فقد اعترف بهذا الموقف كل من الدولة العثمانية وإنجلترا وإيطاليا ، والسبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أن هذه الدول رأت في موقف مصر صعوبة لا يمكن حلها فأثرت التجاوز عن الوضع القانونى الخاص بها .

فالدولة العثمانية لم ترسل لمصر إعلاناً بحربها مع إيطاليا مخافة على حقوقها من الضياع ، وأما الحكومة المصرية فعلى الرغم من أن تبعيتها للدولة كانت تقتضى بأن تكون محاربة معها فإن الحكومة المصرية لم تشارك مشاركة رسمية في هذه الحرب على الرغم مما نادى به كثير من الكتاب بأن تقوم الحكومة بكل ما يفرضه عليها مركزها الذى حددته الفرمانات قبل الدولة العثمانية صاحبة السيادة . والحقيقة أن مصر لم تستطع أن تعلن حيادها وقام بذلك بالنسبة عنها إنجلترا وإيطاليا اللتان اعتبرتتا مصر على الحياد . واضطرت الحكومة المصرية أن تصدر تعليماتها إلى قوات الحدود بضرورة حمل الفريقين المتحاربين على احترام حياد مصر وأن لا تدع شيئاً يدخل طرابلس من البضائع التى تعتبر من مواد الحرب والتركز بقواتها في جهة السلم (٢) .

ورأت الحكومة البريطانية من ناحيتها أن تستفيد من وقوع الحرب في ممارسة السيطرة على بعض المواقع والحصول على تنازل عنها سواء من الدولة العثمانية أو إيطاليا ، وكان أول ما تحصلت عليه من ذلك ضم ميناء السلم وخليج السلم إلى مصر ، وتم ذلك بموافقة الدولة العثمانية التى كانت ترى من مصلحتها بطبيعة الحال أن تبعد هذه المناطق عن الاحتلال الإيطالى ، وقد احتجت إيطاليا على ذلك مدعية أن ما أقدمت عليه بريطانيا بعد اعتداء صريحاً على أطباعها باعتبار خليج السلم جزء من ولاية برقة (٣) . ومن

Young : Egypt, B 199, London 1927.

(١)

(٢) الجريدة ١٩ أكتوبر ١٩١١ .

(٣) الواقع أن حدود مصر الغربية لم تحدد تحديداً قاطماً فرمان ١٨٤١ لا يحدد هذه الحدود ويعتقد البعض أنه كانت هنالك خريطة ملصقة بهذا الفرمان ولكنها فقدت في حريق الأسكندرية عام ١٨٨٢ وعلى أى حال فإن موضوع حدود مصر الغربية لم يتحدد إلا بعد الاحتلال البريطانى لمصر والاحتلال الإيطالى لليبيا .

C.F. Confidential 10114-P-LXXV. Further correspondence January to June 1912. Kitchner to Grey No. 119, 15 March 1911, Doc. No. 194, Memorandum on Ghabub by Mr. Vansittant.

ناحية أخرى حصلت بريطانيا على ميناء طبرق نظير تسهيل عملية الاحتلال الإيطالي لليبيا (١).

ولما كانت بريطانيا تخشى على مصالحها في البحر الأحمر وقناة السويس نتيجة للصراع الناشب بين الدولة العثمانية وإيطاليا ، فقد طلبت من الحكومة الإيطالية ضمان حياد البحر الأحمر نظير أن تضمن لها بالتالي ألا ترسل الدولة العثمانية أسلحة حرب عن طريق خط حديد الحجاز أو قناة السويس ، وبالفعل وافقت الحكومة الإيطالية على ذلك اطمئناناً إلى موقف الإنجليز (٢).

والجدير بالذكر أن بعض الساسة الإنجليز رأوا أثناء قيام الحرب أن الفرصة سانحة لكي تستغل هذه الحرب لضم مصر إلى المستعمرات البريطانية نهائياً بمعنى إلغاء السيادة العثمانية على مصر ، ولكن رفضت هذه الفكرة من أساسها حتى لا تجر بريطانيا على نفسها سخط المسلمين في العالم الإسلامي (٣).

هذا هو الموقف الرسمي الذي وقفته السياسة البريطانية على المستوى الدولي في علاقاتها بالدولة العثمانية وإيطاليا . أما على المستوى الشعبي في مصر فقد كان موقف الحكومة البريطانية في غاية من الدهاء إذ أوضح اللورد كيتشنر صراحة أن إيطاليا معتدية على الدولة العثمانية من غير حق . وقامت في مصر حركة كبيرة لجمع التبرعات للدولة العثمانية إعانة لها على تحمل نفقات الحرب ، وشجع اللورد كيتشنر هذه الحركة بل وشارك بالتبرع فيها ، وكان أمراء الأسرة المالكة في مصر على رأس الوفود التي تنتقل في الأقاليم لجمع التبرعات ، فكان ذلك دافعاً للناس على البذل بسخاء لأنهم رأوا الحكومة لا تمارض وأمراء البيت المالك يشجعون ويتبرعون، والمعتمد البريطاني نفسه يشجع ويشترك .

ولقيت الدعوة لمعاونة دولة الخلافة وتذاك آذاناً صاغية من الجميع ، وكما يقول الدكتور هيكل في مذكراته أن الأمير عمر طوسون ذهب مع الهيئة القاعة بالتبرعات إلى المنصورة فجمع في أقل من نصف ساعة مائة ألف جنيه وستة آلاف ذهباً .

(١) فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ص ١١٢ .

(٢) Grey to Luther, 12.10.1911, Doc. No. 302, F.O. 407, 177.

(٣) جريدة اللواء عدد ٣٧٢٨ ، ٥ نوفمبر ١٩١١ .

وحدث مثل ذلك في غير المهقمية من مديريات مصر . وكان الناس ينظرون إلى موقف إنجلترا من هذه الحركة دهشين ، كيف تشجع دولة إسلامية على دولة مسيحية !! ولكن بطبيعة الحال فان السياسة البريطانية لم تذهب إلى أبعد من هذا ، فكما سبق أن ذكرنا أنها لم تسمح باشتراك الجيش المصرى في هذه الحرب ! ولم تسمح بمرور الجيوش العثمانية من الأراضى المصرية متعلّمة في هذا وذلك بأن مصر مستقلة إستقلالاً داخلياً عن تركيا ، وأنه إذا اشتركت الحكومة المصرية في الحرب فإن هذا الاشتراك لن يقف عند الجناية على استقلال مصر بل سيؤدى بإنجلترا ، ولها في مصر مركزها الخاص بحكم الاحتلال ، أن تنهم بالخروج عن الحياد وبالتالي الاشتراك في حرب ضد إيطاليا ليس لها فيها من مسوغ .

كان موقف سلطات الاحتلال إزاء اندفاعه الوطنيين لنجدة دولة الخلافة الإسلامية ينطوى على الكثير من الحرص ، فالإنجليز كانوا يعملون على عدم التعرض للمسألة الدينية لما قد يؤدي إليه ذلك من مساس بوضع بريطانيا ليس في مصر فحسب وإنما مستعمراتها الإسلامية الأخرى . ولكن السياسة البريطانية مع ذلك لم تذهب في التأييد إلى أبعد من ذلك فهي تقاوم الحركات الفعلية التي قد تؤثر على مركزها مقاومة مستترة .

ويذكر أحمد شفيق باشا في مذكراته بصدد ذلك أنه في أوائل هذه الحرب ذهب وفد من كبار المصريين إلى اللورد كاتشر يطلب منه إرسال بعض فرق الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، فأجابهم أنه على الرغم من إقتناعه بسلامة الفكرة إلا أنه من الصعب أن يوجد جنود آخرون ليحلوا محل الجنود المطلوب سفرهم ، وعلى ذلك فإنه سيضطر في هذه الحالة إلى أن يطلب من الحكومة البريطانية أن ترسل لمصر جنوداً من الإنجليز ، وبطبيعة الحال لم يكن الوفد مستمداً لزيادة قوات الاحتلال في مصر .

وتكررت مواقف متشابهة حينما ذهب جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع في الجيش العثماني فأبدى استعدادة لإجابة طلبهم بشرط أن يحل محلهم ضباطاً آخرون ، بمعنى أنهم عند العودة يجدون أنفسهم في سجلات الاستيداع . وعند ما طلب منه زعماء البدو من « أولاد على » تجنيدهم للحرب وافق على ذلك على أن يطبق عليهم من الآن فصاعداً قانون القرعة العسكرية التي كانوا يتمتعون بالاعفاء

منها ، وبذلك استطاع اللورد كيتشنر بهذا الدهاء أن يتخلص من طلبات كثيرة (١) .
واستلقت سنة ١٩١٢ والحرب الطرابلسية على أشدها ، والأمة المصرية متجهة
بقلوبها صوب المجاهدين في طرابلس تدمم بالعمون والمال والتأييد ، وأظهر المجاهدون
من آيات الشجاعة والبطولة في مقاومة العدوان الايطالى ما زاد إعجاب العالم بهم ودل
على أن روح الحرية كامنة في نفوس الشرقيين (٢) .

وتأثرت الحركة الوطنية في مصر تأثراً شديداً بالحرب وظهر ذلك في الأحزاب
السياسية التي كانت قائمة في مصر في هذه الفترة ، وكلها اتخذت موقف التأييد للدولة
العثمانية ، فالحزب الوطنى بزعامة محمد فريد كان يجد في اشتراك مصر في هذه الحرب
وسيلة لمصر لكي تتخلص من الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يجدون في ضياع
طرابلس ضياعاً لآمالهم في المستقبل ، وأن دفاعهم عن طرابلس إنما هو في نفس الوقت
دفاع عن مصر وليس تعصباً أعمى . لأنه إذا كانت إيطاليا التي لم تحتل طرابلس قبل
الآن ستأخذها بمجرد موافقة الدول على أخذها عملاً بمبدأ التعويض ، فمأذا تصنع
انجلترا بمصر وقد احتلتها أكثر من ربع قرن إذا رأيت من تركيا تخاذلاً أمام اعتداء
إيطاليا ومن المصريين سكوتاً واستسلاماً لذلك البلاء الواقع . وأنه لما كان استقلال
مصر الذى اغتصبته انجلترا متوقف على إتصال مصر بالدولة العثمانية فإن من مصلحة
المصريين الدفاع عن ذلك الاستقلال والاتصال بالدولة العثمانية لأن فيه دفاعاً عن هذا
الاستقلال المسلوب ، وليس كما تتهم أوروبا المصريين بأنهم يحبون الاستعباد بقصد إضعاف
الروابط بينهم وبين الدولة العثمانية (٣) ، وبقاء طرابلس في يد الدولة العثمانية له علاقة
كبيرة بنجاح مصر ، وضياع طرابلس فيه القضاء على مستقبل مصر السياسى والاقتصادى .
وأكد الكثيرون أن نيل مصر الاستقلال متوقف على استطاعة الدولة العثمانية
الدفاع عن مصر ، وأن استيلاء الايطاليين على طرابلس يفتح باب المسألة المصرية في

(١) أحمد شفيق : مذكراتى في نصف قرن ج ٢ « عباس حلمى الثانى من يناير ١٩٠٣
— ١٩١٤ » ص ٢٦٥ ، القاهرة عام ١٩٣٦ .

(٢) تاريخ مصر القومى من ١٩٠٨ — ١٩١٩ عبد الرحمن الرافعى « محمد فريد »
ص ٢٣٧ .

(٣) جريدة اللواء ١٢ أكتوبر ١٩١١ .

ظروف هي أسوأ ما تكون على مصر ومستقبلها ، وأخطر على استقلالها لأنها تكون أكبر فرصة لضم إنجلترا لمصر والسودان عملاً بمبدأ التعويض . وعلى ذلك إذا تطوعت الأمة المصرية جميعها في هذه الحرب فإنها تنطوع دفاعاً عن حياتها ومستقبلها واستقلالها .

وكان حزب الأمة مندفعاً في تيار مساعدة الدولة العثمانية اندفاعاً قوياً على الرغم من اتخاذ أحمد لطفى السيد رئيس تحرير الجريدة المعبرة عن لسان الحزب موقفاً مضاداً . فإنه رغم تعاطفه مع الدولة العثمانية إلا أنه كان يرى أن مساعدة المصريين لها لن تجدى ، وربما أضرت مصر أكثر مما أفادتها . وظهرت آراء لطفى السيد بينما كان المصريون في الطفرة الأولى من الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة الإسلامية عقب نشوب الحرب مباشرة . وهذه الآراء عبر عنها في مقالات ثلاث تصدرت الجريدة في ثلاثة أيام متعاقبة بعنوان « سياسة المنافع لاسياسة العواطف » ، ودعى لطفى السيد في هذه المقالات الدائمة الصيت المصريين إلى التزام الحياد للمطلق في هذه الحرب ، وإلى الضن بأموالهم أن تبعثر في سبيل قلمنا تفيد بلادهم منه . ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر وإنشاء المرافق النافعة لأبناء الوطن لشدة حاجة مصر إلى الإصلاح . ونعى لطفى السيد على الأمير عمر طوسون الذى كان متزعماً للجنة العليا للاكتتابات اجتماعه ببعض عمد الأعراب للمداولة في نصرة المجاهدين ، وأكد بأن كل حركة من حركات التشيع للدولة العثمانية أو إظهار المساعدة لها من شأنها أن تزيد مركز مصر ارتباكاً على ارتباك ، وأنه من العبث أن يكون المرء غريقاً ثم هو يتشبث بمساعدة غير مساعدة لا تنفع ولكنها تضر بصاحبها ضرراً بليغاً لأن مصر رضيت أم كرهت أصبحت على الحياد وأنه من المفيد أن تصرف الأموال أولاً للحصول على وجود سياسى لمصر ، وأن مصر ليست في حالتها الحاضرة بقادرة على نصرة الطرابلسيين أو العثمانيين كما أنه من المؤكد أن الاحتلال البريطانى الرابض فى مصر لن يسمح لها بتقديم هذه المساعدة^(١) .

(١) انظر الجريدة : سياسة المنافم لاسياسة العواطف عدد ١٤٠٠ فى ٢٧ أكتوبر

أثارت هذه المقالات موجة شديدة من الاستياء لدى الرأى العام المصرى على لطفى السيد ووصل الأمر إلى طعن جارف إذ اتهمه البعض بالكفر والإلحاد . ومع إيمان لطفى السيد بهذه الآراء إيماناً ثابتاً إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يستميل أو يقنع أصدقاءه فى حزب الأمة بتناصرته فى موقفه ، وإنما اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام . أو بمعنى أصح فإن الحزب خشى مواجهة الرأى العام فنكس ولم يتابع لطفى السيد ولم ينصره مما اضطره للانسحاب من الميدان وترك الجريدة التى كان يتولى أمرها لآخرين (١) .

والواقع أن لطفى السيد كان يعكس آراءه الخاصة بممارسة فكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها ضارة بالحركة الوطنية فى مصر وأن على المصريين ألا يجملوا الدين فى هذه الظروف قاعدة لأعمالهم السياسية والأجدر بالمصريين أن ينفوا عنهم كل تهم التعصب الدينى لأن ذلك من الدرائع التى يتذرع بها الإنجليز لإطالة مدة بقائهم فى مصر ، وأنه من الخطر أن تنادى الصحف بالجهاد والحث عليه لأن هذه الدعوة تخيف أوروبا بالشكل الذى يمكن أن تستهل معه حل المسألة المصرية حلانهاثياً ضد مصلحة المصريين والدولة العثمانية .

وليس من شك فى أن لطفى السيد نظر إلى المشكلة نظرة موضوعية وكان يدرك أن الاندفاع العاطفى ليس له فائدة تذكر فواقع الأمر أن مصر لن تستطيع أن تساعد الدولة العثمانية بحكم بعد المسافة وعدم إمكان وصول النجيدات المصرية فى حالة تمكنها من الحرب ، وأن النجيدات المصرية ستفتقر بالضرورة إلى السلاح لظروف الاحتلال الانجليزى القابض فى مصر على كل شئ ، وأكد لطفى السيد أن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يساعد به مصر هو إعانة المنكوبين بالقحط ، وعلى الرغم من أن هذه المساعدة يمكن اعتبارها مساعدة إنسانية خالية من كل تعصب دبنى إلا أن الاندفاع الذى سارت فيه الصحافة الوطنية فى مصر جعلت إبطاليا تعمل على تركيز جهودها إلى قطع الطريق بينما كان من الأجدى أن تتم هذه المساعدات فى تكتم حتى لا تلتفت الأنظار إليها .

وعلى الرغم مما حاوله كتاب الاستعمار من إتهام المصريين بالتعصب الدينى إلا أن

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٧٠ - ٧١ .

الواقع أن حركة المصريين وإن اتخذت الشكل الديني ظاهرياً فإنها كانت في حقيقتها بعيدة كل البعد عن كل تمصّب ديني ، وإنما كانت مجرد تعاطفاً روحياً مع دولة الخلافة الإسلامية من ناحية وتعاطفاً مع ليبيا التي تربطها بمصر رابطة الأخوة والجوار من ناحية أخرى بدليل أن مصر لم تتخذ مثل هذا الموقف عندما سقطت مراکش في أيدي الفرنسيين أو عندما تهاوت فارس — وهي دولة إسلامية كبرى — على أيدي الاستعمار الإنجليزي أو الروسي ، كما أن مساعدة المصريين للدولة العثمانية لم تكن كما فسرها البعض مؤكداً للانجليز المحتلين مصر ، ويمكن التذليل على ذلك بأن اللجنة العليا لجمع الاكتتابات للدولة العثمانية والتي كان يرأسها الأمير عمر طوسون أرسلت تطلب مساندة وزارة الخارجية البريطانية ، وأعلنت استيائها وامتناء الأمة المصرية التي ترى سلامة الخلافة الإسلامية في سلامة الدولة العثمانية ، وأنه على الرغم من تحلّي الدول الكبرى عن التدخل في هذا الحادث فإن المصريين ما زالوا ينظرون إلى الحكومة البريطانية بأهمية تدخلها لإنهاء هذه الأزمة باعتبارها دولة تحت رايتهما من الرعايا المسلمين أكبر مما عند غيرها ، وهذه البرقية وإن دلت على أن المصريين لم يساندوا الدولة العثمانية مؤكداً لانجلترا المحتلة فإنه لا يمكن أن يفسر في الدوائر السياسية الرسمية إلا أن المصريين راضون عن حالتهم الحاضرة^(١) ، فهل يمكن أن تفسر ذلك بأن عاطفة الولاء للخلافة الإسلامية طغت على الحركة الوطنية في مصر ؟ أم أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت خطأ فاصلاً بين الاتجاهين .

تعرضت حركة الاندفاع الوطني لمساندة المجاهدين في ليبيا لقوى مضادة تزعمها أحمد لطفي السيد في آرائه التي نادى بها ، كما تعرضت أيضاً لتأثير صحافة الاحتلال وأبرزها جريدة المقطم التي حاولت طيلة سنوات القتال أن تثبت العزيمة فقد حمل المقطم على التبرعات مؤكداً أن طرابلس ولاية فقيرة لا داعي لأن تبذل من أجلها حياة جندي واحد ولا في الدفاع عنها خمسين ألف جندياً في الشهر وأن دخلها لا يكاد يكفي نفقاتها^(٢) .

(١) الجريدة ، سياسة المنافع لا سياسة العواطف ٢٧ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) جريدة اللواء ، صحافة الإحتلال ١ أكتوبر ١٩١١ .

أما الخديوى عباس حلمى الثانى فقد وقف موقفاً متردداً من الحرب الطرابلسية ،
ففى بداية الحرب سهل إرسال الإعانات والبعثات الطبية إلى المجاهدين فى طرابلس
ووربما كان يهدف بهذه المساعدة معارضة سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، ولكن
على أثر تحول الحرب إلى صالح الإيطاليين فى طرابلس تغير موقفه تبعاً لذلك وعمل
على وقف المساعدات كما منعت بعثات الهلال الأحمر العائدة من الوصول بالجرحى
إلى مصر (١) .

وعلى أثر انسحاب الدولة العثمانية من الحرب بعد توقيعها معاهدة أوشى فى أكتوبر
١٩١٢ اشتدت حركة المكافحة ضد الإيطاليين وقامت هذه الحركة على كاهل
الإمارة السنوسية بزعامة أحمد السنوسى الكبير ، ويتضح من الوثائق التى تناولناها
استغلال الحكومة الإيطالية للخديوى عباس حلمى الثانى بهدف الوقعة بين الزعماء
السنوسيين ، بمعنى أن ينتهز الخديوى فرصة الصراع حول السلطة بين الزعماء السنوسيين
ليستعمل نفراً منهم لعقد الصلح مع إيطاليا ، ووعده إيطاليا نظير قيامه بهذه الوساطة
بشراء خط حديد مريوط الذى كان يمتلكه وأن يعهد بالامتياز إلى إحدى البنوك
الإيطالية بالثمن الذى يريده .

وكان بيع سكة حديد مريوط مهم بالنسبة لإيطاليا لأنه يمكنها من أن تمنع وصول
الإمدادات التركية عن طريقه إلى المجاهدين فى الداخل ، وكان الخديوى يتجه فعلاً
إلى بيع سكة حديد مريوط وهناك عدة مشروعات اتفاقيات عقدها الخديوى مع
بعض الشركات الإيطالية والألمانية ، وتوجد مجموعة من المراسلات الخاصة بين الخديوى
وبين Italian Syndicate ومراسلات أخرى مع بنك درسدن الألمانى Dresden
خاصة بهذا الموضوع . وكان الخديوى يتحصل على خط مريوط منذ عام ١٨٩٩ وقد
عارضت الحكومة المصرية — بضغط من سلطات الاحتلال — الخديوى فى بيع
هذا الخط لأن الحكومة البريطانية كانت تعارض أن تحصل إيطاليا على نفوذ
باستحواذها عليه ، وحذر اللورد كيتشنر الخديوى من بيع هذا الخط سواء

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ ص ٢٦٧ .

إلى بنك روما أو بنكه درسدن^(١). وكان تحذير اللورد كيتشنر بعد أن اكتشفت السلطات البريطانية اتجاه الخديوى فملا إلى بيع الخط إلى إحدى الشركات الإيطالية، وحصول الشركة على امتياز بامتداد الخط الحديدى إلى حدود طرابلس في السلم ، واضطر الخديوى على أثر تهديد كيتشنر وإحراج مركزه من إعلان إلغاء عقد البيع وتنازله للحكومة المصرية من الخط الحديدى الذى انتقل إلى ملكيتها نظير عن دفع له في ذلك الحين .

كما فشلت وساطة الخديوى لدى السنوسيين الذين استقر رأيهم على مواصلة القتال حتى إجلاء القوات الإيطالية عن الأراضى الليبية وظهر تردد الخديوى واضحاً من الحرب وبدأ يصرح عند حدوث مفاوضات الصلح التى أجريت بين الدولة العثمانية وإيطاليا أن موقفه سيصبح حرجاً في تقديم المساعدة للسنوسيين في حالة مصالحة الدولة العثمانية لإيطاليا . وتؤكد بعض المصادر أن إيطاليا عملت على اجتذاب الخديوى إلى جانبها وكان سبيلها إلى ذلك أحد أفراد الأسرة المالكة الذى تلقى ثقافته في إيطاليا وهو الأمير أحمد فؤاد الذى أصبح فيما بعد ملكاً على مصر باسم فؤاد الأول ، وقد وعد إيطاليا بأن توليه إمارة طرابلس ، وبسبب هذا الوعد عمل الأمير على التوفيق بين الخديوى عباس حلمى الثانى وبين ملك إيطاليا وتمت زيارة الخديوى لروما بموافقة الأمير أحمد فؤاد .

والواقع أننا لم ننتشر على وثائق خاصة ، تؤكد وجود اتفاق من مثل هذا النوع ، كما أنه لا توجد تفصيلات خاصة بهذا الموضوع إلا ما رددته بعض الصحف الفرنسية والألمانية خاصة بهذا الموضوع .

وبعد توقيع معاهدة أوشى وفي أثناء حركة الكفاح الوطنى الليبي طلبت إيطاليا من السيد أحمد الشريف أن يدخل معها في مفاوضات للصلح ، واشترطت على نفسها ضمان كيانه كأمر للبلاد تحت حمايتها أو انتدابها وتتفق معه في منطقة نفوذ تحدد لسلطانة وتمتفظ هى بالموانى والثغور الساحلية ، ولكن السيد أحمد الشريف رفض هذه العروض برمتها ، وعندما فشلت الوفود الإيطالية في إقناع الأمير ، وبعد ما تحقق

(١) Kitchener to Grey, Doc. No. 14, Cairo, March 16, 1913, Confidential 10369, Part LXXVII. Further correspondence respecting Egypt and Sudan, January to June, 1913.

إيطاليا عدم جدوى استالته إليها عادت إلى استغلال الخديوى عباس بنصح السنوسيين بضرورة الإخلاء إلى السكينة وأن يجذل لهم الوعود الطيبة إذا هم قبلوا الأمر الواقع وكفوا عن مواصلة الجهاد، وقبل الخديوى الوساطة وأرسل إلى السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وقدأ يحمل كتاباً من الخديوى ، وقابل الشيخ الوفدمقابلة حسنةولكنه أكدأن شروطه للاتفاق مع إيطالياهى أن يجلوا عن البلاد وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم ، وكان ذلك ختام هذه الوساطة وإخفاقها . ويكشف لنا عن دور الخديوى كتاباً كان قد بعث به أحد مبعوثى الخديوى (عزت الجدى) إلى الجنرال إميليو Emilio قائد القوات الإيطالية فى بنغازى وفى هذا الكتاب المؤرخ فى ٨ مايو ١٩١٤ يبدى هذا المبعوث استياءه من الخديوى لأنه لم ينتج نظير جهوده ما يستحق من مكافأة وهو يلتمس المزيد منها وينعى على الخديوى أنه قصر فى مكافأته رغم الجهود التى بذلها ويعلمن فى رسالته انسحابه من خدمة الخديوى مؤكداً للقائد الإيطالى « لولا حى الزائد وصدائق العظيمة لسعادتكم ما كنت أخبرتكم بهذه المسألة التى تجعل كل (شريف) يتعد كلما أمكن عن خدمة من لا يقدررون الخدمة ولا يعرفون قدر الرجال ، ولا يتأخر عن كل خدمة من ورأها تأليف ذات البين بين العرب وإيطاليا كلما سنحت الفرصة لا اعتقادى أن هذا فى مصلحة العرب أكثر مما هو فى مصلحة إيطاليا» (١) ؟!

وعلى الرغم من كل المعوقات التى حدثت من إندفاعة المصريين فقد كان موقف الشعب المصرى موقف المعاضد للدولة العثمانية ، ولأشقائه المجاهدين فى ليبيا ، إذ شكلت اللجان فى كثير من أنحاء البلاد لجمع التبرعات وأهمها اللجنة العليا للاكتتابات التى تشكلت فى ١٤ أكتوبر ١٩١١ برئاسة الأمير عمر طوسن . كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة الشيخ على يوسف وقررت تكوين عدة مستشفيات ميدان وأرسلت الكثير من البعثات الطبية إلى ميدان القتال ، وشملت عدداً كبيراً من الأطباء المصريين وعلى الرغم من المقالات المعارضة التى أثارها لطفى السيد وصحافة الاحتلال فى هذه الفترة فإن ذلك

لم يؤثر على اندفاع الرأى العام المصرى ، وحملت الصحف المعبرة عن هذا الرأى حملة عنيفة فهابت بالأغنياء أن يتبرعوا لتركيا لكي تتحمل مصاريف الحرب وطالبت عرب البادية أن ينضموا بشجاعة لصد هجمات الإيطاليين، كما ظهرت في ذلك الوقت لجان كثيرة لمقاطعة التجارة الإيطالية والإضرار بمصالح إيطاليا الاقتصادية ، حتى لقد اضطر كثير من الإيطاليين إلى مغادرة البلاد نتيجة لهذه المقاطعة العنيفة بعد أن ضاقت بهم سبل العيش ويدخل في ذلك أصحاب المحلات التجارية والبنوك والرعيا القدين يحترفون بعض الحرف الصغيرة ، كما ظهر اتجاه لسحب الطلاب المصريين من المدارس الإيطالية والاستغناء عن الأساتذة الإيطاليين في الجامعة المصرية . وألف المصريون جمعيات لحصر أسماء المحلات التجارية ونشر أسمائها في الصحف، كما تركزت الجهود على سحب الأموال المصرية المودعة في بنك روما وكانت تبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات وهى حصيلة الأموال التى جمعها المؤتمر المصرى الذى ظهر على أثر الأزمة التى افتعلتها السياسة البريطانية بين عنصرى مصر الأقباط والمسلمين على أثر اغتيال رئيس الوزارة المصرية بطرس غالى باشا فى عام ١٩١١ ، وطالب الوطنيون بسحب هذه الأموال باعتبار أن إيطاليا تحارب الدولة العثمانية بأموال مصرية وأن يشتري بها الثون والعلال والأقوات وإرسالها إلى طرابلس برأ عبر الحدود المصرية لأنه ليس لطرابلس منفذ تدخل إليها المساعدات إلا مصر ، وذلك بعد محاصرة الإيطاليين للسواحل الليبية وأن المصريين مسئولون مسئولية الإخوة والجوار والهدين عن إغاثة طرابلس ومساعدتها بكل قواهم فضلا عن أنه إذا أصبحت طرابلس مستعمرة إيطالية فإن مصر فى هذه الحالة ستفقد من قوتها المادية والسياسية ما يؤخرها عن السعى إلى الأمام خطوات كبيرة إلى الوراء (١) .

ولم يتأخر الكتاب والشعراء المصريون كحافظ إبراهيم والشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش عن الإشادة بكفاح الليبيين ، فأنشد الشعراء قصائدهم وكتب الكتاب ما أوحاهم الضمير بدافع الوطنية، وخطب الخطباء بكلماتهم الجادة ، وكانت الصحف الوطنية تنشر كل ذلك وتطبع المطبوعات نحو قضية ليبيا وجهادها . ومع ذلك فقد وقفت عقبات كثيرة دون مساعدة مصر لليبيا مساعدة مطلقة خاصة حينما أبدل بالأمورين المصريين

في الحدود الغربية مأمورين بإنجليز ، وطلب من قوات خفر السواحل مراقبة حدود مصر الغربية والشرقية والعمل على قطع كل سبيل للاتصال بين مصر وليبيا وكان من أثر ذلك أن قامت ثورة عنيفة على الوزارة المصرية تزعمتها الصحافة الوطنية متهمة إياها بالخيانة والفساد^(١) .

وعلى الرغم من أن المجاهدين العرب أبلوا بلاء حسناً ضد الظليان في عديد من المعارك إلا أن الدولة العثمانية كانت في حال تمنعها من الاستمرار في القتال ضد إيطاليا^(٢) . ويمكن أن نعتبر أن الحرب التركية الإيطالية وصلت من الناحية الرسمية إلى نهايتها عندما قبل العثمانيون تحت ضغط الدول الأوروبية وبسبب الهزائم التي أصابتهم في ميادين أخرى الدخول في مفاوضة من أجل الصلح مع إيطاليا . وبدأت هذه المفاوضات فعلاً في لوزان في ١٢ يوليو سنة ١٩١٢ ولم تؤثر رغبة المجاهدين في مواصلة القتال شيئاً في تعطيل أو وقف مفاوضات الصلح . ولكن الدولة العثمانية خاصة بعد تلبد موقفها في البلقان بادرت بإرسال أحد مندوبيها إلى المؤتمر حيث تم توقيع معاهدة « أوتشي » وظهر لإيطاليا أن هناك سهولة كبيرة في حمل الدولة العثمانية على الإقرار بالإحتلال الإيطالي لليبيا للأسباب الآتية :

أولاً : أدركت الدولة العثمانية أنه لا يمكن لها إخراج إيطاليا بالقوة لضعف الأسطول العثماني ومنع إجهتاتها من إرسال جندها عن طريق مصر .

ثانياً : أن أوروبا لن تكره إيطاليا على الخروج من ليبيا عملاً بقاعدة ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال .

ثالثاً : كان بعض رجال الدولة العثمانية من الاتحاديين يرون أن ولاية ليبيا من الأطراف البعيدة عن كرسى السلطنة ولا يستحق أن ينفق عليها من الأموال لأجل حمايتها وأن بيع طرابلس أولى من بيع البوسنة والهرسك ، ولا شك أن الحزب الألماني الذي كان ينمو في الدولة كان يشجع هذه الفكرة ، ومن المعروف أن النفوذ الألماني

(١) انظر نص التقرير الذي بعث به كمشنر إلى جرای في ٦/١٠/١٩١١ .
CF. F.O. 407, 177, Doc. No. 295.

(٢) نقولاً زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ص ٨٢ ، بيروت ١٩٥٠ .

كان في هذه الفترة يتغلغل في جمعية الاتحاد والترقي وفي ضباط الجيش العثماني^(١). كما كانت ألمانيا تميل إلى ترضية إيطاليا بقصد استمرار بقائها في المحالفة الثلاثية القائمة بينها وبين النمسا وألمانيا .

رابعاً : اتجاه إيطاليا — نتيجة لعدم ظفرها بنصر عاجل في طرابلس — على الرغم من القوات الكبيرة التي حشدتها إلى مناوشة الدولة العثمانية في البحر المتوسط فاستولت على رودس وجزر الدوديكانيز ، فما كان من إيطاليا إلا أن أجابت على ذلك بمد يد المعونة لثورة الإدريسي في عسير ، ومهاجمة سواحل البحر الأحمر ، وتهديد المواصلات العثمانية^(٢) ، وتدخلت الدول الأوربية للتوسط في الصلح حتى لا تمتد الأعمال العسكرية إلى شرق البحر المتوسط ، هذا بالإضافة إلى أن إيطاليا عمدت إلى تهديد سواحل البحر الأحمر ، ولذلك آثرت الدولة العثمانية الصلح مع إيطاليا إبقاء على ممتلكاتها الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن بريطانيا تأثرت أكثر من غيرها بالأعمال الحربية التي قامت بها إيطاليا وشرعت الصحافة الإنجليزية تحمل بكل عنف على إيطاليا بشأن الأخطار التي قد تنجم عن محاولة إيطاليا المساس بالأولوية الإنجليزية في شرق البحر المتوسط .

ولما كانت الدولة العثمانية لا تستطيع أن تعلن تخليها صراحة عن طرابلس حتى لا تفقد عطف العالم الإسلامي ، لذلك آثرت أن تكون معاهدة لوزان ذات وجهين فهي من جهة تقر السيادة الإيطالية على طرابلس ، ومن جهة أخرى احتفظت الدولة بروابط تربطها بطرابلس كتميين نائب للسلطان وتميين قاض للبلاد وتخلي الدولة عن السيادة عن طرابلس وبرقة ومنح أهالي البلاد استقلالاً ذاتياً . وقد تم توقيع هذه المعاهدة في ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ بعد أن تمهدت الدولة العثمانية بسحب جميع حامياتها العسكرية من ليبيا ، على أن تعيد إيطاليا للدولة جزر الدوديكانيز التي أحتلت خلال سير الحرب .

ومعاهدة لوزان تؤرخ بداية الحركة التحريرية الوطنية في ليبيا ، والتي استمرت

(١) انظر مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ ، ما تعتمد عليه إيطاليا في حمل تركيا على الصلح .

(٢) مصطفى عبد الله بعبو ، المجلد في تاريخ لوية ص ١٢١ — ١٢٢ .

لسنوات طويلة ، فالليبيون في برقة وطرابلس لم يقرروا الدولة العثمانية على الصلح وكان من رأى السيد أحمد الشريف ، باعتباره القائد الوطنى للجهاد ، بأنه والصلح على طرفى نقيض .

ولم تتوقف تبعاً لذلك العمليات العسكرية وإنما ظل القتال قائماً يقود عملياته العسكرية عز يالمصرى ، ولكن الصعوبات أحاطت بالمجاهدين الليبيين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم ثم بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذى استخدمته إيطاليا مع الدولة العثمانية حتى تأمر الأخيرة باستدعاء بقية القوات التى ظلت تحارب فى برقة ، يضاف إلى ذلك التصدع الذى حدث فى صفوف الوطنيين حول عقد الصلح أو مواصلة القتال .

والحقيقة أن الدولة العثمانية ظلت من تاريخ توقيع معاهدة لوزان أكتوبر ١٩١٢ إلى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ مترددة بين بذل المساعدة للسوسيين أو منعها عنهم خوفاً من إثارة إيطاليا ضدها فى الحرب البلقانية . أما الشعب الليبى فى برقة وطرابلس فقد استاء استياءً بالغاً من عقد الدولة العثمانية الصلح ، وواصلت الأمة الليبية جهادها دون أن تعرف الفتور ، ووقفت الصحافة المصرية إلى جانب الشعب الليبى المجاهد ، وظهرت المقالات العنيفة التى يوجه أصحابها اللوم إلى الحكومة المصرية بأن فشل الدولة العثمانية فى الحرب يرجع إلى خطة الحياض التى فرضت على مصر ولولا ذلك لأمكن للدولة العثمانية أن ترسل جيوشها عن طريق مصر باعتبارها أصلح قاعدة لمنازلة الإيطاليين .

وعلى الرغم من استمرار الكفاح الوطنى فقد أخذت الصعوبات الشديدة تسيطر بالمجاهدين لانقطاع الموارد عنهم ، أضف إلى ذلك ما مارسته إنجلترا من ضغط حتى تصرف الحكومة المصرية عن امداد المجاهدين فى برقة بما يحتاجون إليه من أسلحة وذخائر ومؤن .

أما فى طرابلس فقد قرر الأهالى الإستفادة من منشور السلطان الملحق بمعاهدة لوزان وكلفوا الشيخ سليمان البارونى باعلان استقلال طرابلس ، ولكن الحكومة الطرابلسية الجديدة صادفت صعاباً عديدة فرأى البارونى أنه من الأفضل أن تنال طرابلس استقلالاً إدارياً داخلياً تحت سيادة إيطاليا ، ولكن انتصارات الإيطاليين قضت على هذه الفكرة .

وفي الفترة من توقيع معاهدة لوزان الى إعلان الحرب العالمية الأولى تدفق المتطوعون المصريون للقتال في صفوف المجاهدين الليبيين وعلت الحماسة بدرجة اشترط معها أن يكون المتطوع قادراً على الانفاق على نفسه ، وأن تكون نفقات سفره من جيبه الخاص ، وساهم زعماء الحركة الوطنية في مصر في الدعوة إلى القضية الليبية في داخل البلاد وخارجها ، كما جذبت القضية الليبية جماعة من أحرار الانجليز الذين تعاطفوا مع العرب والمسلمين المنود وأسسوا جمعية الهلال الأحمر الليبية على غرار جمعية الهلال الأحمر المصرية^(١) . وبرز من أحرار الانجليز المستر ولفرد بلنت الذي ساهم في مناصرة الدعوة في الاحتجاج على الغزو الإيطالي لليبيا ، وكان يؤيد الشرقيين النازلين في العاصمة البريطانية .

ويذكر المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافي أن محمد فريد زعيم الحزب الوطني في مصر حضر بعض الاجتماعات التي كان ينظمها المستر بلنت ، وحمل في خطبه التي ألقاها في الاجتماعات على السياسة الاستعمارية الأوربية ملقياً تبعة عدوان إيطاليا على جشع إنجلترا وفرنسا وسبقهما إيطاليا في الاعتداء على الشعوب الشرقية . وأن إنجلترا وفرنسا قدما لإيطاليا أسوأ مثال باحتلالها لمصر وتونس والجزائر والشروع في وضع الحماية الفرنسية على مراکش ، وأن إيطاليا تستكمل الدور الذي اتفقت دول أوروبا على ارتكابه لإخضاع بلاد الشرق عامة .

وركز الوطنيون على التضامن الإسلامي باعتبار أن وحدة شعوب الشرق هي أساس مقاومة الأطماع الأوربية وأن اعتداء إيطاليا على الدولة العثمانية ليست إلا حلقة من سلسلة حروب صليبية حديثة بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر ولن تنتهي إلا بعد أن تخضع أوروبا كل ما هو خارج عن سيطرتها^(٢) ، وكما سبق أن أوضحنا أن هذه الدعوة كانت في اعتقاد لطفي السيد تضر بالقضيتين الليبية والمصرية معاً ضرراً بليغاً لأنها تكسب الحرب شكل تعصي ديني .

Pritchard. (Evans) Sanusi of Cyrene, p. 113.

(١)

(٢) عبد الرحمن الرافي : محمد فريد ص ٢٨٠ - ٢٨٢ ، القاهرة ١٩٤١ .

C.F. Khadduri Majid, Modern Libya, A Study in Political Development, Baltimore 1963, p. 14.

وكان الشعور الوطنى لدى الوطنيين بالغا حد الانتباه لكل تطورات الحرب وتفصيلاتها ، واشترك فى العمليات العسكرية عزيز المصرى وكان قائداً فى بنغازى وكان له جهوداً كبيرة فى تنظيم حركة المقاومة ، وتزويد معسكرات المجاهدين بما يلزمها من المؤن والإمدادات ، هذا على الرغم من وقوع الخلاف بينه وبين السنوسيين ، الأمر الذى دعاه إلى الانسحاب ببعض الفرق العسكرية وترك قيادة الفرق الأخرى يشرف عليها السيد أحمد الشريف .

وإزاء الضغط الايطالى العنيف اتجه المجاهدون إلى حرب العصابات بعد إدراكهم أنه من الصعوبة مقابلة الإيطاليين فى وقائع منظمة ، وهذه الحروب كانت شديدة الفتك بالإيطاليين . وفى أوائل ١٩١٤ اعترمت القيادة الإيطالية أن تقوم بغزو مفاجئ لما بقى فى أيدي السنوسيين فى الجبل الأخضر ، وأخذ القحط يظهر فى صفوف المجاهدين لانقطاع المدد عنهم من مصر وبسبب الأوبئة التى أخذت تفتك بهم . وعند قامت الحرب العالمية الأولى وانضمت إيطاليا إلى الحلفاء رأت بريطانيا مراعاة لحليفها إيطاليا أن تقفل الطريق المصرى نهائياً . ولكن من جهة أخرى كان على إيطاليا بسبب دخولها فى الحرب إلى جانب الحلفاء أن تتحمل نفقات كبيرة ومتاعب داخلية نادت بعملها بحيث أنها رأت أن تؤجل أمر احتلال ليبيا مؤقتاً ، فسحبت كثيراً من قواتها وأصبحت سلطاتها لا تسو المراكز الرئيسية لها فى برقة وطرابلس إلا أن مجرى الحوادث لم يلبث أن تغير فى أواخر ١٩١٥ ، لأن السيد أحمد الشريف ، تحت ضغط الضباط الأتراك والألمان الذين هبطوا ليبيا فى ١٩١٥ بهدف إثارة برقة ضد الإيطاليين ، قام بحملة عسكرية على مصر كان القصد منها إرغام إنجلترا على القتال فى حدود مصر الغربية ، ومن ثم^(١) شغلها عن الحملة التركية الألمانية التى وجهت إلى قناة السويس بقيادة جمال باشا فى عام ١٩١٥ .

دكتور جمال زكريا قاسم

مصادر البحث

أولاً - وثائق غير منشورة :

سجلات وزارة الخارجية البريطانية :

- Public Record Office, F.O. No. 141, 457' 407, 177, Part LXXLX. Further correspondence respecting Egypt and Sudan.

ثانياً - وثائق منشورة :

- Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of War, 1898-1914, Vol. X, Part II, London 1938.
- Great Britain Foreign Office, Handbooks prepared under the direction of Great Britain Foreign Office, Libya, London 1920.

ثالثاً - المصادر العربية :

- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، مجلدين ، القاهرة ١٩٣٦ .
- بيشون (جان) : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا فى هذا الشرق ، تعريب محمد عزة دروزة - بيروت ١٩٤٦ .
- جرى (وزير خارجية بريطانيا ١٨٩٢/١٩١٦) : مذكرات اللورد جرى وتبعية الحرب العالمية الأولى ، تعريب على أحمد شكرى .
- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ مصر القوى ١٩٠٨/١٩١٩ .
- لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان - فى مجلدين - القاهرة ١٣٤٢ .
- محمد حسنين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية - مجلدين - القاهرة .

- محمد الطيب الأشهب : برقة العربية أمس واليوم — القاهرة ١٩٤٥ .
- محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة — القاهرة ١٩٤٨ .
- مصطفى عبد الله بعبو :
- المجلد في تاريخ لوبية — الإسكندرية ١٩٤٧ .
- دراسات في التاريخ اللوبى — القاهرة ١٩٥٧ .
- نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة — بيروت ١٩٥٠ .

رابعاً — المصادر الأوروبية :

- Barbour (Neville), A Survey of North West Africa, Second Edition, London 1962.
- Cachia (Anthony J.), Libya under the Second Ottoman Occupation, Tripoli 1944.
- Cumming (Sir Duncan), Sanusiya in the First World War, Paper submitted to the Libya in History Conference 16-23/3/1968.
- Khaduri, Majid, Modern Libya, A Study in Political Development, Baltimore 1963.
- Pritchard (Evans), Sanusi of Cyreneica, London 1944.
- Young, Egypt. London 1927.

خامساً — الموريات :

(أ) الجرائد :

- الجريدة — أحمد لطفى السيد — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .
- اللواء — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .
- المقطم — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .

(ب) المجلات :

- المنار — القاهرة — إصدار محمد رشيد رضا ، ج ١١ ، ج ١٢ / م ١٤ .

ندوات ومؤتمرات

ندوة إعادة كتابة التاريخ القومى

موجز أعدده

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

فى شهر نوفمبر ١٩٦٥ عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أربع ندوات مفتوحة حول موضوع إعادة كتابة التاريخ القومى ، وهو الموضوع الذى كان قد أثار مناقشات على صفحات بعض الجرائد والمجلات ، وفى بعض الأندية الخاصة — ومن ثم فإنه كان يشكل تياراً حقيقياً حول قضية عامة .

وحين تبنت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية هذه القضية وضعتها فى إطارها الصحيح — إذ فتحت لها الباب عن طريق المناقشات الحرة التى اشترك فيها كثير من المتخصصين كل من زاوية تخصصه العلمى ، وبذلك خرجت حصيلة المناقشات أقرب إلى الموضوعية العلمية .

حقاً لقد تكلم كثير من المتخصصين كل من زاوية تخصصه ، إلا أن المناقشات المفتوحة سرعان ما ولدت آراء أكثر اتساعاً فتحت المجال لكثير من الاقتراحات الجادة .

وقد انقسمت الندوات إلى أربع موضوعات رئيسية :

١ — التاريخ السياسى .

٢ — التاريخ الاقتصادى .

٣ — التاريخ الثقافى .

٤ — التاريخ الاجتماعى .

وفى ما يلى عرض لأهم الآراء والمقترحات التى أدلى بها المتكلمون .

التاريخ السياسى

٢٩ نوفمبر ١٩٦٥

أحمد عبد الرحيم مصطفى

حسب وجهة نظرى ينقسم التاريخ السياسى إلى ثلاثة أقسام :

- ١ — التاريخ الدبلوماسى الذى يرتبط بالعلاقات الدولية .
 - ٢ — المنظمات السياسية كالأحزاب والبرلمانات وغير ذلك من الهيئات التمثيلية .
 - ٣ — التغييرات التى تطرأ على مقدرات الحكم : كالثورات والانقلابات ، والأدوات التى تنظمها كالدساتير ... إلى غير ذلك من أشكال صور الحكم السياسى .
- وإذا وضعنا هذه النقاط فى موضع الاعتبار نجد أن إعادة كتابة التاريخ القومى تستلزم ما يلى :

١ — الاهتمام — فيما يتعلق بالتاريخ الدبلوماسى — بالمراسلات الرسمية ، مصرية وغير مصرية . وهذا يتطلب حصر المطبوع من الكتب الصغرى الفرنسية (Les Livres Jaunes) التى صدرت بشأن مصر ، وكذلك الكتب الزرقاء الانجليزية (Blue Books) ، كما يتطلب الاهتمام بتصوير الهام من الوثائق الأصلية فى العواصم الكبرى التى كانت لها صلات بمصر : كلندن وباريس وفينا وبرلين وبطرسبورج واستنبول وغير ذلك .

ومن الممكن لوزارة الخارجية المصرية أن تساعد فى هذا المجال بتبويب وفهرسة ما قد يكون لديها من الوثائق ، وكذلك السفارات المصرية فى الخارج . ومجلس الوزراء المصرى بإمكانه أيضا أن يمد يد المساعدة ، إذا كانت لديه مضابط أو جداول أعمال — وغير ذلك .

٢ — أما فيما يتعلق بالمنظمات السياسية ، كالأحزاب والبرلمانات وغير ذلك من الهيئات السياسية ، فيجب الاطلاع على ما يوجد من جداول أعمال أو مضابط

الأحزاب وتاريخ الشخصيات الحزبية والصحف الحزبية وغير الحزبية ، ثم مضابط المجالس التمثيلية المصرية والمطبوعات البرلمانية وسجلات الهيئات .

وفيما يتعلق بتقليات الحكم ، هناك أيضاً المذكرات الخاصة والأوراق الرسمية والأهلية المختلفة .

لا بد من جمع ما هو موجود من هذه المواد قبل التصدى لإعادة النظر في كتابة تاريخنا القومى بوجه عام .

محمد محمود المرومى

هل نحن بحاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا القومى ؟ إن إعادة التقويم مستمرة في تاريخ الدول وأحرى أن تكون كذلك بالنسبة إلى مصر . ثم هل نبدأ تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى أم منذ الحملة الفرنسية ؟ يجب أن نكتب تاريخ مصر منذ الفتح العثمانى لأنه فتح صفحة جديدة في تاريخ مصر تختلف عن الصفحة السابقة ، ثم هو في حد ذاته يعاصر بداية التاريخ الأوروبى الحديث . إننا لا نستطيع أن نفهم التطورات التى حدثت في مصر في القرن التاسع عشر مالم نعرف الأصول التى كانت موجودة في مصر قبل ذلك — وكتاب الجبرتى قد تعرض لأحوال مصر في العصر المملوكى . وربما كان من الصعب على المؤرخ أن يفى هذه الفترة حقها في حدود الإمكانيات المتاحة له : إذ أن جزءاً كبيراً من الوثائق المتعلقة به موجود في أرشيف القلعة ، وبعضه لم تمتد إليه يد إنسان ، ومعظمه مكتوب باللغة التركية وبخط القرمة الذى لا يمكن قراءته إلا بدراسة معينة .

ثم تساءل : كيف نكتب التاريخ ؟ هل طبقاً للموضوعات أم طبقاً للأحداث التاريخية ؟ أى طبقاً للتسلسل التاريخى ، لا بد من المزج بين الناحيتين ، مع العناية بدور الشعب المصرى .

عبد المنعم عمر

إن بلدنا مليئة بالوثائق ، ولكنها مبعثرة ، لا يمكن أن نستغنى عن الوثائق والحجج القديمة الموجودة في وزارة الأوقاف وفي محكمة نور الظلام . استطننا بالاتفاق .

مع وزارة الأوقاف أن نجعلها تستمر منذ خمس سنوات في تصوير وثائقها ، والمجموعة أو شكت أن يتم تصويرها — وكذلك الحال بالنسبة إلى محكمة نور الظلام . هناك نوع من الوثائق لم يلق الاهتمام وهو القضايا السياسية التي هي جزء هام من تاريخنا القومي . أما فيما يتعلق بالكتب الزرقاء الإنجليزية ، ففي دار الكتب مجموعتان كاملتان ويوجد منها في مكتبة وزارة الخزانة مجموعة كاملة ، لأن المستشار الإنجليزي عنى بجمعها . وفيما يتعلق بالكتب الصفراء الفرنسية ، فكلية آداب القاهرة بها عجز بسيط يمكن استكمالها ودار الكتب مجموعتها غير كاملة . لا بد من حصر ما هو موجود منها بشي الوزارات والمكتبات وخلق مجموعة متكاملة .

أصغر عزت عبد الكريم

المؤرخ وحده لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً صحيحاً إلا بمعونة الوثائقيين ، والوثائقي لا يستطيع أن يمضي في عمله إلا بمعونة المؤرخ . وجامعاتنا حتى الآن قاصرة عن استخراج المؤرخ الوثائقي أو الوثائقي المؤرخ بصفة خاصة . وأخشى أن يكون الحديث حتى الآن قد اتجه إلى هذه الناحية فقط وتغاضى عن هدف آخر ، بل في رأيي أهم ، وهو كيف نكتب تاريخنا القومي ؟ هل نبدأ تاريخنا من الفتح العثماني أو من الحملة الفرنسية ؟ وربما ذهب آخرون إلى بدئه من وقت تولية محمد علي ، على اعتبار أنه بداية لإدخال تغييرات كثيرة وخطيرة في المجتمع المصري . هل ندرس تاريخنا على شكل موضوعات أم نربطه بدواعي التسلسل التاريخي ؟ لا بد أن نضع معايير جديدة لكتابة تاريخنا على أساس التطور في بناء المجتمع المصري ، وهو يختلف عن الحياة الاجتماعية وتاريخنا السياسي ما لم نربطه تماماً بتطور بناء مجتمعنا سيكون عبارة عن سرد أحداث دون أن يكون لها مغزى .

فمن يتصدى لكتابة التاريخ السياسي عليه أن يلم بتطور بناء المجتمع ونظمه الاقتصادية .

مصطفى الساعاتي

أود أن يكون لتاريخنا القومي هو تاريخنا الشعبي . والسؤال الآن : من الذي يكتب هذا التاريخ ؟ أي جماعة أم هو عقل جبار مفكر ؟ — نحن نريد هذه العقول

التي تحلل الأحداث والأحوال الاجتماعية والبناء الاجتماعي . في التاريخ الحديث لا نستطيع الاستقراء بالشكل الذي يتوفر لنا بالنسبة إلى الحقب التاريخية الماضية — فلا نستطيع أن نستقرئ إلا من مسافات طويلة .

صالح جهودت

يجب أن نقسم العمل إلى ٣ ألوان : ١ — العمل الأول هو العمل الموسوعي العلمي القائم على دراسة جماعية سليمة . ٢ — كتب مدرسية . ٣ — كتب شعبية مستنبطة عن الدراسة .

صبرح عيسى

لو حددنا وجهة النظر التي من خلالها نرى التاريخ نحل مشكلة كتابة التاريخ . فنحن حين نعيد كتابة التاريخ القومي نقوم بذلك لأننا أصبحنا بلدًا اشتراكيًا ، لأن هناك نظام اجتماعي جديد . هناك ثلاث مدارس تناولت تاريخ مصر الحديث منذ أوائل القرن العشرين : مدرسة أخذت بوجهة نظر الاستعمار . بعد ثورة ١٩١٩ نجد أن من الواضح أن ثمة عناصر مشتركة من حيث رؤية التاريخ على أنه دور الطبقات المختلفة ودور الفئات المختلفة ، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر القوى الشعبية — ومن ثم بدأت تظهر مدرسة تاريخية ثالثة : حين نعيد كتابة التاريخ نريد أن نضع وجهة نظر جديدة — إذ أننا نمر بنظام اجتماعي جديد يستلزم تغييراً في النظرة إلى القيم والأخلاق والتاريخ والأدب والفن لا بد أن نفتح حواراً فكرياً مفتوحاً . يعطينا رؤية تاريخية جديدة من الممكن أن نقول إنها رؤية الجماهير الشعبية .

فاروق القاضي

لم نحدد مفهوم التاريخ القومي : هل هو التاريخ الحديث أم هو تاريخنا القومي على الإطلاق ؟ إن تاريخنا القومي ليس تاريخنا الحديث فقط . إن الهدف من إعادة كتابة تاريخنا القومي — فيما أظن — هو تصحيح خطأ منهجي كان الغرض والهوى من ورائه . إعادة كتابة التاريخ هي إعادة نظرة في كتابة التاريخ من وجهة نظر

الجميع ، وتنقيته من الشوائب التي علقت به نتيجة للهوى الشخصى سواء من جانب الأشخاص أم من جانب الحكام . وإبنى أئبه إلى أن التاريخ القديم والتاريخ الوسيط يحتويان على خطأ منهجى وعلى شبهات ألحقها بهما مؤرخون مغرضون . فلا بد من النظر إلى تاريخنا ككل — إذ كيف نستطيع أن نفصل واقعنا الحاضر عن ماضينا .

سليمه هزين

يجب على الأمة أن تفهم تاريخها وتحاول أن تعيد كتابته وتفهمه على أيدي القادرين على أن يعطوه الصورة الواضحة الصادقة تماماً . فالمؤرخ يدرس وثائق تكون كاذبة في حدود معينة ، يسبغ عليها لون في اتجاه معين . ومن هنا صعوبة عمل المؤرخ وتاريخ مصر الحالى لا يمكن أن ينفصل عن تاريخ مصر الماضى . إن تاريخنا يعيش معنا . هناك باستمرار عنصر الحضارة . والتاريخ القومى لا بد أن يؤخذ من أوله إلى آخره . والتاريخ يصنعه رجال مهما كان دور الطبيعة والبيئة .

التاريخ الاقتصادي

٦ ديسمبر ١٩٦٥

عبد الرزاق حسن

أساءل : لماذا نريد إعادة كتابة التاريخ ؟ وكيف نكتبه ؟ هناك مسائل كثيرة نشعر بأننا نقتدها عند فهمنا لأي مرحلة من مراحل التطور الحالي ، وهذا مما جعل المسألة بالنسبة إلينا غير واضحة تماماً . فمفهومنا العلمي الأ شىء يمكن أن ينبت تلقائياً — فأى شىء ينشأ نتيجة ظروف موضوعية وظروف عادية وعلاقات بين الشعوب بعضها وبعض . لا يوجد شىء بإمكانه أن يحرك التاريخ ، وإنما الأحداث والظروف والعلاقات المادية هى التى تقوم بهذا التحريك . هذه هى المشكلة التى واجهتنا ونحن ندرس التاريخ بالطريقة التى قيل إنها الطريقة التقليدية — وهى عبارة عن سرد لبعض أعمال فى عهد معينة وكان القاعون بها أشخاصاً معينين دون ربط هذه العلاقات بعضها ببعض . نحن لا نستطيع أن نستنتج الكثير مما كتب إلا إذا قرأنا كثيراً منه . والوثائق ليست هى التى تحدد المصادر للتاريخ ، إنما هى تمرض لنا بعض النقاط التى نستند إليها فى دراستنا — أى أنها تساعدنا على فهم الموضوع ، وليست هى وحدها التى تفهمنا الموضوع .

ثم نساءل : من أين نبدأ ، أو بمعنى آخر . ماذا نقصد بالتاريخ الحديث ؟ مصر العثمانية لا تختلف كثيراً عن العصر المملوكى السابق عليها . نحن نريد إعادة كتابة التاريخ لكى يكون باستطاعتنا أن نفسر حركة الحياة . . حركة هذا المجتمع . الدراسات التقليدية لا تقسم على أساس ملوك . . الخ ، وإنما تذكر لنا أن هناك — مثلاً — مرحلة إقطاع ومرحلة رأسمالية ومرحلة اشتراكية ، وقد ترجع إلى مراحل سابقة على الإقطاع . فإذا قلنا أننا اليوم فى مرحلة تحول اشتراكي فمعنى ذلك أن ما يمكننا تصويره أن تاريخنا الحديث يبدأ فى المرحلة التى بدأ فيها التكوين الرأسمالى للمجتمع ، ومعنى آخر تغيير مادمى فى علاقات الإنتاج أخذ يودى إلى ظهور أوضاع جديدة أوصلتنا إلى هذه المرحلة الجديدة التى نحن فيها .

متى نستطيع اعتبار مرحلة الرأسمالية تكونت عندنا؟ هل مرحلة الرأسمالية تبدأ بنشوء الملكية الخاصة أم أن الملكية الخاصة بعض مظاهرها؟ أو هل ننظر إلى الموضوع من ناحية نوع الإنتاج؟ - أو ما نسميه نحن الاقتصاديين، الإنتاج للسوق العالمي أو الإنتاج لكفاية حاجات المعيشة؟ لو أخذنا هذا في عين الاعتبار لوجدنا أن عصر محمد علي يعتبر الإنتاج للسوق. إذا كان الإنتاج الرأسمالي يعتمد على الأجور، فلنا أن نتساءل: متى بدأ نظام الأجور؟

من العيب تحديد تاريخ لبداية ونهاية مرحلة تاريخية لأن العملية متصلة.

رباصه الشيخ

هناك نقطة لا بد أن توضع موضع الاهتمام في أي دراسة تاريخية.

(أولاً) المراحل التي مر بها الاقتصاد المصري في الماضي - مراحل الرأسمالية الأولى ومراحل الإقطاع السابقة عليها والمراحل الرأسمالية التالية إلى أن نصل إلى مرحلة التطبيق - أو التحول الاشتراكي. في رأيي أن هذا الموضوع يجب أن ندرس جذوره في العصور الوسطى.

(ثانياً) علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج بطريقة علمية - وهذه لم توجه إليها دراسة كاملة وموضوعية في دراسات التاريخ بالقدر الكافي.

(ثالثاً) أرجو أن تتجه دراسة التاريخ نحو تفسير تطورنا من مرحلة إلى أخرى، وبالتالي تكون الدراسة تفسيرية تحاول توضيح العوامل التي أدت إلى التغيير مجرد حوادث التغيير نفسها.

محمد أنيس

هل الدعوة إلى إعادة تقييم تاريخ مصر الحديث دعوة مفتعلة أم هي طبيعية؟ وهذه الدعوة بطبيعة الحال تحمل إتهاماً من ناحية ونقداً من ناحية أخرى لما سبق أن كتب في تاريخ مصر الحديث. ثم لنا أن نتساءل: ما هو الجديد في أذهاننا الذي يجعلنا نستطيع أن نقوم بتاريخ مصر الحديث تقويماً جديداً؟ الجديد تابع

في حقيقة الأمر من أن ثمة تغير يحدث في المجتمع المصري الراهن — وهذا التغير يشمل جهات متعددة : سياسية واقتصادية وفكرية . هذه النظرة المتقدمة أو الثورية ليست قاصرة على التغير في الوقت الحاضر وبناء مستقبل ، ولكنها بالضرورة وحتمًا كذلك لا بد أن تنسحب على النظرة إلى الماضي إلى تراث الأمة — أي أن الموقف الجديد لا بد أن يطرح قضية مضر من الزاوية القومية . . هل كتب من الناحية العالمية ؟ إن ما كتب يكاد يقتصر على تاريخ الدولة في مصر لا تاريخ الشعب في مصر . ونحن نحدث عن الشعب المصري في تاريخه الحديث وإنما أقصد القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . فهو التاريخ الذي تمت فيه كافة التحولات التي أشار إليها الدكتور عبد الرزاق حسن والدكتور رياض الشيخ : التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية ثم أخيراً التحول إلى الاشتراكية . عملية التحول هذه تم نتيجة تفاعل قوى المجتمع — نتيجة التناقضات الموجودة في هذا المجتمع . الاستفادة في تحول الطبقات الاجتماعية . أين تاريخ الحركة الوطنية ؟ في مؤلفات الراحل لا نحس على الإطلاق بوجود علاقات إنتاج ولا قوى إنتاج . فتاريخ الشعب المصري كقوى الاجتماعية لم يكتب . ما كتب تنقصه الخلفية الاجتماعية أو ما يسمونه أحياناً بالخلفية المادية التي تعطي الحركة السياسية مفهومها .

محمدي عيسى

التاريخ السياسي تاريخ الارستقراطي ، بمعنى أنه تاريخ الحكومات . أما التاريخ الاقتصادي فهو تاريخ الرجل العادي : تاريخ الفلاح أو العامل أو صاحب رأس المال . ومنذ ظهور التاريخ الاقتصادي في أواسط القرن التاسع عشر تغير مفهوم التاريخ السياسي الذي لا بد أن يقترن بدراسة اقتصادية . هناك تاريخ محمد علي وإسماعيل ، وهناك صمت شامل عن تاريخ الشعب . أين العامل ؟ أين الفلاح ؟ ودراسة مجهود الأفراد ناقصة في تاريخنا الاقتصادي الحديث . واهتمامنا بالتاريخ الاقتصادي لا يعني أن الحرك لتاريخ هو المادة . إنما الاقتصاد أحد العوامل التي تحرك التطور التاريخي . والذي أريد أن أقوله إن السياسة قد تؤثر على الاقتصاد ، كما قد يتأثر الاقتصاد بالسياسة . كما أن الاقتصاد قد يتأثر بعوامل أخرى عديدة يجب أن ندرسها جميعاً فتكتمل صورة تاريخنا الحديث .

راشد البراوى

الذى أستطيع أن أفهمه الآن مما جرى من نقاش ومن إبداء آراء وملاحظات هو أن المراد أن يفسر التاريخ المصرى تفسيراً اقتصادياً ، وبعبارة أخرى تفسيراً مادياً . وليس معنى هذا أننا نغفل أثر النواحي الفكرية أو الدينية أو السياسية . ويجب أن يراعى فى تفسير دور الشعب ليس الشعب فى مجموعه وإنما دور الطبقات الجديدة التى تظهر من مرحلة إلى أخرى لها مصالح ولها حاجات ولها أهداف ثم يجب أن نحدد معنى كلمة «إقطاع» — هل هو نظام كالذى كان سائداً فى أوروبا فى أوائل المصور الوسطى ؟

أصبح عبدالو

يفرق بين علم الاقتصاد وبين التاريخ الاقتصادى الذى يدرس المشكلة الموجودة ويردها إلى أصولها التاريخية . فعندما نكتب التاريخ الاقتصادى لا نكتب الاقتصاد البحت . بل لابد من أن نحترم منهج التاريخ وكتابه أولاً ثم نعطيه الصورة التى نريد رسمها ضمن هذا الإطار .

أحمد عزت عبد الكريم

الآن نتساءل : كيف نكون المؤرخ الاقتصادى ؟ بعض المؤرخين الاقتصاديين دخلوا هذا الميدان من باب التاريخ ، وبعضهم دخلوه من باب الاقتصاد — ولكل من المدخلين فائدته ، ولكن له أيضاً نتائج . فالذى دخل هذا الميدان من باب التاريخ قديلب عليه التاريخ السياسى ، وإن أضاف إليه لوناً اقتصادياً ، والذى يدخله من باب الاقتصاد تكاد تقرأ فيه اقتصاداً لا تاريخاً وإن كان يلونه بلون تاريخى — وهكذا . ناحية أخرى هى ناحية الإقطاع وغيره . أخشى أن التعبيرات الاقتصادية التى يحترفها إخواننا الاقتصاديون ويبهرون بها أنظارنا وأبصارنا ، أخشى أن تظفى على تفكيرنا حتى من كثرة ترددها أننا نؤمن بها وأنها كانت موجودة عندنا . فالنظام الإقطاعى ليس نظاماً اقتصادياً فقط ، وإنما هو أيضاً نظام علاقات اجتماعية بين فلاح وبين مالك الأرض وبين الفلاح والدولة — ثم هو نظام فكرى — وقد يزول النظام وتبقى آثاره الفكرية كما حدث فى المجتمع الأوروبى وكما هو حادث حتى اليوم فى مجتمعنا

الذي نعيش فيه . الإقطاع المصري سواء في العصور الوسطى أو في العصر العثماني أو في القرن التاسع عشر ، يختلف تماماً عن الإقطاع الأوروبي — بل العكس لو تعمقنا في دراسة ناحية الزراعة والأرض في العصر العثماني لوصلنا إلى نظام يقرب من النظام الاشتراكي على اعتبار أن الملكية الفردية لم تكن موجودة في ذلك الوقت في مصر ، وأن أهل القرية كانوا يزرعون الأرض كلها ويتكسبون منها ويأخذ كل بقدر جهده وبقدر العمل الذي بذله في هذه الأرض . ملكيات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هل هي إقطاع بالمعنى الذي قرأناه في الكتب التي تحدثت عن هذا النظام في أوروبا ؟ إنني بذلك أعطي مثلاً إلى أننا لا نريد أن ننساق وراء تعبيرات حديثة ومفاهيم حديثة ونحاول جاهدين بشيء من العنف أن نطبقها على تاريخنا . لو فعلنا هذا أخشى أن يلتوى بنا القصد ولا نستطيع أن نكتب تاريخنا القومي كما حدث فعلاً .

محمد أنيس

اعتقادی الشخصي أن هناك إقطاع في مصر وإن اختلف في بعض السمات عن الإقطاع الأوروبي : علاقة الفلاح بالإقطاعي أو السيد علاقة تبعية إقطاعية ، وهذه تشترك فيها أوروبا مع مصر — هذا مع الفارق في شكل الإقطاع بين أوروبا ومصر . اتفق على ضرورة تحديد المفاهيم . ماذا نقصد بالإقطاع ، وما سماته ؟ وكذلك بالنسبة إلى الرأسمالية وغيرها من القضايا .

أحمد عبد الرحيم مصطفى

حين أقول إن شيئاً معيناً قد حدث في بلد أوروبي معين يكون هذا الشيء مصحوباً بتطور معين . بعد هذا حين أعرض لهذا الشيء أجده يعطيني فكرة سابقة عن مفهومه في بلد آخر . أريد أن نتجرد عن المفهوم للشابه ، ثم نأخذ المفهوم الأصلي مجرداً ، ثم نبحث في المادة التاريخية التي هي تعطينا التفسير لا التفسير هو الذي يجمع لنا المادة . ننظر إلى المجتمع ككل و نأخذ بنظرة واحدة على أساس قوانين ثابتة بحيث يبرز التفاعل بين شتى العوامل . قبل ذلك كنا تقتصر على البنيان الفوقي للمجتمع بمعنى الحكام الذين كانوا يصنعون التاريخ في مصر فترات طويلة ، على حين كان

الشعب سلبياً لضغوط واقعة عليه أو لفاهيم سائدة أو بسبب الجهل . ثم هل أدت مختلف الضغوط إلى تغيير المجتمع أم لا ؟ كل هذا لا يتم إلا على أساس الدراسات الدقيقة المتخصصة التفصيلية . وبدلاً من أن تكون التعميمات طليقة تقوم المادة التاريخية بإثرائها وتكشف لنا الأوضاع التي صاحبت تطور مصر في القرن للتاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين .

محمد أنيس

لو فهمنا مصطلحات كالإقطاع قبل جمع المادة يكون لذلك فائدته من حيث تعيم المادة . نحن بحاجة إلى تعريف وتحديد هذه المصطلحات

التاريخ الثقافي

١٣ ديسمبر ١٩٦٥

سهرير الفهاوى

إننا نحس في الفترة التي لم تكن فيها مستقلين لا سياسياً ولا اجتماعياً ولا اقتصادياً خضعنا لعوامل لعبت دورها في حياتنا الثقافية ، والتاريخ جزء من هذه الحياة الثقافية ، وهذه العوامل للأسف فعلت كثيراً جداً من الأفاعيل في هذا التاريخ . فنحن نجد كثيراً جداً مما نسميه استغلالاً لبعض الحقائق الصغيرة وتكبيرها وتضمينها لكي تؤدي إلى أغراض سياسية أو أغراض اقتصادية مرغوب فيها ، ثم نجد من ناحية أخرى ، أو من الناحية السلبية ، أن مواضع كثيرة من تاريخنا قد أهملت إهمالاً تاماً إما عن قصد وإما عن عدم عناية بها . تصحيح الوضع في هذه الناحية شيء أسهل نسبياً من تصحيح الوضع في الناحية الثقافية . ذلك أن أحداث التاريخ ليس من السهل أن تزيف التزييف الكامل وليس من السهل أن تهمل لأنها محفوظة مكتوبة أو مروية . أما بالنسبة للناحية الثقافية أو الناحية الفكرية فالمسألة في نظري خطيرة جداً . ذلك أننا نجر في تيار من هذه التيارات التي تصدبها إما — كما قلت — التزييف أو الاستغلال أو الإهمال دون أن ندري أننا منجرفون في هذا التيار ، دون أن نحس أن النتيجة التي نلقاها وخيمة . من السهل جداً أن نعود إلى التاريخ لنصحح الأوضاع . أما بالنسبة إلى الحضارة العربية فنحن لا نجد كتاباً عربياً أصيلاً مكتوباً يورخ للحضارة الإسلامية من وجهة نظر غير متعيزة أو متحيزة لناحية القوم الذين أنتجوا هذه الحضارة . وهذا يدل على أن عمدة جفوة كبيرة جداً في حياتنا الثقافية لم تعلق بعد لأننا صرفنا لسبب أو لآخر لكي ننظر بمنتهى التقدير إلى حضارة أخرى ولا نغنى بحضارتنا نحن إلا قلة من العلماء يعتبرون شاذين في بينهم . فهذا بالطبع يحتاج إلى كثير من الجهود لكي نصل إلى استدراك هذا الإهمال الذي حدث من قبل .

من ناحية تاريخ الفكر أو التاريخ الفنى نجد أن كتابة مثل هذا التاريخ في الواقع أصعب نوعاً من كتابة تاريخ الأحداث . تاريخ الأحداث له شيء من العرف .

والمفروض أن المؤرخ يحتاج إلى جمع المعلومات ثم إلى تركيبها بحيث تصبح كائناً حياً بمنطقها إذا شئنا ، ثم بعد ذلك ليس من شأنه أن يتدخل فيما وراء ذلك من دوافع نفسية أو دوافع فكرية — إلى غير ذلك . لكي نؤرخ للفن لا بد أن نؤرخ للحياة الثقافية — يعنى نؤرخ للتاريخ والجغرافيا والفلسفة والحياة الاجتماعية والعلوم والحياة الاقتصادية — لأن كل ذلك يتدخل في نسيج تكوين الفنان الذى يبدع شيئاً من كل هذا فإما أو يسمى شيئاً جديداً بالنسبة لكل هذا .

كوننا نزل الأدب أو نزل الفن ونؤرخه كما كان يفعل القدماء مسألة أدت كثير جداً من النتائج السيئة بالنسبة للأدب العربى بالذات . كان لا بد من

١ . نفا المجتمع والشخصية الأدبية والشخصية الفنية .

ثم مرت على الأمة العربية بالذات عوامل جعلت لها نوعاً من الازدواج أو الانفصام بين فنها : ما يسمى الفن الرسمى والفن الشعبى . ونحن لم نكتب تاريخنا الفنى أو الأدبى بعد كتابة تجعل الحاضر يتصل بالماضى ويتطلع إلى المستقبل — كمثل كتابة تاريخية فى أى موضوع من الموضوعات . هذه الفجوة بين الماضى والحاضر هى التى تسربت منها الدراسات والمذاهب والأنماط الغربية .

للروائع الشعبية وظيفتان : فهى تؤرخ وجدان الشعب فى الفترة التى لم يستطع فيها أن يعبر التعبير الرسمى ، ثم هى منابع للوحى يستوحىها وجدان الشعب .

كذلك من الخطر أن تنجبه إلى تاريخنا الثقافى ونحاول أن نأخذ من الغرب فى هذه الطريقة أو فى هذه المعاملة نوع من أنواع القواعد أو نوع من أنواع الدليل ونطبقه تطبيقاً تاماً على حياتنا . فمن الخطأ أخذ القواعد التى يؤرخ بها الغرب ثقافته .

وكتابة تاريخنا الثقافى فى الواقع تحتاج إلى جهود جماعية — كل عصر من عصور هذا التاريخ لا بد له من متخصصين ولا بد أن يكون بينهم نوع من الروابط ونوع من الاكتفاء الفكرى . يضاف إلى هذا أننى لا أستطيع أن أدرس الأدب وحده فى فضاء — أننى أطلب بأن ندرس الأدب ضمن الثقافة بوجه عام .

والثقافة تدخل فيها التاريخ والجغرافيا والاقتصاد ، ومن باب أولى أن تدخل

فيها الفنون الأخرى التي لا يمكن أن يفصل عنها الأدب . لا يمكن أن نفهم شعر بلد دون أن ندرس موسيقاها — فالعرب القدامى حين دونوا شعرهم دونوه على أساس الأغاني .

عبد الرحمن زكي

الواقع أن التزييف التاريخي قديم . وعبارة إعادة كتابة التاريخ تثير بعض السخط . أحياناً يظن البعض أن التاريخ ستعاد كتابته من جديد . الواقع أن تفسير هذه العبارة واضح — فالمؤرخون الذين كتبوا التاريخ في القرن التاسع أو العاشر قد كتبوه بروح العصر الذي عاشوه . والمؤرخون المحدثون من يكتبون تاريخ المصور الفاتية لا شك سيكتبون بروح اليوم . هناك أفكار جديدة دخلت على المجتمع ، وتطورت كتابة التاريخ وأساليبه وتعددت مناهجه . ولهذا اقترح تكوين لجان التخصصين لبحث أو دراسة ما طرأ على الموسيقى مثلاً في القرن التاسع وهل تأثرت بالموسيقى التركية مثلاً خلال القرون من السادس عشر إلى الثاني عشر . هناك أيضاً ما طرأ على الملابس — وهذا الميدان يكاد يكون ضحلاً جداً وكذلك الأغاني والعادات ... وهناك موضوعات كثيرة لم يكتب عنها شيء قط بطريقة علمية موضوعية في تاريخنا الثقافي .

محمود النحاس

تكلمت الدكتور سهير عن وحدة الفنون وكتابة تاريخ الثقافة كوحدة متماسكة ومتماثلة يؤثر بعض أجزائها على البعض الآخر . ثم عرضت عرضاً خفيفاً لدخول بعض المدارس الدخيلة علينا كالتكعيبية والتأثيرية — وما إلى ذلك من المدارس الغربية . الواقع إننا من الأمم القليلة التي استوحت فنونها من مصادر مختلفة : الفراعنة العرب ، أوروبا . واللغة العربية مرت بمصور الضمحلل منذ سقوط الدولة العباسية ، فأراد المجددون المحدثون أن يعودوا إلى النبع الأول الصافي فأصبحوا يتمسكون بالأساليب الكلاسيكية الأولية .

وعن قصد جعلنا فنوننا تنبع من منابع أخرى ومصادر دخيلة علينا ، لأننا لم تكن لدينا لامدرسة للتصوير ولا مدرسة للنحت . فتابعنا أساتذتنا الأوروبيين في مدارسهم

التي سادت في بلادهم وكانت لها علاقة بكل تطورات مجتمعاتهم . فعلى حين أخذنا الفنون التشكيلية من نبع بعيد أخذنا أدبنا من نبع قومي خالص . أما الموسيقى فكانت معدومة لدينا . موسيقانا ليست عربية أو فرعونية ، بل فارسية اجاءتنا عن طريق استانبول ... الخ .

سهر الفلمأوى

لا أستطيع أن أفهم تاريخنا يكتب من غير دراسة الحوافز والدوافع التي أدت إلى إحدائه . فلا يستطيع أحد — مثلاً — أن يدرس ثورة عرابي دون أن يدرس عبد الله النديم المحرك الفكري لهذه الثورة .

فاروق القاضى

الحق أن الحديث في موضوع الثقافة ذو شجون كما يقولون . فالخلافات بين النقاد وأصحاب المذاهب كثيرة ، وهذا من الممكن أن يفرقنا في كثير من التفاصيل التي تصرفنا عن السؤال الأساسى ، وهو كيف نكتب تاريخنا الثقافى ؟ إن ما حدث من خطأ بهذا الصدد ليس ناتجاً عن تزييف أو إهمال ، وإنما هو ناتج عن خطأ منهجى — فما زلنا ندرس الأدب بطريقة مدرسية كالتى اتبعها أسلافنا القدامى . يتقصنا إدخال العامل النفسى — مثلاً — فى حياة الشاعر أو الأديب ، وهذا مرتبط بعامل البيئة التى أنتجت الأديب .

سهر الفلمأوى

العامل النفسى جديد ولا يصدق على العباقرة الذين يخاصمون عصرهم — المبقرى هو الذى يريد من عصره تغييراً جذرياً . الفنانون عادة هم الطلائع التى تؤدى إلى التغيير .

محمود اسماعيل هبى الرازق

فى حديثنا عن المصادر والوثائق أهملنا الرواية الشفهية — شاهد العيان .

محمد أنيس

الفرد مهما كان ليس معزولاً عن عصره وإنما هو نتاج الظروف الاجتماعية ،
الظروف المادية والسياسية التي تحيط به .

أحمد عزت عبد الكريم

قد يسبق الإنسان عصره .

محمد أنيس

أنا أقول يسبق عصره بمعنى أن ما يثله من اتجاه فكري موجود في عصره .
ولكن على شكل تيار خفي مستمر مقيض له أن يكبر إلا إذا أجهض .

أحمد عزت عبد الكريم

لا توجد بداية من عدم .

سهر القلماوي

مسألة التاريخ شيء ومسألة الأدب شيء . الفنان بالنسبة إلى عصره يريد الأفضل
فيسخطه ما هو واقع . الفنان وهو يخلق مؤمن بأنه يخلق لأنه يوجد شيئاً جديداً .
ما لم يؤمن بهذا لا ينتج فناً ، هو منغمس في مجتمعه أشد الانغماس ولكنه غير راض
إذ لو رضى لا ينتج فناً ، بل يكتب كتاباً علمياً . لا بد أن يكون ثمة نوع من عدم
الرضى .

أحمد عزت عبد الكريم

كيف ندخل تاريخنا الثقافي في تاريخنا القومي ؟ مؤرخ التاريخ العام لا يجب أن
يهم فقط بالأحداث السياسية أو الاقتصادية أو غيرها . وإنما ينبغي أيضاً أن يتجه إلى
التطور الفكري الذي حدث في الأمة في العصر الذي يؤرخ له ، وكيف أن هذا التطور
الفكري كان إما لتطور سياسي وإما كان باعثاً على تطور سياسي . الناحية الأخرى

في دراسة تاريخنا الثقافي القومي أن نكتب تاريخنا الفكري العام . ولا أعتقد أن هناك محاولة قد بذلت حتى اليوم لكتابة تاريخنا الفكري الحديث . وقد تساءل من تساءل عن النهج الذي سنسير عليه وما هو التقسيم . هل هناك خطوط تكون مراحل يمكن أن نجعلها محطات أو معالم طريق في تاريخنا الفكري ، في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مرت مصر بمرحلة لا أقول ضعف أو ركود كما هو شائع ، وإنما يمكن أن أقول إن المصريين فكرياً عاشوا في هذه الفترة على نتاجهم وحده — لم يتصلوا بنتاج غيرهم من الأمم وإنما عاشوا على ما ينتجونه من علم وأدب وشعر .. الخ ثم تأتي بعد هذا مرحلة الاتصال بالغرب وهي الأخرى من الممكن أن تنقسم إلى مراحل : مرحلة الاضطراب الفكري نتيجة لاهتزاز المفاهيم التي عاشوا عليها مدة طويلة وغزوا مفاهيم جديدة لهم . ويمكن أن نقول . تأتي بعد هذا مرحلة الثورة الفكرية الرومانسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عصر الثورة الفكرية التي واكبت الثورة السياسية . ثم تلو ذلك الواقعية في الأدب والفن .

إلى جانب هذا لابد أن نكتب تاريخنا القومي الثقافي متفرقاً — أى لابد لمؤرخ الأدب أن يكتب الأدب المصري الحديث ، ومؤرخ الموسيقى أن يكتب الموسيقى المصرية ومؤرخ القصة والمسرح والصحافة والتعليم ... الخ .

التاريخ الاجتماعى

٢١ ديسمبر ١٩٦٥

حسن الساعانى

حين نتحدث عن تاريخنا القومى الاجتماعى إنما نطرق ميداناً يمتاز بالسهولة والصعوبة . يمتاز بالسهولة لأنه يتناول الحياة الاجتماعية الجارية فى مختلف العصور . كذلك هو صعب لأنه ليس من السهل أن نتناول بالدراسة العلمية المنهجية تلك الحياة الجارية التى نعيشها يوماً بعد يوم — كما يقولون أن لكتابة التاريخ تاريخ . ورأيت أن أتناول موضوعاً لم يتناوله أحد فى الندوات السابقة وهو : من يكتب تاريخنا ومى ؟ إننى أتناول ك من ثلاثة نواحي :

أولاً — المجال الجغرافى : قيل اننا حينما نكتب تاريخنا القومى من المستحسن أن نكتب أيضاً عن الدول العربية ولا نقصر الحديث على المجتمع العربى المصرى . ولكنى أرى أن تكون كتابتنا لتاريخنا القومى محصورة فى نطاق الجمهورية العربية المتحدة وترك المجتمعات الأخرى لأبنائها .

ثانياً — المجال البشرى : تناول جميع قطاعات الشعب .

ثالثاً — المجال الزمنى : أميل إلى كتابة تاريخنا القومى الحديث ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . لأننى أرى أن الحملة الفرنسية هى معلم من معالم تاريخنا القومى ليس فقط فضلاً وجهاداً ، وإنما هى أيضاً تمتاز بأنها متلازمة مع نهاية قرن وبداية قرن حدثت فيه هزة ملموسة فى مجتمعا . ثم يلى ذلك أن يكون وصفاً للحياة الاجتماعية فى شكل مسح شامل يتناول الميادين الآتية : الأسرة وما يرتبط بها من عادات وتقاليد وقيم تتبلور حول مراحل تكوينها . ثم نتناول بعد ذلك النشاط الاقتصادى : الإنتاج والعمل والتجمعات العمالية فى شكل نقابات أو اتحادات والأجور والسلع والأسعار وكل ما يتعلق بذلك مما يؤثر — أو كان يؤثر — فى حياتنا الاجتماعية . ثم بعد ذلك الثقافة والتعليم ثم الترويج والنشاط الدينى ثم الصحة ثم

الأمان الاجتماعى ثم الأمن العام . ثم لابد أيضاً أن تكون لدينا صورة واضحة لتوزيع السكان فى أنحاء الجمهورية سكان الريف وسكان الحضر وأن تكون صورة واضحة عن طريق الدراسة الواقعية المتعمقة عن الحياة كما كانت تجرى فى القرى والمراكز والبنادر والمدن .

الآن : من يكتب تاريخنا القومى ؟ الذين يستطيعون ذلك لا يستطيعون تماماً لعدم تفرغهم ، أما الذين لديهم المعرفة والذين نالوا قسطاً منها يمكنهم من أن يكتبوا لا يكتبون إلا تحت إشراف هؤلاء الأساتذة . لابد من الكتابة على طريقة الأستاذ ومساعدته . نريد أن نسجل الحياة والأحداث لنرى كيف كنا وكيف أصبحنا . إننا الآن نسير فى تنمية اجتماعية واقتصادية سريعة لها أصولها وتسير فى مراحلها ولا بد أن نعرف تاريخنا القومى الاجتماعى الحديث لكي نفهم ليس فقط منابع أفكارنا بل أيضاً قيمنا . المقارنة تعطينا ثقة بالنفس لأننا فعلاً حققنا تقدماً كبيراً .

وهناك موضوع بالغ الأهمية هو الخصائص القومية لأى شعب من الشعوب . كيف اكتسبنا صفاتنا أو خصائصنا القومية . نريد أن نتمسك ببعضها ونتخلص من بعضها الآخر لكي نحقق التنمية السريعة فى إنتاجنا ولكي نحقق مجتمع الرقابة . وأخيراً فإذا كنا قد درسنا تاريخنا القومى الاجتماعى دراسة منهجية سليمة فليس من المستبعد على الباحثين أن يخرجوا من هذه الدراسة بنظرية اجتماعية أو بنظريات اجتماعية يمكن أن تكون عربية مصرية سليمة .

حكمت أبو زيد

إذا كان الدكتور الساعاتى ينظر إلى كتاب التاريخ القومى الاجتماعى من وجهة نظر عالم علم الاجتماع فأنا أريد أن أدمج الناحيتين : عالم علم التاريخ وعالم علم الاجتماع . لابد أن نبدأ بتعريف لمدلول كلمة تاريخ ثم ما هو التاريخ الاجتماعى ؟ ثم ما هى الوظائف القومية للتاريخ ؟ ومتى ظهرت هذه الوظيفة القومية للتاريخ ؟ وما هى المجالات الاجتماعية التى يجب أن ندرسها فى هذه الحقبة من تاريخنا ؟

الواقع أن تتابع الحوادث الزمنية فى شكل مطرد من التغييرات يعنى وجود علامة زمنية ، بمعنى أن الزمن هو الركن الأساسى فى التاريخ الاجتماعى أو السياسى ،

أو الاقتصادي أو تاريخ الفنون .. الخ . فهذا يعطينا فكرة العلاقة السببية — علاقة السبب والنتيجة ، وبذلك نجد عندنا حركة التطور الحضارى المختلفة . وما التاريخ الاجتماعى إلا تفسير لتطور المدنية والحضارة ، ومن هنا لا بد من أن نبدأ بقدماء المصريين . ومهمة المؤرخ استخدام النقد الموضوعى والنقد الذاتى بالاستمئانة بالنظريات المختلفة التى نستمدّها من علم الاجتماع . ونسق هذه التفسيرات متى تظهر الحقائق مرتبطة بعضها ببعض وتظهر كسلسلة متصلة الحلقات وإلا تعتبر حقائق منفصلة بعضها عن بعض .

لا بد أن أفرق بين التاريخ وعلم الاجتماع . يتفق المؤرخ مع عالم الاجتماع فى استبعاد فكرة العناية الإلهية — فكرة المعجزات التى كانت سائدة فى العصور الوسطى . فعلم الاجتماع يتناول سلوك الأفراد فى ظواهرهم الاجتماعية المختلفة ومشكلاتهم المعاصرة ، كما يتناولها تناولاً موضوعياً إحصائياً . وقد حاول التاريخ الاستفادة من قوانين وقواعد علم الاجتماع فى تفسيره للأحداث التاريخية ، ولكن ثمة فارق بين التاريخ وعلم الاجتماع — فعلم الاجتماع يحاول الوصول إلى قوانين عامة يستخدمها لتفسير حاضر الإنسان ومستقبله ، أى يتنبأ بما سيحدث . ونحن لا نؤمن بأن التاريخ يعيد نفسه لأن الظروف تختلف اختلافاً كبيراً ، ولكل ظرف ولكل عصر صورته الجديدة . أما التاريخ فيحاول تلمس أسباب الحوادث فى عملية التطور التاريخى للمدنية ، بمعنى أنه يصر على الاحتفاظ بالإطار الزمنى الذى يعتبر أيضاً إطاراً للتاريخ السياسى . كما أن التاريخ يصر على الاحتفاظ بالدور الذى تلعبه الشخصيات التاريخية فى بناء المجتمعات والحضارات المختلفة ، وبهذا يحتفظ التاريخ بعالمه وبصفته الواقعية التى تسمى « الآكتواليته » أو الصفة الحالية المميزة له .

فتفسير علم الاجتماع لعملية الحضارة المتطورة يعتمد أساساً على نظرية التطور من الزاوية التى تسلط الضوء على الدور الذى يلعبه الفرد فى الحياة ، كما يهتم بتحديد أثر القوى الطبيعية على تطور حياة الإنسان فى الماضى والحاضر . لا بد للمؤرخ إذن من الاحتفاظ بمستويات العصر وهنا يختلف المؤرخ عن عالم الاجتماع فى حكمه على التطورات — فهو يربطها زمنياً ومكانياً بالوقائع أو الأحداث التاريخية . ولا يمكن أن نختلف فى أن ثمة بطولات ، ولست أريد تأكيد نظرية الرجل

العظيم ، إنما الذي لا ينكر أن هناك أفراداً غيروا مجرى التاريخ فأدخلوا نظاماً اجتماعية جديدة وأعطوا سلوكية مختلفة وتشريعات اجتماعية ودستورية. أما عن الحتمية الجغرافية فهي كما قلت من العالم المهمة في التاريخ الاجتماعي ، ولكن ليس لنا أن نخضع للحتمية الجغرافية لأن إرادة الشعب هنا هي المتحركة .

محمد مصطفى زيادة

التاريخ ليس مواعظ ، وإنما هو خبرة وتجربة ويقظة هي التي يجمعها اليوم : التوعية : توعية الفرد فيما يختص بماضيه وحاضره ومستقبله .

ابراهيم أبوب

الكتابة في تاريخ العالم العربي تتطلب تضامراً أو مسؤولية جماعية من كل الدول العربية للبدء في هذا المشروع الضخم . كيف يمكن أن نجد طريقنا في هذا الخضم الواسع ؟ عنوان الندوة : كيف نكتب تاريخنا القومي للمصري : الفلاحون ، العمال ، المثقفون ، الرأسمالية الوطنية . أريد أن نأخذ كل قطاع على حدة عند الدراسة .

صفي رياصره

ما الخط الذي يفصل بين التاريخ عن الأدب ؟

محمد مصطفى زيادة

الخط بين الأديب والمؤرخ ، على دفته ، مفهوم . الأديب يكتب ألفاظاً حلوة معسولة ، فيضحى بالحقيقة من أجل الأسلوب والعكس : في التاريخ يضحى بالأسلوب من أجل الحقيقة .

حمود عوده

أحب أن أثير نقطتين هامتين : مشكلة التزييف التاريخي ، ومشكلة التنظير في التاريخ أو صياغة نظريات عامة عن تاريخ المجتمع . أما المشكلة الأولى فقد

اكتشف علاجها ابن خلدون في منهجه التاريخي في تحقيق الأحداث التي سجلها المؤرخون السابقون عليه — هذه الأحداث وضع لها قواعد وقوانين نستطيع بواسطتها أن نقيس مدى صدق الحقيقة التاريخية، وأهمها قياس الأحداث التاريخية بطبيعة العمران. ومن ثم وجب علينا في دراسة التاريخ أن نتحرى الدقة في اختيار الحقيقة أو في اختيار الحادثة التي نسجلها تسجيلاً علمياً. وهنا أقول إن ابن خلدون لم يكتشف علم الاجتماع من خلال بحثه في التاريخ، وإنما هو اكتشف علم التاريخ من خلال تطبيقه لمنهج علم الاجتماع.

والمشكلة الثانية هي مشكلة التنظير في التاريخ أو تكوين نظريات معينة. في الواقع لهذه المشكلة خطورتها بقدر ما بها من فائدة. أما فائدتها فتتأخر في مدنا بقدرة وطاقة على تفسير الأحداث التاريخية وربطها جرياً وراء تفسير الحضارة الإنسانية العامة. أما خطورتها فهي تقودنا إلى نزعة دوجماتيكية توكيدية نسير بعقضاها موجهين سلفاً بناء على افتراضات سابقة مر بها الإنسان، ولا يصح لنا أن نتنبأ بأن هذه الخبرات نفسها سوف يمر بها الإنسان في وقت ما. فلا بد أن نحتاط لهذا الأمر، وألا نأخذ هذه النظريات التاريخية كحجة مؤكدة فلا بد أن نترك مجالاً من الوقت لحرية الإنسان وفكره.

محمود زهمي

ما دور دراسات التاريخ القومي في كتابة التاريخ؟ الحقيقة للآن منذ إنشاء المركز لم يتم هذا المركز بالدور الرئيسي الذي أنشئ من أجله. حين دعا الدكتور محمد أنيس إلى إقامة مركز دراسات التاريخ القومي كان يرى أن يكون هذا المركز عبارة عن مركز للأبحاث التي تجري فيه. ولكن إذا كان قد اتضح في الندوات السابقة أن لإعادة كتابة تاريخنا القومي أهمية كبرى، فلاأسف لم يعط مركز دراسات التاريخ القومي الإمكانيات التي تستطيع بها أن يقوم بالدور المنوط به.

أحمد عزت عبد الكريم

لي عدة ملاحظات على بعض الأقوال التي ذكرت في هذه الندوة، ثم كلمة عامة عن الموضوع. أولاً نحن لا ندعى حين نكتب تاريخنا القومي الحديث أننا نقفل باب

الكتابة في المصور الأخرى من تاريخنا القومي . وإذا كانت العناية قد اتجهت قبل
أى شيء لتاريخنا الحديث ، فإنما يرجع هذا إلى أسباب أكثرها ما شاع من اعتقاد
بأن تاريخنا الحديث لم ينل العناية الكافية من حيث صحة الوقائع في بعض الأحيان
أو قصور الوقائع في أحيان أخرى . فمن المسلم به أن تاريخنا القومي يمتد من عصور
التاريخ القديمة أو ما قبل التاريخ . ولكن استقر الرأي على أن تتجه العناية أولاً
إلى العصر الحديث ولا يمنع هذا من أن تشجع جهود المتخصصين في نواحي التاريخ
الأخرى . ثم هناك ناحية أخرى ، فإننا عندما نكتب تاريخ مصر الحديث لا نقصد
بماتاً أن نفضل تاريخنا أو نفضل بلدنا عن المجموعة العربية التي هي جزء منها
ولا عن المجموعة الأفريقية ، ولا المجموعة الإسلامية . ولا المجموعة العالمية التي
نحن أعضاء فيها . وهناك نقطة أود أن أشير إليها أننا عندما نتكلم عن التاريخ
الاجتماعي أو تاريخ المجتمع المصري فإننا لا نقصد فقط عادات المصريين وتقاليدهم
وحياة الأسرة . إلخ . وإنما أقصد كيف تكون المجتمع المصري على مر العصور حتى
وصل إلى ما هو عليه اليوم . فإذا بدأنا بما هو قائم اليوم ثم عدنا إلى الوراء عصر
بعد آخر ، ربما اتضحت الصورة أكثر . أعتمد لو استطعنا أن نتتبع الفئات المختلفة
أو الطبقات المختلفة التي يتكون منها المجتمع المصري وكان هذا أقرب ما يكون إلى
ما نسميه التاريخ الاجتماعي .

مثلا في أوائل القرن التاسع عشر ، وهو البداية التي اختارها الدكتور الساعاني
لتاريخ مصر الحديث ، إذا نظرنا إلى المجتمع المصري حينئذ نجد أنه يتكون من عدة
عناصر : المجتمع الريفي ، مجتمع المدينة . ثم هناك طبقات أو طوائف حاكمة
وطوائف محكومة . طوائف مستقلة وطوائف محكومة تقوم بأوجه النشاط الاقتصادي
في البلاد من زراعة أو صناعة أو حرف — فكيف كانت العلاقة بين هذه الطوائف ؟
ثم كيف كانت علاقاتها بالحكومة ؟ وما هي الحكومة في ذلك الوقت ؟ الفرد في
ذلك الوقت كان هموره بالانتماء إلى طائفة أخرى أقوى من شعوره بالانتماء إلى الأمة ،
وكانت علاقته بطائفته أقوى من علاقته بأفراد الطوائف الأخرى . حكمت كل طائفة
نفسها بنفسها تقريباً ، وكان لهذا أثره في تماسك المجتمع المصري — حدثت تداخلات
بين هذه الطوائف بعضها وبعض ، وبدأت تدوب الحواجز . . هذه ظاهرة اجتماعية
هامية جداً كان لها تأثير في النواحي السياسية والاقتصادية وفي نواحي الحكم .

والعوامل التي حركت المجتمع المصري في القرن التاسع عشر هي : التعليم الحديث ثم تأسيس الجيش القومي ، ونمو فكرة الدولة التي أصبح لها مفهوم ووظيفة واختصاصات مختلفة بحيث لا يمكن للفرد أن يولى وجهه أن يتخلص بتاتا من سيطرة الدولة عليه في كل مراحل حياته. فمهمة المؤرخ الاجتماعي في الدراسة الأولى أن يصور لنا العوامل الحديثة في المجتمع وكان لها أثرها في إعادة تشكيل المجتمع المصري في القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر .

دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى